المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

مدخل إلى اللسانيات

برتيل مالبرج

ترجمة

السيد عبد الظاهر

مراجعة وتقديم

صبرى التهامى

1478

مدخل إلى اللسانيات

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1478
- مدخل إلى اللسانيات
- برتيل مالبرج
- السيد عبد الظاهر
- صبري التهامي
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

Introducción A La Lingüística

Por: Bertil Malmberg

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

مدخل إلى اللسانيات

تأليـــف : برتيل مالبرج

ترجمـــة : السيد عبد الظاهر

مراجعة وتقديم: صبرى التهامى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مالبرج ، برتيل .
مدخل إلى اللسانيات/تأليف برتيل مالبرج؛ ترجمة: السيد عبد الظاهر؛
مراجعة ، صبرى التهامى.
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٣٥٦ ص ، ٢٤ سم
١ - اللغات
(أ) عبد الظاهر ، السيد (مترجم)
(ب) التهامى ، صبرى (مراجع)
(جـ) العنوان ٤٠٠

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٢٧٣٦
الترقيم الدولى 978-977-479-753-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المراجع 7

تقديم 19

مقدمة المؤلف 27

الفصل الأول : اللغة وظيفة إنسانية 31

الفصل الثاني : اللغة السمعية 63

الفصل الثالث : اللغة البصرية والإشارية 83

الفصل الرابع : المحتوى البنيوي 99

الفصل الخامس : المعنى EL sentido 129

الفصل السادس : الاحتمال والتواتر 145

الفصل السابع : أبعاد اللغة 159

الفصل الثامن : اللغة وظيفة سياسية واجتماعية 187

الفصل التاسع : اللغة القومية – اللغة والحضارة – اللغة ورؤية العالم 209

الفصل العاشر : تلاقي واختلاط اللغات 225

الفصل الحادي عشر : مفهوم الأسلوب والوظائف الرمزية للغة 255

الفصل الثاني عشر : لغات العالم وتصنيفها 269

الفصل الثالث عشر : أصل وميلاد اللغة - الأصول البيولوجية – التطور والمفاضلة – الإبداع 291

الفصل الرابع عشر : تطبيقات علم اللسانيات في تعليم اللغات وفي إعادة التأهيل 315

الفصل الخامس عشر : موجز مبسط عن تاريخ علم اللسانيات 327

تقديم المراجع

انتهيت من مراجعة هذا الكتاب الذى ترجمه أخى العزيز الأستاذ الدكتور سيد عبد الظاهر ولم يمهله القدر كي يراه كتابًا من بين الكتب التي ترجمها رحمه الله؛ فقد اختطفه الموت في ريعان شبابه إثر حادث أليم . فالله العلى القدير نسأل له الرحمة وجنة الرضوان، ولنا ولآله وذويه ومحبيه الصبر والسلوان .

أمَّا عن الكتاب وهو "بعنوان مدخل إلى اللسانيات" فهو يتألَّف من خمسة عشر فصلاً صال وجال فيه مؤلفه بريتل مالبرج بين ربوع اللغات المختلفة الشرقية والغربية وقدَّم لنا كتابًا يتَّسم بالدقة البالغة والتَّمحيص والبحث العلمي لكي يقدِّم للمهتمين بالدراسات اللغوية كتابًا هو درة الكتب في مجاله وجوهرة ثمينة بين أقرانه .

إن التغيير والتطور هما سنة الحياة . لقد بدأ الإنسان يُسجِّل معلوماته ويدوِّن ملاحظاته على سعف النخيل والرَّق والجلود وقبل ذلك كان تعلمه عن طريق المشافهة . وهانحن الآن قد وصلنا إلى ذروة التطور في عصرنا فأصبحت المعرفة بلا حدود . فهناك البث الإذاعي والأسطوانات المدمجة والأشرطة الممغنطة ناهيك عن شبكة المعلومات الدولية المسمَّاة بالإنترنت التي من خلالها يستطيع الباحث عن المعرفة في شتى مجالاتها وتنوع تخصصاتها الاطلاع على ما يريد لينهل بشهية لا تشبع وبنهم لا يضارع من مختلف صنوف المعرفة في جميع المجالات ودون عناء أو نصب؛ فالأمر ميسورٌ للغاية بالدخول على فرع المعرفة الذي تتوق إليه نفسه .

يُعتبر علم اللسانيات " كما يقول مؤلف الكتاب فرعًا في غاية الدِّقة التَّخصصية . ويرجع الفضل الأوَّل في ذلك إلى فرديناند دي سوسير FERDINAND DE SAUSSURE

الذي أضفى على هذا العلم صبغةً قانونيةً بما قدَّمه من أطروحات في مجال البنيوية تُعدُّ الأولى من نوعها . وأخذ هذا العلم يتطور ويتنامى بواسطة مدارس متنوِّعة واتجاهات متعدِّدة متغايرة . وفي مطلع عصر البنيوية ظهرت مناهج التحليل اللغوي والمقارنات اللغوية وعلم اللهجات والشكلية والتأويل والتفكيكية وعلم الصوتيات الوظيفي LA FONOLOGÍA والقواعد التوليدية (الشَّجرية) LA GRAMÁTICA GENERATIVA .

ومما لا شك فيه أنَّ الإنسان حيوان ناطق قد ميزَّه الله وكرَّمه على سائر المخلوقات بخاصية النطق . فالحيوانات تتفاهم فيما بينها، ولكن هذا يتم بلغة غير منطوقة . وأصوات الحيوانات متشابهة ومن المستحيل كتابتها لأنَّها ليست مزوَّدة بجهاز النطق الذي اختص الله به الإنسان من بين سائر مخلوقاته وهذا تكريم لا يضارعه تكريمٌ .

والمؤلِّف في الكتاب الذي بين أيدينا لم يغفل بأي حالٍ من الأحوال الجانب التَّاريخي والقضايا التاريخية للغات وأصلها وعلاقاتها الوراثية والنوعية في تصنيف بديع للغات العالم، هذا إلى جانب ميلاد الكفاءة اللغوية لدى الطِّفل وأصولها العصبية من الناحية البيولوجية . ولم يغفل الكاتب أيضًا موضوعًا في غاية الأهمية ألا وهو تاريخ اللغة نفسها حيث خصَّص له الفصل الأخير من هذا الكتاب (أعني الفصل الخامس عشر) .

فاللغات المختلفة وإن كانت تلتقي في بعض الأمور المشتركة إلاَّ أنَّها تختلف فيما بينها في أمور جوهرية، فعلى سبيل المثال نجد أنَّ اللغة اللاتينية تميِّز تمييزًا واضحًا بين الماضي البسيط (الذي يُعبِّر عن حدثٍ محدَّد) والماضي المستمر (الذي يدل على حدث مستمر بغضِّ النَّظر عن بدايته أو نهايته . ومع ذلك فإنَّ اللغات الجرمانية تجهل هذا الفارق تمامًا . هناك مثال آخر نستمده من الإنجليزية والإسبانية من ناحية ، ثم من الألمانية والفرنسية من ناحية أخرى . فبالنِّسبة للإنجليزية والإسبانية فهما تميِّزان بين الحدث المتطوِّر ESTOY CANTAND Y I AM SINGING أو أصل الغناء وبين الحدث

غير المتطور CANTO OY I SING أغنّي . أما فيما يتعلّق بالفرنسية والألمانية فلا علم لهما بمثل هذه المرتبة النحوية ففي الألمانية تقول : ICH SINGE وفي الفرنسية JE CHANTE والتعبير عن الصيغة التطويرية للحدث تستخدم الفرنسية ما يعرف بالتحوير اللغوي JE SUIS EN TRAIN DE CHANTER وعليه فالتعبير عن الصيغة التطويرية أمرٌ لازم ومحتّم في الإسبانية والإنجليزية أمّا في الفرنسية فهو اختياري كما رأينا في الأمثلة المتقدّمة .

تلعب أدوات التعريف والتنكير دورًا كبيرًا في اللغة الفرنسية وكذلك في اللغات الغربية علمًا بأنّ اللغة اللاتينية لم تكن لديها هذه الأدوات كما أنّ لغات كثيرة أخـرى في المحيط الغربي لا تعرف سبيلاً إلى استخدام هذه الأدوات منها : السلافية أو الصقلبية والفنلندية والمجرية . وتتميّز اللغة الإسبانية بأنّها تعرف هذه الأدوات فتقول UNA CHICA , UN CHICO فتى وفتاة و EL JOVEN الشاب و LA JOVEN الشّابة .

ومن ناحية أخرى لا تستخدم لغات كثيرة الفارق النوعي الذي تستخدمه اللغة الإسبانية على سبيل المثال HERMANO - HERMANA (أخ وأخت) وإنْ كانت اللغة القشتالية لا تفرّق بين الخال والعم إلا بإضافة صفة PATERNO و MATERNO فنقول MATERNO TÍO, PATERNO TIO العم والخال على التّرتيب .

ثم ننتقل إلى عملية الكلام أو النُّطق وهي في غاية التّعقيد وتتكوّن من.

١ – الحافز (بداية الكلام) أي الاعتبار الخارج عن الإطار اللغوي .

٢ – البنية اللغوية لمضمون يمكن نقله (العملية التي ينبغي أنْ تأتي مسبوقةً بطريقة لا شعورية).

٣ – تفعيل الأجهزة المنتجة بالنظر إلى تكوين العبارات المتعلّقة بالمنطوقات المختارة .

٤ – الموجة الصوتية الناقلة للاعتبارات السمعية الملائمة .

٥ – الإدراك السمعي (تلقي الموجة الصوتية عن طريق الأذن الخارجية والأذن الوسطى والأذن الداخلية التي تُحلِّل الموجة الصوتية) .

٦ – ترجمة لغوية للإدراك الفسيولوجي (بمساعدة الكود أو الرَّمز) .

٧ – إعادة صياغة الرِّسالة التي أعدَّها المتكلِّم (أو الرِّسالة التي عُدِّلت طوال عملية النُّطق) .

وعلى صعيد آخر سنتطرَّق الآن إلى كتابة اللغة المنطوقة . إنَّ الكتابة في حدِّ ذاتها عملية معقَّدة . ففي المقام الأوَّل إنَّ ما يقال إنَّ الكتابة تفريغة بسيطة عن اللغة المنطوقة أمرٌ يجانبه الصواب إلى حدٍ ما لأننا لا نكتب ما يُنطق ولا ننطق نفس ما يُكتب وهذا يرجع لعدَّة أسبابٍ :

أولاً : هناك بون شاسع بين مقام المتكلِّم ومقام الكاتب . فالكلام يدخل ضمن سياق اتصالي تدخل فيه اعتبارات دلالية عديدة غير لغوية (إشارات ، إيماءات ، نوعية الصوت والسلوك العام) . أمَّا اللغة المكتوبة بعيداً عن هذه العناصر فلا بد أنْ تكون أكثر وضوحاً . يجب أن تكون مفهومة عن بعدٍ وربما عن بعدٍ زمانيٍ معتبر .

ثانيًا : إن لغة الكتابة تختلف عن لغة الكلام في أنَّها تواجه عدم العناية بالاعتبارات الخاصة بالشَّكل اللغوي والدَّلالي والتطابقي . والألفاظ متجانسة اللفظ مختلفة المعنى تأتي أقل إزعاجًا من المتجانسات صوتًا المختلفات معنى ، وضبط الكتابة لا يرد مُعلَمًا ومحدَّدًا ، أو يحدد ولكن بصورة غير تامةٍ في اللغة المكتوبة . فالإيقاع الصوتي الذي ترد عليه العبارة ذو الأهمية القصوى للرسالة ، لا يظهر كليةً أو يأتي ظهوره ناقصًا بقدر ما تطرح به علامات النقط والفصل والاستفهام وكذلك الحروف المائلة ... إلخ .

في المقام الثاني نجد أن ثبات اللغة المكتوبة يعود إلى ما تتميَّز به من طابعٍ رسمي عالٍ وراقٍ . وفي الثَّقافات كلِّها ولأسباب ثقافية ، إدارية ، دينية ... إلخ ، تكوَّنت قاعدةٌ

مكتوبةً لتكون نموذجًا يسير على نهجه الكُتَّاب . وهؤلاء يلزمون أنفسهم بما تقدَّم ويلغون مالهم من عادات شخصية أو اختيارات مفضَّلة (إقليمية ، فردية) . وها نحن نرى أنَّ التَّعليم المدرسي قد رسَّخ في عدد هائل من الأفراد استخدامًا ثابتًا نسبيًا يتعارض دائمًا مع العادات الشفهية ، وكان لهذا الاستخدام طبقًا لتلك الضوابط والقواعد تأثير واضح على لغة الكلام .

في المقام الثالث نجد اللغة المكتوبة في صورتها الخطية الثابتة بمساعدة الأشكال الورقية (الرقّ ، الجلود ... إلخ .) والمتبعة القواعد ، أقل خضوعًا للتعديلات التى حدثت في الجانب الزَّمني (والمكاني) ولذلك فإنَّ اللغة المكتوبة تبدو أكثر محافظة من اللغة الشفهية أو المنطوقة . فالأولى تمثِّل ثباتًا لا تعرفه الثانية . فأي فرد يسمح لنفسه في سهولة ويسر بارتكاب خطأ (مثل تجاوز القواعد النحوية واستخدام الألفاظ العامية أو الدَّارجة والإقليمية) عند الحديث في حين أنه لا يسمح بذلك في اللغة المكتوبة .

ومما هو جدير بالذِّكر أنَّ هناك عدم ثبات بين القواعد النحوية والألفاظ . فما يمكن التَّعبير عنه في لغة ما عبر الفروقات النحوية نراه في بعضها مجرَّد اعتبار خاص بالمفردات . أتنتمي اللواحق والسوابق إلى مجال القواعد النحوية أم أنها عناصر مفرداتية (وحدات صرفية تابعة) ؟ إنَّ أيَّة إجابة عن هذا التَّساؤل تبدو تعسفية أو ترجع إلى موقف أُتخذ مسبقًا . ففي بعض اللغات يتم التَّعبير عن فكرة " الصِّغر " PEQUENEZ باستخدام الصفة " صغير " PEQUENO ، كما نرى في الفرنسية PETITTE MAISON وفي لغة أخرى يُفضِّل استخدام إحدى اللواحق (ففي الإسبانية نقول : CASITA) منزل صغيرٌ من كلمة CASA (منزل) . والنفي يأتي في بعض اللغات مدرجًا في الوحدة الصرفية للفعل . ويصبح في بعضها الآخر كلمة معجمية كغيرها من الألفاظ . وأفضل دليل على ذلك ما تقدِّمه لنا اللغة الفنلندية وخاصة النمط الأوَّل EN TULE (لن آتي) و ET TULE أنت لن تأتي حيث نرى أنَّ النفي عبارة عن فعل يأخذ النِّهاية الخاصة بالشخص . فإذا أردنا أن نقول أنا آتٍ وأنت آتٍ لقلنا TULET و -TU

LEN . والإنجليزية بما تحويه من تحويزة فعلية باستخدام الفعل DO تقول I DO NOT COME والفرنسية بإدراج النَّفي داخل الوحدة النحوية الفعلية (JE NE VIENS PAS) تأتي في مكانة متوسطة . في حين أنه في لغات أخرى كالألمانية والإسكندنافية والإيطالية لا يخضع للبنية النحوية وإنَّما إلى أيَّة كلمة أخرى خاضعة لقواعد تركيبية عامة . ومكان النفي في اللغة السويدية والألمانية هو نفس المكان الذي يشغله أي ظرفٍ آخر من النوع ذاته .

وفيما يتعلَّق بالمعنى نجد أنَّ الكلمة الواحد قد تأتي في أكثر من تعبير ويختلف معناها ما بين عبارة وأخرى، ففي اللغة الفرنسية على سبيل المثال نجد لفظة COUP (ضربة) ونجد من الصعب تحديد العنصر المشترك بين الضربات في العبارات التَّالية EN UN COUPD'EPEE (طعنة) و SANS COUP FERIR (دون تشابك بالأيدي) UN COUP DE POING لكمة و UN COUP DE MAIN (مديد العون) و UN COUP DE FER (ضربة حديدية) UN COUP DE TELÉPHONE (عملٌ فاشلٌ) و UN COUP D' ES-TAT (انقلاب عسكري) وفي الإسبانية GSATAR SALIVA (تكلَّم سُدى) و TRAGAR SALIVA (تحمَّل تجلَّد . صبر) ومثال آخر في اللغة الإسبانية كلمة GOLPE بمعنى ضربة، ولنر كيف سيتغير المعنى في التَّعبيرات التَّالية : GOLPE DE MAR (موجة) GOLPE DE FORTUNA حادث طارئ GOLPE DE GRACÍA (ضربة قاضية) وGOLPE DE PECHO (قرع الصدر من علامات التوب) GOLPE DE TOS (نوبة من السُّعال) GOLPE DE VISTA (نظرة) و A GOLPES (ضــــربًا) و DE GOLPE Y PORRAZO (فجاةً) و DAR GOLPE فاجأ و DAR UN GOLPE (هجم بغية السرقة) و DE GOLPE (مرَّةً واحدةً) و NO DAR GOLPE (امتنع عن العمل) و GOLPE DE ESTADO (انقلاب عسكري) .

وفيما يتعلَّق بأبعاد اللغة نجد أنَّ المسافر من فرنسا إلى إيطاليا أو إسبانيا رغم تجاور هذه الدول سيلاحظ على الفور تباينًا لغويًا مطلقًا حيث ينبغي عليه أنْ يأخذ في

اعتباره أنَّ ما يراه من إشارات للمرور على الطريق أو في المحطات هو بمنزلة استبدال لغة مكتوبة بأخرى . فالرِّحلة من بيريجنان إلي برشلونة لا تشتمل على عبور أي نوع من الحدود اللغوية إذا تغاضينا عن اللغات الرَّسمية المفروضة بفعل التَّطور السياسي والمتمثِّلة فقط في اللغة التي يتحدَّث بها الناس في البلدة . فلغة الحوار في بيريجنان وبرشلونة هي اللغة القطلانية، والحدود الفرنسية لبلدة بورت ليست سوى حدود سياسية . ومن الممكن العبور من السويد إلي النرويج دون أن نلاحظ في بلدةٍ أو أخرى غير تعديلات طفيفة على لغة الكلام دون أنْ يمثِّل ذلك عائقًا أمام عمليات الاتصال والتَّفاهم . وما يتغير على الحدود هو اللغة المكتوبة . منذ بضع سنوات وحتى الآن ، والأطفال من إحدى القرى السويدية القريبة من الحدود يذهبون إلي مدرسة نرويجية وفقًا لاتفاقية مبرمة بين البلدين؛ وذلك لعدم وجود طريقٍ ممهَّد بين هذه القرية وأقرب مدرسةٍ سويدية . ولم تتعرَّض هذه الاتفاقية لأية عوائق على الإطلاق . ونشير هنا وبجلاء أنَّ اللغة الرسمية المكتوبة في كلتا الدولتين متقاربة للغاية .

وبالنسبة لمفهوم اللغة الأم هناك ملاحظة مهمة . ففي أغلب الأحيان يبدو التعريف سهلاً وهو كذلك بالفعل وتبدأ التَّعقيدات حين يتعلَّق الأمر بأوساط ذات ثنائية لغوية لتحديد ماهية وجوهر اللغة الأم التي يستعملها شخص ما . فبالنسبة لطفل نشأ في باريس من أبوين فرنسيين وأمضى شبابه في نفس المكان تُصبح لغته الأم تلك التي تتحدَّثها الأسرة والوسط المحيط به ، ويستمر ذلك الأمر أيضًا مع التغيير الذي يطرأ على عاداته المكتسبة أثناء مروره بالمدرسة والوسط الذي يعمل فيه . وحينئذ تصبح لغته الأم هي النمط الفرنسي المرتبط بالتأثيرات المختلفة التي تركت بصماتها على سلوكه اللغوي . وربما احتفظ الطفل بعادة معيَّنة تتعلَّق بتعديل أسلوبه في الكلام وفقًا للمتحاورين وهكذا يصبح عارفًا ، مثل معظمنا ، بنوع من ازدواجية اللغة .

ولقد ثبَّتت اللغة القومية في فرنسا قواعدها في الفترة الكلاسيكية وإن كانت قد طرأت عليها تعديلات لاحقة . لقد رأينا أنَّ النطق اللاحق للحرف R قد تمَّ تعميمه في

أواخر القرن التاسع عشر . والنطق الحديث للمجموعة ٥١ بصورة UA لم يُعمَّم إلاَّ مع قدوم الثورة الفرنسية . كما أنَّ استخدام الماضي المستمر لصيغة الإنساء قد اختفى تمامًا من اللغة الحديثة ، هذا بالإضافة إلى استخدام الماضي التَّام في لغة الحوار بشمال البلاد . إنَّ نظام اللغة الفرنسية ما زال مطبَّقًا تقريبًا بنفس الطريقة التي كان عليها منذ بضعة قرون وهو بمنزلة قاعدة لكل الناطقين بالفرنسية داخل فرنسا ذاتها وفي المناطق التي تتحدَّث الفرنسية مثل سويسرا وبلجيكا وكندا وغيرها من البلدان .

أمَّا في إيطاليا فنجد أنَّ الوضع اختلف تمامًا ، حيث أصبحت القواعد التي يراد تطبيقها هدفًا لنقاشٍ كبير .

كما كانت اللغة القواعدية (الأدبية والرَّسمية) هي الفلورنتية ، إلاَّ أنَّه مع تزايد أهمية العاصمة عقب الوحدة ، غدت لغة روما بملامحها المأخوذة عن لهجة رومانية (الرومانيسكو) تمارس سلطانها وتفرض هيمنتها رويدًا رويدًا على اللغة القومية ، (لغة توسكانية بلسـان روماني) . وفي دول أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية ، نجد أنَّ مفهوم مصطلح " القشتالية " في زمن آخر ، وفي أصله بإشارته إلى اللهجة التي تحوَّلت إلى لغةٍ رسمية – قد حلَّ محل مفهوم اللغة القومية كتعبيرٍ عن الدور الذي تلعبه هذه اللغة كرمزٍ للعديد من الدُّول . وأمَّا مصطلح " الإسبانية " فلم يكن له وجود قط في القارة الأمريكية .

هذا وقد اتخذ الصراع في سبيل "لغة قومية" خالصة شكلاً مهمًا في النرويج . فالبلاد كانت خاضعةً سياسيًا للدانمرك في العصور الوسطى حتى عام ١٨١٤، ثم أصبحت دولة تابعة للسويد حتى عام ١٩٠٥ . والنرويج إبان الفترة الدَّانمركية أصبحت اللغة الدَّانمركية اللغة الرَّسمية . كما أصبح شكل من أشـكالها المنطوقة علـى الطريقة النرويجية لغة لعلية القوم والصفوة وأهل المدن . هذا إلى جانب صيغة كبار الكُتَّاب مثل إبسن IBSEN وبجرنسون BJORNSON بهذه اللغة الأدبية التي أطلق عليها " الدَّانمركنرويجية ". ويدين النرويجيون للكاتب إيفار أسـيل IVAR ASEN بإبداع

هذه اللغة دون تمثيل لهجة معيَّنة غدت قريبةً جدًا من روح الغالبية العظمى باعتبارها القاسم المشترك بينهم . من هذه اللغة الأدبية انبثق الشكل النرويجي الذى كان يسمى فى البداية باللاندسمال LANDSMAAL وفيما بعد باسم النيورسيك أى " النرويجية الجديدة " والمناقض لما عُرِف باسم الرِّسكمال RISKMAAL أى لغة الأمة أو بوكمال BOKAMAAL أى اللغة المعتمدة على الكتب، ولم تكن اللاندسمال LANDSMAAL اللغة الأم لأية مجموعة إلاَّ أنَّها أصبحت كذلك لإدخالها فى العملية التَّعليمية .

وعلى صعيد آخر تجد أنَّ اللغات بوسعها أن تتلاقى وتمتزج ببعضها . لذلك عدت الأماكن التي وقع فيها اتصال بين جماعات تتحدَّث لغات مختلفة - حين تستعر الحرب بينها أو تكون فرصة لإجراء تبادلات أو صفقات تجارية أو غيرها - إلى إجراء تجارب عديدة تهدف إلى ترجمة اللغة التي يتحدَّثها الآخرون . وسرعان ما تمَّ استبدال اللغة الإشارية الأولى أو البدائية أو إكمالها بكلمات أو عبارات مفهومة في سياقها أو شرحها بالإشارة إلى أشياء محدَّدة أو مواقف معيَّنة . فى المناطق الحدودية بين مجموعتين لغويتين هناك دائمًا مترجمون يعملون على تذليل الاتصال والتفاهم السلمى أو تسهيل المفاوضات بين المنتصرين والمهزومين، وها هو يوليوس قيصر قد استخدم أثناء حملاته العسكرية على GALIA والبلاد الجرمانية مترجمين ثنائى اللغة عملوا - رغم أنَّ جذورهم نبتت فى بلاد الأعداء - فى روما وتعلَّموا لغة الإمبراطورية .

ولنأت إلى تعريف الازدواجية اللغوية . إنَّ كل شخص يستطيع التعبير بلغة ثانية يصبح من أهل الازدواج اللغوى وبهذا التعريف تصبح الازدواجية اللغوية ظاهرة منتشرة جداً وعدد أهل الازدواج اللغوى يتنامى بشكل كبير . أمَّا التعريف الثانى فيكمن فى أنَّ صاحب الازدواج اللغوى يجيد لغتين إجادة تامةً ويشعر بارتياح كبير فى استخدام اللغتين وأن محيطه يتقبله كواحد من أهله . بهذا التعريف يصبح الازدواج اللغوى غريبًا ونادراً ويقلُّ معه عدد هؤلاء الذين يتمتعون بهذه القدرة . ولنضف إلى هذا التعريف أنَّه ليس بالضرورة أنْ يجيد المتكلِّم الحديث باللغتين إجادة

سليمةً في كل المواقف والحالات ، فالمتكلِّم يفضِّل استخدام إحدى لغتيه في المنزل والأخرى في العمل وإنَّه يكون بذلك من أهل الازدواج اللغوى . هناك تفصيل في هذا الصدد بالفصل العاشر من هذا الكتاب فلنترك القارئ الكريم يطالع بعينيه ما جاء بشأن هذا الموضوع . لكننا قبل الانتقال إلى قضية أخرى سنشير إلى أمرين فيما يتعلَّق بالدول التي افتتحها الإسبان في أمريكا اللاتينية وخاصة في باراجواى والأرجنتين، في الأولى نجد أنَّ هناك اللغة الجورانية هي لغة مستمرةٌ إلى جانب اللغة الإسبانية وخاصة في المناطق الرِّيفية والجبلية بالبلاد . أما محاولة الأرجنتين توليد لغة تختلف عن الإسبانية فقد باءت بالفشل وعادت إلى استخدام اللغة القشتالية . وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّ اللغة الاسبانية هي اللغة الرسمية في الباراجواى لغة الاحتفالات القومية الرسمية .

وقد انتقل المؤلف إلى الحديث عن مفهوم الأسلوب والوظائف الرمزية للغة وأنَّ لكل كاتب أو مؤلِّف أسلوبه الخاص وسماته المميِّزة .

وعقب ذلك شرع المؤلف في الحديث عن لغات العالم وأنَّها تصل إلى ثلاثة آلاف لغة تقريبًا وإن كان هذا الرَّقم غير أكيد لسببين . في المقام الأوَّل من المستحيل التمييز بشكلٍ واضح بين اللغة واللهجة . وفي المقام الثاني هناك عددٌ من اللغات التي يجهلها اللغويون حتى الآن (في أفريقيا والبرازيل ... إلخ) وإذا كانت لغات كثيرة في طريقها إلى الاندثار فإنَّ عدداً كبيراً من اللغات الجديدة في طريقه إلى الظهور وبالتَّالي فإن الرَّقم المشار إليه قد يكون صحيحًا على وجه التقريب .

وفي الفصل الثَّالث عشر تطرق المؤلِّف إلى أصل وميلاد اللغة، وسنذكر هنا رأى تشومسكي CHOMSKY الذي يتلخَّص في أنْ المشكلة الأساسية للغة هي أنْ نفهم كيف أن المرء الذي يتقن لغةً ما يُصبح قادرًا على فهم عددٍ لانهائي من التعبيرات الجديدة عليه تماماً ، وكذلك كيف يصل إلى هذه التعبيرات في سلاسة غير ثابتةٍ تزيد وتنقص رغم أنَّها جديدة : ويحدد ذلك تشومسكي قائلاً : إن الإنسان قادرٌ على القيام بذلك

بعيداً عن أي نوع من المحفِّزات) . يصف هذه القدرة أو هذه الكفاءة بأنها "لغزٌ غامضٌ" فالاستخدام الطبيعي للغة يُعَدُّ تحديداً نشطًا وخلاَّقًا . بقي لنا أنْ نعرف عمَّا إذا كان هذا الإبداع لغزًا غامضًا وللإجابة عن ذلك نقول :

١ - إنَّ اللغة تعتبر أحد الآثار العديدة لهذه الكفاءة أو القدرة .

٢ - إذا بدت اللغة أكثر غموضًا من غيرها فإن ذلك يرجع إلى ما بها من تعقيدات كبيرة . فحتى الآن لم يفصح أي حيوان عن مقدرته على خلق لغة مزدوجة النطق أو حتى عن فهم لغة الإنسان ، رغم الجهود التربوية المتعدِّدة في مجال التدريب . ولكننا على علم بالعديد من السلوكيات البشرية ، ذات الطابع الاجتماعي (الألعاب) أو الأعمال التَّقنية (مثل قيادة السيارات ... إلخ) التي لا يمكن أنْ تتقنها الحيوانات الأكثر رقي .

٣ - إنَّ هذا الإبداع ليس أكثر ولا أقل غموضًا من الكفاءة الإنسانية الأعم التي جرت العادة على تسميتها بالذكاء .

وبعد ذلك أفرد المؤلِّف فصلاً مستقلاً لتطبيقات علم اللسانيات في تعليم اللغات وإعادة التأهيل حيث تطرق إلى أنَّ اللغة اللاتينية كانت لا غنى عنها في العصر الوسيط في الحضارة الأوروبية، وفي فرنسا أصبح هذا المنهج في فترة الكلاسيكية وهيمنة القواعد والأعراف العقلانية لمنهج لغوي تمّ استلهامه من تلك التي أرساها بورت رويال PORT ROYAL فاللاتينية واللغات الأخرى الحالية تعلمها الأفراد من خلال التحليلات النحوية . وقواعد اللغة اللاتينية تُعَدُّ نموذجًا لأي نوع من التحليل . فراتبها تُفرض فرضًا على أيَّة لغة بغضِّ النظر عن خصائص هذه الأخيرة التي تُميِّزها عن غيرها .

واختتم المؤلف كتابه بالفصل الخامس عشر حيث تطرق فيه إلى تاريخ علم اللسانيات وأوضح أنَّ المتخصصين لا يجتمعون على رأي واحدٍ فيما يتعلَّق ببداية علم اللسانيات . حيث يرى البعض أنَّ هذا العلم بمعناه الحقيقي ظهر قبل بدايات القرن

التاسع عشر وما قيل عن أن اللغة قبل ميلاد علم اللسانيات التاريخي والمقارن في عام ١٨٠٠ كان بمنزلة نوع من الفلسفة والميثولوجيا أو الأفكار حول الأصل الإلهي للغة . وعلى النقيض من ذلك ، يرى بعض الباحثين أنَّه دارت مناقشات حول اللغة وبذلت جهود شاقة من أجل توصيف ومنهجة اللغات منذ عصر رجال القواعد النحوية من الهنود وكذلك منذ عهد أفلاطون وأرسطو . أمَّا المنكرون من أنصار العلوم الإنسانية والمذاهب العقلانية فهم يستحقون أن نصفهم باللغويين ، حتى ولو كانت أفكارهم تحمل خاتم المنهج الفلسفي والدِّيني للفترات التي تتحدَّث عنها . وقد أورد المؤلِّف عرضًا سريعًا وموجزًا عن تاريخ علم اللسانيات .

والآن لا يسعنا في هذا المقام إلاَّ أن ننحني إجلالاً لمؤلف هذا الكتاب للجهد الشاق والعمل الدءوب والدِّقة المتناهية في البحث والتدقيق والتمحيص حتى استطاع أنْ يقدِّم لنا هذه التحفة الرَّائعة في علم اللسانيات .

ولندع هذا الكتاب بين يدي القارئ الكريم كي يصافحه بعينيه بعد ترجمته إلى لغة الضَّاد راجين المولى عزَّ وجلَّ أن يحظي الكتاب بإعجابه وأن يَعُمَّ نفعه على كلَّ من يطالعه من القرَّاء والمتخصِّصين وبالله التوفيق .

د . صبري محمَّدي التُّهامي زيدان

مصر الجديدة في ٢٠٠٩/٨/٣١

تقديم

بقلم : خوسيه لويس أبيان

تعيش اليوم عصراً ذا ديناميكية عادية . كل شيء يعتريه التغيير ، يصل إلى نقطة الفناء والتلاشي ، يتطور ويتبدل . هذا مقام مغلّف بإطار من الاضطراب والحركة ، وهنا لايصبح في مقدور أحد البقاء ساكنا ، إذا أراد مسايرة الأحداث . ولا معنى للتوقف هنا سوى أننا نفسح الطريق أمام الأحداث كي تطأنا بأقدامها ، ولا معنى الثبات والسكون غير إعلاننا عن موتنا بأنفسنا . وأخيراً فليس هناك من معنى للتوقف إلا الشلل التام . ولهذا ، فإن منتدى القراء El Círculo de Lectores لا يجد نفسه بعيداً عن مثل هذا القانون الذى يحكم زماننا ، فى المقام الأول ، لأننا نعلم علم اليقين أن كل قارئ بحاجة إلى توسيع مداركه ، والقراءة ماتزال أفضل وسيلة لتحقيق هذا الأمر . وفى المقام الثّانى ، لأن فكرة التدوير نفسها تتضمن اسم الدائرة بين ثناياها . فالأفعال قرأ ، ودار ودوّر ، هى أفعال ثلاثة يتم تصريفها بإيقاع متناغم ، وتشكل فى وحدتها طرقا أسرع تبقينا على عهدنا مخلصين للديناميكية المميزة للعصر الذى نعيشه .

فى هذه المسيرة التى لا انقطاع لها يبدأ منتدى القراء مرحلة جديدة يود خلالها توثيق علاقته بالجامعة ، التى مازالت ، رغم كل شيء ، الروح الأم لكل إنسان كرّس حياته للدراسة . الجامعة هي رأس المعرفة وأصل الحكمة وكلها أمور تضفى عليها نور الأم التى تريد أن تسبغ حمايتها على كل مغامر فى هذا العالم غير الآمن . ليس هنا من تعبير مجازى أقوى من الروح الأم للتدليل على أن الحكمة لها من الحجاب الواقى

مالها ، الحجاب الذي يجعلها قادرة على مواجهة المستقبل الإنساني على ظهر هذه الأرض بنجاح كبير . إنها الأم الولود التي تنجب معارف لامتناهية . لكنها مع هذا تعرف كيف تأخذ بأيدينا في أولي خطواتنا على الطريق غير الآمن . ومهما بلغت درجة النقد الموجَّه إلى الجامعة - وهذا أمر لا يتجاوز دوما حدود العدل - فالحق أنها ، لو لم تكن موجودة على قيد الحياة ، لدعت الضرورة إلى المطالبة ببناء صرحها من جديد . وبصماتها ستبقى محفورة أبد الدهر في ذاكرتنا المهنية ، كما يحدث بالنسبة لأمهاتنا فيما يخص حياتنا الشخصية .

تهدف مجموعة دائرة منتدى الجامعة Circulo Universidad إلى إعادة صياغة ما تلقيناه من مفهوم قديم عن تلك الجامعات الأوروبية في عهدها الأول . كانت الدراسة الشاملة هي الدرجة الأولى لكل من كان ينوي السير في مسالك أوسع تخصصية كي يتمكنوا في نهاية المطاف من التخرج حاملين نوعا من الدرجات التخصصية . ولكن ربما لكونها الدرجة الأولى أصبحت أجدر من غيرها على حمل مفهوم الجامعة هذا الذي ينطوي على مجموعة من المدركات والمعارف . وقد أتت الحاجة إلى تخصص لتقضي على فكرة الدراسة الشاملة التي تتجلى فيها الروح الأم بقدر كبير ، ومع ذلك ، فــلا شيء أحـوج من ذلك ، إذا لم تكن نود ، في أيامنا هذه ، أن تؤدي كـثـرة التخصصات في مجتمعنا إلى نوع من غزو " الألفاظ الغريبة " التي تحدث عنها كثيراً[١] بعض المؤلفين . إن قسوة التخصص بحاجة إلى التعويض عن طريق اكتساب معارف أساسية لكل إنسان يحيا في هذا الزمان ، حين تصبح لديه رغبة في استمرارية انتمائه إلى زماننا وعالمنا .

أصبح الإنسان الغربي ، وهو على أعتاب القرن الحادي والعشرين ، يكتشف يوما بعد آخر وبصورة أوضح أننا نقف أمام مجتمعات تتنامى بصورة مترابطة ومتواصلة تأخذ بأيدينا - على عجل ، رغم الوقفات - صوب نوع من الثقافة الكوكبية . والرد على مثل هذا التحدي لا يكون بنوع من التعليم المتسم قليلاً بالاستقلالية ، والذي تلقى فيه

التخصصية بدلاء من الحواجز والأسياج تجعل المعرفة رهينة المحبسين : الأدراج والمحاريب ، أصبح أمرا ضروريا أن نساهم فى إعداد أفراد على هيئة تجعل منهم مرة أخرى " مواطنين عالميين " وهذا أمر يتطلب - دون ما إنكار للتخصص - استعادة المعنى العالمى للمعرفة ، وتوزيع مجموع المعارف على المواطنين جميعا بحيث يصبح المواطن فرداً واعياً بعالمه ، متاقلماً مع ظروف العصر ومتطلباته ، العصر الذى يعيش فيه هو نفسه ، ولن يتأتى هذا إلا باستعادة المفهوم العالمى للدراسة الشاملة .

تأتى عولمة المعرفة هذه - وفقا لما أطلق عليه أهل العصور الوسطى Trivium (الأوجه العلمية الثلاثة) و Quadrivium (الأوجه الرباعية) - معكوسة على صفحات شاملة تنتشل نخبة من أهم الجوانب المكونة لنظام ما ، بطريق تمكنها من بسط أجنحتها على أرضية العوالم الفكرية . ها نحن نعود إلى الاستعارة القديمة : استعارة "ميدان المعرفة" المحببة كثيرا إلى نفوسنا لما تشتمل عليه من فكرة مناظرة لفكرة "الدائرة" التى تمثل قوة الدفع بالنسبة لدار النشر . وتأتى هذه المقابلة بين " ميدان المعرفة" و "دائرة المعرفة" لتخمر أسمى آمالنا المثالية الطموحة ، ولكن على الرغم من أننا لم نبلغ هذا الأمر بعد - لوعينا بحدود كل ما هو إنسانى - فلن ننسى أنه يمثل بالنسبة لنا غاية نهائية نسعى للوصول إليها .

إن إقامة مثل هذا النوع من " عالم الفكر " تتطلب مساعدة جمع كبير من المتخصصين المتنوعين والمتعددين ، الذين يجمع بينهم شعور مشترك كاف ، ولا يغيب عن أنظارهم أنهم يتوجهون إلى قارئ عام غير متخصص . تعد مجموعة " منتدى الجامعة " نتاج تعاون متباين بين مختلف المتخصصين والمفكرين من علماء الانسانيات ممن لم تغب عن أبصارهم النظرة الشاملة . وتحتوى هذه المجموعة ، بالتالى ، على كتب تتعدد موادها التى أعدت على يد متخصصين قادرين على عرض معارفهم فى لغة بيانية يفهمها كل مثقف . هكذا تولدت فكرة إخراج المجموعة فى دوريات قادرة على التعبير عن نفس فكرتنا عن دائرة المعرفة : العلوم الإنسانية ، العلوم الطبيعية ، العلوم

التدقيقية ، العلوم الفيزيائية ، علوم اللغة ، العلوم التاريخية ، علوم المعلوماتية والإعلام ، الفلسفة وتاريخها .. تهدف هذه الدوريات إلى تقريب عالم المعرفة ووضعه في خدمة قرائنا بشكل مركز .

تكمن غايتنا الأخيرة في إعداد " جامعة الجيب " جامعة خاصة بنا يتحقق من ورائها ما كنا نأمله قديما من جمع كم من المعارف، منظمة حول " جماعة المدرسين والطلاب " الأمر الذي يذكرنا ، مع استخدام هذا المسمى ، بالتسمية الكلاسيكية التي أطلقها ألفونسو العاشر الحكيم في تلك الفترة التي انعدمت فيها وسائل الاتصال الجماهيرية وغدت الكتب باهظة الثمن ونادرة ، كان نقل المعرفة بطريق المشافهة عبر اتصال مباشر بين الأساتذة وطلابهم ، وهو الأمر الذي كان يتطلب وجود مكان ملموس لعقد مثل هذا اللقاء . كان هذا هو المعنى الحقيقي الذي انطوت عليه لفظة Cítedra التي تعد محور البنية الجامعية الكلاسيكية ، فهذه اللفظة ليست سوى مجرد كرسي ، أو مقعد أو منبر يتم من خلاله شرح عملية المعرفة وكلمتا " كاتدرا " و " كامبوس " الحيز الذي يتسع بدوره لإنشاء العديد من الكراسي العلمية ، تقومان مقام المفهوم التقليدي القديم للحياة الجامعية ، إلا أن هذا المكان يشغل حيزا أوسع في زمن الاتصالات .

إذا تواتر القول بأن المعرفة لا حدود لها ، فها نحن نصل اليوم إلى صياغة عملية لمثل هذا التأكيد . بإمكان المعرفة أن تتوافر في الموجات الأثيرية ، لبث إذاعي ، أو في دورات أسطوانة مدمجة أو على مسطحات الأشرطة الممغنطة . هاهي تقنية العصر الذي نعيشه تأخذ بيد المعارف الإنسانية إلى جوهرها الأصيل : الحيز الشمولي الواقعي للمعرفة . ونحن نهدف أيضاً إلى المساهمة في هذا الوجود الشمولي بما لدينا من تصور متواضع لجامعة الجيب هذه التي ، من الآن فصاعدا ، ستثري مكتبة القارئ .

لماذا هذا الكتاب ؟

يُعَدّ علم اللسانيات اليوم فرعًا علمياً شديد التخصص حيث مر بمراحل تطورية عديدة متنوعة . ومنذ أن أضفي فيرديناند دى سوسير FERDINAND DE SAUSSURE على هذا العلم صبغة قانونية علمية بما قدمه من أطروحات بنيوية تعد الأولى من نوعها، نجد أن سلسلة التطور قد أخذت تتنامى وتتسع على يد مدارس واتجاهات ذات طبيعة متغايرة . ومع بداية عهد البنيوية بدأت سلسلة من المناهج التحليلية اللغوية وأخرى من دراسات ، بدت جلية فى مسميات مثل المقارنة ، علم اللهجات ، الشكلية ، التأويل " الفونولوجيا " (علم الصوتيات الوظيفى) ، نظرية الإعلام ، القواعد التوليدية (الشجرية) .

غالبية المداخل التى سطرت عن علم اللسانيات فى وقتنا هذا تشير إلى بعض هذه الفروع آنفة الذكر . ولهذا نرى أن الخروج بدراسة واضحة وسهلة المنال بالنسبة لجمهور القراء ، حول الوضع العام للقضية اللغوية ، أمر بالغ الصعوبة اليوم ، نظراً لأن اللغويين ، يقصرون دراستهم على أحد الاتجاهات المذكورة ويعمدون إلى نشره وقتما يعن لهم تسطير كتب تندرج فى إطار المدخل العام . هذا الأمر يتطلب شيئا آخر هو النظر بعين شمولية للمسألة ، والدوران فى فلك وجهة نظر علم الإنسانيات الذى يهتم باللغة كظاهرة إنسانية، لا كغاية لتخصصه الدقيق ، ولحسن الحظ ينطبق هذا الوضع تماما على بيرتل مالبرج فى الكتاب الذى نقدمه هنا للقارئ .

فى هذا العمل ، " مدخل إلى علم اللسانيات " يبدأ المؤلف بتعريف اللغة باعتبارها سمة تميز الإنسان عن بقية الحيوانات التى تندرج تحت الفصيلة الحيوانية ، ويقوم هذا

التعريف على أساس علمي ، بعيدا عن الخطابة التقليدية التي تضع الإنسان في مكانة متميزة من العالم ، إذ تصنفه في صورة " سيد المخلوقات " وها هو مالمبرج ، حين حدد مضمون تعبير " الإنسان الناطق " بأنه مجرد محدد مطروق لما هو إنساني ، قد ابتعد عن أي تكلف في الكلام ، ويعترف بأن وظائف كالتعبير والاجتماع وموهبة التجريد يمكن أن تشارك فيها كذلك حيوانات من أجناس أخرى ، وعليه ، فما يخص الإنسان هو قيامه بمثل هذه الوظائف كلية عن طريق عناصر مسموعة أو مدركة يتم ترتيبها في شكل " نظام إشارات " يتمايز تماما عن مكونات ما يمكن أن نطلق عليه " القانون الرمزي " ها نحن نصل إلى نقطة انطلاق واضحة ومحددة وعلمية في نفس الوقت ، نقطة انطلاق يمكن أن تعطينا فكرة عن الدقة التي أُلف بها هذا الكتاب .

المفهوم الإنساني والدقة العلمية هما فقط من الملامح التي تميز النص الذي أعدَّه قلم مالمبرج، وبمقدورنا أن نضيف إلى هاتين الخاصيتين خصائص أخرى عديدة ، وأهم هذه الملامح في نظري ، هو اتساع هذا النص ، المتعلق باتجاهات عدة ، سمة تتعلق، في المقام الأول ، بالتحليل الفني للغة كأداة توافقية زمنية للاتصال ، عن طريق دراسة ترتيبها البنيوي ، من خلال مجموعات صرفية وأخرى نحوية ، وتتعلق كذلك بما يتصل بأبعاد اللغة المختلفة : البعد الزماني ، والعناصر التعاقبية ، والتصور المكاني أو عمقه على حد سواء . وإذا ما كان البعد الأول يمثل دعوة للاهتمام بتطور اللغة وبالقوانين التي تحكم هذا التطور فإن البعد الثاني – الزماني – المكاني – يدخل في إطار الإشكاليات المتعلِّقة باللغات الإقليمية ، القومية ، الوحدات اللغوية ، القضايا الخاصة بثنائية اللغة ، بالترجمة ... إلخ ، هناك صلة وثيقة تجمع بين الحيز اللغوي وقضية العمق في استخدام اللغة سياسيا أو اجتماعيا ، وما لذلك من علاقة بمسألة الصلات بين اللغة والحضارة و " رؤية العالم " .

إن دراسة الظاهرة اللغوية وما تتطلبه من أبنية لم تدفع بمالمبرج إلى نسيان كل ما يمت بصلة إلى القضايا التاريخية ذات الأهمية القصوى لأي إنسان يود اكتساب

أية معرفة آنية عن وضع القضية اللغوية وحالها ، أعنى هنا أصل اللغات وعلاقاتها الوراثية والنوعية فى إطار تصنيفى للغات العالم ، هذا بالإضافة إلى موضوع ميلاد الكفاءة اللغوية لدى الطفل وأصولها العصبية ذات الطابع البيولوجى . هناك موضوع تاريخى آخر يوليه المؤلف اهتماما هو تاريخ اللغة نفسها ، والذى يفرد له الفصل الأخير من هذا الكتاب .

وحين يفرغ القارئ من هذا الكتاب سوف يتوصل إلى نتيجة مفادها أنه قد جمع بين يديه قدرا كبيرا عن معارف خاصة باللغة وعن أهم ما يُعرف عنها فى وقتنا الراهن، مما يمكنه من التحرك فى سهولة ويسر داخل إطار حياته اليومية ويجعله قادرا أيضا - لو رغب فى ذلك - على سبر غور المطبوعات المتخصِّصة حول هذا الموضوع .

خوسيه لويس أبّيان



مقدمة المؤلف

يهدف مؤلف هذا الكتاب إلي تقديم نظرة شاملة عن مختلف جوانب علم اللغة الإنساني والأهمية المكتسبة ، في الوقت الراهن ، من وراء الفروع المتعدِّدة لهذا العلم في حياة الأفراد والمجتمعات ، السياسية والثقافية . وأملا في بلوغ غايته رأى أنَّه لا مناص من عرض شامل لآليات هذا العلم ووظائفه ، وإتاحة الفرصة ، عن طريق تحليل هذه الآليات والوظائف ، بغية فهم الأهمية التي تحظي بها دراسة اللغة وعلم اللغة التطبيقي بالمعنى الأشمل والأوسع .

المعرفة بأصوات اللغة وكيفية إخراجها تفيد إمكانياتنا التربوية والعلاجية في مجال الكلام السليم منه والمعيب – ويؤدي تحليل إدراكنا السمعي للكلام إلي نمو ما نملك من آليات لمعالجة العيوب السمعية . وهذا يساهم بشكل واسع في تقنية الإرسال الصوتي التي تلعب دوراً رئيسيا معلوما علم اليقين في العالم الحديث . ودراسة الملابسات الخاصة بالكتابة تأتي علي نفس الدرجة من الأهمية في مجال اللغة المكتوبة؛ فكل كتابة أبجدية تقتضي تحليلا ، شعوريا أو غير شعوري ، للنظام الصوتي والصرفي للغة موضع الدراسة .

بنية المضامين – المختلفة من لغة إلي أخرى – تحدد بقدر كبير طريقتنا في تفسير العالم المحيط بنا – تصنيفاتنا ، درجاتنا ، ما نعيه من سمات مميزة – لتعود بشكل متوازٍ فتعلن مسئوليتها عن " رؤية العالم " من قبل مجموعة تتحدث نفس اللغة . ومن ناحية أخرى ، يسمح لنا تحليل البنيات أو التراكيب العميقة الأكثر شمولية

وبساطة – والمقيدة لنوع آخر من البنيات أو التراكيب برؤية المبدأ البنيوي العام الذي يحكم ، رغم الفروقات، الآليات الخاصة . وبفضل هذا التحليلات نرى بصورة أفضل الوحدة الفردية في إطار التعددية والتنوع .

فالدراية العميقة بالعوامل المسئولة عن معاني الكلمات في إطار الجمل والوحدات الأكبر الناشئة عنها " النصوص " تكون عونًا لنا على تجنب خطر خداعنا لأنفسنا عبر الكلمات التي نتلفظ بها على الفرار من الشراك الخادعة المتمثلة دوما في كلمات الآخرين . بهذا العون نصبح قادرين على التمييز بين الألفاظ والأشياء . ومما هو معلوم أن الدعاية والإعلان يقومان في جانب كبير منهما على الجهل السائد بهذا الفارق الأساسي .

فاللغة مجموعة من القواعد . نفترض وحدات صوتية لعناصر جاهزة للمتكلمين بها ، إضافة إلى قواعد نحوية تحدد إمكانيات استخدامها (التراكيب المقبولة) سلسلتان من الاعتبارات تمثلان معا بنية اللغة . ولكن اللغة ناجمة أيضا عن التواتر، والعناصر الصوتية والنحوية والمعجمية أو اللفظية لا تظهر بنفس درجة التواتر ضمن النصوص والعبارات الراسخة، فتوزيع العناصر هو أمر أساسي في تعلم اللغات ، ووضع أسس الكتابة ، والاختزال ، ومعالجة عيوب اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ، وكذلك استخدامها بغية التعبير عند تأليف المعاجم ... إلخ .

اللغة لا تؤدي وظيفتها بعيدا عن سياقها ، الاجتماعي والسياسي والثقافي ، إنها على علم بالتعددية الجغرافية والاجتماعية والزمانية . ولا يعني تكيفنا وتأقلمنا مع فترات غابرة لأية لغة السماح لنا فقط بفهم أفضل للغة الأدبية الكلاسيكية ، بل يسمح لنا أيضا بإمكانية تفسير وشرح الألفاظ القديمة المهجورة ومخالفات القياس التي طال بها الأمد لفترات لاحقة ، وبدورها تسهم الألفاظ العامية بصورة متواترة في التنبؤ بعمليات التطور قيد الإعداد في المستقبل، ولفظة " ديجلوسيا " Diglosia تعني

الاختيار الواعي بين أنماط مختلفة من اللغات (اللهجات – الأساليب) وفقا لمقتضى الحال . ودراسة هذا الفرع تسهم حينئذ بنصيب وافر في مجال علم الاجتماع عند شعب ما . فثنائية اللغة تخلق مشاكل ثقافية وسياسية واجتماعية يمكن أن نضل الطريق لحلها لو لم نتسلح بمعرفة الظواهر الناشئة عند التلاقي بين لغتين – في هاتين اللغتين أو فيمن يتكلمهما أو يكتبهما . وعملية إبداع لغات ثقافية وتعليمية وإدارية لدول أمية تعني معارف مماثلة . والتفسير السياسي هو تطبيق أساسي لعلم اللسانيات الحالي .

إن دراسة مستويات اللغة تأخذ صورة أخرى في مجال الأساليب . فكل عبارة مكتوبة أو ملفوظة لها أسلوب يضفي عليها قيمة تلعب دوراً في عملية الاتصال الإنساني . الأسلوب إذن سمة لقيمة خاصة ضمن إطار المنطوق مما يؤهله للقيام بوظيفة الدال Significante التي هي من خصوصياته . ولا يمكن إقامة صرح التحليل النصي إلا على أساس من نظرية لغوية مناسبة .

من الأمور ذات الأهمية القصوى لعلم اللسانيات التطبيقي وجود فكرة عامة عن عدد اللغات التي يتحدثها الناس اليوم وعن تصنيفها بوصفها أفكارا عامة أساسية لعمليات التطوير ؛ فبدون أن تتوفر لدينا ، على سبيل المثال ، فكرة عن أصل لغات الرومانس المنبثقة عن اللغة اللاتينية ، أو عن صلة النسب القائمة بين اللغات الجرمانية واللغات السلافية واللغات السلتية، وعن الأصل الافتراضي لكل هذه الأسر اللغوية في وحدة مشتركة (الهندوأوروبية) – لن نكون قادرين على فهم الظواهر الخاصة بهذه اللغات والثقافات التي تمثلها .

وفي نهاية المطاف ، رأينا من المهم أن نقدم للقارئ بعض التأملات حول قضية ميلاد اللغة عند الجنس البشري ، كما نعرض بهذا قضية موازية تتعلق بتطور اللغة عند الطفل ، وقبل فراغنا من الحديث نتطرّق لدراسة عامة عن تطور الأفكار حول اللغة

في حضـارتنا ، الدراسـة التي بمقدورها أن تكون القاعدة المناسبة التي تنطلق منها المواقف بشأن العديد من النظريات اللغوية التي تتنافس في الوقت الراهن وغالبًا يقف أمامها الإنسان غير المتخصص تائهًا .

برتيل مالمبرج

الفصل الأوّل

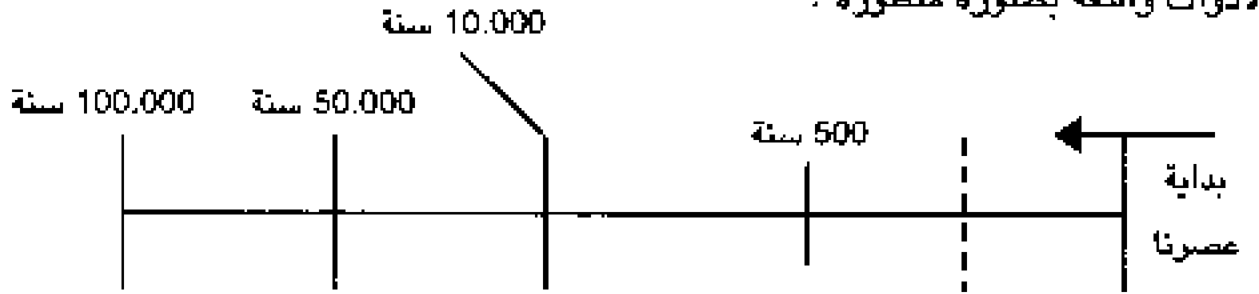
اللغة وظيفة إنسانية

El Lenguaje , Función Humana

تتحدد المكانة التي يشغلها الإنسان في عالم الكائنات الحية بصفة أساسية بما يتميز به من صفات بيولوجية وبما يتمتع به من سهولة التكيف مع متغيرات الوسط المحيط به ، بمقدورنا تصنيف الإنسان بجوار حيوانات أخرى ضمن المجموعة الفقارية، أو الثدية أو الحيوانات الرئيسية ... إلخ ، وذلك إذا أخذنا في اعتبارنا خاصة بنيته التشريحية . ليس بالضرورة أن يكون المرء متخصصا في علم الحيوان ليدرك أوجه الشبه الجامعة بين الإنسان والقردة كبيرة الحجم (الغوريلا ، الشُمبنزى ، السعلاة ... إلخ) . وما يتشكك أحد في وجود علاقة مشابهة بنيوية قائمة على أساس تلك المصاهرة التي تجمع بين الأصول . وبفضل الاكتشافات الإحاثية والأثرية أحطنا علما بوجود فروع أخرى من حيوانات رئيسية تختلف عن هذه ، والتي يمثل الإنسان في الوقت الراهن الحلقة الأخيرة فيها . لقد انقرضت في وقتنا هذا . القردة الكبيرة ليست هي أسلافنا . على العكس ، نجد الإنسان والحيوانات الرئيسية الأخرى يمثلون صورا نشوئية ارتقائية في اتجاهات مختلفة ذات أصل مشترك . الشُمبنزى رغم ذكائه الذي لا ينكره أحد ، لا ينقله ارتقاؤه مطلقًا إلى ساحة الطور الإنساني . يقف به ارتقاؤه عند حد لا يمكنه ، على حد قول أهل الاختصاص ، الخروج من دائرته أبدا . فبما أن الإنسان ، مثل أبناء عمومته الكبار من القردة ، قد تطور بداية من الطور الأول الذي كان يشاركهم فيه ، كان لزاما عليه أن يمر بمراحل من الكفاءة الفكرية المتمثلة

في الوقت الراهن في فصائل ما تزال على قيد الحياة ، وبناء على ذلك فمما لا شك فيه أن الاتصال الاجتماعي الذي يمارسه الشّمبنزي يخبرنا بنوع من الدراسة التعبيرية والاتصالية عرفه أسلافنا المباشرون منذ عهد بعيد .

مع التسليم بأن الإنسان يشغل مكانة في النظام البيولوجي الزمني ، نجده يحتل أيضا مكانا في الارتقاء التسلسلي للأجناس – مرحلة أخيرة في سلسلة ارتقاء خاصة ذات ملامح تمييزية تكمن في سهولة التأقلم مع محيط يتحول شيئا فشيئا إلى كيان عدواني ومع الوسائل التعبيرية والاجتماعية والتجريدية الخاصة – ذكرنا بعضا من مميزات تعد ، دون ارتباط استثنائي لصيق باللغة الإنسانية ، قاعدة أساسية لها . من خلال الملاحظات البسيطة السابقة نستنبط أن الفارق بين الإنسان وبقية العالم البيولوجي هو فارق في الرتبة . ومن المحتمل أن تكمن السمة المميزة للإنسان ذات يوم في مستوى الهيكل العصبي للمخ البشري . وحين تصل إلينا الاكتشافات المستقبلية ، يصبح تعريف الإنسان أكثر تأكيدا ، نظراً للكائنات الحية الأخرى ؛ وذلك لما يتمتع به من ثراء في قدراته السلوكية التي يبرز من بينها دون أدنى شك مقدرته على استخدام الأدوات واللغة بصورة متطورة .



التاريخ المعروف أو المتخيل للإنسان الناطق

الشكل (١)

FIGURA (1)

رسم توضيحي للعلاقة بين التاريخ المتخيل والحقيقي للإنسان

الناطق و " جزء بسيط " للفترة التي اتخذت فيها

أشكالها ، وفقا لأبحاث حديثة جداً ، بدأت بعد فترة

بعيدة عنا بما لا يقل عن مليون عام

ومع ذلك ، فليس منطقيا أن نعرف الإنسان بأنه " إنسان ناطق " من الدرجة العليا دون أن نقدم سلفا تعريفا لهذه اللغة التي ستكون بهذا الشكل سمة استثنائية الجنس البشري . وقد أشرنا إلى التعبيرية والاجتماعية والكفاءة اللغوية التجريدية باعتبارها وظائف أساسية للغة . بلا شك فإن هذه الوظائف توجد بقدر كبير عند عدد هائل من الحيوانات وبمستويات مختلفة من التطور . ولا تعني أن تكون بالضرورة لغة إنسانية، فمن الممكن أن نعثر لدى حيوانات الدرجة الأولى على نوع من الكفاءة التجريدية الاستنباطية . فالكلب مثلا يمكنه أن يميز بين الفرد باعتباره فرداً وبين غيره باعتباره يمثل طبقة اجتماعية . هناك أنواع من الحيوانات ، من تلك التي لا تنتمي إلى سلالة متطورة جداً - تعيش حياة اجتماعية متطورة ومعقدة (النمل ، النحل) . مثل هذه الحيوانات تستخدم هي الأخرى نظام اتصالات متطور ، إلا أنه ، في نفس الوقت يعد نظاما خاصا بها ، وجميع الحيوانات العليا تعرف عديدا من الأدوات التعبيرية ، الصوتية منها أو تلك الأخرى التي تنتمي إلى نوع تعبيري آخر . وأي نمط للحياة العضوية يعني في النهاية وسائل اتصال معينة تعتمد على إشارات ، ضرورية جدا لحياة الجماعة وتكاثر النوع . ومعلوم حق العلم ذلك الدور الذي تلعبه هذه الإشارات والقوانين التي تفصح عن وظيفتها في حياة الخلايا وعمل الجينات . والكود الجيني يعد مثالا هاما بهذا الخصوص ، كما يحظى بالعديد من أوجه الشبه مع اللغة . من المبرر جزئيا الحديث عن مثل هذه الحالات اللغوية ، ومع هذا ، فستظل اللغة بالنسبة لنا مثالاً استعاريًا للكلمة . ونحن نفضل في هذا المقام قصر كلمة (lenguaje - لغة) على اللغة البشرية (وكذلك على اللغات الإنسانية) وأن نعدها رمزا لما هو إنساني بحث ما زال هدفا لعمليات بحث في الوقت الراهن راحت سدى على مستوى الهياكل البيولوجية البحتة ، ولكنها بلا أدنى شك تجد فيه ، بصورة أو بأخرى، طبقة سفلية مادية ذات بنية فسيولوجية .

هنا نصل إلى لُبّ هذا الفصل الأول وإلى القضية التي ستظل نابضةً ، ستكون في معيتنا في كل ما نعرضه من موضوعات : اللغة وخصوصية الوظائف والأساليب ذات الطابع اللغوي الذي عزمنا الزج به في دائرة الشك . سنعمد إلى هذا حين نتطرّق إلى تعريف لغة " النظام الإشاري " أما ما يتبقى فلا يعدو كونه " شفرات رمزية " نود أن نعلن صراحة أن هذا التعريف للغة الإنسانية وهذا التمييز بين الإشارات والرموز يعدان من الأمور التعسفية باعتبار أن قانون اللغة يمكن أخذه ، بداية ، من خلال إدراك أوسع وباعتبار أن الحد الفاصل بين الإشارات والرموز يمكن ، بالتالي ، رسمه بصورة مختلفة تماما، ومع ذلك ، فحين بدأنا مناقشة مشكلات اللغة والمعنى (المدلول)، وجدنا من المفيد أن نقوم بهذا مستخدمين هذه المصطلحات والتعريفات المضمونية كوسائل عمل . وعليه فإن الموقف السلبي أو الإيجابي الذي سيتخذه القارئ تجاه النظرية التي تبناها سيخرج استناداً إلى هذه القاعدة . ونود قبل كل شيء ، ومن أجل فهم حقيقي لأفكارنا ، إبراز أهمية الانتباه لذلك المعنى الذي نطلقه ، اعتسافا ، ولكن بنية واضحة تماما ، على المصطلحين البارزين آنفا .

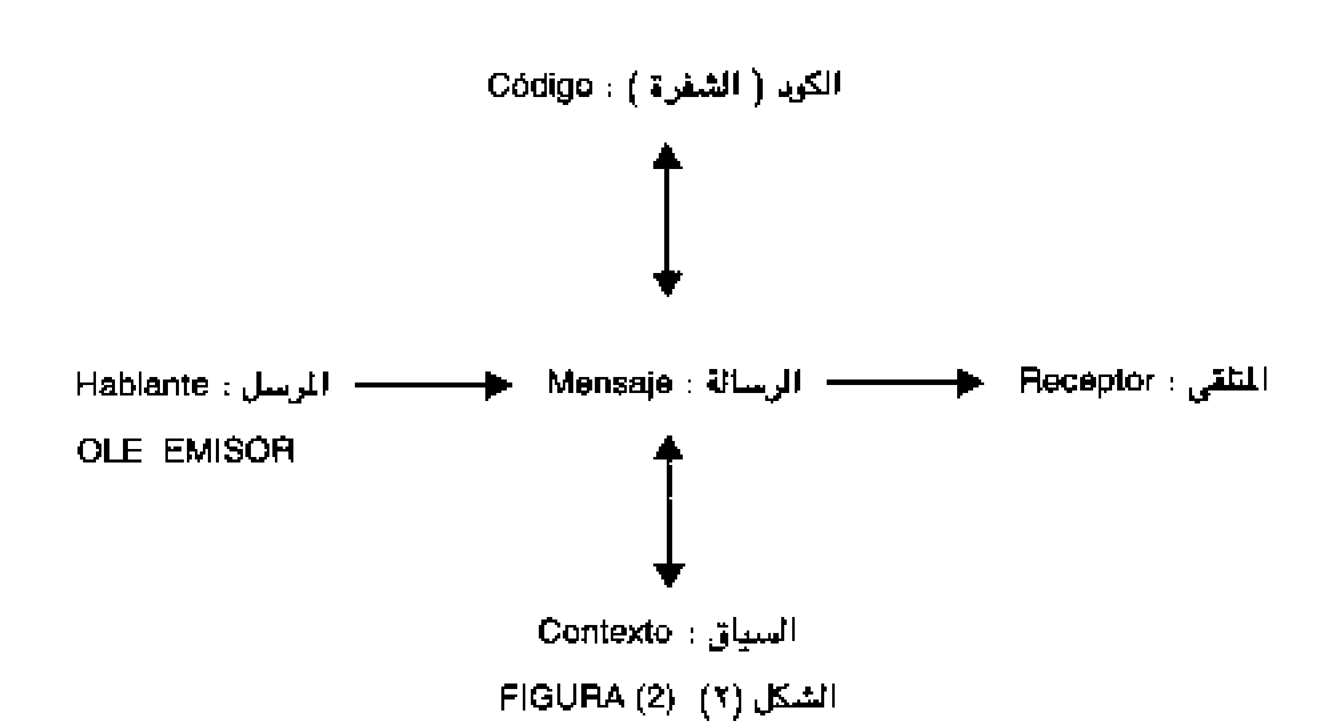


FIGURA (2) الشكل (٢)

نموذج مبسّط للاتصال اللغوى ، والمنتج (الرسالة) الصادرة عن المتكلم عبارة عن نتيجة لعلاقة مزدوجة : بين كود لغوى (نظام ، شكل ، لغة) والموقف (السياق) الذى يعد وعاءً لاستيعاب ونقل الرسالة . هنا يعمد المتكلم إلى مطابقة إمكانيات نظامه مع المضمون الذى يود نقله والمبنى بدوره على أساس من السياق الوارد فيه ، بما فى ذلك المجتمع (الجمهور) ، يعد السياق بنية دلالية كبيرة تدلف إليها اللغة كعنصر هام بين العناصر الأخرى . لابد من التفريق بين السياق اللغوى والآخر اللالغوى (الموقف ، الوسيلة ... إلخ) . انظر الفصل الخامس .

كل كيان - أيا كان سمته (طبيعيًا ، نفسيًا ... إلخ) - يمكن أن يكون رمزًا لشيءٍ آخر ويقال إن هذا الشيء الآخر يتمثل فى رمز يقوم ، عند الضرورة ، مقامه ، يمكن أن يكون الرمز أيقونيا : أى صورة ترمز إلى شيء يراد أو إلى جزء أساسى (مظهر شخصى ، ملمح لافت للانتباه ... إلخ) من هذا الشيء ، ويمكن للرمز أن يأتى معللا دون أن يصبح مجرد صورة ، وأخيرا فمن الممكن ألا تجمع بينه وبين الشيء المرموز إليه أية علاقة أخرى سوى المطابقة القائمة بين الطرفين (رمز تعسفى)، على سبيل المثال بعض الرموز الواردة على طريق إشارى تظهر فى صورة رموز أيقونية (رسومات لأشكال حيوانية ، رسومات لأشكال الشاحنات) ، والبعض الآخر له مقوماته من غير أن يتمثل صورة ما (فالحرف P حين يحمل خطا مائلا يدل على منع الانتظار : P) هناك رموز أخرى ، تعسفية بتمامها ، تعود فحسب إلى القناعة التطابقية (مثل الرموز الخاصة " بممنوع الدخول " ... إلخ) وعديد من الرموز تبدو أصلا فى هيئة صور أو أشكال لها مقوماتها ، غير أنها تبدأ بعد حين فى فقد كل علاقة طبيعية مع ما ترمز إليه . مثل هذا الوضع ينطبق على غالبية الأعلام الوطنية ، والصليب كرمز للمسيحية هو من نوع الرموز ذات المقومات ولا يظهر على هيئة صورة ، هناك علاقة طبيعية بين الدين المسيحى والصليب وهذا الصليب ليس الرمز

الوحيد الممكن لهذا الدين ، من المعلوم أن من بين المسيحيين الأوائل ، في عهد الإمبراطورية الرومانية ، مَنْ كانوا يستخدمون السمكة رمزا شائعا بينهم ، في الحقيقة، تمثِّلُ سلوكياتنا (طريقة التحية ، أسلوب التوجه نحو أحد من الناس ، شكره أو تكريمه، سلوكياتنا في تناول الطعام ... إلخ) رموزاً للعلاقة بين الناس أو ذكرى لعلاقات سابقة نسيناها أو أعدناها إلى الساحة العملية ، فحين يتحدَّث إسباني بصيغة الاحترام مع محاوره " حضرتك : (Usted)" لا يتعلق الأمر باسترجاع أية علاقة اجتماعية قائمة على أســاس المعنى الأوَّلي للكلمة (vuestra merced) التي تعني بالمعنى الحرفي (حضراتكم ، فضيلتكم) ، ويمكن أن تتضاعف الأمثلة إلى مالا نهاية .

العامل المشترك الجامع بين هذه الرموز كلها هو تمثيل عنصر (سمعي ، بصري، أو غير ذلك) لعنصر آخر (شيء ، فكرة ، علاقة ، سلوك) نزعم وجوده بصفته وبدون أدنى تبعية للرمز الذي يشير إليه، فعلى سبيل المثال ، ما تزال فرنسا كدولة باقية على قيد الحياة رغم ما أقدمت على استخدامه من رموز عديدة على مدى فترات زمنية غابرة أو الرموز الأخرى التي تستخدمها اليوم الدلالة على كيانها . علم أسرة البوربون ، العلم الثلاثي اللون ، شعار الجمهورية ... إلخ . والصليب يمثل فكرة أساسية في الدين المسيحي ، غير أن المسيحية ما زالت قائمة بصرف النظر عن أي رمز . نفس الشيء يحدث مع الشيوعية أو الإسلام . والشعار الذي يحمله عضو في هذه الجماعة أو تلك ذات الصبغة الدينية أو السياسية يعلن للمحيط الاجتماعي الذي يسكنه صاحبه عن ديانة أو مذهب من يحمله، هو رمز لهذه العقيدة التي ، بهذا الاعتبار ، تأتي مستقلة عن الرمز الذي يمثلها . ومعنى هذا أن الرمز يقوم مقام الاعتراف بالعقيدة . والتماهي بين الرموز ودلالاتها يظهر على السطح عقب سلوكيات معينة ، ما تزال قيد الممارسة ، بهدف الإضرار أو تدمير الرمز حتى يتحقَّق لنا بهذا الشكل الفرد أو الفكرة المرموز إليها .

من غير المفيد استمرارنا في إبراز المبدأ الرمزي بالصورة التي نجده عليها هنا . نضيف فقط أنه في بعض الأحوال – الإشارة مثال أصيل – يمكن العثور على حالة من التماهي بين الرمز ودلالته الخاصة خارج إطار الأشياء التي أشرنا إليها . هذا التماهي يوجد في العديد من الإشارات السمعية والبصرية التي يعج بها عالمنا التقني . تكمن وظيفته الأساسية في جذب الانتباه ، تحفيز المحيط الموجود فيه ، خلق موقف فضولي . من الممكن أن تعتبر الملامح المميزة لوحدات اللغة الصوتية " الفونيم " والتي سنعود إليها سريعا – إشارات تكمن وظيفتها الأولى في خلق موقف تفسيري ضمن إطار عملية الاتصال . وهي بدورها ليست رموزا وليست لها وظيفة لغوية سوى السماح بتماهي الوحدات التعبيرية .

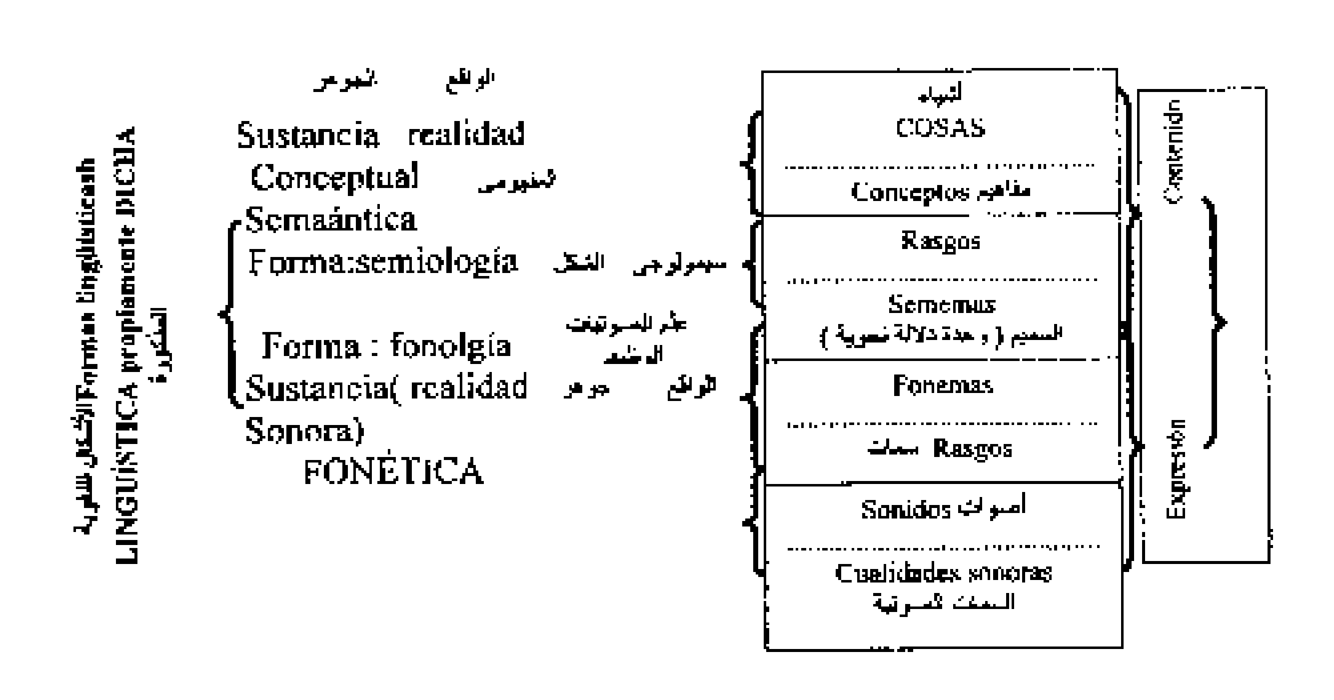
سنقصر استخدامنا هنا لمصطلح " منطوق Signo" على الأشكال المزدوجة النطق من اللغة ومن الشفرات الأخرى ذات البنية المشابهة، ويرجع الفضل في نشأة المنطوق اللغوي إلى العالم السويسري فيرديناند دي سوسير FERDINAND DE SAUSSURE بالشكل الذي تمت ترجمته عليه منذ ظهور البنيوية (على يد مدرسة براغ في العشرينيات (من القرن العشرين ، وغيرها) وأتى إميل بينينيستي BENVENISTE فأكمل ودقَّق التعريف الذي صاغه سوسير . وأمَّا الدانمركي لويس هيلمسلاف LOUIS HJELMSLEV فقد أقدم على تطوير فكرة المنطوق بعد استقصاء تام للنتائج الأخيرة التي احتوتها مبادئ سوسير، وقد أعدَّ مؤلف هذا الكتاب تعريفًا للمنطوق اللغوي استنادًا إلى مبادئ هذين الرجلين ، هنا، وفي أماكن أخرى ، يسمح بتحديد ما تنطوي عليه لغة الإنسان ذات الصلة الوثيقة بالنُّظم الرمزية الأخرى .

كل عنصر من عناصر اللغة البشرية محدد المعنى يسمى منطوقا . ومن هنا يصبح المنطوق اللغوي نوعية خاصة ضمن إطار نوعية الرموز . المنطوق رمز لفكرة محدَّدة نحاول تعريفها الآن . وعلى النقيض من بعض اللغويين الآخرين ، غدونا نتبنى

الرأى القائل بأن كل منطوق لغوى – طال أم قصر – هو ما نطلق عليه : Signo ولهذا، فلابد أن نفرق بين المنطوق البسيط التي لا يمكن تقسيمه إلى مجموعات صغيرة من جنسه – والمنطوق المركَّب أو المعقَّد (الذى يعرف بأنه المكون من تتابع مجموعات منطوقة) . فى هذه البنية المركبة : El chico hace sus deberes (الصبى ينجز واجباته) – بمقدورنا أن نميز فيها سلسلة من المجموعات المنطوقة البسيطة – التى تسمى أيضًا بالوحدات الصرفية – من بينها ثلاثة عناصر معجمية -(chico) - (hace) - (deber) وأربعة عناصر نحوية أو صرفية: (أداة المعرفة) "el" العلامة الدالة على تصريف الفعل مع الغائب المفرد "e" ، صفة الملكية "sus" ، العلامة الدالة على الجمع "S")وفقا للتعريف الذى سقناه بمقدورنا أن نطلق على كل واحد من هذه العناصر مصطلح " منطوق " كل منها يتضمن فى ذاته معنىً محدداً للغاية ، فضلا عن هذا الاعتبار الإسنادى (su – صفة الملكية للمفرد – sus – صفة الملكية للمملوك الجمع مع المالك المفرد) بمعنى أنهما يتطابقان مع عنصر مفرد – سوف ندع هذا الأمر مؤقتا . من الأمور الثابتة التى لا تنكر أن هذه الجملة ، كى تصبح مفهومة ، يلزم أن تكون ضمن سياق ، وبدونه تصبح لا معنى لها (من هو ، على سبيل المثال ، الفتى الذى نتحدث عنه ؟) ، ومع ذلك فلن نتعرَّض لمثل هذا هنا . ولاحقًا سنتناول كل القضايا المتعلقة بالسياق .

المنطوق اللغوى

EL SIGNO LINGUISTICO



الشكل (٣)

FIGURA 3

يفصل الخط المستقيم بين المضمون والتعبير . وأما الشكلان

(السيمولوجى والفونولوجى) فينفصلان عن المضمون عن طرق خط متقطع .

(الوحدات الصوتية) والدلالية ، الخطوط المنقوطة .

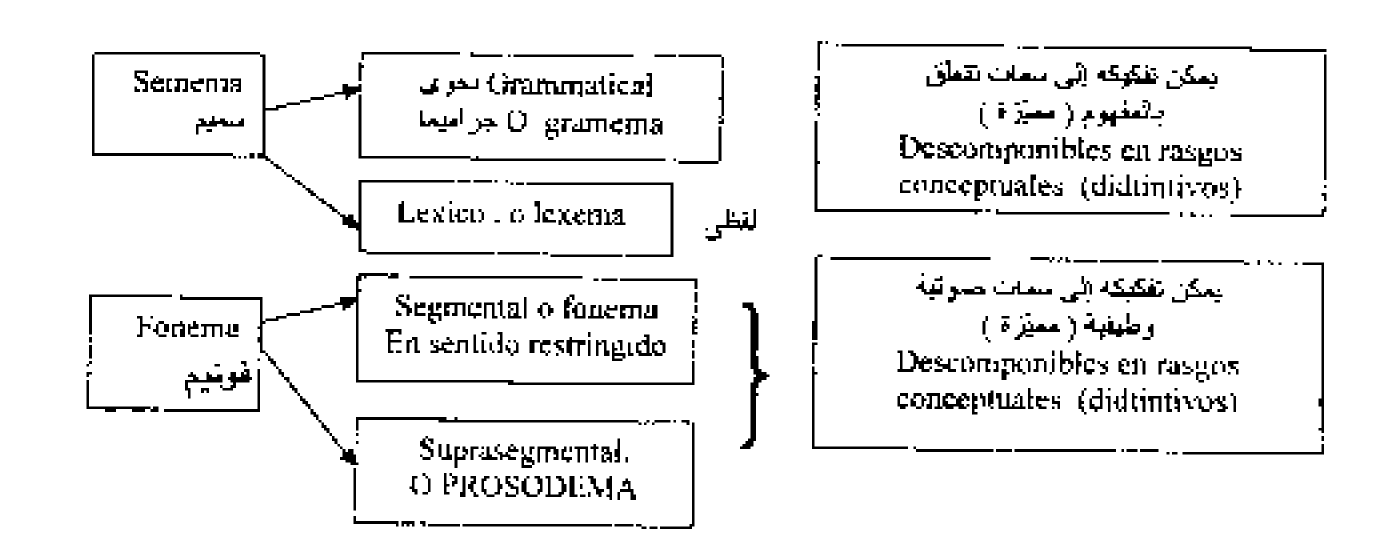
هذا التفكيك الذى يعترى العبارة اللغوية فيحولها إلى منطوقات بسيطة يُسمَّى النُّطق الأوَّل . وفى هذه الاحتمالية تشترك اللغة مع عدد كبير من الأنظمة الرمزية (قانون المرور ، على سبيل المثال ، حيث يأتى المضمون " ممنوع المرور " مصحوبا بمعلومة تذييلية تفيد أن هذا المنع مقصور فقط على الشاحنات ، إلخ) . وبهذا نرى أن كل منطوق يحتوى على مضمون وتعبير . المنطوق المذكور آنفا يحمل فى طياته مضموناً يتمثل فى مجموعة مفاهيم تشكَّلت فى صورة تؤهلها لتمثيل بنية دلالية معقولة ، مبررة، متطابقة مع متطلبات قواعد اللغة الإسبانية . وهنا يصبح التعبير عن هذا المضمون متمثلا فى توالى الوحدات الصوتية (الفونيم) ، أو فى الحروف المطبوعة التى رأيناها تواً . والعلاقة بين الاثنتين تنظم على أساس من القناعات المتعلِّقة بالكتابة الخاصة بكل لغة . فى حالة اللغة الإسبانية نعلم أن مثل هذه العلاقات معقَّدةٌ نسبيا . نود أن نفصح هنا عن أن المنطوق هو اتحاد المضمون والتعبير المتلازمين فيما بينهما . علينا أن نتحاشى الخلط بين المنطوق وتعبيره (شكله) – المعروف بالدال Sig-nificante عند سوسير SAUSSURE – كما يجب ألا نخلط بين المضمون (المدلول Sig-nificado عند سوسير) والأشياء ذات الدلالة referente، بصرف النظر عن بنيتها اللغوية .

ومما يلفت انتباهنا هنا فى المقام الأول هو إمكانية تفكيك التعبير إلى عناصر أصغر (مقاطع ، وحدات صوتية) لا تتطابق بصورة مباشرة مع عناصر المضمون وتصبح ، بالتالى غير ذات معنى ، هيا بنا نتناول فى المقام الأول المنطوق الذى بين أيدينا فنحاول تفكيكه إلى مقاطع بالصورة التالية : /el / res / be / de / cesus / ha / co / chi . هذه المقاطع على هيئتها التفكيكية تخلو من أى معنى . ليست بالكلمات ، ولا هى بالوحدات الصرفية (مورفيم) . إنها عناصر تعبيرية مجردة ، لا وظيفة لها إلا الشكل التمييزى . وكل واحد من هذه المقاطع يقبل التفكيك إلى وحدات صوتية : على

سبيل المثال ، يمكن توزيع المقطع / chi / إلى ci+ ، إلخ . والوحدة الصوتية c على هيئتها هذه لا معنى لها هي الأخرى ، لا قيمة لها سوى الخاصية التمييزية . من الممكن أن يتناقض هذا التفكيك الصوتي إلى وحدات أدنى مع وحدات إسبانية أخرى (d / t / m / p / b)، وحين نستبدله بواحدة من هذه الوحدات ، نجد أنفسنا أمام منطوقات متعددة الأشكال (tal / cal/ cha) ومن المعلوم لدينا أن الوحدات الصوتية (الفونيم) المتمثلة في / m / k/ t / g / d / b / s / r / l / n ..إلخ) يطلق عليها الوحدات الصامتة لأنها تتطلب وجود وحدات صوتية أخرى مثل (u / o / a .إلخ) يطلق عليها الوحدات الصائتة (ويأتي نطقها معًا من جراء هذا الاتحـــاد ، ومن هنا أتت التسمية) الحرف الساكن (الصامت) في الإسبانية يعني Consonate، أي مع حرف صائت ، وهي وحدات قادرة على تشكيل مقاطع بمفردها أو المشاركة في بنية أصوات مقطعية أخرى (ومن هنا يسند إليها القيام بنفس الوظيفة التي تقوم بها الكلمة أو الأشكال) . وأخـــيرا يطلق مسمى ضبط النطق (التشكيل) – أو النبر – على مجموعة خصائص تحدث نوعا من التقابل بين تعاقب الوحدات الصوتية ، أو الصورة الترتيبية التي ترد عليها (المقاطع ، مجموعات المقاطع ، الجمل) فهذا النظم الكلامي : " الصبي ينجز واجباته " عند نطقه بإيقاع صوتي متدرِّج من أعلى إلى أسفل (بوضع نقطة نهائية في النص المكتوب) يمكن له أن يتعارض مع نظم آخر هو : أينجز الصبي واجباته ؟ الأمر الذي يتطلب تناميا تدريجيًا في إيقاع الصوت (حين نستخدم علامة الاستفهام في النص المكتوب) فيضفي عليه طابع السؤال . ومن هنا نرى أن التنامي الأخير والانخفاض النهائي يمثلان صيغتين لحنيتين لضبط النطق متعارضتين على مستوى الجملة في اللغة الإسبانية . في لغات أخرى يؤدي مثل هذا الفارق الإيقاعي إلى إيجاد نوع من التقابل التضادي بين لفظين معجميين أو بين صيغتين نحويتين إنها اللغات الإيقاعية .

مفاهيم الفونيم والسيميم

LOS CONCEPTOS DE FONEMAS Y DE SEMEMAS



الشكل (٤)

FIGURA 4

كل هذه الوحدات – بما فيها الوحدات الأصغر المسماة بالوحدة

التمييزية – rasgo هي وحدات صيغية (شكلية)

الوحدات التمييزية الصوتية الوظيفية

توجد في الكلمات كعناصر صائتة (قابلة للإدراك) ،

والوحدات المضمونية (التي تتعلّق بالمفهوم) كمعانٍ (قابلة للفهم)

إذا ما عقدنا مقارنة ، من وجهة النظر التعبيرية ، بين المناطيق اللغوية والرموز الكلية البسيطة ستتبيّن ثراء كبيراً في التنوع ، وبالتالي ، في الاختلاف ، يتمخّض عن تقابل التعبيرات اللغوية والوحدات الكلية غير القابلة للتفكيك والتي ، على سبيل المثال ، تتمثل في الألوان الخضراء والحمراء لقوانين المرور أو الشكل اللامتفك للصليب المسيحي والسهم الذي يحدد وجهة المرور . وحيث إن التعبير داخل المنطوق يقبل التفكيك ، بصرف النظر عن المضمون ، إلى وحدات غير ذات معنى ، فنطلق على هذه العملية التفكيكية أو البنيوية للتعبير الصورة النطقية التجزيئية الثانية للمنطوق . وبهذا تتكون أشكال تعبيرية جديدة تتوافق مع العناصر المتاحة – الحروف الصامتة ، الحروف الصائتة ، المقاطع ، النبرات المطروحة من قبل الوحدة الصرفية الخاصة بالتعبير اللغوي . في مثل هذا النوع من النظم (الوحدات النحوية) تطبق القواعد المعمول بها في اللغة محل الكلام – الوحدات الصوتية النحوية لهذه اللغة .

يقوم التعبير اللغوي في المقام الأول على أساس من الأدوات السمعية التي يملكها الإنسان الطبيعي . واللغة المكتوبة ، بالصورة التي نستخدمها ، وبأشكالها الخطية ، تبدو ثانوية بالمقارنة مع اللغة المنطوقة . سنضع في اعتبارنا هنا أن اللغة الملفوظة تمثل الشكل الطبيعي للغة ، حتى في وجود الأنماط اللغوية المكتوبة المستقلة عن الشكل الكلامي (الكتابة الهيروغليفية الرمزية ، رموز الكتابة الصينية ... إلخ) والتي سنعود للحديث عنها فيما بعد في الفصل الثالث .

الوحدة الصوتية (الفونيم) بهيئتها الصائتة أو الصامتة أو الأخرى الخاصة بضبط النطق ، هي الوحدة الأدنى المستقلة عن التعبير . تتحدّد هويتها بدرجة ارتباطها بالوحدات الصوتية الأخرى للوحدة الصرفية اللغوية ، وكذلك عن طريق الخصائص التمييزية : ولهذا فهي بمثابة وحدة شكلية ، وظيفية بحتة . وهذا يؤدي إلى عدم قبول تحديد هوية " الفونيم " إلا إذا تحقق ذلك عن طريق إطار ترتيبي معين . ونتيجة لهذا ، فلا تأتي الخصائص التمييزية لعملية الاتصال إلا إذا وجدت هي الأخرى ضمن إطار

ترتيبي . وتولدت فكرة هذه مع جاهزية الوحدات الصوتية في صورة وحدات صرفية ، وظيفية تمييزية لها ، جاهزية الوحدات الصوتية في شكل وحدات صرفية ، وفي صورة تراتيب مفردة وأخرى مركبة ، تعد بيانا لمبدأ اقتصادية اللغة .

(انظر الشكل ٥)

FIGURA 5

PTK

BDG

MNN

FSS

VZZ

مثال لمجموعة من الارتباط الصوتي الوظيفي : الحروف الانفجارية والحلقية في اللغة الفرنسية .يمكن أن نجد أنْ مجموعتين من الحروف الانفجارية (أعلى) تتعارضان مع مجموعتين من الحروف الحلقية إحداهما صامتة والأخرى صائتة، مما يؤدي إلى وجود اثني عشر احتمالا للنظام الصوتي الوظيفي، وبين المجموعتين نجد في الشكل مجموعة واحدة من الحروف الأنفية تتكون من ثلاث وحدات مما يبرز أنّ التعارض الصوتي لا جدوى منه هنا . فالحروف في الفرنسية هي بالطبع حروف صائتة لكي في ظل ظروف معينة (المضاهاة) يمكن أن تفقد هذه الخاصية الدخيلة كما يرى فإنّ النظام الصوتي لديه اثنتا عشرة وحدة صوتية بمساعدة تركيبات من خمسة أحرف صائتة مختلفة (ثلاثة أماكن للنطق : الشفتان والأسنان والحلق ، وتمييز بين الحروف الانفجارية والحلقية وآخر بين الصائتة والصامتة) . وإذا أضفنا إلى ذلك الحروف الأنفية الثلاثة سيكون لدينا خمس عشرة وحدة . وهذا مثال لاقتصاد اللغة (انظر الفصل الخامس عشر لمارتينيه MARTINET).

تتشكل جاهزية الوحدات الصوتية اللغوية ضمن نظم ليس به إلا حلقة واحدة مختلفة ، بينما تتماثل الحلقات الأخرى ، ففي اللغة الإسبانية نجد حرف T، وحرف k

بالإضافة إلى حرف P، تتميز وفقا لمركز النطق الذى يلفظها (الأسنان ، الحنك ، الشفة ، حسب ترتيب كل منها) ، وتأتى هذه السلسلة متعارضة فى مجملها مع النظم الصوتي المتلائم معها : b/d/g ، حيث تتألف الأنماط النطقية ذاتها داخليا عبر خاصية صوتية واحدة . كما يمكن أن تعثر على تقابل بينها وبين سلسلة أنفية هى m، n، y، بالإضافة إلى حرف n المعطّش . وعليه فبمقدورنا الحصول بواسطة عدد من الفروق على كم هائل من التركيبات . من هذه التراكيب تتألف الوحدات الصوتية للغة. ولا يتجاوز عدد الوحدات الصوتية فى أية لغة الخمسين إلا فى القليل النادر ، أما عدد الخصائص التمييزية الجاهزة في اللغات العالمية فقليل جدا . هذا العدد ، إضافة إلى الطابع الذى ترد عليه هذه الخصائص، يحدد في المقام الأخير عن طريق أجهزة النطق والسمع المزود بها الإنسان ، إنها اعتبارات تشريحية ، عصبية فسيولوجية وأخرى نفسية ينجم عنها مجال الاختيار عند الفرد للعناصر الصوتية الأدنى التى تساعده على تشكيل وحداته الصوتية . يعد هذا المجال الصوتي والإدراكي المادة الخام أو الجوهر الذى يبدو كسمة أساسية إنسانية وعالمية والمجال الذى يتحرك الإنسان داخله بحثا عن وسائله التمييزية الصوتية . لسنا بحاجة إلى التصريح بأن الاعتبارات السمعية والتشريحية الفسيولوجية التى تتخطّى حدود مجال التمييز السمعى للإنسان لا تدخل فى مجال اهتمام علم اللغة .

لا أهمية هنا للقضية ، التى نوقشت مرارا وتكرارًا ، المتعلقة بما إذا كان من الضرورى اعتبار الخصائص المميِّزة الناجمة عن هذا التركيب من الأدوات المميِّزة خصائص عالمية لغوية أم أنه من الحصافة النظر إليها على أنها اعتبارات ذات صبغة عامة وسنرى أن نفس المشكلة سوف تطرح على مستويي المنطوق . آثر المؤلف دومًا استخدام مصطلح " عام " general، الأقل شمولا من مفهوم مصطلح عالمى universal المفضل لدى أصحاب النظرية التوليدية . الفارق ليس أمرًا جوهريًا فى مناقشتنا هذه . وعلى كل ، فالملامح التمييزية هى العناصر الأولية للتعبير، وهى النتيجة الناجمة

عن التركيب الأولي للبنية اللاشكلية الخارجة عن الاعتبارات اللغوية ، والتي ما تزال تصطبغ بالصبغة العامة . وعليه ، فإن الوحدات الصوتية لأية لغة تمثل ، بعد انتقاء بين الاحتمالات التي تطرحها أدواتنا الصوتية . هذه الأدوات تحوي المحافظة على الفصل بين اختلافات وتراكيب الارتفاع (الأنغام) ، الفروق الخاصة بالتكثيف (بالقوة الصوتية) ، بالأجراس (مجموعة من التراكيب الخاصة بالترددات والتكثيف) ، والاستمرارية ، فضلاً عن تراكيب نسجت بتوليفات مختلفة من هذه المتغيرات .

تعتبر القاعدة الفيزيائية الخاصة بمتغيرات القيمة من خصوصيات المجال السمعي . فالاستماع هو ترجمة للاعتبارات الفيزيائية من قبل جهازنا السمعي . هذه الترجمة تأخذ في بداية الأمر صورة عصبية – فسيولوجية هذا إلى جانب شكلها الإنساني المحض ، إلا أنها مع هذا تخضع لوحدات خاصة بطبيعة وعادات اللغة موضع الدراسة وترجع إلى عملية التعليم والظروف الاجتماعية، وفي النهاية نرى أن إدراكنا للغة يأتي نتيجة نموذج لغوي معين يتعالى على خلفية عصبية –فسيولوجية عامة . والعنصر الخاص لا يعرف إلاُ ضمن ترتيب يؤدي فيه وظيفة معينة . فالحرف P في اللغة الإسبانية ، المتناقض مع الحرف b لا يمكنه التماهي مع الحرف P في اللغة الفنلندية ، رغم تشابهما في الرسم ، ولكن دون مقابل صوتي في هذا الترتيب . والزمن المعروف بالماضي المستمر Imperfeto في اللغة الفرنسية يمكن أن يتماهى مع نفس المسمي الزمني في اللغة الألمانية والذي يقوم بوظيفتي الماضي المستمر والأخر التام In-definido في اللغة الفرنسية . وكلمة أخ hermano في اللغة الإسبانية لا تتماهى مع نفس المسمًى في اللغة المجرية الدال على تفرقة أو تمييز عمري لا تعرفه اللغة الإسبانية. وفي هذه الأخيرة نجد أن الضمير الشخصي " él" (هو) يتناقض داخل الترتيب مع الضمير ella (هي) – ومثل هذا التمييز غير معلوم في اللغة الفنلندية حيث ليس بها إلا صيغة واحدة لضمير الشخص الغائب المذكَّر والمؤنَّث : bän وليس معنى ذلك أن الفنلندية لا تميز بين الجنسين ، بل فقط يجبرها نظامها اللغوي على تمييز

الحد الفاصل بين المذكر والمؤنث في صورة ضميرية، الأمر الذى نراه ضرورة في اللغة الإسبانية، فالإسبانية ، بالتالي ، أوضح فيما يتعلّق بهذه النقطة . وفي صيغة الجمع ، تعرف اللغات الجرمانية هذا الأسلوب اللاتمييزى بين الجنسين - المذكر والمؤنث الجمع - حيث تستخدم الألمانية Sie، والإنجليزية They والإسكندنافية de للدلالة على النوعين دون تمييز (أما الإسبانية فتفرق بينهما : ellas (هن) ellos (هم) .

الانتقاء يمثل نموذجًا صوتيًا وظيفيًا محددًا . ولهذا فهو انتقاء لازم لعلاقته بالإمكانيات السمعية إذا ما امتلكت لغة ثلاثة حروف متحركة ، ولغة أخرى تعمل ضمن نظام مكون من خمسة حروف تسعة أو ستة عشر (كالفرنسية) فذلك اعتبار اجتماعي لا يبنى على قاعدة فيزيائية أو بيولوجية، ومن السهل أن يتعلّم الطفل واحدة من اللغتين ؟، غير أنه سيواجه مصاعب - لا يمكن تجاوزها في بعض الأحيان - حين يود الانتقال ، في سن متقدمة ، من نظامه الأول إلى الثاني ، وخاصة إذا ما كان هذا الأخير أغنى في عناصره التمييزية من الأول ، فالعرف الاجتماعي هو المسئول الأكبر عن النظام التعبيرى الذى نستخدمه ، وبالتالي ، المسئول عن اختياراتنا التفضيلية الصوتية الوظيفية . فكلمة Club (ناد) في مفهوم الدارس الإسباني مكونة من مقطع واحد ، بينما في نظر الياباني كلمة من ثلاثة مقاطع ، وفقا لخبرته في المجال الصوتي ، يأتي كل حرف صامت متبوعا بحرف صائت ويكون بالتالي مقطعًا واحدًا . ما من نظام أكثر طبيعية من الآخر . جميعها لازمة ضمن أطر حدودية يتمثلها علما الفيزياء والفسيولوجيا (النطقية والإدراكية) هذه الحدود هي المكونة لقاعدة التعبير البيولوجية. سنناقش هذا الأمر لاحقًا إذا ما كان المضمون يقوم على أساس من قاعدة بيولوجية .

أوضحت في بداية الأمر أن مضمون الدالة اللغوية يعكس العناصر - المفاهيم ، المراتب ، الأفكار ، الأشياء - التي يتألّف منها العالم الخارجي وتشير إليها مقالاتنا

اللغوية . ومع ذلك ، فمن السهل أن تدرك مجيء هذه الاعتبارات في هيئة أكثر تعقيدا، هذه العناصر المضمونية لأية لغة (المدلول عند سوسير SAUSSURE) تعد بنية تتلازم بما فيه الكفاية مع " اعتبارات " الواقع الخارجي كما في حالة البنية الصوتية الوظيفية وعلاقتها بالعالم السمعي الذي نعيش فيه . الاعتبارات النحوية تعطينا أمثلة أغرب من الأبنية المتلازمة للعلاقات التي تأتي في ذاتها معقدة للغاية . وعليه ، فالعلاقات الزمنية الملموسة تتنوّع وتتعدّد من الناحية النظرية : سابق ، لاحق ، متواز ، مستمر ، محدد ، غير محدد ، متكرر ، لاحق قريب ، لاحق بعيد وهكذا دواليك. وحين تنظر في نظام اللغة الزمني نراه لا يلتفت إلا لعدد محدود من هذه الإمكانيات العلائقية . وبعض اللغات لا تعرف شيئا عن الزمن كمرتبة نحوية أو أنها تعطى أفضلية لفروقات أخرى . ستكون هناك فرصة للعودة إلى مثل هذا الموضوع .

يمكن التمثيل لزومية اللغة حين ننظر ، من ناحية ، في اللغات الرومانية التي تحوي كاللاتينية ، في إطار الحدث الماضي تمييزا واضحًا بين الماضي البسيط (الذي يعبر عن حدث محدّد) والماضي المستمر - الدال على حدث مستمر بصرف النظر عن بدايته أو نهايته - ومن ناحية أخرى في اللغات الجرمانية التي تجهل مثل هذا الفارق ، وخاصة فيما يتعلّق بأنظمتها الفعلية Sistema Verbal (وهذا لا يعني أن هذه اللغات تعجز عن تقديم تعبيرات لغوية أخرى للدلالة علي هذين الإطارين الزمنيين) . هناك مثال آخر نستمده من الإنجليزية والإسبانية ، من ناحية ، ثم من الألمانية والفرنسية من ناحية أخرى . الإسبانية والانجليزية تميزان بين الحدث المتطور (I am singing estoy cantando أواصل الغناء) المتعارض مع الآخر اللامتطور (Canto ،I Sing - أغنّي) أما اللغتان الأخريان فلا علم لهما بمثل هذه المرتبة النحوية (ففي الألمانية نقول : Ich Singe وفي الفرنسية Je chante) وللتعبير عن الصيغة التطويرية للحدث تستخدم الفرنسية ما يعرف بالدورة الفعلية (مثل : Je Suis en train de chanter) وعليه فالتعبير عن الصورة الفعلية التطورية أمر لازم في الإنجليزية والإسبانية ، أما في

الفرنسية فهو اختياري . في هذا يكمن الفارق بين اللغتين ، في اللزوم وعدمه . هذا التقابل الحاصل بين المقطع Ing في الصيغتين I Sing ، I am Singing ، هو تقابل خاص بمظهر الفعل ، أمَّا ما هو حاصل في اللغة الفرنسية بين Je chante و Je chantai فهو تقابل متعلق بالزمن النحوي .

تلعب أدوات التعريف والتنكير ، والأخرى المفيدة للتجزئة في الفرنسية ، دوراً كبيراً في التراكيب النحوية للعديد من اللغات الغربية . ونحن نعلم أن اللغة اليونانية القديمة كانت تحتوي على الأداة وأن اللاتينية لم تكن تعلم بمثلها . وهناك لغات كثيرة ، حتى في محيطنا الثقافي ، مثل اللغات السُلافية أو الصقلية ، والفنلنـدية ، والمجـرية لا تعرف لاستخدام الأدوات سبيلاً . هذه الفروقات التي تطرحها اللغة الإسبانية في قولنا : El chico (الفتى) Un chico (فتى) Los chicos (الفتيان) Unos chicos (فتيان – بعض الفتية) تظل متوازية، أو تظهر عبر أساليب نحوية مختلفة أو أساليب سياقية . ويكمن لزوم المنظومات النحوية في فروق أدواتية بصورة أقل في الهيئة الشكلية التي تتكون ضمن إطارها الأفكار اللغوية . هذه البنية اللزومية " للواقع " تعد بمثابة إظهار لبعض المظاهر على البعض الآخر أكثر من كونها استحالة لأن تأخذ في الاعتبار مظاهر أخرى ممكنة .

نلاحظ جريان مثل هذا الأمر على المستوى المعجمي ، أي في مجال ورود "الألفاظ" ويدرك الدارس للغـة أجنبيـة منذ احتكاكه الأول بها أنه لا تطابق بين كلمات لغته الأصلية وكلمات اللغة موضوع الدراسة، والترجمة ليست استبدال لفظ بآخر . فبعض اللغات لا تستخدم الفارق النوعي الذي تستخدمه اللغة الإسبانية بين hermano – أخ hermana – أخت – بل تستعمل ما يسمى بالفارق العمري : - hermano / a menor hermano / a mayor (الأخ الأكبر – الأخت الكبرى ، الأخ الأصغر ، الأخت الصغرى) هناك لغات أخرى تستخدم الفارقين : hermano mayor (أخ أكبر) hermana mayor (أخت كبرى) hermano menor (أخ أصغر) hermano menor (أخت صغرى)

اللغة السويدية تميز بين كلمتي العم ، والخال : فيقال Tio Paterno (العم) ، Tio ma-terno (الخال) ، مما يضطرنا حين الترجمة من الإسبانية إلى السويدية لإضافة معلومة – صلة القرابة من ناحية الأب أو الأم – لا وجود لها أصلا ، معلومة بمقدور المترجم العثور عليها ضمن أجزاء السياق . وفي حالة مغايرة . نراه مضطراً لاستخدام اختيار متعسف .

تصبح هذه الفروقات البنيوية كبيرة حين تقف أمام لغات مقارنة تنتمي إلى ثقافات متباينة فيما بينها وتعتمد أنظمة اجتماعية وعادات دينية تصعب المقارنة بينها وبناءً على اعتبارات من هذا النوع. تبنَّى بعض اللغويين – استناداً إلى نظرية سوسير عن تعسف المنطوق فضلا عن تبعية اللغة للأطر الاجتماعية البسيطة (نظرية سابير ودي وورف SAPIR Y DE WHORF، القائمة على أساس خبرات من لغات وثقافات أمريكية) – فكرة عدم إمكانية ترجمة اللغات وتداخل الأنظمة اللغوية ، فكل بناء صوتي، صرفي ، نحوي ، معجمي ، دلالي ، يتحوَّل إلى بناء مغلق ، محدود بعلاقاته الداخلية ، ولكن دون إمكانية خلق حالة من التماهي بين عنصر منفصل في هذا النظام المذكور وعنصر يمثل جزءاً من نظام آخر .

حين نبدأ بالقاعدة العامة المكونة من مقاطع ، حروف صائتة وأخرى صامتة (النمط الأولي : PA - PA أي صامت – صائت) مروراً بالأبنية الصوتية الوظيفية للغات، نرى التعسف يتزايد شيئا فشيئا . وتآلف الأشكال في الوحدات الصوتية يبدو متعسفًا في جانب كبير منه ، رغم أنه محكوم بأدواتنا النطقية والإداركية . وكذلك ، يأتي عدد الوحدات الصوتية للمجموعة الصرفية والعلاقات بينها في صورة غاية في التعسف . محكومة أساسا بالتقاليد الاجتماعية (بين حد أدنى لا تتوافر فيه الجاهزية وحد أقصى لما يقرب من خمسين وحدة صوتية) وعدد المقاطع الممكنة في لغة ما يتجاوز بكثير عدد الوحدات الصوتية . وحين ننتقل من المقاطع البسيطة إلى مجموعات المقاطع وإلى ما تكونه هذه الأخيرة من صور متسلسلة ، تصبح الاحتمالات لا نهائية

بالمرة ، والأبنية المكونة بهذا الشكل تصبح بالتالي أشد تعسفًا مرةً بعد أخرى في علاقاتها مع القاعدة الأولى العامة ، وكل لغة ، بما لها من خصائص صوتية معينة – صرفية ونحوية – تتحول إلى بناء من نوع خاص ، مختلف عن غيره من الأبنية . ولكننا نعثر خلف هذه الأبنية على قاعدة من الأدوات السمعية المتسمة بطابع الإنسانية على المستوى العالمي .

يقى أن نشير إلى أن بنية التعبيرات اللغوية – شديدة الاختلاف فيما بينها – تأتي محكومة بمبدأ التصنيف المتدرِّج الرتبي للعناصر . ولم تأت التوفيقات نتيجة لضربة حظ . إنها محكومة بقواعد التبعية التي ، رغم تفاوتها في المظهر الخارجي من لغة إلى أخرى ، تعكس مبدأ عالميا وحيدا . رأينا أن الحروف الصامتة تتجمَّع حول نواة من الحروف الصائتة كي تكوِّن عدداً من المقاطع . والحروف الصائتة تقيد الأخرى الصامتة لا العكس . ومع هذا ، فعلى مستوى الوحدات الصوتية يصبح من الممكن إثبات القواعد العامة لعملية التقييد . ليس هناك من وحدة صوتية انسدادية (مثل P ، t ، c ، b) وصائتة في نفس الوقت إن إغلاق القناة الفمية يستبعد إمكانية استخدام أى عنصر أُعدَّ كنواة لمقطع من المقاطع . ها هو دى سوسير DE SAUSSURE يصف المقطع بأنه سلسلة من العناصر الانفتاحية المتنامية ، تتلوها سلسلة استغلاقية متنامية هي الأخرى (على سبيل المثال ، فالمقطع Pli هو مقطع طبيعي ، على عكس المقطع Lpi) وإذا ما كانت هذه النظرية ، التي أكملها أوتو جيسبرسون JESPERSEN OTTO ، لا تغطي جميع الاحتمالات المقطعية الموجودة فعلاً في اللغات ، فهي تصف المبدأ الكامن في قاعدة التجميع الرتبي المتدرِّج للوحدات الصوتية .

وعليه ، فقد تم الانطلاق من هذا المبدأ البنيوي الرتبي المتدرِّج المؤهل لترتيب التعبير داخل إطار اللغة في المستوى الصوتي – الصوتي الوظيفي – في محاولة لمشاهدة جاهزية مماثلة أو متماهية للمضمون . رأينا إلى حدٍ ما ، إمكانية تفكيك المضامين إلى عناصر أصغر ، مما يجعلها أكثر تجريداً وشمولية ، ويبدو التوازي مع

التعبير أمراً صائماً . هناك عناصر من العناصر المضموتية الأدنى تعلن انتماءها للملامح التمييزية الأولية للمستوى التعبيري ، ومن ناحية أخرى ، هناك فارق كبير بين المستويين ، فارق التعبير يمثل مجالاً صوتيًا - نظير مقابل خطى بيانى - يصبح ، رغم اختلافه الشديد ، رهن المقارنة بمجال تبدو فيه مجموعة الخبرات الإنسانية التى تغطى بداية المستوى المضمونى اللغوى . هل من الممكن، ولو نظرياً ، قصر العالم الذى نتحدث عنه على توليفات من عناصر بسيطة ، مجردة وشاملة - وربما عالمية - تمثل ، رغم عددها اللانهائي ، المقابل لعناصر التعبير الأولية ؟ جاء رد بعض الباحثين بالنفي، لأنَّ الفكرة ستكون مجرد تفكير وهمي . ورأى البعض الآخر إمكانية ذلك من الناحية النظرية على الأقل، ليس بوسعنا أن نواصل هذا النقاش الآن . سنعود إليه في الفصل الرابع .

سنقصر كلامنا على اختبار متواضع لمجموعة من التراكيب في إطار ما نراه في فكرة العناصر الأولية المجرَّدة الشمولية المترامية - وربما العالمية - من مبدأ يعكس، عند تطبيقه أو تحاشيه ، ترتيبا متدرِّجًا يولِّى وجهه صوب أى بناء لغوى - القاعدة الصـــالحة بدايـــة من الأدنى (البسيط) إلى الأعلى (المركب) من التراكيب اللغوية ، إذا ما تحقق هذا المبدأ الترتيبى للمادة اللابنيوية ذاتها بصورة أفضل على المستوى التعبيرى (دون اصطباغه بالصبغة الشمولية) منها على المستوى المضمونى ، يصبح هو سبب الفارق الإثرائي والتعقيدى الهائل بين الاثنين. إن الكيفية التى تلقى بها فكرة الملامح الأدنى (البسيطة) والأخرى المركبة ترتيبياً - الضوء الجديد على ميكانيكية اللغة لا تعد ، بالنسبة لنا ، باعتبارها بنية قائمة ، سوى قاعدة تحكم ترتيب المستوى .

تكمن مهمة اللغة الإنسانية واللغات الخاصة ، إذن ، في بناء خبرتنا ، وتصنيفها تدريجيًا بما يؤدى إلى خلق مقالات ، عبر تلك الأشكال ، تهتم بنقل المعلومات عن "الوقائع" الخارجية عن الإطار الآلى التلقائى المذكور . هذا التوافق لفرع مضمونى ، تم اختياره بشكل محكم وتصنيفه ترتيبيًا بصورة متقنة ، مع فرع تعبيرى تم إحكامه بنفس الصورة - هو ما أطلق عليه الفلاسفة الأقدمون مصطلح المدلول Significatio .

من هذه التوليفة بين عنصر مضموني وآخر تعبيري تنشأ ما نطلق عليه المقال (المنطوق) لا وجود قط لمضمون لغوي دون أن يكون موصولا من قبل بنوع من التعبير ، كما أنه لا وجود لتعبير دون أن يكون تعبيراً عن هذا المضمون أو ذاك . هنا تكمن الفكرة الذاتية للمقال اللغوي الذي بينه سوسير SAUSSURE، وتطورت فيما بعد على يد هيمسلاف HJEMSLEV. هذا تعريف للمقال جعل منه نوعية خاصة بين الرموز . تجعله متناقضا مع جميع العناصر الأبسط المستخدمة خارج الإطار اللغوي أحياناً ، وداخله أحياناً أخرى ، في عملية الاتصال الإنساني . أدركنا أيضا أن هذه الازدواجية – أو الثلاثية – في نطق اللغة هي التي تتيح للتركيب اللغوي – النحوي والدلالي على وجه الخصوص – أن يلعب دوراً أساسياً في الطريقة التي نعتمدها في التفكير . والطريقة التي نتبعها في ترتيب الانطباعات المحددة الكثيرة العدد ، الواردة إلينا عبر أجهزتنا والمكوّنة لأفكارنا ، تبدو في مثل هذه الملابسات في شكل سلسلة بنائية في النظام التركيبي المذكور . ونظرتنا للعالم تأتي محكومة باللغة التي نستخدمها . هذه فكرة ترجع إلى ويليام فون هومبولدت WILHELM VON HUMBOLD فكرة لعبت دوراً أساسيًا في المناقشات الحديثة حول اللغة . ما زال من المسلّم به أن دور اللغة في حياة الإنسان يأخذ الشكل الذي يتماهي مع المنطوق الإنساني . سنتناول بعض مظاهر هذه القضية في الفصل الرابع .

هذا التوازي الذي أشرنا إليه توًا بين طرفي المقال لا يمنع بالطبع أن يظل شكل المضامين الهدف الرئيسي للنطق اللغوي وأن تصبح طريقة التعبير وسيلة عمل المقالات الشعورية والإدراكية بالنسبة للمخاطب . وبفضل التعبير – الشفهي أو المكتوب – توصلنا إلى أن نجمع تحت مقال واحد تفريعات عديدة تصبح ، بدون اللغة ، أو قاعدة بنيوية أخرى ، بعيدة المنال بالنسبة لمعارفنا . اللغة هي وسيلتنا الأساسية لرسم صورة ترتيبية لمحيطنا الذي نعيش فيه ، غير أنها ليست الوسيلة الوحيدة .

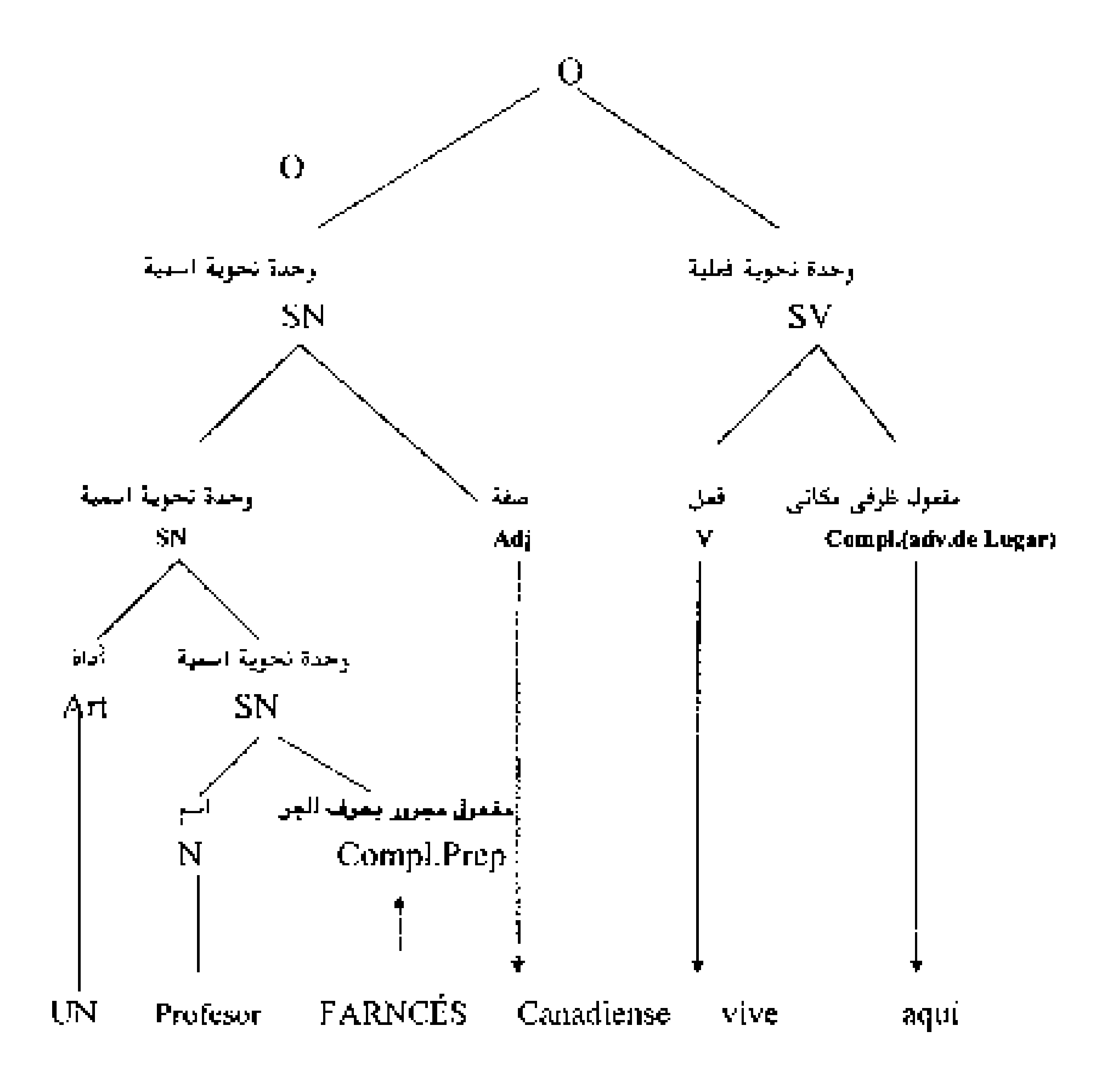
وبعد هذه القاعدة التحليلية للمضمون والتعبير – والتي سنعود إليها حالاً – ، تأتي فكرة الشكل المجرَّد الذي يتم التعبير عنه بمضامين معينة مختلفة فيما بينها (صوتية ، دلالية ، خطية ، إلخ) في الشكل رقم ٣ نرى فكرة عامة عن هذا الموضوع ، الوحدة الصوتية هي وحدة شكلية ، والصوت المنطوق ، هو اعتبار مضموني ، هذا التقابل بين نظام تجريدي مكون من عناصر أعدت في صورة وحدات صرفية تتسلسل في صيغ نحوية (وحدات نحوية) والتعبير عنها شفاهة (وكتابة) هو ما أطلق عليه دي سوسير DE SAUSSURE بداية التفرع الثنائي :dicotomia بين اللغة Lengua وأسلوب استخدامها habla . وعليه ، فنحن نستخدم هذا المصطلح الأخير للإشارة إلى أي نوع تعبيري ، مكتوب أو منطوق ، وأما مصطلح Texto (النص) فنستخدمه للإشارة إلى أي منتج لغوي ، بما في ذلك المنطوق ، إنها لفظة مرادفة لكلمة مقال (منطوق) Enunciado.

تتألف الوحدات البسيطة أو الصرفية داخل الوحدات النحوية والجمل ، ذات التعقيد المتنوع وفقا لنفس القاعدة التي لاحظنا المهمة التي تقوم بها على مستويات العناصر الأساسية ، أما المعرفات المحدِّدة Determinantes (الصفات ، ومجموعات الجمل ، إلخ) فتتجمَّع حول المعرفات المعيَّنة Determinandos (الأسماء الأفعال ، الصفات / المعدلة ، إلخ) المجموعات التالية تعد أمثلة لحالات تعريفية : ◄—— La muy pequena casa (المنزل الصغير جداً) La casa de mi padre (منزل والدي) Un viejo castillo de Espa?a (قلعة إسبانية قديمة) ، إلخ. في معظم اللغات تجد الجملة تتألف من اسم (فاعل – مبتدأ) ومن فعل (خبر) ، أو بشكلٍ أعم من وحدة اسمية ووحدة فعلية بينهما علاقة تبعية تبادلية (يعبر عنها اختصارا هكذا " SV- SN حيث يعني الحرف S الوحدة النحوية Sintagma (وهكذا يمكن التعبير عن الجملة بالصورة التالية SN+ SV ◄—— P وإذا ما أتت الوحدة النحوية الاسمية مركبة (على سبيل المثال ، أداة + اسم)، فمن الممكن التعبير عنها بهذا الشكل : Art + N ◄—— SN. وإذا

ما كان الفعل مركبًا (أي مكونا من الفعل المساعد + الصورة الفعلية) فيمكن رسمه بهذه الصورة :

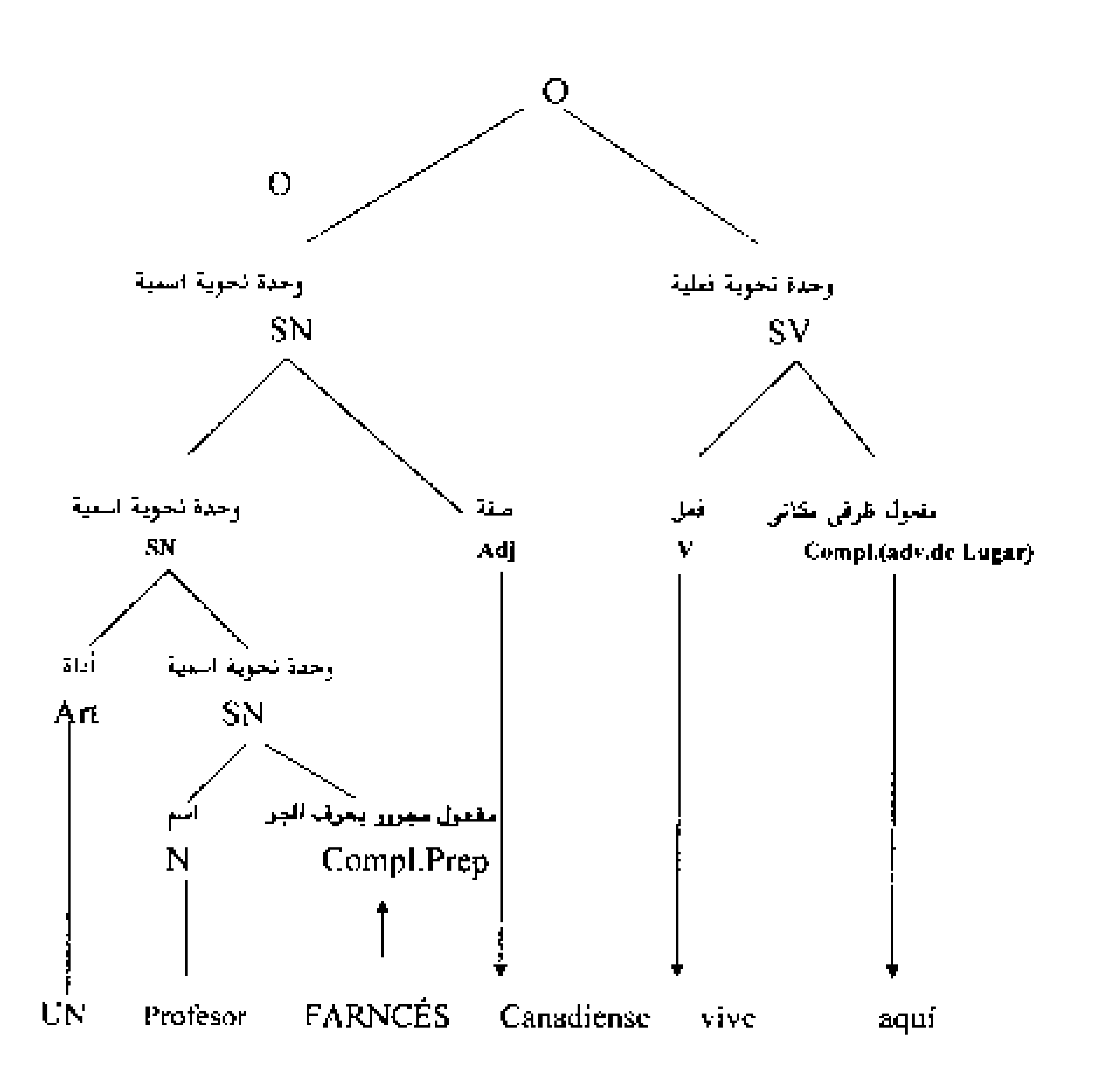
Aux.+V ⟶ S، إلخ . تمكنت القواعد التوليدية (الشجرية) Gramatica Gen-erativa، في سيرها على نهج تحليل الجمل ، من إبراز تحليل شكل بنية الجملة وعلاقات التبعية بين عناصر وقواعد تسمح بتوليد جمل جديدة على نفس النموذج .

من غير المؤكد دلالة التعاقب الخطي على مثل هذه الآلية من الترابط . ففي قولنا Un (profesor de francés)(candiense) vive aqu? ، بمقدورنا أن نقدم ترجمتين لهذا المثال : إما أن المدرس مدرس كندي يعلم اللغة الفرنسية يعيش هنا ، وهو أرجح الاحتمالات ، وأما أن يكون مدرسًا للغة الفرنسية المتحدث بها في كندا ، هو أقل الاحتمالات الواردة ، إلا أنه ممكن ، وعليه ، يصبح بإمكاننا تصوير هذا الفارق بالتعبيرين التاليين : (Un profesor) canadiense) (vive aquí) – (مدرس لغة فرنسية) – كندي (يسكن هنا) ، (Un profesor) (vive aquí) (de francés) (cana-diense - (مدرس) (لغة فرنسية ذات لهجة كندية) (يسكن هنا) . هذا التحليل يمكن التعبير عنه بوضوح عبر تفريعات شجرية : وعليه ، يُمثّل الاحتمال الأول بالشكل التالي : (شكل ٦) .



(شكل ٦)

أمّا الاحتمال الثاني فيُصوَّرُ بهذا الشكل :



شكل رقم (٧)

FIGURA (7)

مثل هذه البراهين البنيوية بمقدورها توضيح الكيفية الشكلية المترابطة التي تأتي عليها الجمل ، وكذلك اللامترابطة ، هذا بالإضافة إلى إمكانية اكتشافنا ، تحت سطح غاية في التعقيد ، لتراكيب تحتية أبسط تتشكَّل منها الأبنية المركبة . وهاهم النحويون السائرون على نهج بورت رويال Port-Royal يُفصحون عن هذه القاعدة عبر مثال شهير هو : Dios invisible ha creado el mundo visible – الله الباطن خلق عالمًا ظاهرا – يعد اختصارا لجمل عديدة تخبر عن وجود الله ، الذي لا تراه الأعين ، خالق العالم ، هذا العالم المرئي . والعبارة : M.X.que vive aquí y cuyo hijo ha sido alumno mío en el instituto que está junto a la iglesia en UN viejo barrio que data de la época de ..., etc. تعد مثالا للتشابك التتابعي للغة. والذي يعد الخاصية التوليدية (الشجرية) لها . ليس لطول هذه الجملة – التي تعني : (الشخص الذي يعيش هنا وله ابن كان تلميذي في المعهد الموجود بجوار الكنيسة في حي قديم يرجع إلى عهد .. إلخ) من حد نهائي فمن الممكن تطويلها إلى مالا نهاية كلَّما سمحت لنا ذاكرتنا بهذا .

وهذه التراكيب المتشابكة فيما بينها تعبر عن قدرة المتكلم (عن الجانب الذي يظهر مقدرته فيه) وهذا المنتج الذي بين أيدينا هو جهده الخاص (باستخدامنا لمصطلحات القواعد التوليدية) ، والفارق، الذي لا نكاد نلحظه دائمًا ، بين الكفاءة المذكورة ولغة سوسير SAUSSURE يكمن في أن هذه الأخيرة تشير إلى المجموع (مجموع المتكلمين النظري والمتغير إلى شكل اجتماعي) ، بينما الكفاءة التي نتحدث عنها تدل بداية فقط على المتكلم الفردي (الذي يمثل ، بالطبع ، الكفاءة الجماعية حين يصبح متكلِّمًا مثاليًا ، أو على الأقل نموذجيًا) والفارق بين المفهومين يرجِّح كفة الجانب النظري عنه في الحالات التحليلية المحددة (انظر الفصل السادس).

يرجع الدور المهيمن للمضمون في العملية التعبيرية خاصة إلى أن أي طرح مختلف عن الأصوات يصبح في بداية الأمر حسَّاسًا في إحلاله مكانها كي يقوم

بوظيفة التعبير عن المقالات الملفوظة . في الكتابة المعتمدة على حروف هجائية شائعة ، تتلخص القاعدة الأساسية في معرفة نوعية الأشكال الخطية (الحروف) التي تحل محل الوحدات الصوتية . هناك أسباب عديدة تفسر الدافع وراء عدم قيام أساليب الكتابة المستخدمة فعلا بهذه الوظيفة ، وتخبرنا كذلك بأن الرسومات الصوتية الوظيفية التي هي من صنع اللغويين سوف تتبنّى مثل هذا الأمر بصورة جادة .

الأشكال السمعية يصعب ترجمتها آليًا إلى أشكال منظورة . ولا يسمح الشكل متعدد الأبعاد للوحدات الصوتية مع ما له من إمكانيات تجاوز العلامات - / ١ / + الشفاهة = / ٧/ ، / + الأثر الصوتي = (d)، إلخ - والمحكوم بأجهزتنا الصوتية ، بتقليد كامل على سطح ذي بعدين ، فالحرف / v / في الكتابة ليس هو الحرف f إلى جانب شيء آخر . كما أن الحرف d في الكتابة الخطية ليس هو الحرف t إلى جانب آخر ، إلخ ، ومعلوم أن الوحدات النطقية Prosodemas - الخاصة بضبط النطق - صعبة الترجمة ، ولو ترجمت لأصبحت ترجمتها ترجمةً منقوصة في صورة رسومات خطية (انظر الفصل الثالث) .

سنرى أن اللغة المكتوبة لا ترتكز ، بنفس درجة اللغة المنطوقة ، على السياق والمقام ، وأن الضبط الكتابي يولي اهتمامه باعتبارات عديدة صرفية - صوتية عديدة لا تلقى لها اللغة الشفهية بالأ (الفصل الثالث) هناك سلسلة اعتبارات تاريخية تفسر ما يصبو إليه الضبط الكتابي ، اعتبارات ترتبط بلغة الكلام عبر صلات لا علاقة لها مباشرة بالوظائف الآنية للغة . الفرنسية والإسبانية من اللغات التي ما زالت تحتفظ بضبط كتابي قديم .

ظلّت قاعدة الرمز الشامل ، تاريخيًا ، رمزا للكتابتين الصينية والمصرية ، قاعدة تتألف من عناصر نطق مزدوج في العديد من السمات المختلطة بالكتابة الهجائية (علامات الربط ، الفواصل ، النقط ، إلخ) وفي الصلات الحسابية أو الكيميائية

المستخدمة بنفس الوظائف بعيداً عن طريقة نطق الكلمات الموازية لها في مختلف اللغات (+ ، - ، = ، H_2O، ... إلخ) ، نفس الشيء ينطبق تماما على الشفرات . هامي المصطلحات اللاتينية العالمية في مجال العلوم البيولوجية ، في صورة متعلقة بالطبيعة ، تمثل كوداً يتضح لنا من خلاله التماهي الحاصل بين المضمون والدال . الأسماء اللاتينية عبارة عن بطاقات . أما الحروف الهجائية الخاصة بالصم – الحروف اليدوية – فتنتمي إلى أنماط مختلفة . هذا ما سنتناوله في الفصل الثالث .

لابد لعلاقة اللغة بقوانين نظرية العلامات من أن ترتبط بأمثلة أخرى سابقة . تفسر الفروق بين الأنظمة العلاماتية ، جزئيا ، عبر تعقيدات الدال (المضمون) والبنية البعيدة (الحدية) لقانون التعبير وتأتي اللغة مزودة ببعد زماني (أو مكاني في حالة اللغة المكتوبة) لغة خطية كالموسيقى . والمربع ليس له حدأن يمثلان المسطح المرسوم عليه ، كما أن النحت يحظى بحد العمق أيضا . أما العمارة فتبنى على أساس البنية الترتيبية متعددة المستويات المتطابقة مع البنية اللغوية . على مدى الصفحات القادمة سنرى أن الوظائف الانفعالية والتعبيرية للغة ، نظرا للبساطة الشديدة التى تتمتع بها المضامين ، تقترب بصورة أكبر ، باعتبارها البنيوى ، من الأنظمة الرمزية للوحدات الكونية منها إلى الوظيفة الدلالية الثقافية المحضة التي تتبلور في لغة ذات بنية مزدوجة .

في حقيقة الأمر ، لا تكون اللغة إلا قطاعا ملحقاً على البنية العلاماتية الأشمل . وسنرى أنها بفضل ما يجمع بينها وبين الأبنية الأخرى من علاقات ترابطية تبعية ، لبنيات اجتماعية دينية ثقافية انفعالية – بمقدورها أن تكون لغة لأية جماعة بشرية يمكن أن تسمح بخلق نظام علاقاتي يربطها بالاعتبارات الخارجة عن الاطار اللغوى وينقل معلومات عنها . والدلالات الخاصة بأي منطوق – الأمر الذى ستتحدث عنه ثانية في الفصلين الرابع والخامس – لا تدخل في مرمى مدركاتنا إلا حين تنتمي إلى أبنية

أكبر . غموض الفكر غير محكم البناء – الذي تحدث عنه دي سوسير DE SAUSSURE – لا وجود له ببساطة . فقط نجد العناصر اللامترابطة تمثل حساسية إدراكها وخضوعها لتأملاتنا وردود أفعالنا الانفعالية. وحقيقة ، يصبح الإلمام الإدراكي بعنصر (مترابط – متصل) عملية لا معنى لها .

الفصل الثانى

اللغة السمعية

El Lenguaje auditivo

يقول رينيه توم THOM RENE: " يأتي إلينا الواقع تحت شكل من الفونيم ، من الأشكال ، الذى نكتشفه بفضل فواصله النوعية ."

من كل ما تقدَّم فى الفصل الأول نستنبط أن المنطوقات ذات التعبير الصوتى والسمعي تمثل الشكل الأول والطبيعي للغة الإنسانية، وكما سنرى فيما بعد ، فإن هذا لا يعني استبعاد مثل هذه الأشكال الصائتة عن عملية الاتصال الأولى للحيوانات الرئيسية التى سبقتنا. وأما الإنسان فقد اكتشف رويداً رويداً ، ويتحسن ، تفوقه على غيره من الحيوانات ، والتفوق النهائي للغة المنطوقة لدى الإنسان العالم يتم تفسيره عبر الرفاهية التمييزية الفائقة لحاسة السمع عندنا ولعدد إمكانيات الإنتاج الصوتى التى يطرحها جهازنا الناطق ، والحقيقة، أن الإنسان لا يملك جهازاً كلاميا أشبه بما يملكه من جهاز تنفسي وآخر هضمي . اللغة ليست سوى عمل ثقافى ، وما نطلق عليه الجهاز الصوتي ليس إلا تكيفا مع الضرورات التعبيرية والاتصالية لأجهزة لها وظيفة أساسية قاصرة على الجانب البيولوجي . وإذا ما كان أسلافنا الذين اختاروا ، فى مرحلة متطورة من التأمل التجريدي ، توليفةً من المدركات السمعية مع المؤثرات الصوتية الناجمة عن عملية التنفس ، آلية الحنجرة والتجاويف الفمية والأنفية ، فهذا أمر بديهي للغاية حيث إن التجربة قد علمتهم تفوق مثل هذه الآليات التمييزية على

غيرها (الإيماءات ، الإشارات ، ومن بعد الرسومات وما شابه ذلك من تقليد الأشياء) وسوف نتناول هذه القضية مرة أخرى فى الفصل الثالث عشر .

هذه السلسلة الصوتية التي تخرج من فم المتكلم تمثل ظاهرة سمعية معقدة للغاية فهي تحتوى على حركات ذبذبية منتظمة (الإيقاعات) وأخرى غير منتظمة (ضوضاء) والمصدر الأساسي لكل هذا هو الحنجرة ، نظراً لما تحدثه من ذبذبات (مزمارية) ، ذات ذبذبة وقوة تردد متغيرين ، تخضع لتعديلات ناجمة عن عاكسات أصداء الصوت (تجاويف الحنجرة نفسها ، والحلقوم والفم والأنف) ، ويصدر الإيقاع الحنجرى فى إطار ثرى من التناغم ، ومن الذبذبات التي تمثل مضاعفات كاملة للإيقاع الرئيسي . هذا الأخير هو المسئول عن السمو الموسيقي للكلمة . وتحت تأثير عاكسات أصداء الصوت تنطلق مجموعة صوتية قوية ولهذا ، فإن أي تغيير أو تعديل في الرنين - مثل تغيير شكل أو حجم التجاويف - يعمل على تغيير الجرس مما ينجم عنه العديد من الألفاظ الصوتية الذاتية (المتلازمة مع الحروف الصائتة للأجهزة الصوتية للغاتنا) . وفي هذا تكمن قاعدة تغيير الأجراس الإيقاعية للغة .

أما بالنسبة لقاعدة تكوين الأصوات الصامتة فإنها تأتي على صور مختلفة . ففي أماكن مختلفة . هذه المؤثرات تستخدم في اللغة إما بمفردها (ساكنة - صامتة) ، وأما بصحبة الإيقاع الحنجرى(حروف ساكنة - صائتة) وتأتى تعددية ذبذبة الإيقاع الحنجرى متوافقة مع مجموعة من الاختلافات اللحنية اللغوية (ضوابط نطق موسيقية، نبرات صوتية مختلفة المستويات) ، واختلاف درجة كثافة الموجة الصوتية يشكل قاعدة النبرات المعروفة بالنبرات الديناميكية . أما فروقات الأجراس فتستخدم خاصة كوسائل تمييزية داخل نظام الحروف الصوتية VOCALISMO، إلا أنها تساهم أيضا في نظام الحروف ذات الفروقات الصامتة (بين الحروف الأنفية والأخرى مثل التقاء اللام والراء فى أوّل الكلام كما في اللغة الإسبانية إلخ .) وتنوع البنية السمعية للتراكيب اللامنتظمة (سيادة مناطق ذبذبة مختلفة) هو ما يحكم فروقات حالة الانسجام الصوتي هذه .

وكحدث طبيعي محض ، فالسلسة المشابهة هي بمثابة تتابع متواصل من الحركات الاهتزازية ذات البنية المتنوعة بشكل لا نهائي . ولا تسمح هذه البنية بتفكيكها إلى أجزاء صغيرة، وبهذه الهيئة لا تظهر حساسية في أدائها لوظيفة التعبير عن أي منطوق (أو سلسلة من المقالات) ولكي يحدث هذا ، لابد لها من أن تقبل التفكيك إلى أجزاء غير مترابطة ، إظهاراً لعناصر تمييزية لغوية(الوحدات الصوتية أو مجموعات من الوحدات الصوتية ، بالإضافة إلى إمكانية الأشكال الخاصة بها) فكل وحدة صوتية تعبيرية – الوحدة المجرَّدة – يعبر عنها تحديدا عن طريق مجموعة من الاعتبارات الصوتية(العناصر الاهتزازية المدركة) التي تكوِّن جوهرها ومضمونها . هذا المضمون ليس بالضرورة أن يكون هو ذاته من مكان لآخر . وعادة ما تقبل الوحدات الصوتية تنوعا معتبرا وفقا لمكانها داخل الترتيب أو تمشّيًا مع العادات الفردية للمتكلمين . وبمقدورنا أن نبحث عن ماهيتها التمييزية من حال إلى آخر في وظيفتها ذاتها .

ومع هذا ، فما نطلق عليه الوحدة الصوتية ليس هو هذا الجزء أو ذاك من التركيب الطبيعي الذي يشمله ، فقد قلنا إن هناك بعض السمات ، المعروفة باسم التمييزية ، يجب الحفاظ عليها لما تتمتع به من ملاءمة لعملية الوصف التي يتبناها العالم اللغوي ، وهي نفسها التي تؤدي الوظيفة في الآلية اللغوية . في هذا الإطار يمثل هذا الجزء وحدة صوتية (فونيم) تحمل الظواهر الإدراكية التمييزية التي بدونها تصبح الوحدة الصوتية غير قابلة للتعريف والتحديد من الناحية السمعية ، الوحدة الصوتية ما هي إلا شكل ، وكذلك ما يكشفها من ملامح تمييزية . أما الجزء الذي يمثلها فهو على النقيض مجرَّد اعتبار مضموني . وبهذا الاعتبار الشكلي تحدد الوحدة الصوتية عن طريق اعتبار تقابلها وتناقضها مع الوحدات الصوتية الأخرى المتمثلة في التركيب . كما أن الشكل التمييزي يعرف تعريفا سلبيا : فهو مختلف تماما عن غيره من العناصر المكونة للتركيب . وإذا ما انتقلنا من هذا الوصف التجريدي والوظيفي للوحدة الصوتية

وملامحها إلى وصف الاعتبارات الفيزيائية الصادرة عنها هذه الملامح التى تكوِّن مع أخريات ليست ملائمة الأجزاء المحدَّدة ، يعد هذا انتقالاً من وصف شكلى إلى آخر مضمونى ، ومع هذا فسنرى توّاً أن هذا المضمون قد تكوِّن بصور خاصة بهذا الاعتبار المضمونى القائم ، كيف يتسنى للوحدة الصوتية (فونيم) أن تؤدى وظائفها التمييزية والظاهرة الفيزيائية اللاشكلية (amorfo) غير داخلة فى مدار مدركاتنا، وهانحن رأينا أن أى شكل دون تجسيد فيزيائى سيكون غير قابل للإدراك .

التفريغ الثنائى Dicotomía – الشكل – المضمون – هو أمر أساسى فى علم اللغة. وعلى مستوى التعبير يعود هذا التفرغ إلى الفارق القائم بين علم الأصوات الوظيفى Fonología وعلم الأصوات الطبيعى Fonética أما على المستوى المضمونى ، فتظهر حالة تقابل بين علم الإشارات الاجتماعى Semiología وعلم الدلالة SEMÁNTICA (الفصل الأول : شكل ٢) ومع ذلك ، فحقيقة هذا التأكيد لا تنفى على الإطلاق العلاقة القائمة بين الاثنين . وفى الواقع إن الأسلوب الذى اتبعناه حتى الآن فى توصيف التباين بين هذين الجانبين للغة هو تبسيط كبير لعلاقات أعقد . وسوف نبرهن هنا على هذا الأمر فى الجانب الخاص بالتعبير .

وعبر نظرة أولية نقدية يتبين لنا أن الموضوع يتعلق هنا بمحدودية الأدوات الصوتية البشرية التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول . وبشكل عام ، فإن المادة وخصائصها تقلل إمكانات التمايز الشكلى إلى حدٍ كبيرٍ . فهى لا تقوم بإنجاز فى أى مضمون . وليس هناك نظام خاص بالحروف الصائتة يحتوى على مائة أو مائتى وحدة ليس بمقدور حاستنا السمعية التعرف على العديد من الأنماط ، وجهازنا الصوتى يصبح غير قادر على إصدارها بمواظبة كافية .

ونظرة تدقيقية ثانية ستشير إلى انتظام العلاقات بين الملامح التمييزية للوحدات الصوتية والعناصر الفيزيائية التى تعبر عنها . أما بالنسبة لماهية النظام فعلينا أن

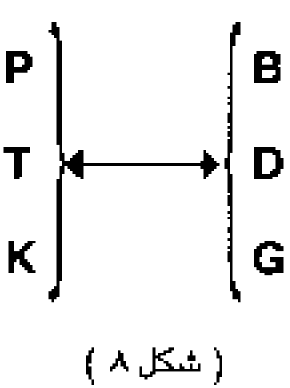
نبحث عنها في حقيقة العلاقات بين العناصر ، وهذه الماهية الوظيفية لا تعني بالضرورة أن تكون هويةً فيزيائية ، وسوف نوضح هذه القاعدة بمساعدة بعض الأمثلة .

في العديد من اللغات هناك سلسلتان ضمن تركيب الحروف الصامتة الانسدادية والحلقية : P,t,k,y,b,d,g (انسدادية) /y/s\S,s,f (في الفرنسية ch) ، y/ v/ 2 /3 (الفصل الأول ، شكل ه) وقد أطلقنا على الحروف الأولى ، الصادرة بلا اهتزازات مزمارية ، الحروف الصامتة ، والثانية ، الحروف الصائتة (ذات الإيقاع الحنجري) وهذا حال اللغة الفرنسية التي يتم فيها التقابل بين : p ,b (bu-bu) (مشروب – مستطاع) ، وبين v , f (fai -re- verre (يعمل – كوب) ، champ :z,s (حقل ، خوان)، وهكذا دواليك ، في هذا النظم نلحظ أن قوة الصوت هي ملمح مناسب يحظى بحساسية الإبقاء على فروق المعنى فقط ، مع هذا ، فمن المعلوم أن النغمة الإيقاعية ليست هي الاعتبار الصوتي الوحيد المميز لهاتين السلسلتين من الحروف الساكنة (الصامتة) – في اللغة الفرنسية – والحروف الصامتة تنطق بقوة أعلى من نطق الحروف الصائتة، ويقال أيضا إنها تتقابل كحروف قوية مع الأخرى الضعيفة الصائتة. ويتم في الثاني التعبير عن دور هذا الفارق الثاني في العديد من حالات التماثل بين الحروف الصوتية والأخرى اللاصوتية . والتماثل بين وحدتين صوتيتين يعني تقليص الفوارق بينهما ، إلى أن تصل إلى درجة التساوي التام (التماثل التام) أو فقدان ملمح أو سمة تمييزية أو اثنين (تماثل جزئي) . ففي الفرنسية نجد بمقدور كلمة med-ecin (طبيب) ، المشتملة على الحرف d أن تحوله إما إلى t سابق على الحرف s الصامت الذي يليه ، وإما أن تبقي عليه كحرف ضعيف وإن تعرض لفقدان قوته الصوتية ، الحالان موجودان باللغة الفرنسية في قولنا estupide une chose (شيء أحمق) نجد حرف z في كلمة chose بالإمكان تماثله أيضا أمام الحرف S اللاصوتي التالي ، ولكن دون تحويله هذه المرة إلى حرف قوي ، وبالتالي يظل محافظا على طابعه (ضعيف صامت : Z في النقل الصوتي) وفي قولنا : Une robe chic (معطف أنيق)،

نجد الحرف b يتحوّل إلى آخر غير صائت، ولكن دون أن يتحوّل إلى P (المنسوخة /٦/). هكذا تتم المحافظة على الفروقات ، ولكن بفضل ملمح مختلف عن ذلك الذي يعد في غالبية الأحوال مسئولاً عنه في المقام الأول . هناك عنصر سمعي - إدراكي عادةً ما يكون حشواً يتولى مسئولية الحفاظ على الفارق لولاه لفقدناه نتيجةً لفقدان تعارض أو تقابل مهم . وبهذا الشكل يتم الحفاظ على الفارق بين الوحدات الصوتية .

ومن ناحية أخرى فاعتباراً من الآن، سيكون من الخطأ رؤية التصوير الفيزيائي للفروقات لا أهمية له والإبقاء على الفروقات - أيا كانت - على أنه الضمان الوحيد التماهي . وفي صفحات قادمة (الفصل الرابع عشر) سنرى أن هذا التماهي يقوم على قاعدة فيزيائية إلى حدٍ ما .

وحتى تبرز قاعدة التماهي من عدمه للأنظمة الصوتية نختار تقابلا بين نظامين الحروف الانسدادية في اللغتين الفرنسية والدانمركية . كلتاهما تعرفان هاتين السلسلتين : /P/t/k---/b/d/g ففي البداية (سنتحاشى هنا فروقات لا تغير شيئا) ففي الفرنسية - وهذا ما رأيناه الآن - الأمر عبارة عن تقابل صوتي مع فارق القوة كعامل ملازم . أما في اللغة الدانمركية ، فالسلسلة الأولى غير صوتية وحلقية تماما ، والثانية لا صوتية هي الأخرى ، إلا أنها غير حلقية . وبالتالي ، فما يحدث في اللغة الدانمركية هو نوع من التقابل الحلقي دون تدخل أي اعتبار صوتي قوي . فالنظامان ، من خلال وجهه نظر شكلية ، متماهيان :



(شكل ٨)

FIGURA (8)

هكذا نرى أن فكرة العلاقة البسيطة ، المحبوبة جداً لدى بعض رواد اللغويات البنيوية ، بين الشكل (النظم - التركيب) والصورة الجوهرية (المضمونية) لا تتحمَّل النقد، في الواقع تجب التفرقة بين عديد من المستويات التجريدية : بداية من أي شكل تجريبي محض يتم توصيفه في إطار صورة ترابطية مستقلة عن أي مظهر فيزيائي (تعريف الحرف الصائت كوحدة تتمتع بحاسة تكوين المقطع الواحد، هو من هذا النمط) ، مروراً بتوصيف في كل محددات صوتية ملائمة (مضمون يتشكَّل من وظيفته التمييزية) ، وانتهاءً بالعلاقة الكاملة لجميع الاعتبارات الكاملة ، لجميع الاعتبارات القائمة بالفعل في السلسلة الصوتية مع تحديد ما تقوم به من وظائف على أي مستوى. وسترى أن الملمح الصوتي الخالي من وظيفته التمييزية على نفس المستوى بمقدوره أن يتلاءم مع غيره ، حين نلجأ إلى الإطباق أو التكلف . بإطالة أو مد أحد الحروف الصائتة ، فمثل هذه الإطالة أو هذا المد لن يدل على أي تعديل على المعنى الفكري للعبارة **Enunclado** غير أنه يعدل من قيمته الانفعالية، ففي اللغة الإسبانية التي لا تعرف التمييز الصوتي الوظيفي بين حرف "e" المغلق وحرف "E" المفتوح (في الفرنسية e) ، نجد أن فتحة الوحدة الصوتية "e" بمقدورها أن تصبح تشديداً مفخَّماً .

أي اعتبار ملفوظ (أو مكتوب) يتطلَّب مقاماً **Situación** يشترك فيه متحاوران . فغالبًا ما يكون الكلام (أو الكتابة) موجهًا إلى شخصٍ ما - حتى لو كان المتلقي - في حالات نادرة - جمهوراً مجهولاً أو متخيلاً، فيما عدا المتحدث ذاته، فنقطة انطلاق الحوار هي الحافز الخارجي للغة ، الانطباع السمعي ، البصري ، الإشاري الوارد من الخارج أو من جسد المتكلم ذاته (حزن ، عاطفة ، انفعالية ، إلخ) هذا الحافز يطلق عقال نشاط ذهني ينتقل إذا كان رد الفعل لغوياً ، خلال تحركات الأجهزة المنتجة للحزمة الصوتية مصدر الرسالة . ويتم تنظيم التنفس بصورة تسمح لتيار الهواء بإجراء التعديلات الضرورية . أما عضلات الحنجرة فتأخذ وضع الاستنفار لكي تغلق

وتفتح لسان المزمار، مما يؤدي إلى شد وارتخاء الأحبال الصوتية ، وفقا للمادة الجزئية موضوع الكلام ، صوتية صائتة أم لا، في التجاويف العلوية ، من لسان المزمار إلى الشفتين ، تحدث تعديلات شكلية وحجمية يصدر عنها تنوع أثر الرنين على الإيقاع المزماري ، فضلا عن إغلاق وتضييق ممر الهواء بسبب اللغط (الناجم عن الاحتكاك والانفجار) كأثر ناجم عن ذلك ، في بعض الحالات يحدث إغلاق جزئي (فمي ، جانبي) يتسبب في ظهور أنماط خاصة : حروف صامتة أنفية مع خروج الهواء عبر الأنف ، حروف صامتة جانبية مع تسرب الهواء عبر الجانبين في حالة انسداد متوسِّط. كل هذه المتغيرات للمعايير المختلفة وما ينشأ عنها من توليفات ضمن تراكيب صوتية مسئولة عن الشكل المعقد للتسلسل الصوتي الخارج من فم المتكلم .

رأينا أن التسلسل الصوتي المتصل والمعقد لا ينقل بصورته هذه كثيراً من المعلومات ، إضافة إلى نوع من المعلومات المبتذلة أحيانا ، والتي تعني أن الشخص يكون قيد عملية التناول " يتكلم ...(يصدر نغمات وصيحات) في هذا التركيب الصوتي ، يمكننا الوصول بصعوبة لتحديد ماهية الأجزاء الصوتية ، الفارغة من أي معنىً . هذا التركيب هو ما ندركه بداية حين نستمع إلى شخص يتحدث لغة لا نعلم عنها شيئًا ، وحتى تصبح الاهتزازات ، لحظة وصولها إلى جهاز الاستقبال لدى المخاطب ، مميزة كمجموعات عناصر معروفة متضمنة للمعاني ، من الضروري أن يكون النموذج الذي يستخدمه المرسل في إنشاء رسالته مألوفًا بنفس القدر لدى المتلقي، كي يتم التواصل الصوتي ، عند تطبيق هذا النموذج عليه ، التوصل إلى تجزئته والعثور داخله على سلسلة متتابعة من الجزئيات الصوتية الوظيفية ، وتعبيرات دلالية (كلمات وأشكال) معروفة في مجال اللغة . وهذا التفسير للرسالة الصوتية ليس إدراكا بسيطا للتراكيب الصوتية ، إنه تفسير لغوي محكوم بالألفة مع الكود المستخدم، وعملية الإدراك اللغوي ليست ، بالتالي ، مجرد اعتبار فسيولوجي بحت، إنها تعني قيدا اجتماعيا توافقياً. حين نواجه صعوبة في فهم ما يقوله الأجانب فإن ذلك لا يرجع إلى تحدثهم اللغة بسرعة أو بطريقة تختلف كثيرا عما نستخدمها نحن في لغتنا . ولكن هذا

يرجع بكل بساطة إلى أن معرفتنا بالكود اللغوي المستخدم معيبة . وإذا ما بالغنا بعض الشيء ، بمقدورنا أن نعلن بأننا نفهم ما نود أن نفهمه ، ومعرفتنا بقواعد لغتنا – مجموعة الوحدات الصوتية وترتيبها ضمن السلاسل العامة ، القواعد وطرائقها الصرفية والنحوية ، معجم المفردات، السياق الاجتماعي والثقافي بأكمله الذي يتولّد عنه نوع من الحوار – تعني أن كثيرا من العناصر أمر ممكن التوقع ، قياسا على ما سبق. بمقدورنا أن نتكهن بجانب كبير مما يقوله مخاطبنا ، والإنسان الأجنبي لديه هذه المعارف بدرجة أقل " يفهم " بدرجة أقل إجادة، وهذا يفسِّر أيضًا لماذا (أسماء الأشخاص والأسماء الجغرافية) والكلمات الفنية والأجنبية ، الأقل شيوعًا ، تُفهم بصورة خاطئة (وخاصةً في ظل ظروف غير مواتية ، عبر الهاتف والمذياع) .

كانت الصوتيات الطبيعية الكلاسيكية (fonética) تصف " الأصوات " اللغوية في صورة نطق (وصف لعملية الإصدار ، طريقة ومكان التكوين) . وفيما بعد ، ظهرت الصوتيات الحديثة ، التي جاء ميلادها مع ظهور التقنية السمعية لفترة ما قبل الحرب (المرشحات السمعية ، الصونو جراف ، إلخ) فأصبحت تفضل النظر إلى استمرارية العناصر التعبيرية في البنية السمعية للأصوات ، وقد أصبح أكيدا – منذ الثلاثينيات من هذا القرن (القرن العشرين) (روسيل ، ميير ، إلخ) Pussel y Meyer – أن البنية السمعية نفسها دائما ما تولدت عبر طرائق مختلفة ويعد رد فعل في صالح النطق التفكيكي (" نظرية الدفع " ، أنصار النظرية التوليدية) الذي يصعب الإبقاء عليه ، توجهت النظرة التفضيلية إلى الاستمرارية الصوتية لهذه العناصر في شكلها الإدراكي . وفي مجال الصوتيات الطبيعية يصبح كل شيء يفهم في صورته التماثلية مطابقًا، ومع هذا فإشكالية معرفة إلى أي درجة يصبح الانطباع الإدراكي هو ذاته عند مختلف المستمعين وإلى أي حد نجد أنفسنا خاضعين لتبعية عاداتنا اللغوية تبقى هذه الإشكالية قائمة . إنه اعتبار يمكِّننا من إدراك الفروقات الصوتية العائدة إلى فروقات وظيفية في لغتنا بشكل أفضل . أما في اللغات الأخرى فيكون ذلك بدرجة أقل إجادة

بصورة أقل، فالفرنسي يدرك بسهولة أكبر من الفنلندي الفارق بين الحرفين : b-P ولاحقًا سنبرهن على أن المراتب المضمونية المتعكسة على صفحات البنية اللغوية تبدو أكثر مباشرة وأسهل إدراكًا وأن الأخرى تتطلّب مجهودا معينًا للوفاء بها .

باستطاعتنا أن نلخص تقديمنا للمستويات التعبيرية بالطريقة التالية . لنأخذ مثلا الوحدة الصوتية / P / في الفرنسية ، هذه الوحدة الصوتية :

١ – تتقابل ، كحرف صامت ، مع حروف أخرى داخل النظام ، مع كل الحروف الصائتة للغة ، وباعتبارها حرفا ساكنا صامتًا تتقابل مع الحرف /b/ وكل الحروف الساكنة المكونة لسلسلة الحروف الصوتية ، وباعتبارها حرفا صامتًا مستغلقًا تتقابل مع الحرف /f/ ومع كل سلسلة الحروف الحلقية (S,s) وأخيرا ، كحرف ينطق من بين الشفتين تتقابل مع الحرفين (K,T) (السني والحنكي – الحلقي ، على التوالي ، من سلسلة الحروف الانسدادية الصامتة) هذا الوصف اللاجوهري بداية (باستثناء الملاحظات البسيطة التي بين الأقواس) ، يمكننا فقط من تجميع العناصر القائمة على التقابلات المكونة لها مع غيرها ، ومن خلال دراسة مفصلة لإمكانيتها التوليفية يمكن طرح الحجج اللازمة لتصنيفها ، هكذا نجد النمط L,r,m,n لا يقبل سوى المكان الأقرب من الحرف الصامت (ملتصقا بحرف صائت) Pli / Klu / Vr، إلخ ، ولكن دون النظام العكسي مطلقًا . وكذلك فإن هذه الحروف الساكنة لا تعرف المتجانسات الصامتة . إنه وصف بنيوي محض .

٢ – تتشكل في صورة صوتية : من حرف انسدادي صامت يخرج من بين الشفتين ، متقابل مع الحروف الحلقية f/v، وكحرف شفهي تتقابل مع k/t، وكحرف صامت تتقابل مع b . في هذا الإحصاء لم نأخذ سوى الملامح الملائمة (الوظيفية) إنه وصف صوتي وظيفي قائم على أساس علم الصوتيات الطبيعي .

٣ – لها نفس الخصائص التي عددناها في الجزء (٢) إضافة إلى سلسلة من الخصائص المدركة سمعيا : حرف قوي ، غير حلقي، إضافة إلى مجموعة من

الخصائص الممكن التأكد منها بمساعدة عملية استقصائية سمعية أكثر دقة . ومن هذه الخصائص يوجد نوع آخر يتبنّى ، في بعض السياقات أو في ظل ظروف أخرى ، مسئولية الفروقات الصوتية الوظيفية ، وقد كان التمرين السمعي (ear training الشهير الذي أجراه علماء الصوتيات الإنجليز ، مدرسة دانييل جونس DANIEL [illegible] اللغات . هو وصف صوتي – سمعي ييُسر تعلم لغة أجنبية بدرجة كبيرة من خلال التدريب السمعي .

٤ – تتميز بعدد كبير من الخصائص النطقية والسمعية لا يمكن الكشف عنها إلا بأدوات تقنية لا تمثل أهمية للوصف اللغوي إلا بوصفها شكلاً غير مباشر دون إشارة مسبقة لتصنيفها وذلك لعدم أهميتها في عملية الاتصال ، كما سنرى لاحقا . هذا الأمر هو وصف صوتي طبيعي آلي (UNA DESCRIPCIÓN FONÉTICA INSTRUMENTAL) .

هذا التلخيص الذي سقناه أفصح عن إمكانية استنباط أن الحد بين الشكل (إجادة علم الصوتيات الوظيفي) والمضمون (إجادة الصوتيات الطبيعية) لا يتم رسمه في شكل مطلق أحادي الجانب، من الواضح أن الاعتبارات المجتمعة في رقم ٤ المذكورة آنفا يجب أن تصنف كملامح مضمونية محضة ، هذا إلى جانب بعض الخصائص الموضحة في المجموعة ٣ ، وأيضاً من الواضح جداً أن الاعتبارات المصنفة في المجموعة (٢) تنتمي إلى مستوى المضمون القائم والذي ، على سبيل المثال ، أصبح المجال المفضل للصوتيات الوظيفية التي رأت النور في منتدى براغ في العشرينيات (من القرن العشرين) ومن ناحية أخرى ، إذا اكتفينا فقط على المستوى الشكلي بالعلاقات الترابطية المحضة المصنفة في المجموعة (١) ، تصبح النتيجة أن وصفا مماثلا سيقتصر على استقصاء لعدد وتوزيع التقابلات المعروفة في اللغة، وعلى سبيل المثال فإن تجميع التفريعات السياقية المتعددة تحت مسمًى ثابت (الوحدة الصوتية) EL FONEMA يصبح مستحيلا في معظم الأحيان .

في الحروف الأولية المطلقة ، كل سلسلة من الإمكانيات المتعلقة بالحروف الصامتة : P.t.k.b.d.g.m إلخ (هذه العناصر ذاتها) ترد بصورة مماثلة في الوحدة الأخيرة : Pa,ap,da,ad إلخ الأمثلة كثيرة جدا ولكن إذا اكتفينا بالوصف الارتباطي ، فيجب أن نرضى بتقديم عدد الفروقات المقبولة في البداية والنهاية . وفي حالة اللغة الفرنسية يجب التأكد من أن العدد هو نفسه (إذا تخلينا عن " الحروف المعتلة الصامتة " y,w وكذلك ، باستثناء حالات متفردة ، الحرف الأنفي الحنكي ، n ، المعروف في : gnaf gnangnan ، إلخ) وعلى النقيض من ذلك ، فهذه العلاقة ذات الاعتبارات الشكلية لا تسمح لنا بتصنيف حرف P (في كلمة Péte) ، إلخ في الواقع ، إن أولئك الذين اختاروا بين المستوى الوصفي ، التجريدي مائة بالمائة ، لم يأخذوا في اعتبارهم سوى الاستقصاء المماثل للإمكانيات المقبولة في المقامات المختلفة على سبيل المثال الاستقصاء الشارح . وحتى للويس هسلاف على وجه الخصوص) . وحتى نجمع بين حرفي P من كلمتي guápe Pére يجب أن نعرف أنهما حرفان من الحروف الانسدادية الشفهية الصامتة .

هذا المثال الفرنسي ليس كافيًا للتدليل على الأهمية الوصفية للاعتبارات التصنيفية . وإذا اخترنا بدلا من الحروف k,t,p في اللغة الفرنسية ، الوحدات الصوتية المقابلة في اللغة الألمانية فستكون هذه الوحدات متقابلة مع الحروف الصوتية b,d,g في البداية وبين حروف صائتة ، لكن لن يحدث هذا في النهاية، كوحدة صرفية لا تعرف الألمانية سوى ثلاثة احتمالات تمييزية انسدادية ، أي نصف الوسائل الفرنسية في ذات المقام . هنا نعثر على فارق بين اللغتين لا يتحصر فقط في الميزان الصرفي، بل في التصنيفي .

هذا المثال ، إضافة إلى إبرازه للقاعدة الوصفية الارتباطية للتعبير ، بمقدوره أيضا أن يبرز محوري اللغة وملامحها : الأول الصرفي ، أو الاستقصائي للعناصر (التقابلية ووسائل التميز) ، والآخر النحوي (البعد الأفقي التصاعدي) .

على أساس من هذه التراتيب الوظيفية يبدو لنا كيف أن السلسلة التعبيرية تتيح لنفسها مجال التجزئة أمام المتلقي الذى ألف كود الشفرة ، وإذا ما كانت إجادته لهذا الكود معيبة – كالأجنبي ، والطفل والمتخلف عقليًا – فإن تماهي هذه الأجزاء يصبح أمرًا غير مؤكَّد، وإلى جانب تماهي علاقاته مع المضامين سيكون هناك مجال لسوء الفهم . وسيدور الحديث عن ضجيج في القناة الناقلة، وقياسا على الاضطرابات الصوتية الصائتة في الجانب التعبيرى ، يتم الحديث أيضا ، بشكل مجازى ، عن لغط دلالى فى حالات لا تصبح فيها مضامين المقالات محددة بشكل صحيح ، وعلى العكس، فحين يكون التماهي تامًا والمعرفة باللغة كافية بالقدر الذى تسمح معه بتعويض النقض الوارد من نقطة الإصدار (قصور أو خطأ فى النطق) أو حين يحدث له تشوية أو تعمية فى الطريق (لغط ، تشويه تقني في حالة النقل الآلي ، إلخ) ، فإن المقالات (أو تتابع المنطوقات) سيتم التعرف عليها وستكون الرسالة مفهومة .

هذه الدائرة الكلامية هي فى الواقع عملية غاية فى التعقيد تفوق ما كان يمكن قوله في بداية الأمر، تعني – باختصار شديد – العبارات التالية :

١ – الحافز (بداية الكلام) ، الاعتبار الخارج عن الإطار اللغوى .

٢ – البنية اللغوية لمضمون يمكن نقله (العملية الواجب أن تأتى مسبوقة ، بطريقة لا شعورية ، برباط من العناصــر الأساسية ، أو جزئيات بسيطة لابد من إدراكها هناك .

٣ – تفعيل الأجهزة المنتجة بالنظر إلى بناء تكوين العبارات المتعلقة بالمنطوقات المختارة .

٤ – الموجة الصوتية الحاملة للاعتبارات السمعية الملائمة.

٥ – الإدراك السمعي (تلقي الموجة الصوتية عن طريق الأذن الخارجية والأذن الوسطى والأذن الداخلية التى تحلِّل الموجة الصوتية) .

٦ – ترجمة لغوية للإدراك الفسيولوجي (بمساعدة الكود) .

٧ – إعادة صياغة الرسالة التي أعدها المتكلم (أو الرسالة المعدَّلة على طول الطريق) .

رأينا أن هذا النقل الصوتي للرسالة التي تم إعدادها لغويًا ليس سوى إحدى الوسائل المتعددة المتاحة للدائرة الكلامية . في الفصل التالي سنتحدث عن الكتابة ومع هذا ، فمما لا ينكر ، أنه من بين الإمكانات المتاحة للإنسان البدائي في بحثه عن الوسائل التعبيرية تصبح الكلمة ، كما استخدمها الإنسان ، بقاعدة سمعية ، بادية في صورة أشد ضعفًا وأعلى ثراءً في وسائل التمييز إضافة إلى أن السمع يتفوق على البصر لإمكانية حدوثه في الظلام ، حيث لا وجود هنا لإدراك الإشارات أو النص المكتوب أو الأشكال المرسومة. الموجات الصوتية تحقق الانتشار الكوني في كل الاتجاهات ، تدور في الزوايا ثم تخترق – وإن كانت تقوم بتنقية الأصوات – الحواجز الصلبة. يضمن ثراء خاصية الفضول عند الموجه الصوتية مقاومة معتبرة لعملية التشويه (ألفاظ محيطة ، اعتبارات رنينية ، استقبال سمعي معيب) ، أما الهاتف ، كغيره من الوسائل التقنية ذات خاصية النقل الصوتي ، فلا يقوم بنقل هذه الموجة كليةً . فما هناك وجود للذبذبات العليا والدنيا ضمن الموجة المنقولة عبر الهاتف . وها هو العلم الحديث يتمكن من عزل موجة الذبذبة التي لا غنى عنها للتعرف على الرسالة . وما يقوم به الهاتف فقط هو إعادة هذه الموجة بصرف النظر عن البقية الباقية . الهاتف، (كبقية الوسائل ذات النقل الصوتي الميكروسكوب ، مكبرات الصوت ، المكبرات) هو مرشح سمعي ، وكذلك الحائط الذي تصلنا من خلاله ، عادة وبمشقة ، موجات مذياع الجيران . هذه المعرفة العميقة التي ندين بها للصوتيات الطبيعية ساهمت في خفض تكلفة تصنيع مختلف الوسائل التي تنقل الأصوات بشكل ملحوظ . باستطاعتنا التركيز على نقل التُّرددات التي لا غنى عنها في التعرف على الرسالة .

وحاسة السمع البشرى هى الأخرى جهاز تنقية سمعى . فهى تقوم بتسجيل وتحليل الموجة المعقدة الداخلة عبر الأذن الخارجية . ولكن إدراك الموجة يعنى نقلا لا ريب فيه (طبلة الأذن ، عظيمات الأذن الوسطى) وآلية تحليل كامل (الأذن الداخلية) من عيوب النقل يبدو على وجه الاحتمال عيب التّسجيل المنخفض (الأساس ذبذبات أخرى منخفضة) ، وحين نقوم برفع قوة الصوت نشعر قدر الإمكان بتحسن نتائج عملية الإدراك . وإذا لحق عيب بالأذن الداخلية ، فمن الممكن ملاحظة الضرر خاصة فى المقام العلوى للذبذبات والنشازات المتعلقة بمخارج الحروف الصامتة – المميزة لها – من الممكن إدراكها بصورة رديئة أو أنها تختفى بالكامل ، وعادة ما يسمعها الأصم دون أن يميزها حيث تنعدم الذبذبات الملائمة ومعلوم أن الحروف الصامتة هيكل الكلمة – تفوق أهميتها الحروف الصائتة فى التعرف على ماهية الكلمة ، الحروف الصائتة الحاوية لمكونات تمييزية أقل مقارنة بالألغاط الناجمة عن الحروف الصامتة (التى تتجاوز بالكاد ٢٥٠٠ كيلو / سايكل) فرفع قوة الصوت لا يجعل من الرسالة صوتًا مسموعًا بصورة أعلى عند شخص أصابه هذا النمط من العيب السمعى وعلى العكس، فالنطق الواضح يمكن أن يكون مفيداً له . والشخص المصاب بصمم تام أو مازال يتمتع بآثار كافية لبقايا سمعية فى المقام المنخفض يبقى خارج إطار عملية الاتصال الشفهى . أما إذا وُلِدَ بلا سمع أو لحقه أذى سريع فى سمعه فلن يكون أمامه مجال للدخول إلى ساحة اللغة الشفهية ولحسن الحظ فعدد المصابين بالصمم الكلى أو شبه الكلى بسيط جداً، والعديد من الأفراد لديهم بقايا سمعية يمكن استعمالها فى تعلم نوع من التمييز السمعى . وفى حالات كثيرة تكون هذه البقايا السمعية كافية وتستطيع بالتدريب زيادة إمكانات تعلم اللغة الشفهية ، فى ظل البقايا السمعية الكافية ، ولو كان معيبًا . هناك اعتبارات صوتية لا علاقة لها بالفروقات الصوتية الوظيفية يمكنها دخول مجال الإدراك والقيام بدور العامل المساعد فى مجال الفروقات الصوتية الصامتة والتى لا يمكن بلوغها بصورة أخرى ، فى هذا الجانب يصبح من الخطورة بمكان الاستهانة مسبقا بالخصائص الصوتية المكتشفة عن طريق التحليل الآلى ، أو بمساعدة

الخبرات المنهجية ، بحجة انتمائها إلى حقل غير لغوى ، تنتمى إلي عالم فيزيائى بعيد عن اهتمام علم اللغة ، والاكتشافات التى تم إنجازها عبر التركيب والتحليل الفيزيائى لأصوات اللغة تبرهن على الصورة البائسة لتركيز الأبحاث فقط ، في لحظة معينة ، على الأشياء التى تبدو مفيدة وازدراء كل أمور الفضول التى تبدو بسيطة. وقد برهنت الخبرة الصوتية الطبيعية على أن مثل هذه " الأمور الفضولية " التى هى ، فى هذا الوضع تحديدا ، الظواهر المؤقَّتة بين الحروف الصامتة والأخرى الصائتة فى تسلسل الحديث ، والممكن استخدامها كبدائل للنشازات الصوتية الساكنة فى عملية تعليم الصم – بمقدورها القيام بدور عملى وأكيد فى البداية . وغالبية الاكتشافات الكبرى التى غيَّرت وجه العالم أُنجزت بلا سوء نية عملية أو تطبيقية .

اقتصر تعليم الصم بالصورة الكلاسيكية ، منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر ، على إكسابهم لغة منطوقة تقوم على أساس Kinestésica . وبدون معونة سمعية، تصل هذه اللغة فى مرات نادرة ، من غير بقايا سمعية قابلة للاستخدام ، على تشابه سار مع اللغة الطبيعية . والإنسان الأصم يبقى، حتى بعد تعلمه بشكل ردىء تكوين أصوات لغة محيطه الاجتماعى ، معزولاً عنه؛ نظرا لأسلوبه المعيب فى الكلام . والبطء فى التكيف مع اللغة المذكورة يكون بمثابة عائق HÁNDICAP فى تطوره الذهنى أمام المجهودات المبذولة من أجل الزَّج به إلى عالم المجردات والاعتبارات وأحداث الثقافة والمجتمع . هذا هو ما يتسبب فى تعريض تبرير مثل هذا التعليم التقليدى فى مدارس الصم لانتقادات جادة . سنعود لتناول ومناقشة هذه المسألة فى الفصل الثالث .

وما نهتم بإبرازه فى هذا السياق هو أن عناصر التعبير جميعها متحفظة . فإيقاع النطق يدل على أن الجملة قد انتهت أو أنها ما زالت مستمرة . وفى مواجهة هذه النظرية جاء الاعتراض على أن استمرارية الجملة تعرف تغييرات لا حصر لها، لا تقتصر على عدد محدود من الوحدات النطقية (أو وحدات صوتية تتخطى الجزئيات) فالصوت بإمكانه أن ينخفض أو يرتفع قليلا ، ويكون مستخدما بهذه الصورة كتعبيرات

ضمن سلسلة مضامين تعبيرية مفخمة ، دالة على الانفعالات ، إلخ . وعقب هذا التقابل يظهر لبسٌ في مستويات الاتصال . حيث نرى أن كل عنصر تمييزي يؤدي مهمة معينة على مستوى معين لا يتعداه إلى غيره . أما الدلالة النزولية ، المعبرة عن النهاية ، فتؤدي وظيفتها على المستوى الدلالي المحض . حين نشهد تقابلا بين رسالة منتهية فكريا وأخرى لم تنته بعد . والواقع أنه لا وجود لما يسمى بإيقاع السؤال في اللغات جميعها . والنمط اللانهائي هو الذي يقوم بهذه الوظيفة أو غيرها من الوظائف وحين تتحقق العملية الانحدارية أو التصاعدية عبر تعبير نازل وآخر صاعد بصورة قوية ، فإن هذا يمثل إضافة لميزة تعمل على مستوى أعلى للاتصال مستوى تعبيري ، دلالي ، إلخ . هذا التقابل الصاعد – النازل يمكن توليفه ، بصرف النظر عن إمكانية تنفيذه من الناحية الفيزيائية ، في الكلمة المحددة ، مع منحنىً مغيِّر أو تقوية خاصة . ولكن الأثر الناجم عن مثل هذا التعديل يتفوق على الآخر باعتباره تناقضًا (ارتفاعا قويا – ارتفاعا عاديا) . وباستخدامنا للغة علم الجبر ، في شكل صعود (ذي قيمة لا نهائية) حال لعلامة موجبة (+) وأما الانحدار (القيمة النهائية) فيحمل الصورة الحيادية (٠– صفر) وعلى مستوى أعلى (تعبيري أم غير تعبيري) يعد الصعود الطبيعي أمرا حياديا والصعود على مستويات تتزايد رويدا رويدا وعلى أصعدة دلالية تحظى بالشمولية للخروج في النهاية من مجال بنيوي لغويًا . وقد رأينا أن أية ظاهرة بحساسية تمكنها من نقل أية معلومات ، لغوية أو غير لغوية ، باعتبارها تمثل جزءاً منفصلاً وعضواً في بنية معينة . فنحن قادرون ، دون ما إلمام باللغة المستخدمة ، على فهم ما إذا كان المتكلم سعيداً أم حزينًا ، ثائراً أم جزوعًا، مما يبرهن على أن العناصر التي تكشف حالته النفسية تشكل جزءاً من نظام خارج عن الإطار اللغوي ذي الصلاحية الإنسانية بوجه عام . ربما أن تماثل البنية المفترض بين التعبير (الشكل) والمضمون هو الذي سمح لنا بأن ندرك ، بصورة مماثلة ، العلاقة بين هذا المضمون وعالم الخبرات والأفكار الإنسانية .

وإذا أخذنا كمثال التناقض الحاصل بين نمطين من الإيقاع الصوتي ، نلمس عرضاً لقضية وصفية تجمع بين متناقضات نظرية وعملية على حد سواء ، وقد اقترحنا وصف هذا التناقض في شكل تناوبي باعتباره كصاعد - نازل ، مرتفع - منخفض أو باعتباره صاحب علامة أم لا (+) مرة أخرى يقدم لنا هذا الأمر مثالا مختلف المراتب التجريدية للوصف اللغوي . ويأتي البديل الأول ممثلا في وصف بسيط للمنحنى الإيقاعي (الذي يأتي نتيجة عملية شمولية بداية من الإجراءات التي اتخذت بصورة موضوعية أو مسجلة سمعيا) . وبالإمكان تحقيقه كحركة تخطيطية موجزة أو ببساطة كاتجاه (لأعلى أو لأسفل) . أما البديل الثاني فيعني وسيلة تجريدية راديكالية : تقليل المنحنى لدرجة نسبية (عالية أو منخفضة) في سلم ذبذبات ممكن اختياره بصورة تعسفية (ولكن بالإمكان تأكيده عن طريق اختبارات إدراكية ، الصفحات التي بين أيدينا لا تسمح لنا بتناول هذه القضية) وأخيرا ، فالبديل الثالث هو بنيوي وظيفي محض حيث يقع الاختيار بين الجانب المحدد (الحد الموجب) واللامحدد (الحد الحيادي) الموضح عن طريق اعتبارات وظيفية (توفيقية) لا نلقي لها بالا (انظر ، المثال الذي سقناه عن اللغة الألمانية في صفحة ٤٠) والذي طرحنا فيه النمط الصوتي معتبرين إياه حدا موجبا بتمثيله ذلك الحد المتواري الذي يختفي في المقام النهائي ، أي المقام التوفيقي .

الأجزاء الصوتية الوظيفية المركبة ، بداية من المقطع وانتهاء بالمتواليات الأطول ، تتميز ، وبالتالي ، تتناقض مع بعضها البعض بمساعدة الظواهر الصوتية التي أطلقنا عليها عامة " الوحدات الضبطنطقية " (انظر صفحتي : ١٩ ، ٢٠ من النص الأصلي)، بالإمكان حدوث تقابل بين مقطع وآخر في أي ترتيب نظراً للاعتبارات الضبطنطقية. في اللاتينية ، نجد المضارع **Pervenit** (يصل) يتقابل مع الماضي **Pērvenit** (وصل) نظرا لموقع النبرة التي ترد بالمقطع الأول في حالة المضارع وبالثاني في حالة الماضي . هذا الفارق يأتي في اللغة اللاتينية محكوما بكم الحرف الصائت الموجود بجذع الكلمة.

هذا التناقض ذاته يحدث في الإسبانية بين كلمتي : Cantó . في كثير من اللغات يكون الإيقاع وسيلة للتمييز بين كلمة وأخرى . تلك الأخرى المتجانسة في اللفظ المختلفة في المعنى (الإسكندنافية ، الصرب - كرواتية ، الأفريقية والشرقية) . لن نخوض هنا في مثل هذه التفاصيل . وعلينا أن نثبت فقط أن الإيقاع ، في لغات معينة (إفريقية ، على سبيل المثال) يميز مقطعًا، وفي أخرى (كالإسكندنافية) مجموعة من المقاطع ، ووصف هذه الإيقاعات لا يقدم لنا حقيقة أية مشكلة نظرية ، إضافة إلى مناقشة مكثفة أحيانا حول أهمية العوامل الفيزيائية المنفذة للتناقض قيد الحديث (الإيقاع الخالص ، تغيير الإيقاع الصوتي ومقاماته ، التناغم بين الإيقاع والكثافة الصوتية ، إلخ) . أما مشكلة الأنظمة الإيقاعية والكتابة فسنتحدث عنها مرة أخرى في الفصل الثالث .

أشرنا توًا إلى أهمية النغمة الإيقاعية للعبارة في تحديد معنى المنطوقات (النازل = التأكيدي ، الصاعد = الاستفهامي ، إلخ) هذه الإيقاعات ترتدي اللباس الصوتي الوظيفي الذي ترتديه النغمات والنبرات الموضوعة فوق الكلمة والفروقات التجزيئية بصفة عامة . بالنسبة لقضية العدد فإن الوحدات التمييزية تقل في عددها عن الوحدات الصوتية التفكيكية . وأية لغة لا تحتوي عادة على أكثر من تقابل بين نمط هابط يحدد النقطة النهائية للرسالة ونمط صاعد دال على الاستمرارية ، سواء أكانت تلك نهاية جملة أو إجابة عن سؤال مطروح .

المشكلة نفسها مطروحة على مستوى نغمات الكلمة . وها أنا طبقت وجهة النظر ذاتها على إيقاعي لغتي (السويدية) حيث يمكن وصف أحدهما عن طريق منحنى لحني (صاعد بدرجة خفيفة ، يعم على قاعدة متوسط القياسات المحددة) ، إما باعتباره منحنىً صاعدا ، وإما باعتباره صاحب حد موجب (+) وثانيهما يتم وصفه عن طريق منحنى نغمي نازل ، أو منخفض ، أو من قبيل الاعتبار غير المحدَّد (المحايد) وتأتي عملية اختيار البديل خاضعة للهدف المقصود من الوصف . وأعلى درجات التجريد تقبل ، على سبيل المثال ، نوعا من المقارنة بين أنظمة متعددة . وانطلاقًا من

هذه المقولة يصبح تماهي نظامي النطق في اللغتين السويدية والدانمركية سهلاً للغاية ، رغم وجود تعبير صوتي طبيعي شديد الاختلاف للتناقض في هاتين اللغتين المتصاهرتين ولمن يحاول تأسيس نظام خاص بضبط الكتابة للهجات مختلفة لأية لغة إيقاعية ، يكون الوصف التجريدي (الوظيفي) طريقا يسمح بنظامٍ كتابيٍ واحد رغم شدة الاختلافات في التنفيذ الإيقاعي .

وعلى النقيض من ذلك ، حين تمثل العملية الوصفية نقطة الانطلاق لبناء أجهزة النقل ، ويريد المهندس ، بالتالي ، معرفة الذبذبات والكثافات والتوليفات لتلك المنقولة عبر ما يصلها من ميكرو ومكبر صوت كي يتم استيعاب الرسالة تماما وبشكل سليم ، لابد لهذا الوصف من أن يتم في إطار تفصيلات فيزيائية وبفضل المعرفة العميقة لبعض اعتبارات الإخراج الصوتي الطبيعي ضمن السياق الكلامي كتدريب الأطفال ثقيلي السمع ، رغم احتفاظهم ببقايا سمعية صالحة ، وقد جاءت النتائج مؤخراً في غاية العظمة .

يأتي توقفنا عند شرح مجموعة من الاعتبارات الصوتية بإسهاب ، والتي يراها بعض القراء هامشية ، راجعًا إلى أن التعبير ، في بنيته البسيطة ، يقبل التطويع بشكل جيد كدليل على البنية والاعتبارات المضمونية – وبصفة عامة على الاعتبارات اللغوية ، إن التنوع واللاتنوع ، التوزيع والشكل التوافقي ، التأثيرات السياقية والتصنيفات الترتيبية هي جميعا مجموعة من الظواهر ستتاح الفرصة لرؤيتها على مستوى المعاني اللغوية . وبمراجعة موجزة للاعتبارات الصوتية الوظيفية والأخرى الطبيعية نكون قد هيأنا الجو لتحليل مماثل من هذا القبيل .

الفصل الثالث

اللغة البصرية والإشارية

سيكون ضرباً من الحشو هنا أن نذكر بأن الدور الذى تلعبه حاسة الإبصار ، فى مختلف جوانب الاتصال بين الإنسان والمحيط الذى يعيش فيه أساسي ومهمٌ للغاية . ومع ذلك ، فلا مجال للشك في أن الانطباعات البصرية ، رغم ما تم تنفيذه من التطوير على مدى ألفى عام على يد الإنسان بحثًا عن لغة تتلاءم واحتياجاته الشخصية ، لم تشكل فى الماضى أو فى الحاضر سوى أداة تكميلية على مسيرة الإدراك السمعى ذات الأهمية التى لا يمكن أن يمارى فيها أحد . فى حالات الصم وأصحاب السمع الثقيل ، ترتفع أسهم هذه التكملة البصرية كلما اختفت أو انعدمت البقايا السمعية . وبعض من بهم صمم يصلون إلي حالة من الكمال مدهشة حين يصبح الأمر متعلقا بترجمة حركة الشفاه الصادرة عن المتكلمين . ولكن مثل هذا الأمر ليس سوى صورة غير طبيعية لاستيعاب شكل لغوى لا يدرك إلا عن طريق السماع .

حين نتحدث عن اللغة البصرية ، نضع فى اعتبارنا وجود أشكال اتصالية تقوم على قاعدة بصرية ، سواء أكانت تلك الأشكال صوراً بصرية مطابقة للنماذج السمعية الأكثر شيوعا ، أم أنها تمثل أنظمة مستقلة لا ترتبط برباط مباشر مع اللغة السمعية ، لندرس الآن هذين النمطين

إذا كان أسلافنا قد استخدموا لغة أيقونية (تعتمد على الصورة) قبل اكتشاف اللغة الشفهية المرتبة، وإذا كانت الوسيلتان قد تطورتا فى سياق متوازٍ ، فإن هذا أمر

يغيب عن مداركنا ، ويبدو أن هناك إجماعا في الرأى على أن اللوحات والرسومات الموجودة بكهوف ميدى Midi وإسبانيا (دوردون ، ألتاميرا -DORDOGNE Y ALTAMI RA، إلخ) تمثل كتابة أيقونية لنوع من الكتابة الثابتة أكثر من كونها صوراً فنية في البداية ، وأيا كان الأمر ، فمن الصعب أن نصدق بأن أولئك الذين أبدعوا مثل هذه الآثار كانوا يجهلون استخدام اللغة الشفهية المرتبة والمتطورة نسبياً ، إلى أى حد تمثل هذه النشاطات الفنية(اللوحات ، الرسومات ، إلخ) المتواصلة على مدى الحضارات جميعا ، البدائية منها والمتطورة ، منذ عصر الاكتشافات القديمة وحتى أيامنا ، إضافة إلى وظيفتها الزخرفية والعلاماتية ، أشكالا لغوية أيقونية تابعة من المحيط الاجتماعي ، الأمر الذي يصعب تقريره في حالات معينة ، بصورة ما ، فإنه من غير الممكن تصنيف الوظائف التي تؤديها التعبيرات اللغوية بالمعنى الدقيق للكلمة .

تظهر نفس هذه المشكلة على ساحة الإيماءات . فكل اتصال شفهي يأتي مصحوبا - بقدر ضروري - بحركات لأجهزة أخرى مختلفة عن تلك التي تتصل مباشرة بإصدار الأصوات اللغوية ، بالقدر الذي تصبح فيه هذه السلوكيات غير فردية وآلية محضة ، تقوم بدور الإشارات العاملة على زيادة حشو الرسائل فتسهم بذلك في التعرف عليها . ومن المعلوم أن بعض الإشارات الإيمائية تتمتع بطابع تقليدى تام مختلف وتؤدى وظيفتها بطريقة مختلفة طبقًا للاعتبارات الحضارية ، فالطريقة التي يشير بها الإنسان الأوروبي إلى قولنا " نعم " - أي الموافقة - " لا " - أي النفي - على التوالي برأسه تبدو متناقضة تماما وبصورة مباشرة مع تلك التي يختارها الإنسان الشرقي . إذا ما كان لنا أن نصدق رومان جاكوبسون Roman Jakobson فبالإمكان تفسير النظامين بداية من تناقض أعم بين حركة أمامية - خلفية (التقدم للأمام ثم الرجوع إلى الخلف) التي تعد رمزا " للإجابة " على سؤال مطروح ، الذي يلقى رداً إيجابيا هو الآخر ، وحركة مناقضة خلفية - أمامية (الرجوع إلى الخلف ثم التقدم للأمام) : الحركتان بمقدورهما الوصول إلى التماهي عند تكرارهما .

الإيماءات التي تعد عنصراً دلاليا أساسيًا في عمليتي الإيجاب والنفي تتطلب أشكالاً إيمائية متناقضة بصورة بديهية . فالحركة المائلة لحظة الإخفاق الإيجابي (القبول) تواجه بمناقضة واضحة في حركة الرأس الدائرية في الإطار الأفقي ، الذي يعد أصلا للمرادف الإيمائي للكلمة المنطوقة " لا " من التعبير المذكور والطريقة الفرنسية للتعبير عن موقف سلبي عبر حركات بسيطة من أصبعين وما يصاحبها من صوت يخرج من طرف اللسان هي صورة مجهولة وغير مفهومة على سبيل المثال في الأراضي الإسكندنافية .

تنقلنا هذه الأمثلة إلى ساحة العادات والسلوكيات الاجتماعية التقليدية ذات القيمة العلاماتية ، ولكن دون إدراجها بصورة منهجية على ساحات اللغة ، إنها أمثلة مرتبطة بنوعية من الثقافات والهياكل الاجتماعية ، مع خروجها عن إطار الأبنية اللغوية لمختلف اللغات ، وكان شارل داروين CHARLES DARWIN أول من اقترح موضوع العلاقات بين ما هو طبيعي وما هو تقليدي، بين المتغيرات القومية والمتغيِّرات العالمية في هذه الإشارات الحركية الأساسية؛ وها هو جاكوبسون يطالب بإجراء اختبار منهجي لها . لن نعود هنا لنتناول مثل هذه المشاكل .

ومع هذا ، فلابد أن نشير بإيجاز للثقافات المختلفة اللاهندأوروبية ، وخاصة فيما يتعلّق بمعرفتها . لمثل هذه الأنظمة الإيمائية المتطورة . كانت هذه العناصر عاملة بصورة مستقلة ومثلت على ما يبدو البنية الملائمة لوسيلة النقل قيد التداول . هناك العديد من القبائل القاطنة لأمريكا الشمالية تستخدمها على نطاق واسع . حيث ساد اعتقاد بأن هذه الجماعات من أبناء البلاد الأصليين كانت قادرة على مواصلة الحديث لمدة طويلة دون أن تستخدم وسيلة أخرى غير الإشارات . وتتميز اللغة الإشارية عن السمعية في إمكانية إجراء حوارين في نفس الوقت دون أن يحدث فيهما تداخل . وفي بعض الأحيان يلجأ التلاميذ إلى استخدام لغة إشارية لنقل مجموعة من الرسائل

لا يكون بمقدور الأستاذ فهمها . ومثل هذه اللغات تتوافر بكثرة بين المساجين . وفي أزمنة كانت اللغة المستخدمة بين العبيد .

واللغات العديدة التي يستخدمها الصم تمثل تطورات متقدمة لعملية الاتصال الإشاري، ولا بد هنا من التفريق بين حالات مختلفة . ومن المهم جدا الإشارة إلى وجود العديد من أنظمة الاتصال بين المصابين بالصمم ، والتي تأتي في بدايتها مختلفة ، رغم عملها معا في بعض الأحيان . في المقام الأول هناك الأبجدية الإشارية التي تأتي صورة مشابهة للأبجدية اللاتينية الحاملة لعلامة (صورة اليد والأصابع) لكل حرف من حروف الأبجدية موضوع الكلام . هي أبجدية تقوم بوظيفتها أحياناً في عملية الاتصال القائمة بين من به صمم والمحيط المستمع له . كما أنها أبجدية يستخدمها الصم تعبيرا عن الأسماء والكلمات التي لا يحتوي نظامهم الإشاري على علامات لها ، من أجل الضبط الكتابي للكلمة وتجنب سوء الفهم (عمليات اللبس بين الأشياء المتجانسة في اللفظ والمختلفة في المعنى) يتميز استخدام هذا النظام بالبطء الشديد . لا يسمح بمزاولة محادثة مستمرة ، ويفترض إتقانا محكماً لكتابة اللغة .

تعد الأنظمة الحقيقية للإشارات التي يستخدمها الصم ، طبقا لمصطلحاتنا نحن ، أنظمة رمزية ، في إطار أن الرمز الشامل يمثل مفهوما والعلاقات بين الإشارات الواردة في السياقات يشار إليها بما أتت عليه من ترتيب أو بواسطة بعض العناصر التكميلية . فالرموز هي في الغالب أيقونية ، مفهومية بصورة مباشرة ، كمحاكاة الأشياء أو الأنشطة ، أو غير مباشرة بإشارتها إلى رموز أخرى تكونت أو اشتقت منها. واللغة الرمزية التي يستخدمها الصم تتمتع ببعض الملامح العالمية . وعلى ما يبدو فهي موغلة في القدم . إنها ، بالتالي ، منذ البداية ومن الناحية التقليدية تبدو مستقلة عن مختلف اللغات الطبيعية، وعلى أساس هذه القاعدة يصبح من السهل بناء عملية اتصال بين الصم من مختلف الدول - ولهذا ففي عالم الصم نلحظ تفهما لغويا ، على الأقل جزئيا ، لا مقابل له في عالم اللغات السمعية .

ومع هذا ، وبناءً على الغاية المعقولة الهادفة إلى تطبيق اللغة الرمزية الخاصة بالصم على اللغة العادية ، خاصة بالنظر إلى تعليم اللغة المكتوبة وحتى لا نعزل كثيراً من أولئك الصم عن المحيط الذى ينتمون إليه ، فإن اللغة التقليدية والمستقلة تخضع فى كل مرة بصورة أكبر لإعادة بناء تجعل منها ، قدر الإمكان ، صورةً طبق الأصل من اللغة الشائعة المكتوبة والملفوظة ، أى ، يستخدم فيها قواعد نحوية تقترب منها وأدوات للتعبير عن اعتبارات نحوية معينة (الزمن ، الحالة الإعرابية ، الأدوات ، إلخ ، وفقا للغات) وقد أثمرت هذه المجهودات عن وجود لغتين رمزيتين إحداهما ذات طابع شبه عالمى ،بعيدة عن الخواص النحوية التقليدية للغاتنا ، والثانية تقترب من هذه اللغات التى نتحدثها ، ومن بين المشاكل التى تتعرض لها عملية تعليم الصم فى الوقت الراهن يبرز ، بلا شك ، الاختيار بين الاحتمالين المذكورين ، المنتميين إلى النمط المتوسط . فالإنسان الأصم يتعلّم فى وقت مبكر جداً، وفى شبابه ، عند احتكاكه بأمثلة من الأطفال الصم ، نمطًا من لغة إشارية رمزية ، تنتمى ، بداية ، إلى النمط الأول والمدارس تطمح إلى جعل هذه اللغة أكثر فائدة فى التطوير الذهنى للطفل فتستبدلها بنمط من لغة إشارية أقرب كثيرا فى بنيته إلى اللغة المنطوقة والمكتوبة . وهى بذلك تبعد كثيرا عن "اللغة العالمية" التى يستخدمها الصم وما من شك فى أنَّ النمط الأول هو "اللغة الأم" للأصم – وأن شكل لغوى آخر يكون بمثابة لغة "أجنبية" يتم تعلمها واستخدامها بمجهود يزيد أو ينقص، وهناك دفع بجميع الأسباب فى سبيل استخدام الصم لهذه اللغة الإشارية المستقلة وبذل كل ما يمكن حتى يصبح تطورهم الفكرى فى المدرسة وفى أماكن أخرى نتيجة هذه الوسيلة التعبيرية قدر الإمكان . لقد ارتكب التعليم التقليدى للصم ، القائم على أساس لغة تنطق بصعوبة بالغة ودون مساعدة الإدراك السمعى ، خطأً كبيراً يكمن فى إجبار الصم على التفاهم فيما بينهم بأية وسيلة بمساعدة حركات فمية يمكن اعتبارها ، دون ما قاعدة سمعية ، أشبه ما تكون بالحركات اللغوية ، بدلاً من قبول إعاقتهم واستنباط نتائج خاصة باتصالهم وتكوينهم الذهنى ، الإنسان الأصم له حاجة معينة بقدرته على الاستخدام المناسب للغة المحيط

الذي يعيش فيه كي يفهمه الآخرون ويفهم هو بعض الشيء ما تعنيه الحركات الشفهية المرئية من الخارج . ولكن حين يتم قصره فقط – ربما يكون مثل هذا الأمر عنوة – على استخدام هذا النظام الاتصالي الذي لا يملك قاعدته ، سيؤدي ذلك آليًا إلى تخلفه واستبعاده من كل اتصال إنساني حقيقي، والوسيلة الوحيدة لإدماج الصم في مجتمع غالبيته من الناطقين المستمعين هي قبولهم كأقلية لها لغة إشارية – لغة هي لغتهم ويملكون فيها نفس الحق الذي تتمتع به أية أقلية لغوية . هل يصبح أمرًا زائدًا عن الحد أن نطالب المحيط الذي يعيش فيه هؤلاء الصم ببذل بعض المجهودات من أجل التعايش مع هذا النظام الإشاري ؟ هناك اتجاه قائم في الوقت الراهن لنشر معرفته . بالاعتماد فقط على اللغة الخاصة ، اللغة الإشارية ، يتمكن الأصم من خلق جو معيشي وحياة إنسانية مثل الآخرين، وبهذا تحتل اللغة الإشارية مكانها جنبًا إلى جنب مع الاعتبارات الصوتية كوسيلة مشروعة للتعبير عن المضامين ذات البنية اللغوية .

ينبغي أن نضيف إلى هذا التلخيص الموجز أن هيكلة الرموز المستخدمة في لغة الصم هي أبنية منهجية بالمعنى الذي يتضمَّن عودة نفس العناصر للظهور في الإشارات المختلفة بصورة عادية . هذه الإشارات ليست في مجملها تعسفية فيما يتعلق بعلاقاتها المتبادلة . من بين العناصر الداخلة في إشارات الصم ، نشير إلى وضع اليد (عالية ، متوسطة ، منخفضة ، إلخ) والأصابع (مضمومة ، منحنية ، إلخ) والحركة (لأعلى ، لأسفل ، أفقية ، حلزونية ، إلخ) والاتجاه (لأعلى ، لأسفل ، دلالة على القرب، أو البعد ، إلخ) . هذه العناصر تنتمي بداية إلى الوحدات التعبيرية السمعية ، هناك آثار لنطق آخر. هذا بالضبط يمثل الحديث عن هيكل بنيوي شجري (رتبي) والحروف الصينية يمكن لها الدخول إلى مثل هذا المجال التحليلي الخاص بالعناصر (بطرق مماثلة) . سنرى ذلك فيما بعد .

أما العناصر النحوية فتبدو دائما مقترنةً بدوافعها في لغة الإنسان الأصم أكثر من الوحدات المعجمية . على سبيل المثال ، نجد الجمع يرمز إليه بتكرار الإشارة . أما

الأداة التعريفية ، حين الضرورة ، فيتم التعبير عنها بمجرد إشارة (تأتى فى اللغة السويدية ، الأداة ، بعد الاسم) والإشارات الخاصة بالوظائف المختلفة تأتى مصحوبة دائما بإشارة للشخص (الأمر الذى يعيد إلى الأذهان لوحات التسجيل التى كانت مستخدمة في الفصول الدراسية الصينية من أجل الكتابة) .

إذا كانت اللغة الإشارية بالنسبة للإنسان الحديث بديلاً هامشيًا عن اللغة السمعية، تلك التي تتكون من رموز مرسومة ، مكتوبة ومنذ ما يقرب من خمسمائة عام، مطبوعة ، فإنها تقف إلى جوار اللغة الأخرى كلغة موازية اتخذت وما زالت ، على مر التاريخ ، شكلين مختلفين فى البداية : الكتابة الرمزية والأخرى المعتمدة على حروف الهجاء ، وتكمن فكرة الأولى فى إيجاد التوافق بين الصورة (المسببة أو المتعسفة) وأى عنصر ذى مضمون جاهز (الكلمة ، الأداة النحوية) أوضحنا ، وفقًا لما يقوله المتخصصون ، أن الرسومات المشهورة لفترات ما قبل التاريخ داخل الكهوف (الفرنسية ، الإسبانية ، وغيرها) تمثل نوعًا من الكتابة قائما على أساس من صور رمزية تروى أحداثًا واقعيةً . وها هى الصخور الإسكندنافية المنحوتة تقوم على وجه الاحتمال بنفس المهمة ، أو أن لها وظيفة خرافية . دون أن يصبح من الممكن معرفة ما إذا كانت الصور قيد الدراسة ترتبط بعلاقة مباشرة بإشارات ذات بنية لغوية . فى هاتين الحالتين ، لا يغيب عن نظرنا الإدراك البديهى للطابع التقليدى للصور والأشكال، المعروف داخل الإطار الاجتماعى . وعادة ما كانت هذه الأشكال تحوى فى خلفيتها شرحًا بيانيًا محكم البناء .

اللغة الأيقونية هى تطور لهذه الأشكال الرمزية . والرمز الأيقونى يجمع بينه وبين الفكرة المرموز إليها علاقة المشابهة . وإنه يمثل جنسًا أو نوعًا ، لا فردًا ، ولا نموذجًا معينًا . فالرسم المنفذ لبيت معين يتحوَّل إلى رمز لمفهوم البيت . ووجه الشبه بين الرمز والمرموز إليه يمكن أن ينحصر في شىء بسيط جدا وربما يكون لا شىء (الصفر) . كانت الإشارات الدالة على " الشمس " و " القمر " فى الكتابة الصينية القديمة ذات

طابع أيقوني تام (حيث تمثل شكل الشمس في دائرة تتوسطها نقطة ، أما القمر فقد تمثل في شكل قلب) . وقد ألزم التطور بضرورة توضيح لعملية النطق في حالة اللبس (المحدِّد الصوتي) . وكما هو الحال في لغة الصم ، فإن الإشارات الصينية تأتي مركبة من عناصر أبسط ، أو ملامح أساسية من بينها الملمح الرأسي ، الأفقي ، والنقطة ، الأقواس المعقوفة والشرط (المحدِّدات الصاعدة ، النازلة ، من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ، وذات الأطوال المتعدِّدة) تأخذ صيغة العناصر الأساسية . تضفي طريقة الكتابة باستخدام الحبر والفرشاة طابعًا بسيطًا وتجريديًا ، على وجه الخصوص ، على هذا الشكل الكتابي ، والمختلف تمامًا عن النقوش الإسكندنافية القديمة والمسمارية المنفذة على مواد صلبة .

في الرموز الصينية لا وجود إلا لتحليل تاريخي لتطور الكتابة من الممكن أن يزودنا بمعلومات مفادها أن الرمز قيد البحث يرجع إلى رسم بدائي تم إبرازه بصورة تدريجية ، وتحوَّل بهذا الشكل أيضا إلى رمز تعسفي . هنا يكمن بداية ، في شكل شديد البساطة ، تاريخ الكتابة الرمزية ، ولأسباب بديهية ، فهذه الكتابة هي الأنسب للغات ذات النمط الصيني ، حيث تتمتع الكلمات بشكل لا يتغير نسبيا ، والاستعانة بهذه الوسيلة تبدو غير طيبة حين الرمز إلى العديد من العناصر النحوية (النهايات ، السوابق ، اللواحق) الخاصة باللغات التي تحظى بشكل صرفي متطور وغير قياسي . وكذلك فإن صعوبة الرمز إلى كل هذه العناصر العلائقية ذات المعنى التجريدي الكبير هي التي تضطر اللغة الإشارية التي يستخدمها الصم إلى التخلي عن هذه العناصر جزئيًا أو كليًا بلا تغيير .

ممَّا ذكرناه نستنبط أن رموز هذا النمط الكتابي - سواء أكانت أيقونية أو مسببة أو تعسفية محضة - لا تشير إلاَّ إلى الإشارات التامة - أو بالأحرى إلى دلالات الإشارات قيد البحث - ومالها من علاقة تذكر مع التعبير الإشاري . وشكل الرمز لا يقدم أية معلومة عن التنفيذ الصوتي الطبيعي للإشارة اللغوية (الخاصة بالكلمة)

وعليه ، ففي البداية يصبح من الممكن فهم نص من هذه النوعية من التعرف فقط على قيمة (معنى) الرموز وبدون أن تكون لدى الشخص فكرة عن الشكل الذى ينطق به المتكلمون ألفاظهم، ومع ذلك ، يبدو أن الأمر لا يعدو أن يكون حالة نظرية . ولكن من المؤكد أن الصينيين واليابانيين – وهذه الكتابة قائمة على أساس من الرموز الكونية الصينية ، وخاصة عند اليابانيين ، مع إضافة بعض المميزات اليابانية الخاصة – قد توصلُوا بقدر ما إلى فهم النصوص المكتوبة في لغة الآخرين رغم عدم وجود أى وجه شبه بين اللغات .

من البديهى أن القاعدة القائلة : مضمون – رمز تعنى ، في حالة اللغات الثقافية خاصةً ، وجود عدد هائل من الرموز . كما تعني زيادة مطردة لهذا العدد بالقدر الذى تزيد فيه الألفاظ عبر إدراج مفاهيم جديدة ، اللهم إذا لم يتم التوصل إلى التعبير عن المستجدات بمعونة توليفات من العناصر الموجودة فعلاً (الألفاظ المسببة نسبيا : المركبة ، المنقولة حرفيًا ، إلخ . على مستوى اللغة السمعية) . وحتى نسمح بقراءة نصوص طبيعية ، فمجموع الألفاظ الممكن إجادتها فى لغة ما مثل الصينية يزيد على بضعة آلاف (ألف لفظ على الأقل حتى نصبح قادرين على قراءة النصوص الأدبية ، وألف وخمسمائة للخروج من المأزق ، وهاهو عالم الدراسات الصينية السويدى جوران مالكفيست GÖRAN MALQVIST يرى أن طالب المرحلة الثانوية في الوقت الراهن يعرف ما يقرب من ثلاثة آلاف لفظ) . وقواعد بناء المفردات والتدقيق الصوتي تسمح ، على ما يبدو بزيادة معتبرة في وسائل التعبير عن اللغة المكتوبة . وتَعَلُّمُ هذه الألفاظ الإشارية وإجادتها الدائمة يتطلبان بالطبع مجهوداً كبيراً ، وخاصة حين تأخذ في الاعتبار أن نسبة قليلة من الرموز الصينية هى التي مازالت ترتبط بـ " الأشياء " التي ترمز إليها بنوع من وجه الشبه ، حتى ولو حدث ذلك في البداية . وبهذا العدد الموجود من الرموز ، ما كان بمقدور الأيقونية أن تولج ، بطبيعة الحال.

وسوف نصل إلى مرحلة فى غاية الأهمية من تاريخ الكتابة فى الوقت الذى يصبح فيه الرمز بدل أن يدل على المفهوم (المضمون) منفرداً ، دالا أيضا على التعبير (الشكل). هناك كلمة صينية كانت تنطق فى الأصل Läg (وأصبحت تنطق الآن Läi). وكانت تعنى نوعًا من القمح (القمح الناصع البياض) ، فى بداية الأمر كانت تحظى بصورة أو شكل يشبه سنبلة القمح . ولكن تمَّ تبنى هذه الصورة الإشارية لترمز أيضاً إلى " متجانسات اللفظ مختلفات المعنى (Läg (Löi بمعنى " يأتى " . وهنا يصبح السياق هو الفيصل فى تحديد المعنى المراد اختياره . وقد جرت العادة أيضا على ذكر حالة الرموز الهيروغليفية – والتى هى فى الأصل رموز مضمونية وأيقونية بالطبع – تحوَّلت – إضافة إلى وظيفتها البدائية من الرمز إلى المضمون ، إلى رمز بذاته ، بصرف النظر عن المضامين ، ذات السياقات الصوتية المتماثلة أو المتشابهة . هكذا ، فإن الدال على طائر الخطاف – الشكل الأشبه بالعصفور – تحوَّل هو الآخر إلى رمز للمتجانسات فى اللفظ المختلفات فى المعنى (أو الشبيهى بهذا) بمضمون مختلف تماما (= كبير) . هذا الرمز – طائر الخطاف المرسوم – تحول ، بالتالى ، إلى ممثل كتابى لجذع (W-r) علاقة له بمعناه . هذه هى الكيفية التى ظهرت عليها الكتابة المقطعية (المستخدمة إلى جانب الرموز الصينية فى اللغة اليابانية) ، حيث ترى علامة لضبط الكتابة تمثل واحداً من الخمسين مقطعًا الممكنة فى اللغة . إنه نمط من الأبجدية المعمول بها على شكل جيد فى لغة معينة حيث يقل عدد الإمكانات المقطعية (النمط الصائت فقط +الصامت) . وربما يكون ذلك مستبعداً من لغات أخرى مثل الجرمانية أو السلافية حيث يصبح عدد الأنماط المقطعية ، بفضل المجموعات الصامتة المتعددة ، كبيراً جداً .

أما فيما يتعلَّق بأبجديتنا الخاصة الأوروبية – اليونانية ، اللاتينية – فهى تمثل تطوراً لنمط متوسط ، سامٍ ، لا نرى فيه سوى صورة رمزية للحروف الصامتة . فالأبجدية الصامتة تؤدى وظيفتها جيداً فى اللغات التى تمثل فيها الحروف الصامتة أصول الألفاظ (فى اللغة السامية عادةً ما توجد ثلاث وحدات صوتية صامتة) وحيث

تقوم الحروف الصائتة المدرجة بوظائف صرفية ، الأمر الذى يتيح لها درجةً عاليةً فى التوقع بداية من السياق . وفى الوقت الذى أخذ فيه اليونانيون مثل هذه الأبجدية السامية (الفينيقية) وطبقوها على النظام الصوتى الوظيفى الهندأوروبى ، دعت الضرورة إلى إدخال عدد كبير من الألفاظ الصائتة (الحروف الصائتة) بين الأخرى الصامتة . وهكذا تحولت الكتابة إلى صورة صادقة للبنية الصوتية الوظيفية ، أخيرا ، بإدخال حتى علامات بعض الوحدات الضابطة للنطق والتمييزية (نبرات النطق فى اللغة اليونانية) وحين بلغ هذا التطور غايته ، وتحولت اللغة المرئية المكتوبة إلى مجرد تفريعة على التعبير الشفهى .

والأبجديتان المنتميتان إلى عالم البحر المتوسط من قديم الأزل (اليونانية واللاتينية) تمثلان تفريعتين على نفس النمط . من التفريعة اليونانية انبثقت الأبجدية السلافية ، ومن التفريعة اللاتينية اشتقت كتابات دول غرب أوروبا (اللغات الرومانية ، الجرمانية ، السلافية الغربية ، إلخ .) واللغة الإيرلندية عرفت منذ العصر الوسيط تفريعة خاصة ، تمَّ هجرها اليوم . والكتابة الإسكندنافية القديمة ، صاحبة تفريعتين أساسيتين ، ترجع هى الأخرى إلى أبجديات عالم البحر المتوسط ، عبر اقتباسات محكومة فى جانب منها بالنقوش الحجرية . والأبجدية السلافية تم فرضها على بعض اللغات غير الهندأوروبية فى الاتحاد السوفيتى ، واللغة الرومانية فى مولدافيا . والإيرانية ، اللغة الهندأوروبية ، تكتب بالأبجدية العربية ، والتركية الأوربية استبدلت منذ ما يقرب من خمسين عاما الكتابة العربية بأخرى لاتينية ، واللغة العربية لمالطا تكتب بحروف لاتينية ، هذا إلى جانب بعض لغات الشرق الأقصى الفيتنامية والماليزية ، إلخ) واللغات الهندية لها كتاباتها التقليدية . وبالقدر الذى تعود فيه لغات المستعمرات القديمة (فى أفريقيا وأسيا وأمريكا) إلى وضع التعبير الكتابى ، تتخذ بصفة عامة الأبجدية اللاتينية (رغم ما فى هذا الأمر من صعوبات بالغة) .

وعلامات ضبط النطق اليونانية – منذ عهد قريب – تعد استثناءً من اللغات الهندأوروبية ، حيث تأتي عملية ضبط النطق على مستوى الكلمات والأشكال محدودة . حتى في المجالات التي تعرف فيها اللغة المشابهة نبرة لفظية تمييزية ، فغالبًا ما تبقى هذه النبرة دون رمز خاص بالضبط الكتابي . فلا الإنجليزية ولا الإيطالية تحدِّدان المكان الحامل للنبرة في مقطع معين من الكلمة . ولهذا فما يقول لنا قانون الضبط الكتابي ما إذا كانت اللفظة الإنجليزية **export** هي الاسم (تصدير ، وفي هذه الحالة تأتي النبرة على المقطع الأول) أم أنها الفعل (" صدر " ، وهنا تأتي النبرة على المقطع الثاني) ومع هذا فالإسبانية تُحدِّد موضع النبرة في العديد من الأحوال التي تكون فيها النبرة غير متوقعة عبر قاعدة بسيطة . والنغمات الإيقاعية في اللغة الإسكندنافية ليست محددة هي الأخرى في الضبط الكتابي . وبعض اللغات الإيقاعية الأفريقية يكون من الصعب قراءتها حين لا يتم تحديد هذه النغمات . والإهمال في هذا الجانب من قبل الطباعين الأفارقة يمثل عقبة أمام نشر اللغة المكتوبة . وهنا يتم تفضيل الصحف الإنجليزية أو الفرنسية .

تأتي فكرة الكتابة كتفريعة عن الكلام ، تبسيط شديد لاعتبارات هي في الأصل معقدة في المقام الأول ، نرى فكرة "اللغة المكتوبة بمثابة تفريع بسيط عن اللغة المنطوقة" كلامًا يجانبه الصواب إلى حدٍ ما . فلا نكتب ما ينطق ، ولا ننطق ما يكتب . وهذا راجع إلى أسباب عديدة : في الدرجة الأولى ، نجد بونًا شاسعًا بين مقام المتكلم ومقام الكاتب أو من يكتب . فالكلام يتم ضمن سياق اتصالي تدخل فيه اعتبارات دلالية عدة غير لغوية(إشارات ، إيماءات ، نوعية الصوت ، السلوك العام) . أما اللغة المكتوبة ، بعيدا عن هذه العناصر المحملة بقدر زائد على عملية الاتصال اللغوي ، فلابد لها من أن تكون أكثر وضوحًا . يجب أن تكون مفهومة عن بعد ، وربما ، عن بعد زماني معتبر. لغة الكتابة تختلف عن لغة الكلام في أنها تواجه عدم العناية بالاعتبارات الخاصة بالشكل اللغوي ، والدلالي والتطابقي . والألفاظ متجانسة اللفظ مختلفة المعنى تأتي أقل إزعاجًا من المتجانسات صوتًا المختلفات معنًى . والضبط الكتابي لا يرد

معلمًا ومحددًا ، أو يتم تحديده ولكن بصورة غير تامة ، في اللغة المكتوبة الإيقاع الصوتي الذى ترد عليه العبارة ، ذو الأهمية القصوى للرسالة ، لا يظهر كلية ، أو يأتي ظهوره ناقصا بقدر ما تطرح به علامات النقط ، والفصل ، والاستفهام ، وكذلك الحروف المائلة، إلخ . هذه العناصر الرمزية تكون إلى جانب إشارات من نمط : + ، - ، = ، والشفرات والرموز العملية في الرياضيات وفي اللغة الصينية (< ، π، H_2O، إلخ) العناصر غير اللغوية (رموزا كونيةً غير مزدوجة النطق) .

في المقام الثاني نجد أن ثبات اللغة المكتوبة يعود إلى ما تتميز به من طابع رسمي عال . وفي الثقافات كلها ، ولأسباب ثقافية ، إدارية ، دينية ، إلخ . ، تكونت قاعدة مكتوبة لتكون نموذجًا يسير على نهجه الكتاب وهؤلاء يلزمون أنفسهم بما تقدم ويلغون ماالهم من عادات شخصية أو اختيارات مفضلة (إقليمية ، فردية) . وهانحن نرى أن التعليم المدرسي قد رسخ في عدد هائل من الأفراد استخداما ثابتًا نسبيًا يتعارض دومًا وبصورة واضحةٍ مع العادات الشفهية . وقد أمكن لهذا الاستعمال الذى جاء وفقا للقواعد أن يمارس بدوره تأثيره على لغة الكلام .

في المقام الثالث ، نجد اللغة المكتوبة في صورتها الخطية الثابتة بمساعدة الأشكال الورقية (الرق ، إلخ) والمتبعة للقواعد أقل خضوعا للتعديلات الحاصلة في الجانب الزمني (والمكاني) . ولهذا فإن اللغة المكتوبة تبدو أكثر محافظة من الأخرى الشفهية . وتمثل ثباتا لا تعرفه هذه الأخيرة ، فأي فرد يسمح لنفسه في سهولة تامة بارتكاب خطأ (تجاوز القواعد النحوية ، استخدام الألفاظ العامية، الإقليمية) عند الحديث بينما لا يسمح بذلك في اللغة المكتوبة .

رغم كل هذه الملاحظات ، فمن المشروع المحافظة على فكرة الكتابة الأبجدية (الصوتية الوظيفية) كتعبير يقابل منطوقه من نفس النظام التعبيري . وإمكانية التغيير من وسيلة تعبيرية إلى أخرى من بين هاتين هي من أفشل ما أكد عليه دي سوسير DE SAUSSURE في نظريته المتعلقة بالإطار الشكلي للغة . والخطوط الكتابية تنحسر إلى

عدد محدود من اللامتغيرات (الوحدات الخطية) كما يحدث مع الأصوات ، التى هى بمثابة التعبيرات المضمونية للوحدات الصوتية . وإذا ما انفك الترابط بين النظامين ، فما هناك من إمكانية لأى تغيير . وحتى فى الحالات الاستثنائية تُمثل اللغة الفرنسية والأخرى الإنجليزية بما لهما من قواعد كتابية غير قياسية ، فمن الممكن إتمام هذا التغيير فى الاتجاهين بتطبيق بعض القواعد الاحتياطية . في الفرنسية يأتى النطق متوقعًا فى الغالب بداية من الكتابة الخطية ، وفي حالة مناقضة لذلك يصبح من الصعوبة إتمام عملية التغيير . وفي الإنجليزية ، تأتى عملية التغيير فى الاتجاهين أصعب بكثير من الفرنسية . لقد ساد اعتقاد مفاده أن الإنجليزية تتطور فى اتجاه نظام صيني . وما هناك من شك فى أن إدخال علم الأصوات الوظيفي الشجرى وفكرة التركيبات العميقة قد ساهم ، فى الفرنسية والإنجليزية ، في إظهار الكتابة الخطية المسببة بقدر كبير . وإذا ما اعتبرت كلمة مثل beau (جميل) تمثيلًا سطحيًا لشكل أعمق / bel/ ومشتقا من هذه عبر سلسلة من القواعد ، فإن علم الكتابة يبدو أقل تعسفًا مما إذا تم فقط أخذ النطق الحالي في الحسبان . والعلاقة بين هذا الشكل للكلمة والشكلين الآخرين (bel ،belle) تبدو وثيقةً جدًا . ولأسباب بديهية ، تأتى الأشكال العميقة التى أسس لها أصحاب الفكرة الشجرية متشابهة أو متماثلة ، مع الأشكال القديمة للغة بالصورة التى حفظت بها النصوص أو أعيد بناؤها من قِبَل أهل القياس . وفن النطق في اللغة الفرنسية يتميز بتعبيره عن فروقات بسيطة أو غير قائمة فى الشكل الكلامى للغة (الأشخاص فى المجموعات الصرفية الفعلية ، الجمع فى الحالات الإعرابية : no-Liaison إلخ) . ومن ناحية أخرى ، فإن الفارق الكتابى ، على سبيل المثال بين (donner (e,s ، donné ، donnez ، فى أغلب الأحوال – في الفرنسية – بدون الاعتماد على الشكل الكلامى ، يحدد فى تطور اللغة اتجاهًا نحو كتابة إشارية (كتابة ذات مجموعات صرفية مستقلة عن لغة الكلام) . إذا ما رأينا ، متبعين لتشومسكى – هيل ، فى اللغة الإنجليزية أن sain/sign، بمثابة الشكل السطحى ل : sign، مقتربين به بهذه الصورة من مشتقات مثل signifai- signify، فإن ذلك يؤدى إلى حدوث نوع

من التقارب الصرفي بشكل أعلى في الوحدة الصرفية ويعمل ، في نفس الوقت ، على إبعاد البنية الصرفية السمعية الوظيفية العميقة عن الواقع الصوتي الطبيعي - الوظيفي .

هذا التوجه من قبل الكتابة نحو اعتبار البنية الصرفية - للوحدات " والكلمات " - أكثر من الكلمة يتم التعبير عنه بالشكل الذي تقوم به الكتابة في تقسيمها للسياقات إلى كلمات ، وجمل ، وأجزاء ، إلخ ، بمساعدة فراغات وعلامات ترقيم . مثل هذه التقسيمات لا وجود لها إطلاقا في الكلمة المنطوقة . كما أنها ليست أولية في تاريخ الكتابة . ولم يلجأ إليها اليونانيون الأقدمون . والجانب التعسفي في هذا التقسيم إلى كلمات (antes de ayer – أول أمس – de nada – عفوا – Buenos dias – صباح الخير) يثبت استقلالية هذا الأمر عن الأداء الصوتي الطبيعي للسياقات ويشير إلى العلاقة القائمة بين ضبط الكتابة و " المعنى ".

من العدل أيضاً أن نخصص بضع كلمات للشكل اللغوي الذي يحل عند العميان محل التلقي البصري للكتابة . على عكس الأصم ،يملك الأعمى آلية إدراك سمعية طبيعية ، بينما يصبح التأقلم مع الكلمة في حالة الأصم ، أي الحوار الكلامي الصادر عن المحيط الذي يسمعه ، أمراً في غاية الصعوبة ، ذلك المحيط الذي ، رغم ما يبذله من جهد ، لا يصل إلى ذلك قط إلا بشكل جزئي . وها هي المجهودات المبذولة في أداة لغتنا الشفهية تحدُّ الأصم (منذ ولادته) في صورة إنسان منعزل عن محيطه . وإذا ما كان قد ولد أعمى ، تصبح الصعوبة التي يواجهها كامنة في غياب التجربة البصرية للعالم المحيط به ، التجربة التي تشير إليها في جانب كبير لغة الإنسان المبصر . أما إذا أصيب المرء بالعمى في سن النضج ، تصبح الصعوبة التي يواجهها محصورة فقط في مجال القراءة . وتأتي أبجدية العميان (المعروفة بأبجدية برايل BRAILE) متسقة مع إمكانياتهم الإدراكية بنفس الطريقة التي ترد عليها أبجدية الإشارات الإيمائية في اتساقها مع آليات الأفراد المصابين بالصمم ، من خلال وجهة النظر اللغوية ، لابد من

الإقرار بأن الإعاقة عند الأصم تعد أخطر منها عند الأعمى . فبالنسبة للأعمى يقتصر الأمر فقط على استبدال القراءة بالحروف الطبيعية بأخرى تعتمد على أبجدية برايل . أما الاتصال الشفوى فى عمومه فلا مساس به . فالأعمى بإمكانه بداية أن يتعلم الكتابة ، حتى رغم صعوبة مثل هذه العملية التعليمية .

تأتى الأبجدية التى أعدها برايل BRAILE صورةً طبق الأصل لأبجديتنا العامة، إلا أنها قائمة على أساس إشارى، وتتجمع العناصر الأساسية لهذه الأبجدية في ست نقاط تتحدَّد قيمتها عبر المكان ، والعدد ، وترتيب هذين داخل أحد المستطيلات . هناك مكان واحد فقط فى الزاوية اليسرى عبارة عن الحرف a واثنان آخران فى نفس الجزء من المستطيل في شكل رأسى بهما الحرف b، وفى شكل أفقي الحرف c، إلخ . وتآلف هذه العناصر يؤدى إلى توفيقات كافية لتشكيل مقابلات لكل حروف الأبجدية والشفرات الأخرى ، إلخ . اللازمة للقراءة . وبالتالي ، فإن هذا النظام يعرف بعداً ترتيبيًا فى اتجاهين (رأسى وأفقى) وبعداً انتقاليًا داخل المستطيل والعامل العددى . والأعمى يدرك بسهولة تامة بطرف أصابعه عدد وترتيب هذه النقاط البارزة .

هذا النظام يتشابه بعض الشيء مع نظام " مورس MORSE " التلغرافى المتضمن لسياقات من النقاط التى تفصل بينها فراغات بيضاء (النظام الثلاثى) والاتصال بين الآلات يختلف بداية عن أبجدية برايل ومورس BRAILLE Y MORSE فى أنه عمل لا علاقة له باللغة البشرية . فهذه الأنظمة تحتوى عادةً على قاعدةٍ ثنائيةٍ والحاسب الآلى قد تم تصميمه وفقا لهذه القاعدة (" نعم " ، " لا ") . إنها " لغات " غير داخلة فى إطار دراستنا وتحليلنا . فما هى بأجهزة ولغات " بشرية " رغم تصميمها واستخدامها من قبل الإنسان وفى تحليلات لغوية .

الفصل الرابع

المحتوى البنيوى

رأينا على المستويين التعبيريين كيف أن قاعدة اللغة المبنية (المكتوبة) – أوالمنطوقة – تنعكس في صورة ترتيب شجرى يصبح فيه الأشد تعقيدا وخصوصية مقيدا بما هو أشد بساطة وشمولية. كما كانت هناك فرصة لإظهار الكيفية التى تسيطر بها القاعدة العامة ذاتها على مستوى مضمون الإشارات .هذا إلى جانب الطريقة التى تستخدمها لغاتنا فى صياغة شكل العالم الذى نعيشه . أما هذا الفصل فسيكون مخصَّصًا لتحليل مفصل للقاعدة البنيوية والشجرية بالصورة التى تبدو عليها على المستوى المضمونى .

نذكر فى المقام الأول ، كى نتجنب أي سوء فهم ، أنه لا يجب تفسير فكرة هذه البنية كهيكل واع ومتأمل عند أسلافنا القدماء . وفكرة الارتقاء فى خط مستقيم منذ الطور الأول للرمزية الكونية والمسببة نحو إشاراتنا ذات الصورة البنيوية الثنائية الترتيبية هي بنية مجردة ذات قوة برهانية وإشارية ، ولكن بلا أساس تاريخى . وعلى العكس ، فالبنية غير التامة المضامين تأتى نتيجة صراع طويل بغية ترتيب عقلى للحقائق الواجبة التصنيف ، وتقسيمها إلى جزئيات فرعية ، ومقارنتها ونقلها إلى أعضاء أخرى من الأسرة ، من المجموعة ، من القبيلة . وفى وقت متأخر فقط من تاريخ الجنس البشرى أصبحت التراكيب ذات القاعدة التجريدية والعقلية تسيطر على هذا

النظام العالمي – وخاصةً ، في بداية الأمر ، على أساس من تقويمات متعلقة بالانفعالات والمواقف التعبيرية . ولقد بلغت القاعدة الشجرية حد السيطرة على الانفعالات وسلوكيات الإنسان فقط بعد مرات من الفشل المتكرر ، متطورة بصورة بطيئة لجس النبض ودون أن تصل إلى حد تصبح فيه شيئا سوى نموذج تنظيمي ضمن مناقشة دائمة مع غيرها من القواعد . سنتوقف كيفية فحصنا للبنية الترتيبية للمضامين على تصورنا لهذا الجانب المتعلق بعدم التكامل الدائم لتطبيقاتها .

أوضحنا أن كل عملية إدراكية ، وبالتالي معرفية ، تعني بناء وتصنيف الشيء المدرك والمعروف، فعند إدراكنا لحيوان كالكلب نحدد نموذجا معينا لطائفة أصبحت معرفتنا باسمها أمراً شائعًا لنا . والكيفية التي يوسع بها الطفل معرفته بالعالم هي عملية تماثل للأشياء الجديدة مع المراتب المعتادة والقائمة دون أسماء محددة . هاهي إحدى بناتي ، البالغة عاما ونصف العام ، حين رأت طائر السنجاب لأول مرة ، قالت ، في بداية الأمر Vovovov (بوببوب) – (لغة أو كلمة يستخدمها الأطفال للدلالة على " الكلب ") ، وبعد ذلك ، حين أدركت عدم رضاها عن التصنيف الأول ، قالت : Pipl (كلمة يستخدمها الأطفال للدلالة على " العصفور ") وحين اعتادت تعلم كلمة جديدة ، وهي ekorre – وتعني السنجاب باللغة السويدية – أصبحت تتأقلم مع مرتبة جديدة من الحيوانات يمكن أن تضيف إليها ، في الحال، كل النماذج الأخرى التي بمقدورها العثور عليها لاحقًا . وهكذا ، نرى أن الاعتبارات اللاشكلية Hechos amorfos – إذا ما وجدت – تخرج عن نطاق المعرفة . فقط يصبح هناك إدراك للعناصر المتفردة ولكلمة متفردة تطلق على كل عنصر لا متواصل متماثل أو مقابل نقيضي لأي عنصر آخر، فالحيوان يمكن أن يكون كلبًا وبالتالي يصبح متماثلاً مع كل الكلاب الأخرى (من خلال وجهة النظر الخاصة بالملامح التمييزية للنوع) . وما هناك من تواصل ممكن بين هذه

الأنواع . وسنرى لاحقًا أن المقام يبدو على الدوام في صورة أقل بساطة . ونحن ندرك أن الكلب يشكل جزءًا من مجموعات أكثر شمولية .إنه أيضا من آكلي اللحوم والثدييات، ذئب ، ثعلب) والفقاريات، لا يوجد تواصل ممكن بين هذه الأنواع (حيوان، كائن حي ، إلخ) . ومن المعلوم أنّ مثل هذه الدرجات الترتيبية تنضوي تحت نمط بمقدوره إرباك الأطفال ، الذين يسمعون الكلام عن نفس الكائن الحي سواء أكان طائر خطاف ، أو عصفوراً وأحيانا باعتباره حيواناً فحسب .

وقبل أن ننتقل إلى بحث الاعتبارات الخاصة ببنية المضامين ، نعود إلى الأمثلة المذكورة كي نهتدي بها كنقطة انطلاق نحو ملاحظة عامة . إذا كان صحيحا أن العالم المحيط بنا لا تدركه معارفنا وتأملاتنا إلا بمقدار ما يتحقق من بنيته وأنه قابل للتفكيك إلى عناصر متفردة على أساس من نموذج يطبق عليه ، فليس من غير الضروري أن يكون النموذج البنيوي ذا طابع لغوي . فالبنية اللغوية بدورها تتمتّع بطبيعة اجتماعية . ولنفس السبب فهي تعسفية في بداية الأمر ، أي ، أنها لا ترجع في شكلها إلى خصائص تتعلّق باعتبارات بنيوية، والأبنية البيولوجية التي ألمحنا إليها الآن لها مسبباتها في الإطار العام للطبيعة . هناك من الكلاب والذئاب والثعالب ما يخرج عن كل تقليد اجتماعي ولغوي، والتصنيف الذي يبرز في المسميات العلمية اللاتينية التي تم ابتداعها لتجنب التعسف في اللغات القومية – يقوم على أساس من الخصائص التشريحية والفسيولوجية ، هذا بالإضافة إلى المجموعات الثديية والفقارية ، إلخ .

كما أتيحت لي الفرصة لكي ألفت النظر إلى معايير تصنيفية للطبيعة بعيدة ، بالتالي ، عن التقاليد اللغوية . والتفرع الثنائي **Dicotomía** الحاصل في **"Vivo"** – حي – **muerto** – ميت – **pequeno** – صغير – **adulto** بالغ ، **macho** – ذكر **hermbra** – أنثى ، **Comestible** – صالح للأكل **Incomestible** – غير صالح للأكل ، **frio** بارد –

Caliente – ساخن ، بارد ، Luz – نور – oscuridad – ظلام ، إلخ ، كان لابد له من الدلالة على تفريعات ثنائية بديهية بالنسبة للأفراد الذين عاشوا في زمن سابق حتى على ميلاد اللغة البدائية، ومن ناحية أخرى ، نرى أن مثل هذه المقابلات القائمة على أسس غير لغوية أبعد ما تكون عن الظهور بشكل ثابت وموحد في كل لغات العالم .

إذا نحينا مثل هذه الفروقات الأولية الطبيعية ووضعنا في اعتبارنا بعض المراتب داخل مجال العلوم والتقنيات الحديثة في معظمها ، فسنجد أنفسنا أمام سلسلة من المفاهيم التي ، بعيداً عما تشير إليه من ألفاظ اللغات (استعارات أو صور للمشابهة)، تعكس أمورا ووظائف متساوية في كل مكان مكونة جزءاً من الموروث الثقافي والتقني العالمي في المجال قيد الحديث . في هذه الأحوال ، تصبح ألفاظ لغاتنا مجرد بطاقات حقيقية وضعت لمفاهيم موجودة وعاملة بعيداً عن اللوائح والقوانين . ويأتي التفسير التقليدي الساذج لوظيفة الكلمات صالحا في مجمله في مثل هذه الحالات . وسنرى أن هذه اللوائح تبقى دوماً في حالة صراع مع المراتب اللغوية .

لنقم الآن باختيار النظام الجامع لصلة القرابة في بعض اللغات كمثال للبنية التراتبية للمضامين . هناك فارق في الفرنسية بين Parents (آباء) ، enfants (أبناء)، يعتمد على درجة رتبية ذات قاعدة طبيعية (جيلية) ، من الممكن أن ننتقل من الآباء للأجداد grands- parents ومن هؤلاء إلى الأسلاف القدماء ، ولكن دون استخدام درجات رتبية واضحة . ومن الممكن النزول من الأبناء للأحفاد ˆ Petits-enfants ومن هؤلاء الأحفاد إلى أبنائهم ˆ arrières-petits-enfants، وهكذا دواليك حتى نصل إلى الخلف أيضا بدون درجة لاحقة واضحة . ومن الملاحظ أن العلاقة المركزية آباء – أبناء هي نقطة انطلاق لبنية فوقية وتحتية . هذه الدرجات التراتبية تشمل الجنسين . وحين ندخل درجة النوع Sexo، بمقدورنا ، على العكس ، الحصول على الأزواج ، اثنين

اثنين : (الأب – الأم – Pére ، الابن – الابنة – Fille-Fils – وما يتوازى معهما من السلف والخلف : grand- Pére (جد) (Petite -Fille) grand- mére (حفيدة) . وما هو الجدول التوضيحي :

SIN DISTINCIÓN DE SEXO	CON DISTINCIÓN DE SEXO	
أبو الجد أو الجدة BISABUELO BISABUELA	أبو الجد BISABUELO أبو الجدة BISABUELA	أجيال سابقة GENERACIONES ANTERIOROS
الجدان ABUELOS	الجد ABUELO الجدة ABUELA	علاقة أسرية RELACIÓN DE FAMILIA
الأبوان PADRE MADRE	أب – أم PADRES	
أبناء HIJOS	بنت – ابن HIJO- HIJA	
حفيدان NIETOS	حفيد NIETO حفيدة NIETA	
أبناء الحفيد أو الحفيدة BISNIETOS	ابن الحفيد BISNIETO ابن الحفيدة BISNIETA	أجيال لاحقة GENERACIONES POSTERIORES

الشكل رقم (٩)

GFIGURA N : (9)

من الملاحظ أن المسميات التي تطلق بدون تمييز نوعي هي الخاصة بالجمع دوما ، مما يفسِّر بالاهتمام الذي يولى للحديث عن الآباء والأبناء في حالة شخص معين بالإشارة إلى زوجين (الأب والأم) . ومن المعلوم أن المفرد " أب " يشير عادة إلى درجة قرابة أقل تحديدا . بينما لفظة " ابن " المفردة تعني الخلف المباشر للجيل الأول دون تحديد للنوع .

هذا التعقيد للنظام يلحظ بوضوح تام حين التفكير في أن لفظي Fille, enfant يدخلان أيضا في وحدات صرفية أخرى : Fille , garcon , enfant -adulte وحتى نذكر فحسب هذا الطابع الاجتماعي التعسفي لمثل هذه الصور الترابطية المعقدة يجب علينا أن نقارن الفرنسية بالإنجليزية حيث اللفظة الفرنسية Fill باعتبارها مناقضة للفظة Fils، تكون في الإنجليزية :– daughter ابنة – ، ولكن باعتبارها مناقضة للفظة " gar-con يقابلها في الإنجليزية girl – بنت – نفس الشيء يحدث في الألمانية والسويدية أيضا . هاهو جدول يوضح الصورة عن طريق المقارنة :

اللغة الفرنسية FRANCÉS		اللغة الإنجليزية INGLÉS	
File	Fille	ابن Son	ابنة daughter
garcon		BoY ولد	girl بنت

الشكل رقم (١٠)

FIGURA N : (10)

رأينا الآن أن المفهوم الفرنسي Parents (في صيغة الجمع) يغطي الجنسين فيشمل الأب والأم . وهو هنا يسير على القاعدة الشائعة في لغاتنا الذكرية (mis pa- dres han muerto – مات والداي) . ورأينا أن اللفظة الفرنسية ، بهذا المعنى ، ليست مجرد جمع بسيط لكلمة Parents والفرنسية لا تعرف تلك الإمكانية المتوفرة للغة الإسبانية لاستخدام صيغة الجمع للدلالة على زوجين : ففي الإسبانية تجد mis PA- DRES (والداي) mes Parents – (والدي ووالدتي) ، وقولنا Sus hijos (أولادهما) "Ses enfants" يشير أيضا إلى الابن والابنة ، وكذلك : الملكان Los Reyes "تشير إلى الملك والملكة " .

ناقشنا في الفصل الأول حالة العلاقات الناشئة بين – hermano – أخ – وأكبر ، أصغر mayor - menor . كما أبرزنا الطابع الاجتماعي والتعسفي لعلاقات نسب أخرى عديدة وانعكاساتها على الأنظمة اللغوية . حين يتم التعبير عن العلاقات من جانب الأب عبر سلسلة ألفاظ مختلفة عن تلك التي ترمز إلى العلاقات من جانب الأم (كلمات مختلفة للدلالة على الأخ من الأب hermano del padre والأخ من الأم hermano de la madre مثلما في اللغة اللاتينية وكذلك السويدية) ، فمن الممكن أن نلحظ بقايا قواعد موروثة لم يعد لها وجود في يومنا هذا والمحدِّدات للعلاقات الثانية من جانب الأم أو الأب على التوالي تأتي بناء على العلاقات الطبيعية، فالمحدد الذي يعبر عنه في كلمة MORBOR في اللغة السويدية ، بمعنى " الخال " يأتي هو الآخر بناء على اعتبار غير لغوي . في هذه الحالة ، حين يصبح مركبا من " madre – الأم " والأخ – hermano ، يصبح المعنى في غاية الشفافية . هذا الشيء لا يجري على الألفاظ المماثلة في اللغة اللاتينية . كما أوضحنا أن الفارق بينها وبين اللغة الفرنسية هو أن هذه الأخيرة لا وجود فيها لضرورة التعبير عن العلاقة الناشئة من طرف الأم ، رغم أن الإمكانية قائمة .

التورية الحاصلة بصفة دائمة بين " المتعسف arbitrario والمسبب motivado والتي تعد من مميزات النظامين الإشاري Semiológico والدلالي Semántico تبدو واضحةً بسهولة تامة عبر أمثلة مستوحاة من مجال العلاقات النسبية . هذه العلاقات تأتي واحدة في شكلها البيولوجي في أي مكان، ومن الناحية الاجتماعية ، هناك فروقات من الممكن ، أو من غير الممكن ، أن تنعكس على صفحات الأنظمة اللغوية في مختلف اللغات . وعليه تصبح هناك ضرورة للاعتماد على ثلاث سلاسل من العلاقات : العلاقات الداخلية للاعتبارات (الطبيعية ، البيولوجية ، النفسية ، إلخ) الصورة التي تبدو ، في جانب كبير منها ، تعسفية ، والتي تنعكس فيها هذه العلاقات على صفحات النظام الاجتماعي ، وأخيرا يأتي الشكل الذي تأخذه هذه الشبكة من العلاقات السابقة على الاعتبارات اللغوية من جانب الأنظمة الخاصة التعسفية إلى حد كبير .

ولا يأتي توجه الألفاظ المعجمية نحو التنظيم في شكل وحدات صرفية على الدوام في صورة بديهية كما في حالة ألفاظ صلات القرابة . هناك مجال آخر دائما ما يأتي ذكره هو مجال الألوان . من الممكن أن نقول مسبقا إن الألوان هي نفسها في كل الثقافات ، وبالتالي ، فتأتي الألفاظ الدالة عليها متماثلة نسبيًا . ومن المعلوم أنه لا يحدث شيء من هذا القبيل، فاللون الذي يعرف في ثقافة معينة كمرتبة محددة ومتناقضة تحديدا وتوضيحاً مع غيرها من الدرجات ، نراه في ثقافة أخرى يمثل قالباً يصعب تحديده . والأمثلة على هذا متوافرة على صفحات مؤلفات علم الدلالة . وأما نحن فنستكفي هنا بإبداء ملاحظة بسيطة مفادها أن اللـــون الأزرق في الإسبانية "Azul" لم يكن يعني بالنسبة للرومان هذا اللون في ذاته الذي يتناقض طبعا مع الألوان الأخرى . فهناك ألفاظ متعددة في اللغة اللاتينية تدل على ألوان متعددة، والدليل على ذلك هو أن اللغات الرومانية ليس لديها للإشارة إلى اللون "الأزرق" من المشتقات المباشرة المأخوذة عن اللاتينية ، وإنما لديها للدلالة على ذلك ألفاظ مختلفة . في اللغة

الفرنسية نجد لفظة bleu اقتباساً من اللاتينية الدارجة إلي الجرمانية blavu الذى تحوَّل بصورة صوتية شاذة فى الفرنسية إلي blue، أهى معالجة خاصة باللهجات ؟ فى اللغة الإنجليزية blue والألمانية blau والسويدية bla، تطور مباشر لصورة جرمانية لكلمة " أزرق ") . أما اللغة الإيطالية فتعرف ثلاث كلمات للتعبير عن هذا اللون "أزرق" azurro/ Turchino , blu وما يفيد فى اللغة الفرنسية معنى " خمر أحمر " يعبر عنه فى الإسبانية بصورة أخرى :" نبيذ ملون " Vino VinoTinto -coloreado – وهو نقيض النبيذ الأبيض Vino blanco والذى يفهم على أنه غير الملون (أى المحايد من الناحية الدلالية ، انظر الشكل ١١) وليس من الغريب أن نرى انعكاسات لهذه الخاصية غير المحدودة للون الأبيض ، فى تناقضه مع الألوان المحددة بشكل إيجابى . فالشرشف الأبيض يكون نظيفا ، أما الصفحة البيضاء en blanco فهى الخالية من الكتابة ، والشعر الأبيض verso blanco هو الذى يخلو من القافية ، إلخ . كلها قيم دلالية تعود إلى النمط الجرمانى ، والذى نرى أثره فى ألفاظ أخرى ، مثل الفرنسية blanc (الإيطالية bianco والإسبانية blanco، إلخ) – مثل blavu – الاقتباس القديم من اللاتينية الدراجة ، أما اللفظة السويدية blank فإنها تعنى عادة " واضح – أملس " ، ولكنها تستخدم أيضا بمعنى " صفحة بيضاء لاشىء فيها " وكذلك للدلالة أيضا على اللون ذاته .

اللون الأبيض فى اللاتينية		اللون الأسود فى اللاتينية	
– لفظ غير محدَّد	Albus	– لفظ غير محدَّد	Ater
+ لفظ محدَّد	Candidus	+ لفظ محدَّد	Niger

الشكل رقم (١١)

FIGURA N : (11)

جاء المدلول " أبيض " في اللغة اللاتينية على صورتين: albus التي كانت تمثل اللفظ العام المحايد (غير المحدد) و Candidus التي كانت تعني الأبيض الناصع (لفظة محددة) وكذلك في المجال الآخر (الشكل القائم على الجانب الأيمن) وباختفاء هذا التناقض والتقابل . فقدت اللغات الرومانية الغربية الكلمات اللاتينية التي تم استبدالها باللفظة الجرمانية blank – (في الفرنسية blance والإيطالية bianco إلخ) وفقط تحتفظ اللغة الرومانية بأحد الأشكال اللاتينية في لفظة alb " أبيض " بالمعنيين (Vin alb، إلخ) وفيما يتعلق بالمفهوم Negro – أسود " فتغطيه كلمتان : ater (لفظ غير محدد) ، Niger (لفظ محدد – أسود قاتم) هذا اللفظ الأخير المحدد هو الذي دام استخدامه (في الفرنسية ، Noir والإيطالية nero، والإسبانية NEGRO، إلخ) .

وسنرى أن هذه الميول نحو جاهزية المفاهيم والألفاظ التي تشير إليها في شكل وحدات صرفية مرتبة في سلاسل متوازية أو تابعة لبعضها البعض وفقا للحالات ، ستكون صالحة بنفس الصورة في المجالات الدلالية التي تصوغ الأنشطة والأفعال التي ترمز إليها . فالفعل الفرنسي aller (ذهب) يغطي فكرة الحركة أو الانتقال دون ما تحديد للأسلوب الذي يتم به النشاط أو الوسائل المستخدمة، من الممكن الذهاب سيرا على الأقدام ، أو بالدراجة أو السيارة ، في القطار أو في الطائرة أو حتى الانتقال دون ما تحديد للملابسات . إنه مفهوم يحتاج غالبا إلى مكملات توضيحية أو سياق جلي . من المعلوم أن الفعل aller يستخدم غالبا بمعنى مجازي وفي العديد من التعبيرات الاستعارية Vous aller bien والذي يعني شيئا أشبه بقولنا في الإسبانية Cómo le va – كيف حال حضرتك ؟ ce costume me va bien (هذه البدلة تناسبني)، إلخ ، وأحيانا يدخل في صراع مع فعل أقل تجريداً (Les affaires marchent mal) الأمور ليست على مايرام ، إلى جانب الفعل aller هناك مرادفات جزئية مثل se rendre , se déplacer، وغيرها ، وفي الإنجليزية نرى الفعل go يقوم بوظائف مماثلة (go by train – يذهب بالقطار – go by car يذهب بالسيارة) ، إلخ ، أما للتعبير عن الذهاب

أو السير على الأقدام ، فتستخدم اللغتان فعلا محدد المعنى : marcher فى الفرنسية ، وWalk فى الإنجليـزية . فى الإنجليـزية نرى الفـعل ، go إلى جـانب ذلك ، يرحل / ينصــرف " مــثــال : (we have to go now – لابد أن نرحل الآن – Please go and leave me alone – من فضلك انصرف ودعنى بمفردى) استخدامات لا يصبح معها الفعل Ir فى الفرنسية مناسبا (S,en aller) .

فى اللغة السويدية ، نجد الفعل المتناظر – المتماثل من الناحية الاشتقاقية – ga (الذى ينطق go) ملازما بصورة مباشرة لمفهوم الفعل andar فى الإسبانية (يمشى – يسير) ولهذا فهو مستبعد فى حالة ما إذا تم النقل بصورة أخرى (فى سيارة إلخ) فى هذه الحالة ، يكون لزامًا على أى سويدى إما استخدام أفعال مشتقة من الألفاظ لهذه الوسائل الانتقالية (bila من كلمة bil بمعنى " سيارة " Cykel بمعنى " دراجة ") أو من أفعال مثل resa , Fara بمعنى " يسافر " والتى لا تعنى تحديدا لوسائل النقل ، مع استثنائها للسير على الأقدام . هذا الطابع الأكثر تحديدا للفعل السويدى فى مقابلة الفعل الإنجليزى go (والفرنسى aller) لا يمنع مع ذلك استخدامه بمعان مجردة ومجازية (مثل الفعل aller فى الفرنسية) alt gar bar (كل شىء على ما يرام) ، إلخ نفس الشىء يحدث تقريبا مع الفعل geben (من نفس الأصل) – Zu Fuss geben (السير على الأقدام) alles geht inm gut (كل شىء بالنسبة له على ما يرام) – ، بينما يتم استبعاد هذا الفعل – geben – حين الحديث عن وسائل النقل المختلفة . لابد لنا من أن نقول: mit den zug Fabren (السفر بالقطار) . – erste Klasse reisen (يسافر فى الدرجة الأولى) .

وإزاء اختلافات من هذا النوع نشأت فكر فحواها أن التراكيب اللغوية المختلفة تغطى أفكارا مختلفة والتفكير يأتى متباينًا فى بلد عن البلد الآخر . يرى العديد من علماء اللغة بشكل أكيد أن بنية اللغة اليونانية قد لعبت دورًا حاسمًا فى الشكل الذى تبناه الفكر الفلسفى فى العالم الغربى . والأفكار التى تفوهنا بها تبعت آنذاك النظام

التعسفي الخاص بلغتنا . وما كان يتوافر نوع من الانسجام إلا مع الأفكار والمفاهيم الممثلة في النظام النحوي والدلالي الذي ولدنا بين أحضانه . وناقش مؤلف هذه السطور باستفاضة هذه القضية في عمل بعنوان : الإشارات والرموز (١٩٧٧) (Signes et symboles)، والذي ننصح بقراءته من أجل معرفة التفاصيل . ومع ذلك ، فسوف نطرح هنا بعض النقاط الأساسية .

في المقام الأول ، يصبح من المبالغة أن نصرح بعجزنا عن تخيل مفاهيم ومراتب هي في حاجة إلى مصطلحات وفي الغالب تحدث بيننا وبين الحيوانات والنباتات ألفة رغم جهلنا بأسمائها .

والنظرية القديمة القائلة بأن معرفة الأشياء تتلاشى مع الأسماء تنضوي على جانب كبير من الحقيقة، لكنها ليست حقيقة كاملة؛ إذ إن هناك خبرات حديثة أثبتت أن الاصطلاحات اللغوية تسهل التعرف على المراتب ، غير أنها ليست شرطا مطلقا ، ورغم ذلك ، فالحيوانات العليا تتمتع بمقدرتها على إدراك وإحساس الأنماط والدرجات دون أن تتوافر لديها الاصطلاحات المناسبة وفي المقام الثاني، لا تعد مفاهيمنا ودرجاتنا في الأغلب الأعم عناصر بسيطة ومن الممكن تقسيمها إلى عناصر أبسط تصبح بالتالي أعلى شمولية . وإذا كانت اللغة الفرنسية لا تحتوي على لفظة للإشارة إلى كلمة " خال " Tío materno ، فإنها تعي تماما العنصرين الدلاليين " hermano de padre شقيق الأب و " قريب من جهة الأم " – Pariente del lado materno والذي يتركب منه المفهوم السويدي . وبإضافة الصفة aîne (أكبر) أو Puîne (أصغر) على التوالي ، يعد ذلك شرحا في اللغة الفرنسية لمعنى الاصطلاح البسيط " أخ أكبر " ، أخ أصغر " في اللغات الأخرى . أما المفاهيم البسيطة الدالة على العمر وصلة القرابة فهي أكثر شمولية من توليفات أخرى تستعملها بعض اللغات بصورة متعسِّفة . في علم الدلالة الحديث يطلق على هذه العناصر البسيطة (نسبيًا) المكونة لمفاهيم أشد تعقيداً مسمى " الخصائص التمييزية لتلك المفاهيم، هكذا تم نقل مفهوم أنشئ لوصف التعبير عن

الوحدات الصوتية إلى المستوى المضموني . ولكننا سنرى أن العملية البنيوية لن تكون كافيةً لتقديم فكرة عن التعقيد الذى يعترى المضمون اللغوى . لندخل هنا كمفهوم موازٍ للفظة الوحدة الصوتية Fonema رتبة نطلق عليها Semema – الوحدة الدلالية – التى هى وحدة نحوية (على مستوى الصيغ والوظائف النحوية) ومعجمية (على مستوى الألفاظ) انظر الفصل الأول . الشكل ٣

هنا نصبح على يقين ، بالتالى ، من أن المنطوق اللغوى – الدلالة المركبة – يقبل التفكيك إلى عناصر مستقلة بسيطة ، الوحدات الصوتية للجانب التعبيرى ، والوحدات الدلالية للجانب المضمونى (ازدواجية التفكيك) .

لنعد إلى المثال الذى سقناه فى الفصل الأول متدبرين كلمة devior فكل متصل بالثقافة الفرنسية واللغة يعي أن هذه الكلمة تفيد معنى مضمونيا ، باعتباريها الاسمى والفعلى . والسياق يخبرنا بأن الأمر يتعلق فى هذا المثال الذى نسوقه ، بواجب أعطى لتلاميذ إحدى المدارس ولابد من تحضيره لليوم التالى فى عبارة مثل : " est de mon devoir de vous dire la vérité (من واجبى أن أقول له الحقيقة) يصبح المعنى المقصود من الكلمة أعم وأكثر تجريدا (إلزام " ضرورة أخلاقية) ، وإذا أردنا ترجمة كلمة devior (فى الإنجليزية ، والألمانية والسويدية) ، فليس من المؤكد أنه فى مثل هذه اللغات ، أن تقوم اللفظة بتغطية نفس المعنى فى كل الحالات ، ففى الألمانية يصبح لزامًا علينا أن نختار فى المثال الأول لفظة Aufgabe، وفى الثانى لفظة Pflicht. أما السويدية ، فالواجب الذى يعطى للتلميذ يعبر عنه بلفظ Läxa (اقتباس من اللاتينية : Lectio وفى الفرنسية Leçon مشتقة أيضا من اللفظة اللاتينية وهى فى نفس الوقت مرادف للفعل devior فى هذا المعنى) أما الواجب الأخلاقى فيعبر عنه بلفظه " Plikt أو Skyldighet . وفى ثقافتنا الغربية نجد بالتالى / مفهوم " الواجب المدرسى " الذى تغطيه فى الفرنسية لفظة ذات معنى أعم والتى يعد مفهومنا عنها فى المكان المختار بمثابة تفريعة سياقية . هذه التفريعة تأتى مرادفة سياقية أخرى لمضمون كلمة لها

معان مختلفة تندرج تحت المفهوم العــام " للقـــراءة " (Leçon d. un texte) والمفهوم الذي تمت تغطيته عبر تفريعتي كلمتي devior Leçon هو ما يطلق عليه Semema (الوحدة الدلالية) هي فكرة محددة وواضحة تماما مثل كلٌ أولئك الذين تجمع بينهم وبين التراث الثقافي والاجتماعي الذي يحكمها ألفة كبيرة وبالتالي ، فإن هذه الفكرة لا ترتبط بالضرورة بوحدة دلالية واحدة وبهذا الاعتبار فهي لا تشكل جزءاً من وحدة لغوية أخرى . هي في حاجة إلى سياق يبرزها . وهناك بعض المعايير اللغوية التي تسمح بورودها بين الوحدات الدلالية في اللغة الفرنسية .

في اللغة السويدية نجد أن لفظة valp تعني " الكلب الصغير " مثلما تعني كلمة veau في الفرنسية " الثور الصغير " أو البقرة الصغيرة " في اللغة السويدية هناك لفظة تقليدية للدلالة على قطّة صغيرة آخذة في الانقراض ، كي يحل محلها رويداً رويداً، تركيب يعني " القط الشاب (لفظة kattunge بدلاً من اللفظة القديمة källing) وعليه ، فمن المصادفة المحضة في لغة ما أن نجد لأبناء أنواع بعض الحيوانات أسماءً خاصة، وإذا أخذت أسماء الحيوانات الكبيرة تضاف إليها صفة لكي تميّزها عن تلك وتحدد أعمارها ، كما يحدث بالنسبة لقطاع عريض من الحيوانات غير المألوفة للإنسان، ولا نجد مثل هذه التسميات الخاصة إلاّ في مجال الحيوانات الأليفة ، وحيوانات الصيد، إلخ ... حيث تشكل مجموعة الأبناء مرتبة خاصة على درجة كبيرة من الأهمية، تصبح جديرة بمسميات خاصة . وعادة ما يضرب المثل بوضع أهل اللغة اللابية (هي لغة لابوتيا في شمال أوروبا وينتمي أهلها إلى الأصل القوقازي، وتقع هذه المنطقة ما بين المحيط الأطلسي والقطب الشمالي، ويعمل معظم أهلها بصيد الأسماك وتربية الظباء، وقد تعرضوا لاعتداءات شعوب أخرى واضطروا إلى الرحيل إلى السويد وفنلندا والنرويج : المراجع) في معرفتهم بعشرات المصطلحات الخاصة بحيوانات الرنة عندهم بغية الإشارة إلى فروقات نوعية ، عمرية ، لونية ، إلخ كما تأتي المسميات العربية التي يطلقها أهلها على العديد من أنواع الجمال متنوعة ومتعددة .

الوحدات الدلالية Sememas تحظى بهذه الخاصية مشاركة مع الوحدات الصوتية Fonemas الخاصة بالمستوى التعبيري ولا يمكن تصنيفها كإشارات . ليس لها من تعبير(ثابت) كما أنه ليس للوحدات الصوتية مضمون (إضافة إلى الحالات الخاصة)، ولكنها تدخل فى التراكيب المولدة للمضامين اللفظية ، كما أن الوحدات الصوتية تدخل فى التراكيب التى تتولد عنها تعبيرات هذه الأخيرة . تحتوى اللغات جميعها على مفهوم "الصغر Pequeñez المعبر عنه بلفظة واحدة أو عدة ألفاظ وفقا للحالات (للمقامات) والوسائل للدلالة على نوعيات مختلفة من الحيوانات . وحين نخرج بتوليفة من الاثنين يصبح بمقدورنا ، فى القطاع الأكبر من اللغات ، الحصول على مسميات لكائنات حية تشترك فى تمثيلها لدرجة شبابية للنوعية قيد الحديث . ففى الفرنسية نجد لفظتى Jeune chien، وفى السويدية Valp، تقوم بتغطية نفس الوحدتين الدلاليتين الحاملتين لعلامة تمييزية هى - الصغر، وما يحدد الطريقة التى يتم بها تمثيل المفهوم لغوياً هو موقعه الخاص داخل إطار الحياة الاجتماعية (كلفظ - منطوق - بسيط أشد تحديداً أو كلفظة مركبة من ألفاظ عديدة أشد تجريداً) .

من الأمثلة التى سقناها يمكن أن نستنبط أن المسمى النوعى " الكلب الشاب " يكمن فى مفهومين كل واحد منهما يأتى أكثر تجريداً من المفهوم الأوحد valp، الأكثر تعقيداً من الناحية الدلالية وبالتالى فهو أكثر تحديداً . بالإمكان تفكيك هذا المفهوم الأخير إلى عنصرين : " شاب"كلب " أتمثل الوحدتان الدلالتيان أصغر الوحدات أم أنه من الممكن رؤيتهما مكونتين من عناصر أقل وأشمل ؟ يبدو من المعقول نظراً لأن فكرة "شاب" بمثابة وحدة أو فكرة بسيطة، ومن البديهى أن مفهوم لفظة " كلب " : ليست كذلك وترجمة أى عنصر مفكك عبر التحليل باعتباره وحدة أدنى وأبسط أو باعتباره تركيباً من الواجب صياغته داخل كل نظام خاص . نفس هذا الجزء المضمونى يمكن أن يصبح آنذاك فى لغة وحدة دلالية واحدة وفى لغة أخرى مركباً من وحدتين أو أكثر . وإذا ما أطلقنا على الوحدة الدلالية الأدنى مصطلح Semema، هنا إما أن تكون

الوحدة الدلالية الكبرى Semema عبارة عن مجموعة من الوحدات البسيطة Sememas أو rasgos، وإما أن تكون مكوّنة من وحدة واحدة فقط . بحوزتنا إذن مقام موازٍ على المستوى التعبيري . يمكن لنفس الجزء أن يصف باعتباره سلسلة من الوحدات الصوتية وفقًا لما نطبقه من معيار في العملية التحليلية . ودائما ما يدور نقاش حول ما إذا كان هذا الاعتبار الصوتي هو المعروف باسم " الفونيم " FONEMA أم أنه الوحدة الدلالية التمييزية لشيء آخر . يمكن اعتبار النطق الأنفي للحروف الصائتة المعروفة بالأنفية في اللغة الفرنسية تعبيراً عن وحدة صوتية أنفية تتكون من مجموع الحروف الصائتة أو وحدة دلالية تمييزية لوحدة صوتية صائتة فقط . هل يجب أن نستخلص بداية من هنا أنه لا تمثيل في الحقيقة لعالمنا المفهومي كله إلا في صورة توليفات من مواد بدائية دالة على المعنى (Sememas)، والممثلة لمجموع التعبيرات المحددة والمجردة للإنسان . وقبل أن نجيب على هذا السؤال الشائك ، تدعو الضرورة إلى العودة إلى المستوى التعبيري للغة . في الواقع ، إن بنية هذا المستوى وتحليل هذه البنية هما الأساس الذي قامت عليه محاولات تطبيق فكرة الجزئيات الأولية إضافة إلى قاعدة عميقة هي في عمومها إنسانية .

لعلنا قد لاحظنا من خلال هذه الأمثلة كيف أن اعتبارات العالم المحيط بنا ، من ناحية ، تمثل تجمعها في الأنواع ، والأصناف والدرجات (حي – ميت – آباء – أبناء ملون – غير ملون ، هدوء – حركة ، إلخ) وكيف أن مثل هذه التركيبات ، لحد ما، تنعكس في المراتب اللغوية ، ومن ناحية أخرى كيف تعدل اللغات وترفض هذه البنى الأولية (الطبيعة) وفقا لتقاليد اجتماعية . هناك مثال آخر سيوضح معالم الأمر بصورة أشد جلاء . ومعلوم طبعًا الفارق الطبيعي بين الحركة والسكون وبمقدور الحركة أن تتوجه صوب هدف (وجهة) أو إلى هدف محدد (الحركة داخل شيء ما) ومن الممكن أن تكون لغالبية اللغات وسائل للتعبير عن هذه الفروقات . ولكن بمقارنة اللغة الفرنسية بلغات أوربية أخرى نحصل على فروقات عميقة للتعبير عن مثل هذه المفاهيم .

حين نقول : توجد في فرنسا (تعيش في فرنسا ، توجد في فرنسا ، إلخ) ، فنحن نتحدث عن طريقة نعبر بها عن السكون والاستقرار بينما حين نقول : نسافر عبر فرنسا ، فإن ذلك يعني الحركة بين أرجاء البلد (دون وجهة محددة) ، بداية ، يحدث نفس الشيء في اللغة الإنجليزية ، والألمانية و السويدية (be en Franve , Travel in france in Frankreich reisen) وفي حالة أخرى تصبح فيها فرنسا هدف الانتقال يستخدم فعلا يدل على الوجهة Se rendre en France , alle en France وبالنسبة لحرف الراء ، اللامتغير من خلال وجهة نظر التفرغ الثنائي quietud - reposo (سكون – هدوء) فإنه ما يزال هو نفسه (etre Paris!) aller a paris etre en France , alle France أما اللغات الجرمانية فمن الممكن أن نستخدم ، في حالات مماثلة ، نفس الفعل بالإضافة إلى حرف جر يدل على الوجهة (في الإنجليزية : Travel in France – يتجول عبر فرنسا) Travel to France (يسافر إلى فرنسا) ، وفي الألمانية : Nach Frank-reich reisen , In Frankveich veisen والسويدية : vesa tell Grankrike , resa I Frank-rike، مثل هذه اللغات لا تفرق بين : aparis in France ورغم التقارب النسبي التاريخي والبنيوي مع اللغة الفرنسية ، نجد أن الإسبانية لديها نظاما حرفيا مختلفًا تمامًا . فيقال : Estar en Espana (البقاء في إسبانيا) ، Estar en Madrid (البقاء في مدريد) ، ولكن : a España Irse 0 (الذهاب إلى إسبانيا) ، Irse a Madrid (الذهاب إلى مدريد) في بعض اللهجات ، نجد حتى الفعل estar (يكون – يوجد) من الممكن أن يتحول إلى فعل دال على الحركة(الوجهة) وبمساعدة حرف الجر Vara I Stockholm, : till (الوجود في إستوكهولم) ، Vara I Stockholm (الذهاب إلى إستوكهولم) ولا تعني الاعتبارات المذكورة بالطبع عدم وجود أفعال في هذه اللغات تدل بصفة مستمرة على السكون وأفعال أخرى تدل دومًا على الحركة أو الوجهة أو الاثنين معًا . في حالات كثيرة ، تفضل اللغة الفرنسية أفعالا أشد تجريداً وتحمل في طياتها تحديداً لنوع النشاط بالاستعانة ببعض المفاعيل (أو المكملات) فبينما يقول

التحدث بالألمانية : Über den F luss Schiwimmen ، يفضل الفرنسي : (a la nage) Travevser la riviére en nageant (يعبر النهر سابحا - سباحة) - في الإسبانية : Cruzar el río nadando (a nado) - إذ يتم التعبير عن الحركة في شيء ما داخل الفعل، أما فكرة السباحة فيتضمنها المكمل Coplemento في الألمانية ، نجد حرف الجر (المتبوع مباشرة بالمفعول يترجم لنا فكرة الحركة عبر شيء ما والفعل هو الذي يترجم الشكل الذي تتم به هذه الحركة) .

والفعل Savoir في اللغة الفرنسية يعبر عن حدث يبدو لنا إيجابيا وبمقدورنا تحويله إلى المعنى المعاكس باستخدام النفي (Je ne Sais Pa / Je Sais) وفي لغة الإسكيمو نجد الفعل nalúvara (لا أعلم) - أو أجهل - يتحول في معناه ، بما يحمل من نفي في ذاته بكتابته nalúngilara - إلى " أنا أعلم " أو " لا أجهل " هنا يعتبر الجهل مفهوما محايدا يمكن تعديله بواسطة النفي إلى مفهوم سلبي (محدد) واللفظة اللاتينية nescio (لا أعلم - لا أدري) (من ne + Scio de " أنا أعلم ") كانت لها صياغة هي : non nescio (لا أجهل، أعلم) مع فارق أن اللفظة اللاتينية nescio كانت مركبًا ذا عنصر سالب وبالتالي بدا شفافا من الناحية الدلالية ، وأيضا وجدت الصورة البسيطة Scio (أنا أعرف) .

منذ أن بدأت دراسة اللغة الفرنسية (في سن الرابعة عشرة) أزعجني دائما ما عهدته من ازدواج في معنى الفعل الفرنسي Chercher . في الفرنسية يستخدم هذا الفعل عند الحاجة إلى البحث عن شيء يعرف مكانه (وفي الألمانية يستخدمون الفعل holen والإنجليزية fetch والسويدية bämta) وإذا ما تعلق الأمر بالعثور على شيء مفقود أو غير معلوم المكان (فالإنجليزية تستخدم الفعل Look for - Search والألمانية Suchen والسويدية Söka) . لي انطباعٌ بأن هذا المعنى المزدوج للفعل chercher يثير إزعاجًا بعض الشيء حتى للفرنسيين أنفسهم ، مما يبرهن على وعيهم بالفارق بين

النشاطين . وقد تنامي إلي مسامعي أن هناك مجهودات تبذل في مجال اللهجات بغية حل مثل هذا الغموض . وكما هي العادة في آلية اللغة ، فلا وجود للبس إلا في حالة عزل الكلمة أو الإتيان بها ضمن سياق مغلف بغموض وإبهام، وبمعنى آخر ، فالسياق مطروح دائما من أجل التحديد بدقة .

من هذه الأمثلة نستنبط أن المقارنة بين عدة أنظمة دلالية مختلفة تبرهن على أن الأمر يتعلق بفارق في الإمكانيات التمييزية والتقدير الرتبي للاعتبارات ، بشكل أقل من الفارق في ترجمة مثل هذه الفروقات في مصطلحات اللغات ، وبمقدور الإنسان تقريبا أن يعبر عما يريد نقله أو إرساله . ومن البديهي أنه لا حاجة قط للحديث عن اعتبارات وعلاقات هو يجهلها والإنسان يملك الوسائل الاتصالية اللازمة له داخل إطاره الحضاري والاجتماعي . وتنطلق شرارة المشاكل في نفس الوقت الذي يحدث فيه التلاقي بين الحضارات والأنظمة الاجتماعية . هذه النقطة الاتصالية هي التي تحكم التغييرات وعمليات التطوير . مثل هذه الاتصالات تبدو في بداية الأمر ثقافية واجتماعية (الاحتكاكات الدينية تكون جزءًا من هذا الحدث الاتصالي) ثم تترجم تباعًا إلى تداخلات واقتباسات لغوية وتطفو المشاكل على السطح حين الحاجة إلى الترجمة من لغة إلى أخرى، وحين عرفت الشعوب الجرمانية ، لحظة اتصالها بالمسيحية ، المفهوم الديني " الضمير " Conciencia " (في اللاتينية : Conscientia) ، فمن الممكن أن يكونوا قد اقتبسوا الكلمة اللاتينية - الفرنسية (التي هي في الإنجليزية -Con science ككلمات أخرى كذلك في مجال الثقافة تبنتها اللغة الإنجليزية خلال الحقبة النورماندية الطويلة)، أو أنهم استخدموه كصورة طبق الأصل للكلمة اللاتينية مترجمين الوحدتين الصرفيتين Scientia Con، من الفعل Scire "يعلم" في الألمانية -Ge wissen والسويدية Samvete (كلتاهما من الأصل الجرماني " لمادة المعرفة ")

لا يجب أن ننسى أن مثل هذه الظواهر لا تحدث فقط في الجغرافيا (على حدود اللغات واللهجات) وإنما أيضًا في التلاقي ضمن إطار اللهجات الاجتماعية -Sociolec

tos (لغات لطبقات اجتماعية مختلفة) في المجتمعات ، تتزايد رويداً رويداً ، بقدر ما تحافظ الطبقات الاجتماعية على جوانب التوازن في الفترة الحديثة . ستأتي الفرصة لاحقا للعودة إلى مثل هذا الموضوع (الفصل الثامن) .

فكر العالم اللغوي والنفسي الأمريكي جون ب . كارول عملياً في إخضاع نظرية وورف Whorf الشهيرة (الفصل الأول) لتجارب على متكلمين ينتسبون لمجموعات لغوية وثقافية مختلفة . في إحدى هذه التجارب ، لزم على جمع من الهنود وجماعة من الأمريكيين تصنيف ثلاثة أحداث موصوفة مستعينين ببعض الصور . وأول هذه الصور كانت لسيدة تغلق غطاء أحد الصناديق ، الصورة A، والثانية B كانت لسيدة تغطي ماكينة حياكة بقطعة من القماش ، والثالثة C كانت لسيدة تضع غطاء فوق أحد الصناديق المعدة للأغذية . وجاءت المهمة التي عهد بها إلى المشتركين متضمنة البحث عن الصلة القائمة بين B,C أو A، كان من المتوقع أن يصل الهنود بين A,C، والأمريكيون بين B,C ، نظراً لأن الهنود يعرفون فعلاً معنى "أغلق" ، سد (فتحة ما) ، بينما كان من المتوقع أن يقوم الآخرون من الناحية الطبيعية بالربط بين الحدثين اللذين يشملهما الفعل " غطى " Cubrir وجاءت النتيجة مؤكدة لهذا التوجه لدى المجموعتين إلا أنها لم تؤكد رفضاً لتجميع لا سند له في اللغة . ومن هنا فقد استنتج كارول أن المواد التي نملكها حاليا لا تؤكد تماما نظرية وورفWHORF . وعليه فقد صاغ نظرية أهمية اللغة لمراتبنا في مصطلحات أقل شمولية من سوسير والأمريكان وحسب رأيه ، فإن أية لغة تؤدي بمتحدثيها إلى التثبت من بعض الفروقات البنيوية للعالم المحيط بهم، وهو أمر لا يقوم به متحدث لغة أخرى بنفس السهولة ، إلا أن اللغة ، من ناحية أخرى لا تمنع المتكلمين من التأكد من المراتب والفروقات التي لا تنعكس بصورة مباشرة في أنظمتها اللغوية (انظر بداية الفصل الحالي) .

ومما لا شك فيه يصبح من الأسهل أن نأخذ في الحسبان الطابع البنيوي والصرفي والرتبي للاعتبارات النحوية المزعومة . فمجالها أكثر تحديداً والأنظمة

الناجمة عنها تتداخل بصورة أدنى مع مراتب أخرى ، اجتماعية ، طبيعية ، وغالبا ، ما تكون غير لغوية . ولكن قبل أن ننتقل إلى الأمثلة النحوية ، علينا أن نلفت الانتباه إلى عدم ثبات الحدود الفاصلة بين القواعد النحوية والألفاظ . فما يمكن التعبير عنه في لغة ما عبر الفروقات النحوية ، نراه في غيرها مجرد اعتبار خاص بالمفردات . أتنتمي اللواحق والسوابق إلى مجال القواعد النحوية أم أنها عناصر مفرداتية (وحدات صرفية تابعة) ؟ أية إجابة على هذا التساؤل تبدو تعسفية أو راجعة لموقف اتخذ مسبقا . في بعض اللغات يتم التعبير عن فكرة " الصغر Pequeñez باستخدام الصفة" صغير " Pequeno، (كما نرى في الفرنسية : Petitte maison) ، وفي لغات أخرى يفضل استخدام إحدى اللواحق، في الإسبانية : Casita (منزل صغير) من كلمة Casa (منزل) . والنفي يأتي في بعض اللغات كعنصر مدرج في الوحدة الصرفية الفعلية ، ويصبح في لغات أخرى كلمة معجمية كغيرها من الكلمات . واللغة الفنلندية تقدم لنا مثالاً على ذلك ، وخاصة النمط الأول en tule (لن آتي) ، et tule (أنت لا تأتي) ، حيث نرى أن النفي عبارة عن فعل يأخذ النهاية الخاصة بالشخص ، إذا ما أردنا أن نقول : أنا أت :(tulet tullen) والإنجليزية بما تحتويه من تحويرة فعلية باستخدام (I do not come) do والفرنسية بإدراج النفي داخل الوحدة النحوية الفعلية (Je ne Viens pas) تأتي في مكانة متوسطة ، بينما النفي في لغات مثل الألمانية والإيطالية والإسكندنافية لا يخضع للبنية النحوية وإنما إلى أي كلمة أخرى خاضعة لقواعد تركيبية عامة ، ومكان النفي في اللغة السويدية أو الألمانية هو نفس المكان الذي يشغله أي ظرف آخر من نفس النوع .

سيسود الظن أن القاعدة الأساسية للنظام النحوي في كل اللغات تتمثل في نوع من التقابل الرئيسي بين الاسم والفعل . كما توصل البعض إلى التصريح بأن مثل هذا التقسيم يتسم بصفة عالمية ويعكس المظهرين اللذين ينظر من خلالهما إلى العالم

المحيط . ومع ذلك ، فهذا أمر مبالغ فيه ، ولو تبنت غالبية اللغات مثل هذا التفريق .
ورغم التوصل في لغة ما للتمييز لغويا بين المفهومين "الإنسان يحب" و "حب الإنسان"
– كما يحدث في بعض اللغات الأمريكية – فمن البديهي العثور في كل مكان على
وسيلة للتعبير عن العلاقة الناشئة بين الفكرتين " الإنسان " و " يحب – حب " على كل،
ففي اللغات التي نألفها – الهند أوروبية ولغات من ثقافتنا ، السامية والأورالية ، إلخ ،
نجد أن البنية المختلفة للأسماء والأفعال تترك بصماتها على كل القواعد النحوية ، ومع
هذا فلابد أن نتذكر أن مثل هذا الفارق يبدو شكليًا ، ويقوم على أساس من معالجة
نحوية مختلفة ، إلا أنه غير منطقي . وقد تمثل الخطأ المنهجي البحثي الكبير للنحو
التقليدي في الخلط بين البناء النحوي والترتيب المنطقي " فالحب " ، و"الضمير" عبارة
عن أسماء مثل " الكلب " و " المنزل " وكلمة " العمل " تعبر عن نفس النشاط الذي يعبر
عنه الفعل " يعمل " في لغاتنا تصبح المعالجة الشكلية المعيار الذي يبنى على أساسه
تصنيف " الكلمات " وهاهم الإغريق قد تشككوا في تصنيف الصفات (أهي " أفعال "
لكونها تعبر عن شيء في الفاعل : " الرجل يعاني " – " الرجل مريض " ، أم أسماء
لخضوعها لعمليات صرفية اسمية ؟) وفي النهاية حسم الأمر لصالح الحال الثاني، في
الهند أوروبية ، نجد تصريف الصفة في النوع ، والعدد والحالة الإعرابية (في اللغات
التي تحتفظ بهذه المراتب) لا في الزمن أو المظهر أو حتى الشخص .

رأينا في الفصل الأول أن المراتب الفعلية الزمنية والمظهرية تتمثل بصورة شديدة
الاختلاف في اللغات . كما نبهنا إلى خطورة اللبس بين هذه المراتب ، التي تنعكس في
معايير شكلية ، وبين العلاقات الزمنية الفيزيائية . كما أبرزنا الطابع التعسفي للعلاقات
التي تقيمها كل لغة على انفراد . اللغات لا تملك أي مظهر (منطقي)، كما علينا أن
نبيِّن أن مسميات هذه المراتب في النحو التقليدي لا تغطي بوسيلة ما ما لها من وظائف
لغوية مختلفة . فزمن " المضارع " في الفرنسية لا يدل دومًا على المضارع ، فإذا قلنا :

" أذهب غداً " فإن التعبير يمثل مضارعًا نحويًا ، لكن بدلالة مستقبلية ، واللغة اللاتينية حين تستخدم : memini فهذا فعل يدل مظهره وشكله على صيغة الماضي (فعل متعد في زمن الماضي ويصرف تصريف المجهول) أما في الواقع فهو عبارة عن صورة تمثيلية لفعل مضارع معلوم (أتذكر) والمشكلة التي ما زالت قائمة تنحصر في معرفة ما إذا كان الذين يستخدمون الصيغة الأولي من هذه الصيغ يفكرون بطريقة مختلفة عن أولئك المستخدمين للطريقة الثانية . وما هناك من شك قط في أن اللغة تمارس تأثيراً على الفكر ، وما من شك أيضا في أنه على مدى بعض الفترات والمدارس المعنية ساد توجه صوب المبالغة في هذه التبعية .

النوع يمثل درجة نحوية ، أما الجنس فهو اعتبار بيولوجي . ويجب عدم الخلط بين الاثنين ، رغم وجود اتجاه يبحث عن صورة توافقية بينهما ويفسر الاستثناءات تفسيراً تاريخيًا . من الطبيعي أن تكون الألفاظ الآتية " الرجل " الابن " الفتى " إلخ ، ألفاظًا مذكرة ، والمرأة " " الأم " " الابنة " ، إلخ ، مؤنثة . ومع هذا ، فإن كلمة "الفتاة" (باعتبارها مقابلا لكلمة " فتى ") تعد نوعا محايداً في الألمانية، (das Mädchen – صيغة تصغيرية) وكلمة La sentinelle في الفرنسية ، مؤنثة (نتيجة تزلج دلالى) . والنوع " المحايد " في الهندأوروبية كان يمثل نوع اللامتغيرات (لا هذا ولا ذاك أو الاثنين معًا) وما زالت هناك بعض الآثار المتبقية في العديد من اللغات الحديثة . ففي السويدية تجد لفظة barn (طفل) محايدة ، وفي الدانمركية menneske (كائن حي) محايدة أيضا . أما في مجال غير الأحياء فيبدو أن الترتيب المتدرّج في النوع اليوم يأتي بصورة متعسفة تماما . هذا التعسف هو ما يفسر العديد من التغيرات التي تطرأ على النوع في تطور اللغات . فكلمة " البحر " كانت محايدة في اللاتينية ووجب أن تكون مذكرة في اللغات الرومانية حيث لا وجود للمحايد اللاتيني . ومع ذلك ، فيقال في اللغة الفرنسية La mer – بالتأنيث – (وفي الايطالية il mare – بالتذكير – ، في

الإسبانية يوجد الإستخدامان – التأنيث والتذكير La mar - el mar، وذلك لإعتبارات أسلوبية .)

في لغة أوروبية مثل الإنجليزية – البعيدة جدا عن النمط المشترك الهند أوروبي – نجد النوع بالقدر الذي يمكن الحديث عنه ، قد عاد ليصبح رتبة بيولوجية Sexo . والشكلان اللذان تظهر بهما الكلمات (الجمع والمفرد) لا يدلان على أي فارق ، وكذلك المحدِّدات (أدوات التعريف والتنكير ، الضمائر ، الصفات) وما هناك سوى الضمائر الشخصية الخاصة بالشخص الثالث (الغائب) التي تحتفظ بفارق النوع باستخدام ضمائر مختلفة بالنسبة للمذكر والمؤنث(el – هو – ، ella – هي) ، ولكن للإشارة فقط إلى الأحياء (من بني البشر ، وبعض الحيوانات (للإشارة إلى أي اسم آخر ، سواء أكان الدال ميتًا أم حيًا فما يقوم بالمهمة هنا اللامتغير IT (الذي يعد شكلاً محايداً من الناحية التارخية ، وفي الألمانية : es، إلخ) وفي السويدية يكون الوضع مماثلاً ، ولكنه أشد تعقيداً . فالضميران han– هو – hon هي لا يشيران إلاَّ إلى الأشخاص وبعض الحيوانات العليا ، ولا يشيران قط إلى الأشياء ' ولكن بدلا من أن تعمم كالإنجليزية المحايد القديم ، تستخدم اللغة السويدية الضمير) denالذي هو في الأصل صفة إشارية) للدلالة على كل العناصر (القديم من المذكر والمؤنث) الغير محايدة . وتوجد بالتالي حالة تناقض بين المحايد (الضمير الشخصي det)واللامحايد (الضمير الشخصي den) أما النظام القديم فما زال محافظا عليه في العديد من اللهجات وما تزال آثاره باقيةً في اللغة الأدبية (فلفظة الساعة مؤنثة ، وغالبا ما تأتي لفظة سفينة أيضـا) ، وفي الواقع فإن النظام الإنجليزي قد فقد كل ترتيب دال على النوع . فالضمير it بالنسبة للضميرين she - he يعد من الإعتبارات المعجمية . وفي اللغة السويدية ، حيث الفارق المحايد – اللامحايد يحمل في طياته فروقات في إعراب الضمائر والصفات ، يمكن إعتبار هذا الفارق حتى يومنا هذا مجرَّد تناقض من حيث

النوع بينما تعد اللفظتان hon - han (المقصورتان للدلالة على أسماء مذكرة ومؤنثة على الترتيب (معجمتان خالصتان ، فيما عدا مسميات الأشخاص التى تتم معالجتها من خلال وجهة نظر التصريف باعتبارهما كلمات غير محايدة .

يعد نظام الأنواع في اللغات الهندأوروبية حالة خاصة لنظام (طبقى) معروف بالنسبة للغات عديدة خارجة عن إطارنا الحضارى (اللغات الأفريقية ، على سبيل المثال) والأسماء تكون مراتب محددة شكليًا وفقا للأنواع المفهومية التي تشير إليها (حى أم ميت ، إنسان – حيوان ، إلخ أو مجموعات قائمة على أساس من العلاقات بين الإنسان ومفاهيمه : نافعة – ضارة – غير هامة ، إلخ) ولكن عبر الوسيلة المتطورة بعض الشيء للغاتنا ، يصبح بمقدورنا أن نراقب الأنظمة وما فيها من إنعكاس لموقف الإنسان بالنسبة للعالم المحيط به .

أما الحالة المتشددة على الجانب الاخر فتتمثل في اللغات التي تجهل كل مرتبة تدل على النوع . هذا هو وضع اللغات الفينوجرانية Finougrianas . واللغة الفنلندية لا وجود فيها لكلمات مختلفة للإشارة إلى الضميرين (هو – هى) (إرجع إلى الفصل الأول) وعملية التصريف ، الأمر العادى فى اللغة الفنلندية ، هي نفسها دائما بصرف النظر عن نوع الدال ، ورغم هذه الفروقات البنيوية والرتبية التعسفية – والتى نحسن ميلاً نحو بعضها فنصرح بأنها الأغنى والأسمى من الناحية الكيفية على غيرها من الأشكال – فمن المحتمل ألاَّ توجد لغة عاجزة عن التعبير بصورة أو بأخرى عن كل خصائص دلالاتها وكل العلاقات الحاصلة بينها التى يشعر أفراد الجماعة الاجتماعية والثقافية قيد الحديث بحاجتهم إلى نقلها .

أما المراتب والوظائف التى يوضحها علم الصرف فإنها تعود بصفة دائمة إلى الوضوح والتعبير عبر وسائل نحوية ، ومرتبة الحالات الإعرابية والتصريفية تستخدم لإظهار العلاقات بين الاسم والفعل داخل الوحدة النحوية (الفاعل – حالة الرفع –

المفعول المباشر ، المفعول غير المباشر) أو بين أسماء مختلفة (المجرور، الدال على التبعيض) .وبالنسبة للوظائف التي يقوم بها الفاعل والمفعول في اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الحديثة التي يتم التعبير عنها بترتيب الكلمات نجد أننا في الإسبانية نقول : Pedro quiere a Pablo (بدرو يحب بابلو) والوظائف تختلف إذا قلنا : Pablo quiere a Pedro (بابلو يحب بدرو) ، أما في اللاتينية ، فالنهاية التي تلحق الاسم هي التي تحدد وظيفته في الجملة Petrus amat Paulum، فإذا قلنا : Paulum-amat Petrus ما تغير معنى الجملة (حيث إن النهاية التي تلحق الاسم هي المحددة لوظيفته) وحروف الجر ترجع في العديد من اللغات إلى وظائف تؤدى في لغات أخرى باستخدام النهايات العرضية (في الفرنسية IL donne le pain au garçon وفي الألمانية garçon est dans Le la fôret , er gibt dem knaben das Brot، وفي الفنلندية PoJka on metsässä، حيث المقطع ssä يعد بمثابة العلامة الدالة على التحديدات الوظيفي (= في هدوء) .

ناقشنا في الفصل الأول بعض حالات الاختلاف البنيوي الزمني والمظهري والوسائل التي يتم التعبير بها بطرائق قددا مثل هذه التقابلات : كصرف أو نحو أو بمساعدة المصادر المعجمية، وتأكدنا مرة أخرى من أن الإنسان ، بتحرره من قيد تقاليد لغته ، بمقدره أن يستوعب ويطبق بسهولة أكبر الفروقات التي يجد لها سندا منهجياً في وحداتها الصرفية وتركيباتها النحوية . وكاتب هذه السطور له خبرة طويلة في الصعوبات التي يواجهها متحدث إحدى اللغات الجرمانية حتى يتسنى له الفهم العميق للفكرة التي ، في اللغات الرومانية ، تكمن وراء التمييز بين " الماضي البسيط " والآخر " غير التام "

ولقد تبنت فلسفة اللغة ، منذ أرسطو ، على مدى زمن طويل الفكرة القائلة بأن ترتيب العناصر (الكلمات ، الأشكال) في سلسلة (وحدات نحوية ، جمل) كان راجعًا – أو كان له أن يرجع – إلى ترتيب الأفكار كيفما تعن هذه الأخيرة للإنسان

المتـأمل . كان هناك منطق للفكر الذى انعكس فى منطقية اللغة والمنطوقات اللغـوية . والنظام المتمثل فى الفاعل (ممثل – حدث) كان من الضرورى أن يحدد الصورة التى تتجمّع فيها الجملة والعناصر الأساسية . كانت حالة الرفع Nominativo تعد بمثابة الشكل الطبيعى للفاعل Sujeto، أما العناصر التابعة للفعل (مثل المفاعيل المباشرة أو غير المباشرة ، مثل المفاعيل الظرفية الدالة على الزمان أو المكان ، إلخ) ، فقد كانت عبارة عن عوامل ذات أحوال مختلفة (مفعول مباشر acusativo وغير مباشر dativo أو حالات إعرابية أخرى) أو محكومة بحروف الجر، وعلى المدى الطويل ظلّ مثل هذا الترتيب هو الوضع الطبيعى وما عداه كان خارجًا عن القياس . ومن المعلوم أن أرسطو قد طرح هذه القاعدة النحوية وأن اللغات الكلاسيكية قد استخدمت ، حتى يومنا هذا ، نماذج للوصف اللغـوى حـتى للغات لا تتشـابه بنيـتـهـا فى شىء مع هذا النمـوذج الكلاسيكى .

ومـا هو بالنسـبـة لنا فـاعل الجـملة ، وبالتـالى فى حـالة " الرفع " هـو فى اللغـة الفنلندية دائما فى حالة الدال على " التبعيض " Partitivo" (إذا كان هذا الفاعل يمثل جزءًا من كل) . والمفعول المباشر ، فى اللغات الهندأوروبية (acusativo)، يوجد أيضًا ، وفى نفس الشروط والأحوال ، فى حالة " الدال على التبعيض " فى اللغات الجرمانية والرومـانثية (أى اللغات التى تولدت من اللاتينية) ، هناك الماضى المركب باستخدام الفعل المسـاعد " haber (يوجد) واسم المفعول للفعل فى الإسـبـانية yo he cantado (غنيت) ، وفى الإنجليزية : I have sung وفى الألمانية : Ich habe gesungen، إلخ) . فى الفنلندية والأيرلندية ، يستخدم الفعل " يكون " متبوعًا بصيغة فعلية ، فيصبح المعنى تقريبًـا " غنيت " قـد غنى ، إلخ (فى الإسـبـانية نقـول : estoy trabajando – مـا أزال أعمل – ، وفى الفنلندية olen laulanut، حيث تعنى كلمـة olen = مـا أزال (أكـون) ، وكلمة Laulan "أنا أغنى")

وبنفس المفهوم نرى من الطبيعي أن يتم التعبير عن الملكية باستخدام الفعل Po-seer أو Tener (يملك) ، متبوعا ، حين يتسع المقام ، بحالة العمل (المفعولية المباشرة): في الفرنسية J ai un !Liver، وفي الإسبانية : Yo tengo un Libro (لي كتابٌ) ، والألمانية Ich have ein Buch والإنجليزية I have a book، إلخ . فالمالك هو الفاعل (في حالة رفع إذا كانت اللغة تعرف الفروقات الحالاتية ، ولكن مثل هذه التحويرة لا تحظى بأية صفة شمولية . أما اللغة اللاتينية فقد حازت هذا النمط منذ البداية : mihi est Li-ber (لي كتاب) والذي تم استبداله فيما بعد بنمط آخر استعمل فيه الفعل (haber يوجد) وبالتالي ، نجد الشيء المملوك في اللغة اللاتينية هو فاعل الجملة ، أما المالك Poseedor فهو المفعول غير المباشر . objeto indirecto ، ومثل هذا التعبير يمثل الإمكانية الوحيدة في اللغة الفنلندية : minulla on kiria (لي كتاب) ، فلفظة minulla هي حالة " المضاف " بالنسبة للياء " ولفظة mina هي الفاعل) ومع هذا ، فمن قبيل المبالغة أن نصل من وراء هذه الأمثلة إلى نتيجة مفادها وجود فارق سحيق من قبل الناحية الفكرية بين الفنلندية التي يخبر متحدثها بأن الكتاب له والفرنسية التي يقول متكلمها أنه يملك كتابا ، والشيء اللافت للانتباه أيضا هو أن التعبير étreá يمثل في الفرنسية تفريعة شرعية ومنتشرة للفعل tener (يملك) والفارق هو أن هذا النمط غير موجود في الفنلندية ، التي لا تملك نفس خيار اللغة الفرنسية .

ووفقًا لما يُحصِّله الطفل من خبرات ، تبدو في بداية الأمر محدودة ، نراه يتأقلم رويداً رويداً ويتحسس ، على المراتب والتقسيمات الرئيسية والأخرى الفرعية التي من خلالها يقوم المحيطون به بترجمة واستيعاب عالمهم وخبراتهم ولا تصبح العلامات التمييزية للمراتب اللغوية هدفًا لمجال الوعي عند الطفل إلا بعد فترة متأخرة . في البداية ، وعن طريق الصدفة البحتة ، يصبح بمقدوره فهم كلمة " طائر " على أنها مسمًى يطلق على الشحرور "و" الشحرور و طائر "الخطاف" على أنه مناقض لهذا

الأخير ، ثم يصاب بالدهشة بعد ذلك عند سماعه كلمة " طائر " تطلق على "الزرزور" و"البوم " أيضا وها هي طفلة من أفراد أسرتي تعرب عن دهشتها مؤخرا حين اكتشفت أن الأوزة شبيهة بالطائر(العصفور) .

رأينا أنه حين تلتقى الأبنية اللغوية على وجه الخصوص يصبح الجو مهيئًا لظهور خصوصية ولزومية كل لغةٍ على حدةٍ . فى مثل هذه الملابسات يصبح المتكلم العادى على وعىٍ بكل هذا . وبداية من اعتبارات محددة وعناصر واردة ضمن السياق يمكن للطفل أن يتأقلم مع البنية الرتبية للغة العالم المحيط به . وإتقان مثل هذه البنية لا يتم إلا بعد المرور بالعديد من المحاولات الفاشلة . كما فى علم الصوتيات الوظيفى Fono-logía وعلم الصرف Morfología يمر الطفل بمراحل إتقان متنامية ، يتوقف بعض الشيء فى كل مرحلة منها . أما فى مجال التجارب الخاصة بوظائف السياقات المتعددة والمتنوعة بصورة متنامية تكون الفرصة مهيأة لنوع من التقارب بين المضمون اللغوى للطفل والآخر عند البالغين .

الطفل الذى يتنامى إلى مسامعه ذهاب أخيه الأكبر إلى المدرسة لا تتكوَّن فى مخيلته ، بداية ، سوى صورة غامضة عن الخروج والغياب ، وبعد ذلك ، بمروره ذات يوم أمام المدرسة التى يتعلم فيها أخوه تجده يطلق كلمة " مدرسة " على بيت يوجد فيه أخوه من حين لآخر . وحين يمارس تجربة خاصة عن التعليم المدرسى ، هنا فقط تتكون لديه الفكرة الأولية عن مفهوم " المدرسة " فى لغة البالغين . هاهو يفهم معنى "الذهاب إلى المدرسة" أى ، البحث عن نوع من التوفيق والربط بين الأشياء ومسمياتها . ومع هذا ، يصبح لزامًا عليه الانتظار حتى يبلغ سنًا متقدمة تمكنه من إدراك العلاقة بين هذا المعنى ومعنى كلمة " مدرسة " فى " مدرسة تابعة للتعليم الرفائيلى " أو فى مدرسة من مدارس براغ .

كما فى الصوتيات الوظيفية والصرف ، يحدث أن الفرد لا يتقن نظامًا إرشاديًا علاماتيًا بنفس الدرجة التى يتقنه بها أقرانه ممن هم فى مثل سنه ، وأحيانا لا يتقنه

أبدا . وفرد هذا شأنه يعد متخلفا من الناحية اللغوية . وعجزه يكون فى البداية من نفس درجة الأخطاء الصوتية الوظيفية والنحوية، والشخص المتخلف يتوقف عند المستوى الأدنى ، الأقل تعقيداً ، وفى قاموسنا ، الأكثر بدائية من ذلك المستوى المعروف بنقطة الوصول الطبيعية (انظر الفصل الثالث عشر) .

وبنفس الطريقة نجد المشكلة مطروحة في حالة القوة اللغوية التى فى طريقها التلاشى ، كما يحدث بالنسبة لفقدان قوة النطق Afasia، بعد حين سيكون لزاماً علينا الاهتمام بحالة عدم التنظيم المتدرِّج FERDINAND DE SAUSSURE عند المرضى ، أما هنا فنشير عرضا إلى أن الاعتبارات المرضية تثبت دقة الملاحظة التى أبداها فيردينان دى سوسير حين قال : "بعيداً عن تقديم الشيء على وجهة النظر ، يقال إن وجهة النظر هى التى تخلق الشيء " (محاضرات فى علم اللغويات العام ، ص٤٩) . هنا نصل إلى أن السلوكيات اللغوية غير القياسية تؤكد فى جزء كبير هذا المفهوم البنيوى للمضامين .

الفصل الخامس

المعنى : EL Sentido

كان العالمان أوجيدن Ogden وريتشارد Richards هما أول من تناول في صورة حديثة ، في كتابهما مدلول المعنى The meaning of meaning عام ١٩٣٩ ، المشكلة القديمة للمعنى والمضمون (المدلول) ما هو مدلول المعنى وماذا تعنى كلمة يدل أو يعني؟ وفي اقتراب أولى من هذه القضية ، وصلنا إلى نقطة انطلاق للمناقشة حين أقمنا في الفصل الأول فرقا بين شكل وجوهر المضمون ، كما رأينا في الفصل الرابع أنه على جميع المستويات ، بداية بالمعجمي والنحوى وحتى ترتيب الوحدات في صورة تسلسلية ، يعد هذا المضمون ثمرة عملية بنيوية تختلف من لغة إلى أخرى، ويتعلق بداية بالظواهر التي يدل عليها . والمظهر الإشارى للمضمون يكون أبسط نسبيًا من مظهره الدلالي ، في الوقت الذى يمثل فيه الشكل مجموع علاقاته بالمضامين الأخرى المعروفة عن النظام ، وكذلك كما أن علم الأصوات الطبيعي Fonética، ينشر عباءته على واقع أغنى وأعقد مع واقع الصوتيات الوظيفية Fonología والهيئة الإشارية للأساليب النحوية ، مقصورة العدد نسبيًا ، تأتي بدورها أبسط من تلك الخاصة بالعناصر المعجمية . النحو تقريبا يمثل نظامًا مغلقًا . وعلى العكس من ذلك ، يأتى النظام المعجمي مفتوحا لكونه يمثل عدداً ، محدوداً في البداية ، من العناصر الجديدة والاقتباسات والصور المماثلة لعناصر موجودة (مركّبة ، مشتقة ، جناسات ، إلخ) من الممكن أن تتشابه ، في سهولة معرضة للزيادة والنقصان . هذا ما يحدث في اللغات

دون توقف وبسرعة متنامية ، في الوقت الذي تجري فيه اتصالات مكثفة بين المجتمعات والثقافات .

من الممكن القول ، في مثل هذه الملابسات أن فكرة الشكل الخالص للمضامين ، المحدد من الناحية الارتباطية ، تصبح أمراً غير معقول ، هذا بالإضافة إلى فكرة الوحدات الصرفية والدرجات الترتيبية . وحين نأخذ في الاعتبار تناقضات تفكيك المضامين إلى جزئيات صغيرة وكذلك الترتيب المتدرِّج ، وحين نرى في الوحدات المعجمية تركيبات تتعقَّد شيئًا فشيئًا ثم تتصاعد في خط متدرِّج - تبدو هذه الفكرة بلا شك أقل غرابةً وفي أي حال تصبح ترجمتها ممكنة كمبدأ يحكم بنية مضامينا . ليس هناك من شك في أن هذه القاعدة هي التي تفسر السهولة النسبية التي يتيقن المرء عن طريقها من ألفاظ لغته وتلك السهولة والسرعة النسبيتين اللتين يصل الطفل عن طريقهما إلى إجادة مفردات هذه اللغة في وقت قليل محكوماً بالقدر الذي تتمثل فيه حاجته إليها . وعلى كلٍ ، فمن المشروع أن تنشئ أنظمةً إشارية تقوم على أساس ارتباطي محض ونحافظ ، بنفس القدر الذي نسلكه مع التعبير ، على الفكرة الثنائية المتعلقة بالملائمة والزيادة كفكرة أساسية . بهذا يصبح علم الإشارات بمثابة وصف للجزئيات والملامح الملائمة وعلاقاتها المتبادلة داخل أنظمة الوحدات المعجمية والاعتبارات النحوية .

وأخيراً ، فإن الملاحظة ذاتها التي أبديناها على التعبير تفرض نفسها هنا فيما يتعلَّق بالطبقات الوظيفية المختلفة . فما نراه من جزء زائد في أحد المستويات يمكن أن يكون ملائمًا مع غيره . وعلى أساس وجهة النظر هذه تتمايز فيما بينها المرادفات المزعومة . إن القيم " الفكرية " الخالصة أو الدلالية للجزئيات الإشارية هي نفسها ، أما قيمها الدلالية أو الانفعالية ، فمختلفة ، بداية ، بمقدورنا باستخدام الجزئيات ، تحديد سبب المقابلة الحاصلة بين قيمة وأخرى . ومن هنا يمكننا استنتاج أنه في كل مستوى اتصالي يصبح من المشروع عمل محاولات بغية إرساء قواعد النظام الإشاري لهذا

المستوى في مجمله . ولكن هذه الإمكانية لا تتعدى الجانب النظرى . ومن الممكن أن يصطدم تطبيق هذه القاعدة التحليلية ببعض صعوبات من الأفضل تحاشيها أو الاكتفاء ببرهان بسيط على النظرية - التي يتم بيانها بصورة أسهل على المستوى التعبيرى .

وحين يتعلّق الأمر بتحديد معنى لأحد العناصر اللغوية ، فأفضل وسيلة لهذا هي أنْ نحدد أولا تعريفه الإشارى - متحسِّسين تناقضه أو تطابقه مع مجمل المعانى الأخرى في نفس المستوى الوظيفي - حتى ندرك في النهاية ، بانتقالنا من مستوًى إلى آخر حتى نصل إلى حد البنية اللغوية ، تركيبة العناصر المكونة لمعناه الكامل . أولاً ، وفي بداية الأمر ، لابد من الحفاظ على الفواصل القائمة بين القيم الأسلوبية الداخلية وغيرها من القيم (بما في ذلك كل الدلالات) من جانب ، ومن جانب آخر القيم والوظائف السياقية ، وبعضها ينتمي إلى الحقل الصرفي Campo paradigmático، والأخرى تبدو محكومة بالعلاقات النحوية .

والعلاقات الدلالية الناجمة عن السياقات المختلفة التي يظهر فيها أحد العناصر هي التي تشرح الفكرة السائدة حول اللامعنى للكلمة خارج السياق . هل يعني ذلك أنه لا يوجد لكل كلمة معجمية معنى غير متغير هو القاسم المشترك بين كل المعانى النصية السياقية ؟ مناقشة وجود مثل هذه المعاني اللامتغيرة سيكون في نفس الوقت إنكاراً للتنوع الذى رئيت داخله قاعدة هذه البنية المجردة نفسها التي أطلق عليها سوسير SAUSSURE اللغة Lengua . من هذا الوضع ، نجد أن هناك أسبابًا تدعو لمواصلة النقاش . إذا ما كان التعريف الإشارى (السيميولوجى) الموضح آنفا يتضمن تعداداً للملامح المميِّزة للعنصر ، لهذه الجزئيات التمييزية مطلقًا ، يصبح المعنى الأساسى (المعجمى) عبارة عن مجموع هذه الجزئيات، والوحدة الدلالية المعجمية في هذه الحالة ، تمامًا كالوحدة الصوتية (الفونيم) ، تمثل الهيكل المجرد المكمل للبنية النحوية بواسطة عناصر عائدة إلى الاحتكاكات المفعمة بعمليات نقل اللغة إلى حيز الكلام

(الاستخدام) بمضمون محدَّد . وبالتالي ، فإن الشكل السيميولوجي اللامتغير يظل متماثلاً مع ذاته في أيُّ وضعٍ . وسوف يظل حاضراً في كل الاستخدامات المتخيلة للعنصر قيد البحث .

فلنأخذ مثالاً بالغًا على ذلك : مثالاً مأخوذاً من اللغة الفرنسية يدور حول لفظة Coup (ضربة) في الأمثلة التالية ، نجد أنه من الصعب تحديد العنصر المشترك بين "الضربات" في قولنا : en un Coup d'épee : طعنة Sans cöup férr دون تشابك بالأيدي Un coup de poing لكمة Un coup de main : مد يد العون ، Un coup de fer ضربة حديدية Un coup de téléphone : رنة الهاتف Un coup de téle : عمل فاشل ، Un coup d'Estat : انقلاب عسكري ، حتى إذا ما رأينا فيها ، في معظم الأمثلة ، فكرة تتعلق " بالضرب " أو حركة سريعة أو مفاجئة ومع ذلك ، فلابد من الإشارة هنا إلى أن العديد من الحالات المجازية – في المثال الذي سقناه وفي غيره الكثير – لا تمثل حجة ضد عدم التنوع الدلالي . من المعلوم أن الاستعارات تتلاشى وأن مثل هذا التلاشي للقيمة الاستعارية ، الذي تقدم اللغات أمثلة عديدة عليه ، يعمل على توسيع الحقل الدلالي للكلمات بطريقة معتبرة . ودائمة ما نثبت من أنه على مر التاريخ لا حياة إلا للمعنى الاستعاري وأن المعنى الأصلي يتم التعبير عنه آنذاك بواسطة ما يستحدث من الكلام وكذلك فيحدث أن يتم الاحتفاظ بأحد المعاني السياقية الأساسية وإشارات أخرى تحمل على عاتقها مسئولية المعنى الأصلي (فاللفظة الفرنسية gésir المأخوذة عن اللاتينية lacére تستخدم استخداماً محدداً للغاية بعد أن كانت في أصلها كلمة طبيعية للتعبير عن " يكون نائما " ، نفس الأمر مع Seoir من اللاتينية Sedére والتي، باستثناء بعض التغييرات الثابتة والاستعارية ، استبدلت بـ " être assis (واللفظة الفرنسية traire) في اللاتينية Trahere تحيا فقط بما لها من معنى شديد الخصوصية ، يستبدل في أماكن أخرى خارج فرنسا باللفظة tirer والتي من المحتمل أن تكون من أصل جرماني . واللفظة الفرنسية Travail كانت تعني في الأصل "العمل بهمة" (من

اللاتينية – Teipalium Travail) إلى جانب الفعل الأكثر حيادية ouvrer (من اللاتينية operare) الذي ما زال معروفًا في مشتقات مثل ouvable ouvrier

وتأتي صعوبة إدراك المتكلمين للثبات الدلالي تشرح أيضا انقسام المنطوق إلى شقين ، لا يمكن لأحد أن يدرك ما بينهما من علاقة سوى مؤرخ اللغة . في بعض الحالات ، ينعكس هذا الانشطار عبر فارق كتابي تم تصويره بشكل متكلف . وهاهما لفظتان فرنسيتان : dessein , dessin تمثلان انقسامًا مماثلاً لمفهوم كان في الأصل واحداً لا غير ، وفي الإنجليزية ، نجد كلمتي: flower (زهرة) flour (دقيق) – بنفس النطق – تعودان إلى نفس الكلمة : الفرنسية القديمةflour fleur الحاملة لمعنى قصري (fleur de farine زهرة الدقيق) يكتب بشكل مشتق من المصطلح العام. وكلمة ameur كانت في الأصل تفريعة صوتية لكلمة amour والتي تم تعميقها في الاستخدامات السامية للمضمون . أما الشكل الآخر فقد تم قصره على الاستعمال البيولوجي والإشارة إلى الحيوانات rut (وتعني الدورة النزوية عند الحيوانات) .

وعناصر المعنى المتقدمة على الوحدات التمييزية السيمولوجية الخالصة تكون ، بصورة و بأخرى ، محكومة بالسياق الذي تدخل فيه اللفظة ويحدد قيمها . وبهذا يصبح من المهم تمييز الحالات المختلفة لتعديل وتحديد المعنى الموجود أمامنا . في المقام الأول نجد السياق اللغوي الخالص ، أو النحوي بالمعنى الضيق للكلمة، والسلسلة النحوية هي المسئولة عن معنى كل عنصر يشكل جزءًا فيها . بعض الأمثلة يمكن لها أن توضح لنا هذا الأمر .

في المقام الأول يجب أن ندرك أن هذه الوحدات السياقية تكون صالحة بنفس القدر في حالة العناصر النحوية والأخرى المعجمية . لنأخذ حالة أدوات (التعريف والتنكير) وحين نعقد مقارنة بين Estamos muy contentos de vacaciones, el hotel era bueno y la playa magnífica (نحن سعداء جدا بإجازتنا ، كان الفندق طيبًا والشاطئ رائعًا) (حيث تقوم الأدوات هنا بوظائف تحديدية : أي الفندق والشاطئ

اللذان نتحدث عنهما) وبين قولنا : La Playa es buena para la salud (الشاطئ مفيد الصحة) (حيث تقوم الأداة بتحديد المعنى المطلق العام) ، وكذلك قولنا : Me gustan las flores (تعجبني الزهور) وبين Las flores Son un regalo de madre (الزهور هدية من والدتي) (حيث نلحظ الوظيفتين شبه المتناقضين للأداة ، ففي الحالة الأولى ، تأتي الوظيفة كامنة في إفادة العموم وفي الثانية لإفادة الخصوص ، إذ يدور الحديث عن زهور معينة) . لابد من الإشارة إلى حالات مماثلة باستخدام أدوات التنكير (مثال 0 un zorro mas pequeño que un lobo الثعلب أصغر من الذئب) – حيث يفيد العموم ويمكن تطبيق المعنى على أي فرد من هذا النوع – وقولنا : Hemos visto un zorro muerto en la carretera (رأينا ثعلبا ميتا في الطريق) – حيث يفيد الخصوص ، واحداً بعينه من بين آخرين عديدين) . أمام مثل هذه الأمثلة ، يتساءل المرء عما يشكله القاسم المشترك لأدوات التعريف والتنكير . أداة التعريف أداة تدل على النوع (عامة) تحدد النوع (الإنسان – الحيوان) ، بينما أداة التنكير بما لها من معنى عام تحدد الفرد باعتباره ممثلا للنوع (مثال : الإنسان (أي إنسان) يتميز بحساسيته للتغيرات الحرارية أكثر من الحيوان (أي حيوان) ذلك يحدد صلاحية مطلقة ، أما هذا فيحدد أرجحية . ومن الممكن أن ندرك مثل هذا التباين ، البسيط أحيانا ، باستبدالنا للأداة النكرة Un في المثال الأخير بأداة التعريف el .

مما لاشك فيه أن الوظيفة التخصصية لأداة التعريف هي الأقدم أخذاً في الاعتبار أن هذه الأداة قد تولدت عن صفة إشارية (في اللاتينية هي : ille، إلى آخره) بدأت تتراجع رويداً رويداً . هناك أمثلة في اللغة الحديثة تذكرنا بتلك الوظيفة الأولية (في الفرنسية نقول : de la sorte (بهذه الطريقة). واللغة الفرنسية القديمة كانت تشتمل على اسم أداة ، له نفس المعنى النوعي (deme – المرأة) هذا النموذج الذي يخلو من الأداة اقتبسته اللغة الإنجليزية، وما زالت تحتفظ به حتى الآن فنقول : man is mortal (الإنسان فان) بينما اللغة الفرنسية قد هجرت مثل هذا الاستخدام .

تكلمنا آنفًا عن وظائف مختلفة للأزمنة الفعلية ، ورأينا أن المضارع " لا يدل دومًا على الزمن المضارع . فأحيانا يستخدم للإشارة إلى أحداث ماضية (في الرابع والعشرين من يوليو ١٧٨٩ " يحتل " (احتل) قصر الباستيل من قبل الشعب الباريسي) هذا المضارع التاريخي " يأتي بمثابة اعتبار أسلوبي . فالإشارة إلى الزمن الماضي تفهم من خلال السياق . في الحقيقة إن " المضارع " النحوي يترجم من خلال وجهة النظر السيمولوجية كصيغة فعلية غير محددة ، تتمتع بحساسية تجاه اقتباس أية دلالة وتتعارض السيمولوجيا مع الوحدات الصرفية لأزمنة الماضي والمستقبل . وهذا ما يفسر استخدامه في منطوقات ذات صلاحية عامة وفي حالة السياق المحدد بالقدر الكافي نجد " المضارع " من الممكن اقتباسه لأية دلالة زمنية وهكذا يصبح السياق هو المحدِّد الوحيد لقيمته الدلالية المقصودة وبالتالي ، ، يمكن القول بأنه ، خارج السياق ، لا تملك الوحدة المضمونية سوى الوحدات التمييزية الموضحة لمكانها في النظام وأما المعاني فهي من آثار السياق .

في الأمثلة التي سقناها آنفا ، نلحظ السياق لغوي . فهناك إشارة ظاهرة للدلالة على زمن الحدث (١٧٨٩ ، إلخ) في حالات أخرى ، يتطلَّب الأمر معرفة اعتبارات غير لغوية تمكننا من وضع الحدث في الزمن المناسب . وإذا ما لجأنا للمفردات فسنجد أن وحدات معجمية عديدة لا يمكن فهمها جيدا إلا في إطار تاريخي، جغرافي أو ثقافي معين . فكلمة " طرق السيارات " لفظة حديثة تدل على شيء مختلف تماما ، من الناحية الفيزيائية ، عن الطرق التي كانت ممهَّدة في عهد الرومان إبَّان فتح إسبانيا. ولفظة " نمر " في أمريكا الجنوبية ترمز إلى حيوان مختلف (الجاجوار) عن مثيله في الهند . وإذا ما توجَّه كاثوليكي إلى رجل فناداه بكلمة" أب " ، فلا أحد يعلم – إذ لم تكن هناك دلالة لبس – إذا كان الشخص المخاطب والده أم قسيسه . أما إذا كان المتحدث بروتستانتيا، فلن يكون هناك أثر لهذه المشكلة . من المعلوم أن كلمة " أب " تظهر في العديد من اللغات باستخدامات مجازية عديدة (آباء الكنيسة ، أبو الطبوغرافيا) في اللغة السويدية تم تعميم الشكل المختصر far (من

fader) للإشارة إلى المعنى الأصلي ، مع الاحتفاظ بالشكل الكامل للاستخدامات المجازية المختلفة والمأخوذة من الكلمة .

إن التواردات الدلالية المختلفة المتعلّقة بكلمات اللغة – أو الدلالات ذات المصطلح الأكثر تقنية – تُعدُّ هي الأخرى جزءًا من معنى هذه المأخوذة ضمن مفهوم أو إدراك أوسع في مدرسة بلومفيلد Bloomfield الأمريكية ، المستلهمة من المذهب السلوكي ، كان تحديد مفهوم المعنى يتم دائما عن طريق " ما يصنعه الناس بالكلمات " وقد كان بالإمكان وضع المعالم المحددة لهذا التعريف ، وتوسيعه ، والإضافة إليه – المعنى – ليس فقط بإدراج الوظيفة التي تؤدى بواسطة الكلمات، وإنما كذلك عن طريق الهدف المقترح (نية الرسالة) والنتيجة الناجمة عن ذلك . إنه مظهر لمفهوم لغة يتجاوز بكثير تعريفه التقني الطبيعي ، إلا أنه يتميز بقدرته على أن يدخل في عملية التفاهم مظهراً براجماتيًا بدونه تصبح رسالة الكلمة غير موصوفة بصورة كاملة ونهائية وبالتالي ، فعلى هذا النظام البراجماتي أن يولي اهتمامًا ليس فقط بنظام اللغة (كإمكانات صرفية وتراتيب نحوية) بل أيضًا النظام الدلالي – الإشارى (السيموطيقى) الذى يشكل جزءًا منه والسياق الغير لغوى (المكاني ، الزماني ، الروحي ، إلخ) حيث يتسع المجال لعملية الاتصال ، المرسل ، المتلقي ، وكل العلاقات الخاصة بهذه العملية والملابسات المحيطة بمقام التفاهم كله. ومن البديهي أن تركيبا مماثلا لا يمكنه أن يكون موصوفا بإطناب إلا عبر إدخال جميع الاعتبارات النفسية اللغوية والعامة الفردية والجماعية ، والاجتماعية والتاريخية (ضمن إطار المعنى الموسع) ، إلخ . بدلالة أيا كانت ، مباشرة أو غير مباشرة ، على استيعاب وقصد ونتيجة الرسالة المنقولة . وفي البداية أبدى فقه اللغة القديم اهتمامًا بالتحليل الكامل لكل هذه الاعتبارات ، أي عملية شرح تكاملية للنصوص القديمة . وانطلاقًا من جزئية شديدة الاختلاف من الناحية السطحية وبنوايا مختلفة ، بدا لنا كيف أن علم المعاني الحديث يقترب من هذه القراءة القديمة للوثائق المحفوظة. والتحليل الحديث هو إلى حد ما " فقه " اللغات المنطوقة

وكذلك الرسائل الكلامية (باستثناء النصوص) كما أنه يمثل مظهراً يسمح بإزالة الحدود القديمة بين دراسة اللغة والتحليل الأدبي .

ومع هذا ، فسنكتفي هنا بإبداء بعض الملاحظات على براجماتية اللغة والعودة إلى بعض الاعتبارات اللغوية الدقيقة .. وها نحن قد رأينا أن كل عنصر ، في وظيفته المحدَّدة داخل ترتيب الكلام أو الكتابة، يحظى إضافة إلى مضمونه السيميولوجي بسلسلة من القيم الثابتة بعض الشيء. في المقام الأوَّل يمكن الإشارة إلى القيم الخاضعة للتقاليد اللغوية الواحدة لجميع المتكلمين في أحد الأوساط الاجتماعية . والألفاظ القديمة هي من هذا النمط، فالفعلان اللذان التي ذكرناهما آنفا g?sir Seoir لهما نفس الدلالة على الاعتبارات غير اللغوية كالتعبيرات الشائعة مثل : " هو نائم " هو جالس " " يلائم – يناسب " ، إلخ (وحتى في المعنى الأخير من المعاني المذكورة للفظة Seoir نجدها تدل اليوم على قيمة قديمة) Il ne vous sied pas de Contrarier votre p?re والمفهومة توًا من قبل المتلقي / القارئ وتعبر عن مضمون إضافي ، وبمعنى آخر عن قيمة أسلوبية . نفس الشيء يحدث عند تعاملنا مع الفعل occire، صاحب القيمة الأسلوبية المفهومة خارج المعنى المعجمي (matar – قتل) إما أن يكون النص قديما ، وإما أن يكون المؤلف قد تعمد اختيار القديم للحصول على نتيجة معينة، وفقط يصبح في مقدور الإنسان الفرنسي المتمتع بحس مرهف تجاه المستويات الأسلوبية اللغته ولما تدل عليه أشكالها القديمة أن يفهم فعلاً بهذا الشكل حق الفهم بالإضافة إلى النص المدرج به .

نفس الشيء يحدث مع الألفاظ الحديثة ، القاطرة التي أخذت في بداية تاريخها الموجز اسم " سيارة automóvil coche (أوتو موبيل) عرفت العديد من التغيرات في المسمى منذ الشكل الكامل " أوتومبيل " (في صورتها المذكرة لفظا) مروراً بالشكل المختصر auto – أوتو – ثم وصولاً للفظة " سيارة " التي أصبحت في الوقت الراهن اللفظة الشائعة عند الحديث عن مركبة النقل الخاص بالأفراد، والتي تأتي على النقيض

من لفظة " أوتوبيس " و " الأوتوكار " و " الشاحنة " Camión – مجموعة مصطلحات تم تحديدها لتحل محل المسمى القديم ، الصالح للدلالة على السيارات التى تجرها الجياد. ضمن سياق حديث ، نجد أن معنى كلمة " سيارة "coche"يكون واضحاً تماماً (= أوتومبيل لنقل الأفراد) ، أما فى نص يعود إلى القرن الثامن عشر فإنها تعنى (سيارة تجرها الخيول) وبالنسبة لكلمة faetón فإنها تضع الحكاية فى سياقها الزمني في الحال (ليس أبعد من القرن الماضي – التاسع عشر) أو في وسط خاص (فى بيت ريفى مازال يحتفظ حتى الآن ببقايا الحياة القديمة) أما السيارة المرسيدس فتدل على الفترة الحديثة والسياق الثقافي والاجتماعي (فيما عدا ، على سبيل المثال ، القرن التاسع عشر وغابات أفريقيا الوسطى) . كما أن هناك أيضاً فارقاً من حيث القيمة بين كلمتي " دراجة bicicleta (في لفظتها التامة) ودراجة bici (في لفظها المختصر) رغم الدلالة التماثلية لهما .

وقد تحدث الفيلسوف والمنظِّر اللغوى كارل بوهلر Karl Bühler عن فروقات ثلاثة بين علاقة الرسالة بالشيء الدال " التي أطلق عليها في علم مصطلحاته " العلاقة الرمزية " ، والعلاقة بين الشيء والمرسل والتى أطلق عليها " العلاقة العرضية "، وعلاقة الرسالة بالمتلقي (" الموضحة ") ، (أو وظيفة الرسالة) لقد لاحظنا أن هاتين العلاقتين الأخيرتين ، أو الوظيفتين ، تعطّيان تقريباً المجال الذى يطلق عليه الأسلوب على اعتبار أن القيم المضافة إلى المعنى الأصلي يمكن أن تعبر عن موقف أو نية معينة لدى المرسل. والمترجمة باختياره ، أو أنها رد فعل أو تصرف خاص من قبل المتكلم ، أو – وهذا ما يُعَدُّ بداهة أمراً طبيعياً – الاثنان معا (انظر أيضاً الفصل الحادى عشر) فى حالة غياب الأثر الأسلوبي يمكن القول بأن الوظيفتين لهما قيمة لا شيئية ، صفر) . وهو ما يحوِّل العلاقة مع الدال إلى الأمر الوحيد الممكن . إنها حالة نظرية قصوى . وبفضل الخبرة السابقة للمتلقي – خبرة اللغة أو المقام والسياق – تبعث الرسالة فيه تداعيات ، ذكريات ، تقاربات يمكن أن تضاف إلى المعاني المعجمية والنحوية للمقال

والمعاني النصية اللغوية . ومن جانب المتكلم (أو الكاتب) فإنه لا يمتنع إلاّ فيما ندر – في حالة نص علمي أو إداري – عن أي تعبير يدل على مواقف شخصية في حالة العرض الشفوي، دائمًا توجد التصرفات في مقامات الصوت ولعبة الإيماءات والإشارات التي تفسر موقف المتكلم ، على كل حال وبالرغم من جميع المجهودات المبذولة بغية منع أي تدخل في الرسالة الملفوظة ، فدائمًا نجد بعض الخصائص الفردية ذات القاعدة البيولوجية (مقام القاعدة البيولوجية مقام الصوت ، إلخ) وبعض الوحدات اللهجاتيـة (" النبرات ") التي تقوم بمهمة العلامات الموضحة لصفات المتكلم . وهكذا نرى أن المعلومات المنقولة بهذا الشكل تمثل جزءًا من مجموعة الرسالة المتلقاة .

والدلالات القائمة على أساس اعتبارات غير لغوية يمكن اعتبارها عناصر سيميوطيقية تكون جزءًا من تركيب أكبر من البنية اللغوية في حد ذاتها والتي من بينها تأتي هذه كبنية فرعية مبرمجة وفقا لقواعد أية لغة خاصة. هذا التركيب السيميوطيقي هو ما نطلق عليه ، بشكل عام وأوسع للمصطلح ، " الثقافة " التي تحمل اللغة بين جنباتها . ولهذا فنحن نفهم كل الاعتبارات الاجتماعية والأيدلوجية ، السياسية ، الدينية) ، إلخ ، والتاريخية والثقافية التي تكوِّن ، معا ، هذا الوسط ، هذا السياق الذي يكتسب فيه كل عنصر لغوي سيميوطيقي (إشارة ، سلوك ، اعتبار فني ، إلخ) معناه التام .

وحين نجهل الفارق القائم هنا – وفقا لنموذج أ‌ه بنبينستي **Benveniste** – بين الوصف السيميولوجي للوحدات التمييزية ، أو المطابقة (في المستوى المطلوب) ، الوحيدة التي تحدث تنافرًا بين الوحدات بعضها البعض ضمن إطار الوحدات الصرفية ثم تعود إلى تناقضاتها داخل إطار الوحدات النحوية ، وبين الوصف الدلالي للقيم النصية ، فإن مُنظِّري اللغة ، منذ أرسطو ، قد حاولوا إرساء قواعد لأنماط مختلفة من الكلمات معتمدين على ثرائها المعنوي . وبالنسبة لأهل المنطق في العصور الوسطى

كانت حروف الجر وحروف العطف خاليةً من أي معنى وما كانت تستحق حتى مسمى (أجزاء الجملة) . وها هو بدرو أبيلاردو REDRO ABELARDO (المتوفى عام ١١٤٢) الذى درس في جامعة باريس يقول إن مثل هذه الكلمات كانت تدل على معاني غير كاملة ، وهو تقليد دام طويلاً . أما الفيلسوف أوكام OCCAM (المتوفى عام ١٣٤٩) فيصنف في أحد مؤلفاته الكلمات إلى " كلمات بلا رتبة نحوية (مثل الكلمات المذكورة وغيرها : حرف العطف والصفات المبهمة مثل لا أحد ، أى شيء أو أحد ، إلخ) "ومجردة" و محددة، وكذلك إلى كلمات " مطلقة " و " دلالية " " عالمية " و " خاطئة " وخلف المصطلحات " مطلقة " و" دلالية " . يختفي الفارق الشائع بين الوظيفة الدلالية (الدالة على مفهوم معين) والوظيفة الفوق دلالية (إشارة إلى الروابط ، العواطف والقيم الزائدة على أصل المعاني المرادة (الأساسية) "الفكرية"، وبالنسبة لأوكام -OC CAM فإنه يرى عالمية مسميات المفاهيم . وخطأ الأسماء ، إلخ . حتى نهايات القرن التاسع عشر كان أ . مارتى A.Marty يتحدث عن ألفاظ لم يكن لها معناها التام إلاّ إذا وجدت ضمن وحدات الخطاب . وكذلك فهناك من يتبنى الفكرة اللامعقولة القائلة بأن الصفات التي يتم التعبير عنا عن طريق استخدام " الصفة اللغوية " لا وجود لها في ذاتها حيث أن الصفة (الخاصية) دائما ما تكون صفة لشيء (فالصفة أحمر) هي وصف لزهرة أو نسيج ما ، إنه الجهل بفكرة التجريد . كذلك فمن الممكن القول بأنه لا وجود هناك الحيونات إذ كل حيوان هو في ذات الوقت قط ، أو حوت ، أو نحلة .

نفس النقاش يدور حول الصفات النسبية المزعومة . فلا الصفة صغير أو "كبير" تشيران إلى صفات مطلقة . فالجواد الصغير يكون أكبر بكثير من الفراشة الكبيرة والمر الطويل يصبح في أي وضع أقصر بكثير من الطريق الأقصر . هذه الخصائص موضوع الدراسة (الدالة على حجم ، الطول ، إلخ) تدل بشكل غير مباشر فقط على الاعتبارات التي تم قياسها والأخرى القابلة للقياس . إنها تحدد مكان الإشارات والشيء الذى نراه قصيراً يكون ، في ظرف مماثل ، أكثر قصراً في الميزان الصرفي

شيئا نراه طويلاً ، وبدون هذا التحفظ ، فإن مثل الصفات لا تقول شيئا على الإطلاق ، والظرف الذي يجب أن يكون هو ذاته ليس سوى السياق الذي تحدثنا عنه الآن ، هذا السياق هو الذي يمنح الألفاظ معناها الكامل – الذي يجعل من الحيوان قطًا أو نحلةً ، ومن الصغر أو الكبر قيمتين محددتين، قابلتين للقياس ، ومن الصفة " أحمر " صفة خاصة . هذه الاعتبارات هي التي تميز الدلالات التي تشير إلى (الأشياء) ، لا الألفاظ في حد ذاتها .

كل هذه الصعوبات تجد طريقها للحل مع نقطة انطلاقنا البنيوية . كل مضمون لغوي يعني تجريدًا، ودرجة هذا التجريد يختلف باختلاف الملامح التي تميزه عن غيره . فمفهوم كلمة " قط " يكون أقل تجريدًا من كلمة " حيوان " وهكذا دواليك، والسياقات تضيف إلى العناصر المدرجة في الوحدات النحوية القيم اللازمة لتمييزها بشكل تام . هذا الوصف للقيم المضافة إلى الوحدات الصرفية التمييزية هو المجال الذاتي لعلم الدلالة . والمعاني التامة للعناصر هي مجمل الخصائص المستخلصة على كل المستويات بداية من الوصف السيميولوجي وحتى القيم السياقية وغير اللغوية (السيميوطيقية) .

يدخل الوضع الخاص الناشئ عن مجموعة من الكلمات ذات الدلالات المتغيرة على الدوام في هذا النموذج الوصفي أيضًا . هذا أمر يتعلق بألفاظ مثل " أنا " ، أنت ، هنا ، الآن، حينئذ ، إلخ. في حوار يدور بين متحاورين نجد كلمتي " أنا " أنت " تتغيران في دلالتهما على الدوام . ومن المعلوم أن الأطفال يعانون كثيرا في بداية الأمر عندما يبدءون عملية التعلم ويفضلون الاستعانة بالشخص الثالث (الغائب) الذي يتمتع بدلالات أكثر ثباتا . وهاهو جسبرسن Jespersen يطلق على مثل هذه الكلمات shifters وذلك لما لها من طابع خاص في تغيير ما تشير إليه بصفة دائمة، ففي الإسبانية يطلق عليها الصلات Conectores، ونموذجنا الذي نطرحه يحل بسهولة تامة المشكلة المتعلقة بما لها من نظام وقوانين . من خلال وجهة النظر اللغوية تجد كلمة " أنا " لا تحتوي على محدِّدات سوى المتكلم المفرد (لن ندخل هنا في التعقيدات المتعلقة

بالتصريف الخاص بالحالات الإعرابية : مثل yo (فاعل) ، mi مجرور ، إلخ ، أمّا بقية المعنى فأمره موكول إلى السياق، وكذلك فإن كلمة " هنا " تدل على الأماكن المتغيرة بصفة دائمة بتغير المتكلمين والمواقف (المقامات) والمعنى السيميولوجي هو " في مكان قريب من المتكلم " وكل ما يتعلق بالتحديد والتدقيق إنما هو من قبيل السياق . هذه الصلات ليست بالتالي سوى حالة من المغالاة في التجريد ، ولكنها لا تتميز في البداية عن الألفاظ المعجمية .

نفس الشيء يحدث مع الآليات النحوية مثل حروف الجر والعطف . حيث يصبح من الصعب التعبير عن مضمونها السيميولوجي في مصطلحات هذه اللغة أو تلك ، ففي الفرنسية نجد أن حرف الجر de ربما يعد الكلمة الأكثر تجريداً ليس فقط بين المفردات الفرنسية وإنما من كل الآليات النحوية المعروفة . يقتصر مضمونه على وظيفة الربط المجردة (للدلالة على تبعية عنصر لآخر) . هذا الحرف يقوم في اللغة الفرنسية بنفس الحالات الأخرى التي تعبر عنها غالبية اللغات (مثل المجرور الظرفي في اللغة اللاتينية أو الألمانية ، إلخ) غير أنه يحظى بمجال وظيفي أوسع . أما بالنسبة لحروف الجر الأخرى في الفرنسية فإنها أفقر منه فيما يتعلق بمضمونها اللغوي (فالحرف à يحتفظ بفكرة الدلالة على الاتجاه ، الانتماء أو الوسيلة و dans يأتي في صورة أشد تحديداً) .

من البديهي أن النظرة الجمالية على مقام التفاهم الموضّح هنا ، وعلى دور المعاني والدلالات ، يمكن أن تساهم في حل العديد من مشاكل الحياة العملية الحديثة . ومن الواجب أن يعرف الأساتذة الوحدة الخاصة برسالة الكلمة في إطار لغة معينة كما يجب أن تكون معلومة من قبل كل أولئك المسئولين عن نشر المواد اللغوية الشفوية أو المكتوبة . اللغة تمثل سلطة هائلة في المجتمع الحديث . وبمقدور الأفراد أن يستخدموها في جوانب الخير أو الشر . والدلالات المنسوبة إلى الكلمات تؤدي خدمات في مجالات الدعاية والدين والسياسة . ولقد قال لويس هيلمسلاف LOUIS HJELMSLEV

ذات مرة إن ذلك الذى يود أن يصبح ديكتاتورا يفعل بنفسه خيراً إن تعلم "علم الدلالة" ويحلو لنا أن نضيف أن أولئك الذين يرغبون فى مواجهة التأثير الخادع للطغاة سيصنعون بأنفسهم خيراً إن هم اتبعوا نفس النصيحة .

وبفضل القيم التى نسبت إلى بعض الشعارات كان ذلك مدعاة لنجاح الدعاية الهتلرية، وذلك الشخص الذى ألِفَ إدراك فعل الألفاظ والمعانى في الجماهير دائماً ما ينتابه الشك أمام التهديدات الصادرة عن كل هؤلاء المتصفين لعدم تعلمهم . كما أنه أكثر الناس درايةً بوضع القوى اللغوية فى خدمة الخير. واللغة تعتبر محايدة من خلال وجهة النظر الأخلاقية، ولكن الدراية بآلياتها الداخلية والخارجية هى الوسيلة التى تمكن من استخدامها فى مجال الخير أو الشر . فالعارف بفنون علم الدلالة يتعرض لخطر أقل من الآخرين فيما يتعلق بخداع الكلمات . وسحر الكلمات ليس أمراً مقصوراً على الشعوب " البدائية " كلنا " بدائيون " وكلنا ضحايا سحر اللغة(الكلمات) ومن المحتمل جداً أن تكون اللغة ساحرةً قبل أن تصبح إخبارية .



الفصل السادس

الاحتمال والتواتر

Posibilidad Y Frecuencia

عرّفنا اللغة بأنها قاعدة تنظيمية وكل لغة بأنها عبارة عن مستويين من البنية : المستوى الصرفي والمستوى النحوي . هذان المستويان يمثلان نوعين من العلاقات ، إحداهما علاقة قصرية والأخرى جمعية ، وفقا للعلاقة " أو - أو " والعلاقة " و- و" في المجال الاصطلاحي الذي يستخدمه سوسير SAUSSURE يمكن الحديث عن مصطلحات In absentia (الغياب) ومصطلحات In praesntia (الحضور) . يحتوي الميزان الصرفي في كل مستوى على العناصر الجاهزة للاستعمال من جانب المتكلمين. هي بالتالي عبارة عن مجموعة محدّدة تستخرج منها القطع اللازم تغييرها في كل سلسلة ، أو كل وحدة نحوية . وغالبا ما يطلق مصطلح Sintagma على كل تسلسل لفظي يكون وحدة معنوية أو ضبطنطقية . في تعليمي الابتدائي كنت أعقد دائمًا مقارنة بين الوحدة الصرفية ولعبة البناء للأطفال بكل القطع المتاحة ، وبين القواعد النحوية والإرشادات المصاحبة للعبة الأطفال هذه التي تصف توليفاتها الممكنة والمقبولة . في البداية ، يشتمل الميزان الصرفي على كل ما هو متاح بالنسبة للمتكلم ، بداية من الوحدة الصوتية (الفونيم) وحتى الاعتبارات النحوية المعجمية . بينما تشير القواعد النحوية إلى كل الاحتمالات المتعلقة بتوليف هذه العناصر ، بداية من المقطع وانتهاءً بالتركيبات النحوية والجمل والنصوص (بالمفهوم الأعم للكلمة) . في المستويات الأعلى، نجد الاحتمالات محدودة من الناحية العملية ، وفي المستوى الأدنى (المقطع)، تكون دائما أكثر تحديدا (قاصرة في بعض اللغات على ترتيبات بسيطة صامتة -

صائتة مثل PA-PA، إلخ) ونحن على اتفاق بالنسبة لتسمية وصف التوليفات على التوالي بالنحو Sintaxis (على مستوى الألفاظ) ومصطلح Fonotaxis (على مستوى التعبير) .

ومع هذا ، فمن السهل أن نفهم بأن العناصر المتاحة لا تظهر بنفس التواتر ، لا الوصف النحوي ولا الآخر الصوتي – النحوي يفصحان عن كل ما يتعلّق بالاعتبارات الكمية . فالناس جميعا يعرفون ويفهمون في غاية السهولة أن كلمات المعجم تبلغ حداً غير متساو من تواتر الظهور ، بدايةً بالكلمات التي تُعبر عن الأدوات (حروف الجر ، العطف ، الضمائر ، بعض الظروف ، الأدوات) التي تظهر بقدر كبير في كل منطوق ملفوظ أو مكتوب وبنفس التواتر تقريبا ، بعيدا عن معنى ونوع النص ، وحتى المصطلحات الفنية ، الأدبية ، القديمة أو المتداولة حوارياً المقتصرة عملية تواترها على قدرٍ محدود أو المتغيرة بصورة معتبرة مع طابع النص ويستنتج من الأمثلة المختارة أن العناصر الأكثر تواتراً هي أيضاً الأكثر فقراً في مضمون بذاته وأن العناصر الغريبة تأتي بقيمة دلالية بقدر أكبر .

من السهل تفسير التواتر المتغير للكلمات عن طريق العلاقة المباشرة بين الألفاظ المستخدمة والمضمون المنقول . وربما يبدو أكثر غرابةً أن يكون هناك أيضاً فارقٌ معتبرٌ من تواتر الألفاظ(العناصر) النحوية وكذلك الوحدات الصوتية (الفونيم) . إذا كانت لغة ، كالفرنسية ، تعرف ثلاثة نظم للوحدات الصوتية الصائتة – واحدة لاحقة واثنتين سابقتين (واحدة شفهية ، والأخرى غير شفهية) ، فإن النظام السابق غير الشفهي يكون دائمًا من الناحية الإحصائية أفضل تمثيلاً في أي منطوق عن النظام الآخر الشفهي . وإذا كانت لغة ، كالفرنسية ، تحتوي كذلك على سلسلة من الحروف الصائتة الأنفية ، فسنجد أن هذه الوحدات الصوتية (الفونيم) تكون أكثر ندرةً في التراتيب عن تلك الأخرى اللا أنفية ، وفي اللغات التي تعرف التقابل بين الحروف الصامتة الساكنة والساكنة الصائتة (K-g-t-d-s-z) نجد الصامتة متوافرة بشكل طبيعي ضعف الأخرى الصائتة.

نفس فروق التواتر نجدها فى المستوى النحوى بالمعنى الذى يفيد أن الأبنية المركبة تكون أقل تواترًا من الأبنية البسيطة . والمقاطع المفتوحة (مثل PA)تكون أكثر تواترًا من المقاطع المنغلقة (مثل PAP) فى اللغة الفرنسية تمثل المقاطع المفتوحة تواترًا متوسطا يزيد على خمسة أضعاف المقاطع المنغلقة (وفقًا لما قاله وارتبرج Wartburg، والأبحاث الحديثة التى أجراها بروشويتز Proschwiz تشير إلى نسبة ٣ إلى ١ لصالح المقاطع المفتوحة ، ولكنها على أية حال تمثل سيادة لها) فى الإسبانية ، نجد النسب المقابلة تمثل ٦٨,٥ لصالح المقاطع المفتوحة (وفقا لتوماس نابارو TOMAS NAVARRO)، وكذلك فى اللغات التى تقبل تراتيب ثقيلة ساكنة فى نهاية المقطع (اللغة الإسكندنافية ، على سبيل المثال) هناك اتجاه واضح للغاية من أجل تبسيطها ، والمجموعات الصامتة (الساكنة) ، بعيدًا عن المواقع ، هى أكثر ندرة من الساكنة البسيطة ، وعلى المستوى الإشارى ، نجد الجمل الأصلية البسيطة أشد تواترًا من الجمل المركبة الأصلية منها والتابعة ، وهكذا دواليك . أما الجملة الطويلة فغالبًا ما تكون نادرة وعلى جميع المستويات ، نجد الترابط أكثر شيوعا من التبعية .

إذا كانت فروقات التواتر هذه والاستخدام المتميز للمصادر المتاحة من السهل تفسيره فيما يتعلق بمجموع المفردات ، حيث يعكس الاختيار الاعتبارات غير اللغوية المنقولة بصورة مباشرة تمامًا ، وعلى مستوى الجمل ، حيث يطرح التركيب مشاكل الذاكرة ، فإنها تبدو من النظرة الأولى شديدة الإبهام على المستويات الداخلية للاتصال اللغوى . فى الواقع ، هى تعبير مباشر عن قاعدة أصلية تأتى ضمنا فى ثنايا البنية اللغوية والتى رأينا نتائجها فيما يتعلق بالأنظمة الصوتية الوظيفية ، ولابد أن القارئ قد لاحظ من خلال الأمثلة المذكورة أن العناصر ذات البنية البسيطة تصبح وفقا لقاعدة عامة أكثر تواترًا من العناصر المركبة .

فى نظام صائت ذى وحدات صوتية مستديرة (o-y) نجدها تمثل صورة مركبة فى مواجهة الأخرى غير المستديرة، وذلك بامتلاكها لوحدات تمييزية أكثر (فمثلا : + i=y

تمثيل شفهي) على النقيض من ذلك ، فإن تدوير الحروف الصائتة السابقة (في الفرنسية وغيرها) ليس ملائمًا ، وملتصقا بصورة آلية بعملية النطق اللاحقة (فالحرفان o ، u في الفرنسية في لفظتي bout beau، لا يتركبان بنفس الطريقة المعتمدة في o -y، حيث لا وجود لهما في نظام الأحرف التالية غير المدورة ، كما في التركيبة الرومانية أو التركية) . وما يؤخذ في الاعتبار بالنسبة للتعقيد الذي نتحدث عنه هو عدد الوحدات التمييزية (الحاضرة في ذهن المتكلم) ، لا الاعتبارات الوظيفية العديدة ، التي تدخل في مجال اللاوعي عند الفاعلين (المتكلم والمستمع) .

تحتوي الحروف الساكنة الصائتة ، في الأنظمة التي تتناقض فيها مع الحروف الصامتة ، على وحدة تمييزية إضافة إلى تلك التي تميز هذه الأخيرة . ولهذا فهي ، انطلاقا من هذا الجانب ، أكثر تعقيدا (الشكل ١١) . وتتضمن المنكية التمييزية (في الفرنسية : n-gn في لفظتي agneau- aneau ، إلخ) كذلك إضافة محدد تمييزي ، وكذلك التدوير في الفرنسية : u - y، الحرف الساكن في لفظة Lui، الذي يعد نادراً في العملية التسكنية .

هناك سؤال يُطرح بل يجب أن يُطرح ، أمام العلاقات الثابتة بين التركيب والتواتر، في المقام الأول ، هل هناك تبرير لمفهوم التعقيد من قبل الآليات اللغوية والأخرى الخاصة بالمتكلمين ؟ وبمعنى آخر ، هل هناك معنى لقولنا إن الحرف u في اللفظة Pur أكثر تعقيدا من الحرف i في لفظة Pire ؟ يعد تحليل الوحدات الصوتية "الفونيم " إلى مجموعات قائمة على أساس من الملامح التمييزية تدخلا من الباحث في الاعتبارات اللغوية . والحال هكذا ، أتأتي هذه الحالة التركيبية مفروضة من قبل الباحث على عناصر تجهلها ؟ قبل كل شيء علينا أن نتذكر بأن فكرة الحروف الصائتة المستديرة السابقة باعتبارها أكثر تعقيداً من غير المستديرة هي أقدم بكثير من الفونولوجيا (صوتيات العلاقات والوظائف) – والتي ظهرت في العشرينيات من هذا القرن (العشرين) – وأدخلت العملية التحليلية للوحدات الأدنى وترتيب الوحدات

الصوتية (الفونيم) في صورة متسلسلة داخل الإطار الوصفي .أما في علم الأصوات القـديم (باول بازى ، هنرى سـويت PAUL PASSY HENTY SWEET، إلخ) نجـد أن الحروف المستديرة السابقة تكون حروفًا صائتة (مركَّبة) ، أما الحروف الصائتة

	T%	D%	K%	G%	P%	B%
البلغارية	٧,٥٤	٣,٥٥	٢,٩٨	١,٤٦	٢,٢	١,٣٢
الإنجليزية	٧,١٣	٤,٣١	٢,٧١	٠,٧٤	٢,٠٤	١,٨١
الروسية	٧,٤٩	٣,٤٢	٣,٤٩	١,١٠	٢,١٩	١,٧٦
الإيطالية	٧,٠٢	٤,٧٤	٣,٦٣	٠,٤١	٢,٧٨	٠,٨٩
السويدية	٧,٦٤	٥,٤٨	٣,٥٢	٢,٥٠	١,٢٠	١,٣٢
الهنجارية	٧,١٨	٣,٣٠	٥,٧٢	٢,٤٥	١,٠٤	١,٧١
الألمانية	٦,٤٢	٣,٧٥	٢,٢٤	١,٨٤	١,٣٠	١,٣٤
الفرنسية	٦,٢٨	٣,٥٥	٤,٨١	٠,٧٦	٣,٥٤	١,٣٩
التشيكية	٥,٦٠	٢,٧٣	٣,٩٣	٠,١٥	٣,٥٢	١,٨٦
الإسبانية	٤,٢٧	٥,٢٠	٣,٨٢	٠,٠٧	٢,٦٤	٢,٠٥
السنسكريتية	٦,٦٥	٢,٨٥	١,٩٩	٠,٨٢	٢,٤٦	٠,٤٦
اليونانية	٧,٥٨	٢,٨٧	٤,٠٧	١,٧٤	٣,٣٨	٠,٤٩
اللاتينية	٧,٧٢	٣,٤١	٣,٧١	٠,٩٦	٢,٠١	١,٤٠

الشكل ١١

FIGURA NO: (11)

يمثل تواتر ظهور الحروف الإنسدادية الصامتة

والصائتة بنسبة أكبر من مجموع الحروف الكلية الساكنة في ثلاث عشرة لغة .

الأخرى فهي بسيطة ، وقد ظلَّ هذا التعريف معتمداً على مدى سنوات طويلة في كتب الصوتيات المطبوعة في فرنسا .

ومن خلال وجهة النظر الصوتية الخالصة فإن هذا لا معنىً له ، حيث يتميز كل نطق بعدد كبير من الاعتبارات الفسيولوجية (وضع لسان المزمار ، اللسان ، الحنك اللين ، الشفتين ، إلخ) التي تأتي على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة للصوت الناتج ، والذي يمثل بدوره من التواترات ، الكثافات ، الموجات المقواة ، اللغط ، إلخ ، تضمن ذاتيته، وعمليات النطق ، وكذلك الأصوات الناجمة عنها ، تختلف ببساطة فيما بينها . وما هناك من طرح لمشكلة تعقيدية ، وفقط على المستوى الوظيفي اللغوي يتم تحديث هذا المفهوم وفي هذا فقط يكمن المعنى . وبهذا يمكن القول بأن الصوتيات الكلاسيكية قد سبقت عصرها .

ولكن هناك المزيد حيث يبين تطور لغة الأطفال في وضوح تام الانتقال من الصور البسيطة إلى الأشد تعقيداً ، إذ نجد الحروف الصائتة السابقة والمستديرة تظهر في هذا الارتقاء عقب الحروف الصائتة غير المستديرة . والحروف الأنفية الفرنسية تظهر في فترة متأخرة عند الأطفال الفرنسيين ، ويحدث نفس الأمر مع gn (التي هي في الإسبانية n) الحنكية . والحرف الصائت الأصيل في اللغة السويدية والذي يكتب u في كلمة du (أنت) تتدخل فيه الشفتان أكثر من الحرف y (u في الفرنسية) ولهذا فيأتي أكثر تحديداً من الحروف الشفهية " الطبيعية " أما الحرف الصائت الأخير فهو ما يتمكن الأطفال السويديون من نطقه وإظهاره بصورة مختلفة عن بقية الحروف . وغالبًا . ما نلحظ في اللغات التي تحتوي على وحدات صوتية ساكنة وصائتة من الناحية الصوتية الوظيفية ، أن هذه الأخيرة تظهر في فترة متأخرة عن الحروف الصامتة . ويحدث أن يترجم الأطفال الوحدة الصوتية المركبة على أنها مكونة من وحدتين صوتيتين . والأطفال الفرنسيون ينطقون الحروف المتحركة الأنفية كتراتيب مركبة من حروف متحركة (شفهية) إضافة إلى أحد العناصر الساكنة الأنفية (مثل أهل الجنوب والأجانب). في عملية التطور التاريخي للغات ، نلحظ دائمًا أن العناصر

المركبة تبدو أقل سهولة من العناصر البسيطة (الساكنة الصائتة ، الحروف الصائتة الشفهية والأنفية ، إلخ) وفي الفرنسية التي يستخدمها المهاجرون الأوروبيون في هايتي Haiti، نلحظ اختفاء الحروف الشفهية والأنفية الصائتة . وإذا ما كانت الفرنسية الحالية تشهد ميلاً نحو التلاشي من قبل المجموعة الصوتية (الأنفية السابقة المستديرة في لفظة burn) متداخلة مع / نج / غير المستديرة في لفظة brin ، فإن ذلك لم يأت مصادفة . إنها وحدة صوتية شديدة التعقيد من الناحية البنيوية ، ولهذا نفسه ، يأتي تواترها في اللغة بقدر قليل . وهذا المقام المزعزع الذي تحظى به داخل الترتيب يفسر بهذا السبب . وفيما بعد سنرى أن نفس قاعدة زعزعة العناصر المركـــبة تكـــون صالحة في لغة فاقدي قوة النطـــق . وكذلك فســـوف نتأكد من أن مثـــل هذه التراكيب المعقدة والغريبة نسبيًا هي التي تزاح سريعا في حالات إضعاف القواعد ، في المحيط الجغرافي والاجتماعي وفي حالات ازدواجية اللغة (الفصلان : السابع والعاشر .)

ليس من الضروري أن يكون المرء لغويا كي يدرك أن مقاطع لغة الأطفال تأتي أبسط من تلك التي يستخدمها البالغون في لغتهم . تتواتر المقاطع المفتوحة بكثرة ، أما المجموعات الساكنة فتواترها قليل ، وكذلك فمن السهل البرهنة على وصول الأطفال متأخرين وعلى مهل فقط إلى الحديث بجمـــل مركبـــة (جملـــة أصـــلية وأخـــرى تابعـــة) ، أو باستخدام بنايات (اسمية) تتواتر بصورة أعلى كلما ارتفع الأسلوب (عند البالغ) .

والقاعدة المعروفة عقب إجادة الأبنية البسيطة ، على جميع مستويات اللغة ، تكمن بالطبع في الميل الطبيعي عند الفرد لاستخدام ما هو أبسط لأبعد الحدود ، وبالتالي ، الأسهل استخدامًا قبل أن يلجأ إلى ما هو مركب أو يتطلب ، لنفس السبب ، مجهوداً أكبر . والأساس الجيد الذي يبني عليه الفارق بين البسيط والمركب – الذي يعد موضع شك في معظم الأحيان ، بين آخرين من أهل الصوتيات في الفترة التالية للكلاسيكية – يبدو بشكل طيب في آلية اللغة ، في الاعتبارات التواترية ، في تعليم

اللغة، في فقدان قوة النطق والتطور اللغوي . ولاحقًا سوف نعود لتناول جوانب مختلفة لهذه القاعدة لندع مثل هذا الجانب في هذا المقام حتى نتفرغ لمناقشة اعتبارات التواتر .

من البديهي أن بنية الوحدة الصرفية والقواعد المحددة لتوليفة العناصر الصرفية في الوحدات النحوية تمثل قاعدتي اللغة الوظيفيتين . وأن توصيفهما لابد أن يشكل نفس بؤرة أي وصف علمي وتربوي في مجال اللغات . ولكن من جانب آخر فمن البديهي أيضا أن أوصاف المصادر النظرية المتاحة يجب أن تكتمل بوصف درجة استخدام مثل هذه المصادر ، وذلك كي تصبح عملية تقديم آلية اللغة في أتم صورها وتشكل الاعتبارات التواترية هي الأخرى جزءًا في بنية أية لغة . وعليه ، فإن الجانب الكمي يكمل الآخر النوعي .

مما سقناه من الأمثلة نستنبط أن الاعتبارات التواترية تنقسم إلى درجتين : أولاهما اعتبارات تفصح عن قاعدة أوتوماتيكية عامة لميكنة اللغة (تواتر الوحدات الصوتية بموجب تركيبها ، والمقاطع ، والكلمات الطويلة ، إلخ) والتي لا ترقبها الملاحظة من قبل المتكلمين والأخرى هي تلك التي تأتي نتيجة اختيار يمكن ، بدوره ، أن يكون واعيًا ومتدبرًا (فرديًا) أو محكوما بعادات اجتماعية (أسلوب ، عدم الإحكام، اللهجات الاجتماعية المختارة) ومن الممكن أن تصبح المصادر واحدة في اللغتين ، إلا أن درجة استخدام الوسائل تأتي مختلفة . في اللغتين الألمانية والسويدية نجد صيغة إنشائية يتوفر لاستخدامها نفس القواعد في اللغتين الألمانية ، إلا أن تواتر ظهورها يبدو مختلفا تماما (في السويدية المتحدث بها والمقتصرة على استخدام متعدد لأحد أشكال الفعل vava (يكون) vove) في مثل هذه الملابسات ، هل يكفي أن نجري إحصاء للإمكانيات وأن نشير إلى ملابساتها النحوية (السياقية) ، أم أنه لابد من إضافة إحصائية لتواتر الوظيفة إلى الوصف ؟

أتى الموقف الذى اتخذ إزاء هذه الثنائية متنوعًا فى مختلف المدارس اللغوية . وبالنسبة لأولئك الذين واصلوا وطوروا على وجه الخصوص الاتجاه الذى اتبعه سوسير SASSURE، يصبح الجانب الجهدى للغة أساسًا . لقد اهتم هيمسلاف - فيما كتبه عن الجلوسيماتيك - فقط بالاحتمالات أو بالإمكانيات (المتعلقة بالتفريق أو التوفيق) ، دون أن يكون ذلك عن طريق تواتر الظهور مطلقًا . نفس الشيء حدث مع تشومسكى CHOMSK، حتى لم يفسر ، بدوره ، حدس المتكلِّم - الذى يعد بالنسبة له أساس الوصف - إلا باعتباره نتيجة تواتر الأنماط المسموعة والمقروءة . إن حاستنا التصحيحية " القواعد النحوية " و" قبول الأبنية " هى فى الحقيقة ناجمة عن خبرتنا باستخدام معين .

إضافة إلى ذلك ، ليس لنا أن نغفل أن الظواهر نفسها الواردة فى أحد المستويات الاتصالية على أنها مجرد اعتبارات إحصائية محضة ، تكون فى مستوى آخر فى هيئة عناصر وظيفية سيميولوجية ، هكذا ، فإن التواتر المتعدد للكلمات القديمة والأدبية بمقدوره تمييز الأسلوب الفردى لأى كاتب . وإذا تم تقليد مثل هذا التفصيل من جانب كتاب آخرين ، فيعد ذلك عودة لخصائص جنس معين . ومن المعلوم أنه قد تم تغيير الأسلوب الأدبى الفرنسى بهذه الصورة إلى حد كبير على يد الكتاب الرومانتيكيين . والكلمات القديمة المستوحاة من عصر الفايكنج ، قد تركت بصماتها بشكل مماثل على الأدب القومى الرومانتيكى الإسكندنافى فى بدايات القرن التاسع عشر . بعض الكتاب يختارون عمدًا ، وخاصةً المحدثين منهم ، الكلمات العالمية والفظّة بغية الحصول على أثر لأسلوب مرغوب ، وهكذا دواليك، وهذا يعنى أن كثرة تواتر كلمات معينة (= بصورة أعلى مما هو متوقع) تعد بمثابة التعبير عن مضمون أسلوبى . هذا المحدد الأسلوبى يتناقض مع محددات أخرى قيمة مختلفة داخل وحدة صرفية أسلوبية تحتوى على أدوات لغوية وغيرها مما يخص جنسًا آخر . ولاحقا سنرى أن أى تفاوت

في التوزيع الممكن إحصائيا للوحدات الصوتية – أو سلسلة من الوحدات – في نص ما يمكن أن يأتي حاملا لمضمون معين . هذا ما يحدث مع القوافي والتوافقات الصوتية والإيقاعات في مجال الشعر .

الصوتيات الأدواتية هي فرع اللغويات الذي استخدم في البداية إجراءات كمية لتوصيفاته للعناصر الصوتية . ومن البديهي أنه في الحالة التي يصبح فيها كم الوحدات الصوتية ميزة وظيفية (كما هو الأمر في اللغة اللاتينية) ، تدعو الضرورة إلى التأكد من حقيقة الطول المدرك سمعيا وما إذا كان يعود إلي استمرارية قابلة للقياس تفوق استمرارية التعويض البسيط . ولكن إضافة إلى هذه الاستمرارية الوظيفية الصوتية ، نجد استمرارية أصلية لعمليات النطق ، دون قيمة تمييزية مرتبطة أوتوماتيكيا بنمط تشكيل الصوت ، كان عالم الصوتيات الجرماني – السويدي إرنست أ. ميئير ERNEST A.MEYER أول من لفت الانتباه (في أوائل القرن العشرين) إلى هذه الفروقات الدالة على التواصل . وفيما بعد تناول علماء الصوتيات هذه الظاهرة مؤكدين النتائج التي توصل إليها ميئير(من بينهم السويديون هامارستروم ، إليرت ، ليندبلوم ، والألماني منيـــزرات MENZERATH, HAMMARSTR?M , ELERT Y LIND-BLOM) ، وقد لوحظ ، في كل اللغات المفحوصة ، أن الحروف الصائتة المفتوحة – في حالة تساوي جميع الظروف والملابسات – أطول من الحروف الصائتة المغلقة (حيث الحرف a أطول من I إلخ) والحروف الحلقية أطول من الانسدادية (حيث الحرف F أطول من P إلخ) هذه التنويعات الأصلية تعود إلي ظواهر نطقية تعويضية تعمل ، على ما يبدو ، على تقييدها آليا ولهذا ، فهي غير ذات أهمية في الاتصال اللغوي . حيث لا يتم إدراكها بصورة شعورية .

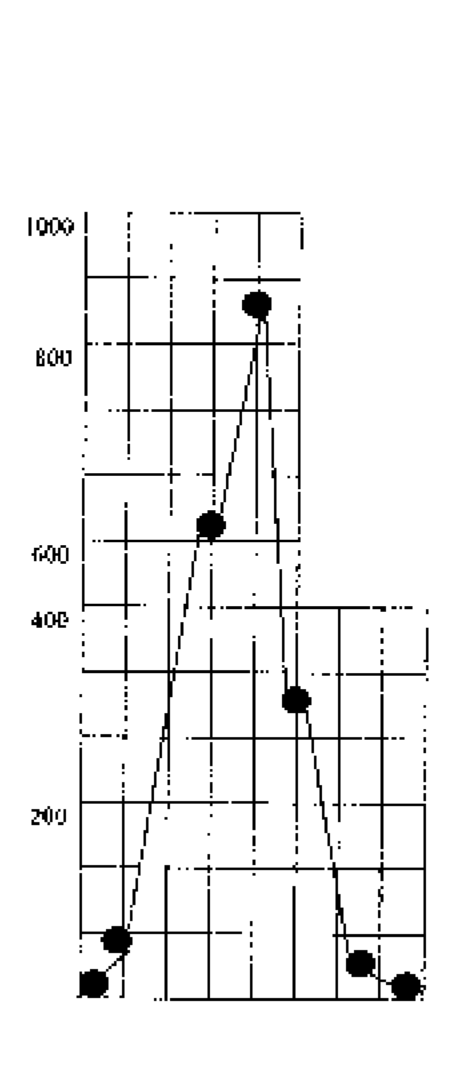
وقد صيغت قاعدة التواتر الأدنى للعناصر التعبيرية المركبة على يد العالم ج.ك . زيبف G.k.Zipf، الذي أرجعها في العديد من الدراسات (منذ ١٩٢٩) إلى القانون

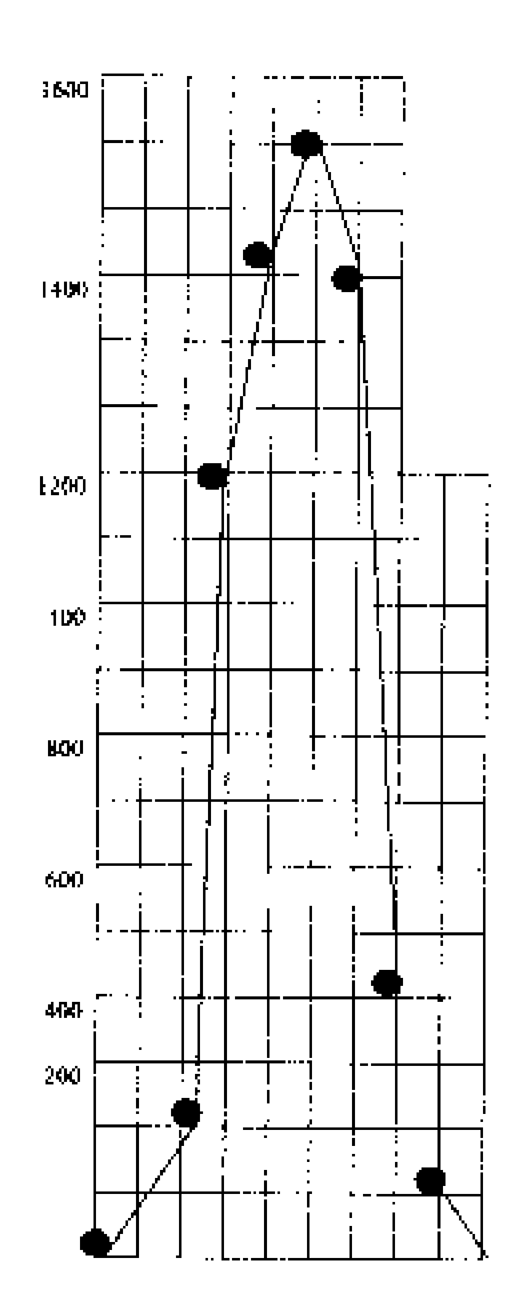
العام لأقل مجهود. بمقتضى هذا القانون ، نجد الحرف a أكثر تواتراً من y (= في الفرنسية u) ، t أكثر تواتراً من d ، والمقطع المقفل أقل تواتراً من المفتوح ، إلخ، لكن هذا القانون يحدد توزيع الكلمات داخل النص . وفي دراسة تعود إلى عام ١٨٩٧ ، للألماني ف . دبليو كاديج F.W Kädig برهن على أن الكلمات المعنية الداخلة في بناء أي نص تغطي الجزء الأكبر منه . في نص مكون من ١١ مليون كلمة ، نجد أن الكلمات الخمس عشرة الأكثر استخداما تمثل ٢٥٪ من مجموع كلمات النص ، والست والستون كلمة الأكثر استخداما تمثل ٥٥٪ والثلاثمائة والعشرين كلمة الأكثر استعمالا تُمثل ٧٢٪ ومع هذا ، فإن ذلك لا يعني أن مجموعة المفردات البالغة ثلاثمائة وعشرين كلمة تتواتر بكثرة داخل النص فتكوِّن ثلاثة أرباعه . هناك مساحة كبيرة بين هذه الكلمات المتواترة بقدر كبير تشغلها كلمات أداتية (الأدوات ، حروف الجر ، الأشكال المساعدة ، إلخ) ذات معنى عام ولا تنقل معلومات كثيرة . وفي لغة نظرية الإعلام ، تأتي متوقعة وبالتالي فقيرة في معلوماتها (محددة بأركان التوقع) وحرف الجر de في الفرنسية ، صاحب أعلى درجة في المعنى المجرد ، يتمتع بدرجة عالية من التواتر يتمثل في العديد من الأمثلة الواردة في أي صفحة من صفحات النص ، وعلى العكس ، فبعض الكلمات المتواترة بقلة تصبح هي المسئولة عن جانب كبير من مضمون الرسالة : وهذا أمر لا يستبعد أنه بمقدور الإحصاء المعجمي المساهمة بشكل إيجابي في حل العديد من المشكلات العملية ، وخاصة في مجال تعليم اللغات الأجنبية حيث يصبح مهما التركيز على المفردات الرئيسية من خلال العملية التعليمية ، وكذلك الاختزال والنقل الآلي .

ووفقا لما يراه زيبف Zipf فإن منتج تواتر الكلمات التي تحتوي على حرف F نظراً لأصله (r) (= ترتيبه التواتري ، الأكثر استخداما مع الحرف r رقم (١) يعد أمرا ثابتًا ومتواصلاً (ولهذا فإن F r = الثبات) وتبعا لرأي زيبف فإن ما يسفر عنه هو النتيجة

الناجمة عن وجهتين. فالمتكلم ينحو منحى تكرار نفس الكلمات بقدر ما يستطيع (لاستخدام ضمائر أو كلمات مثل" شيء "القيل والقال" ، لفافة") ، وبالتالي للخروج من المأزق بأقل مجهود . والمستمع من جانبه يطلب أعلى درجات الوضوح . أما المتكلم فما يهمه هو الوفاء بهذا المطلب ، والمفردات التى يستخدمها بالفعل تمثل توازنًا بين هذين الاتجاهين ، والمعادلة التي سقناها آنفا توضح ذلك . هناك نتيجة أخرى أفرزها نفس هذا القانون وأشار إليها بيير جيراد Pierr Guiraud الذى أثبت أن الكلمات الأكثر تواترًا هي أيضا الأقصر (حروف الجر ، الأدوات) ، وهو الأمر الذى يأتى متسقًا تمامًا مع الاتجاه العام الذى أشرنا إليه .

ولهذا ، فإنْ قدرة وتواتر آلية اللغة يرجعان إلى قاعدة بنيوية يتم رسمها من أسفل إلى أعلى ، بداية من ترتيب الوحدات الصوتية وانتهاءً بترتيب النصوص . والأمر الذى يترك بصماته في تنفيذ مثل هذه الآلية لعملية الاتصال هو ، على جميع المستويات ، التدخل ، في الآليات الظاهرة ، من قبل الروح العقلانية والمرء الواعى بما يفعل وكيفية قيامه بذلك. وتوازن المنطوق هو النتيجة التوافقية لتحديد الإمكانيات وحرية الاختيار . واللغة ، في نظر عالم اللغويات المعاصر ، تمثل وظيفة أكثر وعياً – حتى على المستويات التى تخرج عن إطار البحث المباشر الذى يقوم به المتكلم – بكل ما أثار إعجاب اللغويين فى الفترة الحديثة فقلبوه . ونحن نعلم بأن المتكلم بمقدوره امتلاك قضية الوعى بالأبنية العميقة التى ، دون تلمسها حسيا ، تحكم التصرفات الصادرة عن المتكلمين ومترجميهم . وقد رأينا فى فصول سابقة أن الأبنية العميقة، التى فى تبعيتها للنصوص كعناصر للمعانى الأولية ، تسمح بترجمة سليمة رغم الغموض الذى يكتنف الرسائل المرسلة فعليًا .





توزيع عدد الوحدات الصوتية إلى أحادية المقطع ، في الجهة
اليسرى ، وإلى وحدات ذات مقطعين ، في الجهة اليمنى ، في اللغة
الألمانية (وفقا لميُزات) وفي الشكل الأفقي ، نجد عدد الوحدات
الصوتية ، أما في الشكل الرأسي فنجد تواتر الظهور ، نلاحظ أن
المتوسط يتجمع حول عدد مقيد من الوحدات الصوتية ، بالنسبة لتلك
التي تتكون من مقطع واحد بين ٣ ،٥ وأما التي تتكون من مقطعين
فبين ٤ ،٧ الأرقام الخارقة قليلة

FIGURA 12

الفصل السابع

أبعاد اللغة

Las dimensiones del Lenguaje

أمكن للرسومات البيانية الواردة في الفصول السابقة أن تعطى القارئ ، غير المبتدئ انطباعًا عن ظاهرة ثابتة تمامًا ، غير متنوعة داخل حدود سابقة مسبقة تنعكس على القواعد الصرفية والنحوية المنصوص عليها من البداية .ولكن لا يمكن للغة أن تكون لا متغيرة . إنها تعرف أساس تعبيرات وتنويعات ثلاثية الأبعاد : الزمان والمكان والعمق (أى البعد الاجتماعى) وتغييرية اللغة هذه - والتى تعد فى الواقع ملمحًا تمييزيًا لها - ترجع إلى اعتبار أن كل لغة داخلة فى إطار نظام أكبر ، وبنية تتبعها وتحكمها . هو النظام السيميوطيقى الذى يتكون هيكله من المحيط الاجتماعى والثقافى والتاريخى الذى تدور اللغة بين أرجائه . وهكذا فيعود تغير اللغات إلى ديناميكية هذا السياق الذى يعرف على وجه التحديد ما نتحدث عنه من أبعاد . وسيخصص هذا الفصل لهذه الأبعاد الثلاثة والطريقة التى تنعكس بها فى اللغات .

وحيث ننظر إلى البعد الاجتماعى للغة نراه بلا شك أسهل هذه الأبعاد من الناحية التدقيقية . فما هناك من شىء سوى التحرك فى أى اتجاه للوصول إلى منطقة يتم فيها استخدام اللغة بطريقة مختلفة (من خلال وجهة نظر النطق ، والمفردات والأشكال) ، ففى أوروبا يصل المرء بسرعة إلى أى نقطة حدودية يمكن أن ينتهى إليها الفهم ويجد المرء فيها نفسه أمام أية لغة . أخرى، فمن حدود باريس ، وعبر رحلة تستغرق بضع

ساعات بالقطار أو السيارة يجد المسافر نفسه في أرض اللغة الألمانية أو الفلامنكية . وفي فرنسا نفسها ، ليست المسافة شاسعة بين الوسط والأقاليم التي تظهر فيها اللهجات الرومانثية التي تختلف تمام الاختلاف عن اللغة الفرنسية (الأوكثيتانية ، الكتلانية ، إلخ) أو تلك التي تنتمي إلى لغات من أسرة أخرى هندأوروبية (بريطانيا ، ألسانيا) أو في بعض الأحوال لغة (مثل اللغة الباسكية) لا يجمع بينها وبين لغاتنا أي نسب . والعلم الذي يولي اهتمامه بمثل هذه التغييرية ، أي ، لبسط اللغات أو بعض خصائصها اللغوية ، يطلق عليه الجغرافيا اللغوية Geografía Lingüistica أو علم اللهجات وتفرع اللغات : Dialectologia هذا المصطلح الأخير يشير بصفة خاصة إلى اتساع وحدود متغيرات معتبرة أشبه بالمجموعات الفرعية الناشئة عن وحدة نسبية . بإمكان التغييرية المكانية الاقتصار على ملمح واحد - على سبيل المثال ، نطق الحرف (r) كسابق أو لاحق - أو تمتد لتشمل مجموعة من الخصائص التي تميز إقليما عن آخر . إذا كانت هذه الخصائص عديدة ودائمة ، فيطلق على الصورة الكلامية القائمة لهجات dialectos، وتعرف في فرنسا أيضا باسم Patois بالقدر الذي نتحدث فيه عن لهجات ريفية . أما إذا كانت الاختلافات لا تظهر إلا في أشكال بسيطة أو قاصرة على اعتبارات النطق أو المفردات ، فدائمًا يُفضَّل استخدام مصطلح أكثر حيادية : الصورة الكلامية الإقليمية Hablas regionales .

والتغييرات الملاحظة في استعمال اللغة تأتي بداية من نفس درجة التغييرات المعروفة من قِبَل عادات اجتماعية أخرى (طريقة تأدية التحية ، التصرف حين الجلوس إلى المائدة ، أسلوب تشييد البيوت وترتيبها الداخلي ، إلخ .) يتم شرحها بنفس الطريقة . الانتشار يعني توسيع خطوط الاتصال وضعف العمليات الاتصالية ، وعلى الأمد البعيد انعزالية يتم في إطارها توزيع التغييرات بطريقة تختلف عن مركز الإشعاع القديم . تضرب ظاهرتا الانتشار والانعزال بجذورهما في أرضية تعددية العادات الاجتماعية ، التي تبرز من بينها عادة اللغات . كما لا يجب أن ننسى أن

بعض الأفراد ، في الجماعة الاجتماعية ، يتمتعون بمكانة أسمى من غيرهم، وأن إتقان مثل هذه الخاصية أو تلك أكثر من غيرها يمكن أن يكون ناجمًا عن عادة شخصية لفرد بذاته . ودائمًا ما ساد الرأى القائل بأن كل تعديل لغوى يضرب بجذوره فى ذات الشخص. والتغيير الذى يطرأ وينتشر يعود إلى نقطة بداية الاستخدام الفردى . هذا شىء يصيب كبد الحقيقة فى جانب منه فقط . إن الخاصية الفردية الخالصة لا تعد خاصية لغوية . ولا يصبح بهذه الصورة إلا حين يقلدها ويعممها أفراد آخرون ينتمون إلى نفس الجماعة . وهناك سلسلة من العوامل الداخلية والخارجية - سنتناول بعضا منها لاحقًا حين نتحدَّث عن التطور الطبيعى التاريخى - تحدِّد ما إذا كانت العادة الفردية ستصبح هدفًا للتقليد والانتشار أم أنها ستبقى معزولةً بلا طابع لغوىٍ . والسمة اللغوية تعنى هذا الطابع الاجتماعى .

وبفضل الاستطلاعات التى أجريت للرأى على أرض الواقع يمكن تحديد الاستعمال الشائع بين عدد معينٍ من الأمكنة ، سواء تعلق الأمر بالنطق ، أو باعتبارات كلامية أو نحوية . وكلما زاد عدد الأمكنة الخاضعة للاستطلاع ، كلما أتت النتائج ممثلة للإقليم موضوع الدراسة فى أعلى صورها . بالإمكان رسم خط يجمع الأماكن الخاضعة للاختبار والحصول بهذا الشكل على سمات لغوية خاصة بكل إقليم Isoglo-sas والمحددة لذلك الإقليم الذى يُفَضِّلُ قاطنوه استخدامًا على آخر . وسرعان ما نلاحظ عبر هذه الطريقة أن تلك السمات اللغوية الخاصة لا تحظى بأية تغطية وأن كل ظاهرة لها انتشارها الخاص ، وأنه بالتالى ، تصبح اللهجة - أو الصورة الكلامية - تجريداً بلا معالم محدودة . ولكن من الملاحظ أيضًا وجود توافق ، فى بعض الأمكنة وبعض الأقاليم ، بين عدد من هذه السمات اللغوية الخاصة كى تفرز لنا مجموعة من السِّمات يتمَّخض عنها رسم لحد لهجى حقيقى . يفسر هذا الحد عامة من خلال اعتبار جغرافى - سلسلة جبلية ، غابة أو ممر شائك - تتوقف أمامه عملية انتشار اللغة ، أو عن طريق حد إدارى قديم (مقاطعة ، أسقفية) لقد تعرضت حرية انتشار وامتداد

العادات اللغوية – وهو أمر مازال يجرى بشكل جزئى – للتحجيم فى سالف الأزمان باصطدامها بعقبات من النوع الطبيعى أو الاجتماعى (السياسى ، الدينى ، إلخ)

إذا كانت الأشكال الكلامية الناشئة عن إتقان إحدى اللهجات – حيث تبدو التغييرات تحديداً فى إطار مصاهرة حميمة وحيث لا يعنى تغيير السمات الإقليمية الكلامية أو حتى الحدودية انقطاعًا للفهم – تمثل تواصلاً نسبيًا ، فالتلاقى بين أشكال كلامية غير ذات نسب ومتباعدة فيما بينها بفعل هوةٍ سحيقة يصبح جافًا للغاية . فى بلجيكا أو فى سويسرا يصل المسافر فجأةً إلى شريط حدودى يجد فيه اللغة الرومانثية (الفرنسية) تقف وجهًا لوجه أمام لغة جرمانية (فلامنكو ، السويسرية الألمانية) هنا ينعدم أى نوع من الاتصال (إذا لم نكن نعرف لغة الآخر) ولا مكان هنا لأية نقلة تدريجية . والاعتبار الذى نرى من خلاله رجوع اللغتين المتواجهتين إلى أصل قديمٍ مشتركٍ لا يسهل مسألة الاتصال والاقتباسات الثقافية العديدة – الشائعة بقدر كبير فى أوروبا الحديثة – تكون أكثر نفعًا من خلاله وجهة النظر هذه . والحد بين الألمانية العامية واللغة الدانمركية ، فى جنوب سيلسفيج Slesvig، يتضح بنفس الدرجة التى يكون عليها الحد الفاصل بين السويدية والفنلندية أو بين الألمانية والمجرية . هذا المفهوم للحد المطلق لا يجب أن يقودنا إلى الخطأ . إنه يعنى اختفاء النقل التدرجى من لغة إلى أخرى كما بين اللهجات ، ولكن هذا لا يعنى استبعاد وجود منطقة يتكلم فيها البعض إحدى اللغتين المتواجهتين ، ووجود ثنائية لغوية ممتدة . وحقيقة نرى أن هذه الثنائية اللغوية تكون شائعةً فى المدن القريبة من الحدود اللغوية . هذا هو ما يجرى داخل بروكسل فى بلجيكا – الواقعة على شمال الحدود الفلامنكية – الفرنسية وتحت التأثير القوى للإقليمين اللغويين – وكذلك هيلسنجفورس فى فنلندا ، حيث وصل الفنلنديون ، على أثر هجرةٍ قوية من الداخل فى فترة حديثة، إلى حد أصبحوا فيه أغلبية ، بينما احتفظت الأماكن المحيطة بالعاصمة فى صورة أفضل بطابعها السويدى .

وعلى العكس ، فحين يسافر شخص من فرنسا إلى إيطاليا أو إسبانيا ، فلابد له أن يلاحظ ، حين يعبر الحدود ، تغييرًا لغويًا مطلقًا ، حيث يجب أن يأخذ في اعتباره أن ما يراه من إشارات مرورية على الطريق أو في المحطات هو بمثابة استبدال لغة رسمية (مكتوبة) بأخرى ، فالمرحلة من بيربجنان إلى برشلونة PERPIGNAN A BAR-CELONA لا تشتمل على عبور أي نوع من الحدود اللغوية إذا ما تغاضينا عن اللغات الرسمية المفروضة بفعل التطور السياسي والمتمثلة فقط في اللغة التي يتحدث الناس بها في البلدة . فلغة الحوار في بيربجنان وبرشلونة هي الكتلانية . والحدود الفرنسية الإسبانية لبلدة بورت بو BOU–BORI – ليست سوى حدود سياسية . ومن الممكن العبور من السويد إلى النرويج دون أن نلاحظ في بلدةٍ أو أخرى غير تعديلات طفيفةٍ على لغة الكلام دون أن يمثل ذلك عائقًا أمام عمليات الاتصال والتفاهم . وما يتغير على الحدود هو اللغة المكتوبة . منذ بضع سنوات وحتى الآن ، والأطفال من أبناء إحدى القرى السويدية القريبة من الحدود يذهبون إلى مدرسة نرويجية وفقًا لاتفاقية مبرمة بين البلدين ، وذلك لعدم وجود طريق ممهدٍ بين هذه القرية وأقرب مدرسة سويدية وما تعرضت هذه الاتفاقية لعائق يذكر . ونشير في هذا المقام إلى أن اللغتين المكتوبتين الرسميتين ، قريبتان للغاية وتجمع بينهما حالة من التفاهم .

وقد سقنا هذه الأمثلة كي نبرهن على أن الخريطة اللغوية ترسم في أغلب الأحيان نتيجة تطورات سياسية (ثقافية ، دينية ، إلخ)، مسئولة عن انتشار عدد من الأشكال الكلامية التي تتم ترقيتها إلى مرتبة اللغات الإدارية والثقافية . بهذه الطريقة تحولت إلى متحدث رسمي باسم الوحدات التي تم إبداعها بتكلف وفرضت على أي شكل من أشكال الاتصال الرسمي ، حَالَّةً محل الأشكال الكلامية الشعبية والريفية المستخدمة بصفة أساسية في القرية والتي عانت ، وتعاني دائمًا ، من تأثير اللغة الرسمية المكتوبة. ومثل هذا التطور هو الذي غير بشكل جذريٍ الوضع اللغوي في جنوب فرنسا. بناءً على السيطرة الثقافية والسياسية على الشمال والعاصمة ، انتقت اللهجات

الأوكستانية في العصر الوسيط ذي الصورة الأدبية الثرية ، إلى ساحة Patois ، اللهجة المحلية المستبدلة باللغة الفرنسية في الأنشطة الإدارية والثقافية . وفي الفترة الحديثة فقط حدث رد فعل لصالح اللغات الخاصة بالأقليات حرك في فرنسا وبلاد أخرى ، الموقف الرسمي . سنعود للحديث عن هذا الموضوع في الفصل القادم .

وصل تأثير اللغة الرسمية في اللهجات الإقليمية حداً بالغًا ينتهي ، في كثير من البلدان ، بإدخال تعديلات على هذه الأشكال الكلامية الإقليمية حتى يعمل على إزالتها جزئيًا أو كليًا . وغالبًا لم يعد موجوداً من " الباتيوس " Patois اللهجة المحلية القديمة سوى " لهجة " تمييزية ، تظهر في بعض الأحيان في صورة تلاعب بالألفاظ ومصطلحات محلية تشهد على الانتشار القديم للهجة . ودخول اللغة الرسمية في نفس اللهجة (إدخال كلمات ، أشكال وأبنية شكلية) يلعب دوره في هذا إلا وينتهي به المطاف إلى إزالة كيان تلك اللهجة . وبالقدر الذي تقترب فيه اللهجة من اللغة الرسمية تبتعد عن الشكل الكلامي للجانب الآخر من الحدود . وهنا تتزايد المسافة بين الاثنتين، وهذا هو ما يحدث تماما على سبيل المثال مع لهجات الجانبين على الحدود بين السويد والنرويج . ومما لاشك فيه أن مثل هذا الأمر يحدث بين العديد من الدول الأوروبية في الوقت الراهن .

يجب أن نلاحظ أيضا أن هذا التطور هو المسئول عن خلق الحدود اللغوية المطلقة هناك نظراً لوجود مناطق مرور في زمانٍ آخر . وما يجب أن يغيب عن أبصارنا ، من ناحية أخرى ، ذلك الاعتبار التاريخي القائل بأن هجرات قديمة (فتوحات ، غزوات) كانت هي المسئولة عن خلق العديد من الحدود اللغوية التي ما تزال قائمةً إلى يومنا هذا ، والحدود الرومانية الجرمانية من جبال الألب وحتى فلندرة ما هي إلا نتيجة للاستقرار الناجم عقب الغزوات الجرمانية في القرن الرابع وحتى القرن السادس، ووسط جوٍ من الدهشة استمرت هذه الحدود ثابتة على مدى ما يزيد على ألف عام . والغزوات السلافية التي وقعت بعد ذلك بقليل أسفرت ، من بين أشياء أخرى ، عن

فصل الشرق (رومانيا الحالية) عن بقية الأراضي الرومانية وانتشار اللغة المجرية والشعب الذي يتحدث هذه اللغة اللاهندأوروبية قد أتى هو الآخر نتيجة غزو حديث نسبياً (للشرق) . ونحن نعلم أنه إذا توغلنا في التاريخ قليلا ، فسنجد أن انتشار اللغة اللاتينية في العالم القديم هو المسئول عن الانتشار الحالي للغات الرومانثية (المنبثقة عن اللاتينيـة الدارجـة أو العامـيـة) وأن غـزو الجـزر البـريطانية على يد القـبـائل الأنجلوساخونية القادمة من الشمال الأوروبي يفسر وجود لغة جرمانية في إنجلترا ، وأن الفـتح النورمـاندى (في عـام ١٠٦٦) يفـسـر إعـادة البناء العـمـيق لهذه اللغـة الجرمانية التي تحولت إلى الإنجليزية الحديثة . وقبل ذلك بخمسمائة عام ، توافد الغزاة السلتيون على أوروبا الوسطي وفتحوا غرب القارة (فرنسا ، إنجلترا ، شبه الجزيرة الأيبيرية) وما زالت الشعوب صاحبة اللغة السلتية القديمة ، في الجزر البريطانية ، وفي بريطانيا ، تحتفظ بآثار أهميتها القديمة . وإذا ما كان أهل الباسك يمثلون بلغتهم المعزولة حياة شعب بدائي سابق على الشعب الهند أوروبي (الأيبيرية أو غيرها) أو غزواً مجـهولاً ، فإنها ما زالت تمثل واحدة من المشكلات التي لم تجد حلاً في التاريخ اللغوي لقارتنا .

بمقدورنا الوصـول إلى نتيـجـة مـفـادها أن تنوع اللغـات ، واللهـجـات والأشكال الكلامـيـة يعد إفـرازا لنوع مـن الاخـتـلاف الداخلي ، للتوسـع والانعزالية من ناحـيـة ، والتـغـييـرات التاريخية(السياسية ، الإدارية، الثقافية ، الدينية ، إلخ) والهجرات ، والفتوحات والاستعمار من ناحية أخرى ، وإقامة صرح لغوي كما ندركه اليوم في أوروبا هو محصلة تفاعل كل هذه العناصر المختلفة ، سواءٌ أكان هذا التفاعل جماعياً أو على طرف نقيض .

إذا عدنا برهةً من الزمن إلى قضية التفاعل المتبادل بين اللغة الإدارية (المكتوبة) واللغة الإقليمـيـة (المتحدثة في صـورة لهـجات) ، نلاحظ أن هذه الأخيرة ، بقـدر ما تُحفظ به ، قد تحولت إلى الصورة التعبيرية لجماعات اجتماعية غير مشهورة، أما في

الطبقات العليا فيجرى استعمال اللغة الرسمية ، الوحيدة التى حظيت بنصيب من الصورة التعليمية ، وهذا هو ما يضفى على اللهجة المحلية طابعا أدنى، وهكذا نجد أن التنوع الإقليمى قد تحول إلى تنوع اجتماعى . أى أن اللهجة تصبح لغة ومجتمعا فى نفس الوقت " اللهجطبقية " وبقدر ما يحتقر أهل اللغة أنفسهم اللغة التى كان يستخدمها أسلافهم بقدر ما يتزايد خطر اختفائها . وهذا التطور يجرى فى الوقت الراهن على أرض العديد من الدول الأوروبية وفى أرجاء أخرى من العالم .

وهذا الحظ الذى حالف بعض اللغات الأوروبية فحولها إلى لغات استعمارية يقدم أيضًا مثالاً على هذا التنوع اللغوى، ومن الممكن أن يكون أداةً لإبراز آلية تطور مماثل . ومن المعلوم أن اللغة الإنجليزية التى كانت وسيلة الكلام فى المستعمرات القديمة فى أمريكا وأفريقيا وأستراليا تقدِّم بعض الفروقات من خلال وجهة نظر النطق والمفردات والقواعد . هناك بعض السمات الأمريكية التى تمثِّل تفاوتا لهجيًا حاصلاً فى لغة المهاجرين . بعض سمات مهجورة (مثل نطق حرف r الآتى فى نهاية المقطع من كلمة car إلخ ، وإيقاع الحرف a فى كلمات مثل Fast,ask، حيث النمط الأمريكى أقدم والنمط الإنجليزى تطور لاحقًا) يقال إن الإنجليزية الأسترالية تعرف بعض السمات الإنجليزية العامية وضعتها فى علاقة مع البنية الاجتماعية للطبقات الاجتماعية الأولى من المهاجرين . والفرنسية الكندية هى بالطبع لغة مهجورة وقديمة بالمقارنة مع الفرنسية المتحدَّث بها فى فرنسا وتحمل بصمات الأصل النورماندى للعديد من المتسعمرين . وقد أوضحنا الأصل الشبه – جزيرى لغالبية الفروقات الإقليمية للغة الإسبانية المتحدَّث بها فى أمريكا . هذه الفروقات تعكس إلى حد كبير متناقضات لهجطبقية Sociolectas فى لغة المهاجرين التى ، نتيجة للتطور داخل الجماعة ، تحولت إلى فروقات إقليمية، وقد تمركز الإداريون والمفكرون ورجال الكنيسة فى المراكز الإدارية والثقافية مثل بيرو والمكسيك – التى كانت مثابات لنواب الملوك والجامعات الأولى – والمستعمرون من أصول متدنية فى السلم الاجتماعى فى المناطق الزراعية من

الأقاليم البعيدة عن شيلي والأرجنتين وشواطئ الكاريبي . لابد من الإشارة إلى أن اللغات الأصلية قد لعبت دوراً بسيطاً في تطور الإسبانية الأمريكية . وأراتي قد برهنت على أنه ، في الحالات التي من الممكن فيها التثبت من تأثير اللغات الأصلية (كما في بارجواي) ، يأتي تفسير ذلك عبر العلاقات الاجتماعية بين المجموعتين . في أغلب الأحوال ، كان السكان الأصليون عبارة عن جماعات محتقرة ، وقد حكم على طريقتهم التي يتحدثون بها لغة الفاتحين بأنها طريقة اجتماعية متدنية ، ثمَّ اندثرت بسرعة عن النموذج القائد . إن دور الطبقة الدُّنيا ، في علاقات الاتصال بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين هو ، إذن ، اعتبار اجتماعي . وما هناك من حالة ، أمكن فيها إرجاع تأثير لغة على أخرى إلى خصائص موروثة (بيولوجية) إن التدخلات الجارية – التي تحصل بقدر كبير من التواتر في لغة المجموعات الثنائية اللغة – تفسر بصعوبة الإبقاء على الفصل بين بنيتين ، بين شكلين لتنظيم الاعتبارات الاجتماعية . هناك العديد من الأمثلة على مثل هذه الظواهر التداخلية على امتداد الحدود الفرنسية – الجرمانية في رينانيا Renania وبلجيكا ، وكندا وفي الأوساط السويدية – الفنلندية في فنلندة وشمال السويد .

لقد رأينا أن التنوعات الإقليمية (اللهجية) يمكن أن تتحوَّل إلى فروقات اجتماعية (لهجطبقية) بالقدر الذي لا تحفظ فيه لهجات ريفية إلاَّ في الطبقات الدنيا للمجتمع وأن الفروقات الاجتماعية ، على العكس ، كنتيجة للتوسع والاستعمار ، يمكن أن تنعكس في النهاية كفروقات إقليمية (الأنماط المختلفة للإسبانية في أمريكا) وأولى هاتين الظاهرتين هي المسئولة عن الغموض الذي يشيع رويداً رويداً في كثير من البلدان الأوروبية بين اللهجات الاجتماعية وعن انصهار العلوم المخصصة لها في علم واحد ، يدرس تنويعات استعمال اللغة داخل الإطار الاجتماعي . ونرى أن علم اللهجات وتفرع اللغات القديم القائم على قاعدة تاريخية تُعرف كنه أهميتها الأساسية في علم اللغات التطوري (القانون المتعلق بالصوتيات ، إلخ) وتكرس هدفها في الباتويس "

Patois الريفية القديمة – يتحوَّل بالتالي وبصورة متنامية إلى علم اجتماعي . والحدود القديمة تزول تحت تأثير الاتصالات الحديثة والتجمعات الإدارية الجديدة .

وقد رأينا الآن أن الفارق بين اللغة واللهجة لا يأتي على إطلاقه، وحتى يمكن توضيح هذا الفارق يجب أن نلجأ دائماً إلى معايير غير لغوية (اللغة الرسمية المكتوبة سواء أكانت مخالفةً أم مماثلةً ، الحدود السياسية) أيا كان الأمر فمن الباعث على الراحة حيازة مُصطلح دلالي يشير إلى جماعة تتحدَّث اللغة الأم في شكل كلامي يمكن، بتنويعاته اللازمة ، أن يُفهم ويُستعمل في سهولة كوسيلة اتصال بين المتكلمين . هذه الجماعة (العرقية) تقف في جهة مناقضة بما تتحدثه من لغة – وحدها أو بالتوفيق مع عناصر أخرى – مع جماعات أخرى (عرقية) تتكلم لغات مغايرة ، هذه الجماعة بمقدورها التنوع في الاتساع بدايةً من القبيلة الصغيرة وحتى الأمة وجماعات الأمم التي توحدها اللغة (مثل المناطق الأنلجوفونية ، والفرانكفونية والإسبانوفنية) . ولكن لا السكان ولا الأمة يمثلون بالضرورة وحدات متجانسة . وحتى أصغر الوحدات يمكن أن تكون متنافرة في نظر لغتها . في مثل هذه الملابسات يصبح المصطلح المتاح هو العرقية " المقبول رغم عيوبه (إذ يحتوي على دلالات إنثوجرافية (خاصة بوصف العناصر البشرية) وثقافية شعبية هي أخطر جوانبه) ويأتي تعليل المصطلح – والمفهوم – ممثلا في منفعته ، وخاصة إذا ما فهم بغية استعماله فقط حين الكلام عن وحدات لغوية ، كبيرة أو صغيرة . وبالتالي ، يجب أن نقبل الحديث ليس فقط عن عرقية باسكية وأستونية، ولكن أيضا عن عرقية أنجلوفونية تشمل كل المتحدثين باللغة الإنجليزية بداية من نيوزيلاندا وحتى كندا . لعل هناك من يُصاب بالدهشة حين يسمع الحديث عن أهالي هايتي Haiti الذين يتحدَّثون الفرنسية باعتبارهم ينتمون إلى العرقية نفسها التي ينتمي إليها ، على حد قولنا ، السويسريون الفرنسيون .

هناك ملاحظة أخرى هامة تتعلق بمفهوم اللغة الأم . في أغلب الأحوال ، يبدو التعريف سهلاً وهو كذلك بالفعل . تبدأ التعقيدات حين يتعلَّق الأمر في الأوساط ثنائية

اللغة بتحديد ماهية اللغة الأم التي يستعملها شخص ما . فبالنسبة لطفل نشأ في باريس من أبوين فرنسيين وأمضى شبابه في نفس المكان تصبح لغته الأم هي النمط الفرنسي الذي تتحدثه أسرته ، ووسطه المحيط به ، ويستمر ذلك الأمر أيضًا مع التغيير الذي يطرأ على عاداته المكتسبة أثناء مروره بالمدرسة والوسط الذي يعمل فيه . وحينئذ تصبح لغته الأم هي نمط اللغة الفرنسية المرتبط بالتأثيرات المختلفة التي تركت بصماتها على سلوكه اللغوي . وربما احتفظ بعادة معينة تتعلق بتعديل أسلوبه في الكلام وفقا للمتحاورين وهكذا يصبح عارفًا ، مثل معظمنا ، بنوع من ازدواجية اللغة (انظر الفصل العاشر) .

تبدأ المشكلة في التعقيد حين تتسع الهوة القائمة بين لغة البيت ولغة المدرسة والمجتمع . إذا ما تحدث الوالدان لهجة أو لهجة اجتماعية تصطبغ بالعامية أو اللهجية وإذا ما كان الطفل ، حين خروجه من المجتمع ، يعدِّل من لغته ويحاول أن يعثر على نوع من التطابق بينها وبين متطلبات الوسط الذي يعمل فيه ، فما هي لغته الأم في مثل هذه الظروف : أهي لغة والديه التي تخلى عنها تقريبا ، أم اللغة التي يتحدثها فعلا بعد أن بلغ أشدَّه (والتي ربما لا تزال تحمل بقايا وسطه الطفولي) ، أم أنها ببساطة اللغة الرسمية ؟ ليس من الممكن إعطاء رد واحد ووحيد المعنى على مثل هذا السؤال . لن تُطرح المشكلة بالنسبة للمتحدِّث . .

تتعقد المشكلة أكثر فأكثر في الحالات التي تصبح فيها لغة البيت لغة غير مصاهرة ، إلا أنها بالطبع مختلفة عن اللغة الرسمية ("الأوكسيتانية" ، الألمانية العامية) بالقدر الذي تستمر فيه لغة الإقليم وتستخدم للوفاء بالضرورات المحلية ، يتحوَّل الفرد رويدًا رويدًا إلى ثنائي اللغة ، يتحدث لغة في البيت ، وأخرى في المدرسة والتعامل الخارجي . في مثل هذه الظروف ، ماذا عساها أن تكون اللغة الأم ؟ على الإجابة أن تحددها بأنها اللغة التي يرتاح إليها أكثر . ولاحقا سنرى أن تفضيله واختياره سيخضع باستمرار للوسط الذي يتحرك فيه ، ومع ذلك ، فيحدث أن شخصا ما يعتقد

نفسه من المتحدثين " بالباتويس " Patois (اللغة الرِّيفية) لا يجيد لغة أجداده بينما يجيد اللغة الرسمية التي تعلمها في المدرسة بصورة أفضل .

يصبح الأمر أكثر بساطة في حالة وجود فارق مطلق بين لغتين " لغتين لا يجمع بينهما أيُّ نسبٍ تاريخي (الباسكية في فرنسا وفي إسبانيا ، الفنلندية في شمال السويد ، المجرية في رومانيا، إلخ) أو أن رابطة المصاهرة التي تجمع بينهما ترجع إلى أصل بعيدٍ (اللغة البريطانية في شمال فرنسا ، والفرنسية في بريطانيا العظمى ، الألمانية في إيطاليا ، إلخ) في هذه الأوساط ، التي يشعر فيها الناس عامة بإحساس قوي بوضعهم اللغوى ، تصبح اللغة الأم بلا شك هي لغة البيت، حيث لا دراية غالبًا من قبل الجيل القديم باللغة الرسمية . وسلوكيات المتحدثين وقت استعمالهم للغة الرسمية ، وقت الكلام أو الكتابة ، تبرز في مثل هذه الحالات عما إذا كانت هذه هي لغته الأم ،أم أنَّه تعلمها بصفة ثانوية . لقد أتيحت لي الفرص العديدة لدراسة هذا الوضع اللغوى في شمال السويد ، حيث اللغة الفنلندية هي اللغة الأصلية وفي باراجواي (انظر الفصل الثالث عشر) .

والمسألة هامة فيما يتعلق بالعملية الإحصائية لعدد المتحدثين بلغةٍ ما . والخطر الموجود بالأرقام الرسمية هو أن العدد الناتج يتساوى غالبًا مع عدد السكان الكلي في بلد معينٍ ، في منطقة معينةٍ ، إلخ . وراء الأرقام يمكن أن تقف المصالح ، في اتجاه أو آخر ، من جانب أولئك المسئولين عن الإحصاء . فعدد المتحدثين باللغة الإسبانية على سبيل المثال يختلف عن العدد الإجمالي للسكان القاطنين للبلاد التي تتحدث الإسبانية . وكيف يتم تصنيف العديد من ثنائي اللغة ؟ يبدو أنه في دراسة حديثة عن علم الاجتماع والسياسة اللغوية في أوروبا (H.Aarman) ظهرت أرقام تتعلق بالأقليات اللغوية بصورة مبالغ فيها .

كانت هناك فرصة للإشارة إلى بعض الأمثلة حول الفروقات الاجتماعية للغة . ولكم هو معلوم الدور السياسي والاجتماعي لبناء المجتمعات من مجموعات يتم

تحديدها عن طريق الوظائف ، الموارد المادية والتأثير الاجتماعي والسياسي لكل منها . ومن خلال وجهة النظر هذه تعرف الفروقات بين العديد من المجتمعات على مر التاريخ. وفي الفترة الراهنة لن تكرس جهدنا لمثل هذه الظاهرة المعلومة علم اليقين والتي قُتلت بحثًا ونقاشًا أو للصراعات التي نشبت في زمان آخر وفي الفترة الحالية؛ للعمل على إزالتها، ولكن أيًا كانت الفروقات الاجتماعية ، وبعيداً عن أصل وطابع الفروقات الطبقية، فمماً لا ينكر أن كل مجتمع وما به من تعقيد يحمل بين طياته تجمعات للمواطنين ضمن مراتب ودرجات ، وحتى إذا تعلّق الأمر في بعض الأحيان بتقسيم بسيط وفقا للوظائف والتأهيل المدرسي والدين وغيرها من الأيدولوجيات فلكل وظيفة مفرداتها الخاصة ، التي يجهلها الآخرون . داخل التجمعات الدينية والسياسية أو الأيدولوجية ، تظهر لغات غير مفهومة تعزل أفرادها عن الجماعات الأخرى . والمشاركة في الأنشطة الفكرية الحاصلة ، في المدرسة وفي الجامعة تشير إلى الألفة مع المفردات (العلمية ، الكلمات المقتبسة ، إلخ) وهناك أسلوب يُميِّز المفكرين مقارنة بأولئك الذين لم يحصلوا على أي تأهيل أكاديمي. والامتداد المتنامي للتعليم الإلزامي في بلادنا الثقافية والالتحاق الأسهل بالتعليم العالي يؤدي إلى تذويب جانب كبير من الفروقات اللغوية الطبقية من جهة ، ويعمل هذا الامتداد في التعليم المدرسي على تقريب الطبقات الوسطى إلى الأشكال الكلامية الخاصة بالطبقة المتوسطة القديمة ، ومن جهة أخرى ، فإن الالتحاق من جانب الأفراد (السياسيين ، إلخ) ، دون الحصول على هذا التأهيل المدرسي التقليدي ، بالمناصب المهيمنة على المجتمع يعني إدخال ألفاظ عامية قديمة على القاعدة. وهنا نجد أن تطور العادات اللغوية وما يحددها من قواعد هو انعكاس صادق للمجتمع بصفة عامة .

نفس الظاهرة الموجودة في مجال اللهجات القديمة تظهر أيضا على مستوى اللهجات الاجتماعية . والألفاظ العامية تختفي كلما بدأ المتحدثون يشعرون بالخجل وكلما بدأ الضعف يدب في تماهيهم مع المجموعة المستخدمة لهذه الألفاظ . وبنفس

الطريقة التي يتحوَّل بها استخدام اللهجة إلى علامة لكيان يقدر من جديد تحت تأثير حركة رومانتيكية ، انفصالية أو غيرها ، يصبح بمقدور اللغة الشعبية أن تأخذ شكل علامة واعية طبقية والعمل كرمز للشعور بالانتماء الاجتماعي والمشاركة في صراع طبقي . في البلاد التي تمَّ فيها اقتراح أو تنفيذ إصلاحات في الكتابة (في السويد في أوائل القرن العشرين ، في إسبانيا في مناسبات عديدة) ، أتت المجهودات في هذا الإطار ناجمةً دائما عن رغبة ديمقراطية في تسهيل تعليم اللغة المكتوبة .

حين تحدثنا عن الأبعاد المكانية والاجتماعية للغة ، كانت هناك فرصة للاقتراب من البعد الثالث ، البعد الزماني ، ورأينا كيف أن الأساليب والأشكال القديمة والكلمات المهجورة ظلت حية وباقية في اللهجات في الوقت الذي توارت فيه عن ساحة اللغة الرسمية . كما رأينا أيضا أن التعديلات التطورية للغات تحدث عبر فارق في العادات اللغوية راجع إلى الاتساع المكاني لها ، وأن مثل هذا الفارق يعود إلى عوامل داخلية وخارجية. هذا التفسير للتحولات يعني مركزا وانتشاراً من خلاله . إنه نموذج من الممكن التثبت منه في بعض الحالات المعروفة حق المعرفة . ومن المعلوم أن الانتشار الحالي للغة الفرنسية يعود إلى دعاية متوالية للغة باريس عبر السيادة المهيمنة ، والفتوحات المتوالية ، التي أدت إلى تكوين المملكة الفرنسية . ومما هو معروف أيضا أن اللغة الإسبانية (اللهجة القشتالية) كانت في بدايتها لهجة صغيرة يتحدث الناس بها فوق سفوح جبال كانتابريا حول بورجوس Burgos وأنها انتشرت بين أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية مع استرداد الأراضي التي احتلها المسلمون عام ٧١١ . وفي عام ١٤٩٢ حملت هذه اللهجة إلى القارة الجديدة المكتشفة على يد كريستوفر كولومبس . ولنتذكر أن اللغة اللاتينية كانت في الأصل لهجة يتحدث الناس بها فقط على التلال المحيطة بروما . وإذا ما اعتبرنا اللغات الجرمانية منبثقة عن جرمانية مشتركة غير مشهودة جاءت نشأتها عبر الوثائق القديمة ، والتي تأتي القوطية القديمة أقرب اللغات إليها (محفوظة في توراة ويلفيلا Wulfila الشهيرة في القرن الرابع) ، فإن ذلك قد تم

على أساس من فرضية تم التأكد منها تماماً . والإسكندنافية القديمة التي تشهد عليها نقوش كتبت بها منذ أمدٍ بعيدٍ (القرن الرابع) هي مصدر آخر موثوق فيه لمجموعة من اللغات الحديثة وفي نفس الوقت فرع من الجرمانية ذات الطابع المتحفظ نسبيًا . وبالنسبة للغات الأخرى التي تتكوّن منها المجموعة الهندأوروبية (السلافية والسلتية ، إلخ) ، يفترض ، بناء على قاعدة مقارنة محكمة ، وجود نماذج أولية انبثقت عنها اللغات الباقية السلافية والسلتية والإغريقية والأرمينية ، إلخ .

في العديد من الحالات التي تبدو فيها اللغة الأصلية غير مؤيدة بكم كبير من الوثائق (نقوش حجرية أو خشبية ، نصوص خطت باليد على الرِّق (الجلود) ، وفي فترة لاحقة حديثة ، النصوص المطبوعة) فيتم إثباتها بطريقة غير مباشرة بفضل أسلوب المقارنة المعمول به من بدايات القرن التاسع عشر ، وقد أثبت العلماء في الزمن القديم وجود وجه شبه بين اليونانية واللاتينية مما أصَّل للحديث عن فكرة الأصل المشترك . وفي العصر الوسيط ، كان هناك وعيٌ تامٌ بصلة النسب خاصة بين الفرنسية والإيطالية والبروفنسالية وبين هذه اللغات واللغة اللاتينية ، حتى في حالة عدم التوصل إلى تحديد العمليات المسئولة عن هذا . والعلماء ، في كل ما بذلوه من مجهودات من أجل الربط بين اللغات والحديث عن لغة أولية مزعومة للبشرية جمعاء (مثل العبرية) ، حملوا أنفسهم مسئولية كل نوع من الخيالات بلا سندٍ علميٍ . في عام ١٨٠٠ ، حين بدأ الاتصال باللغة السنسكريتية ، لغة الهند المقدسة ، أصبح الوقت مهيئًا لعقد المقارنات بين لغاتنا الأوروبية ولغات الشرق الأدنى ، للحديث عن فكرة الأصل المشترك لهذه اللغات . كما أدرك الفلاسفة ، في فترة بعيدة ، وجود لغة " أم " هي اللغة الهند أوروبية القديمة والتي ربما تفرّعت عنها فروع اللغات الأخرى وما تلاها من تفرعات (انظر شكل ١٤ ، الفصل الثاني عشر) .

من بين لغات الحديث في القارة الأوروبية ، اللغات الفيتوجرافية فقط (الفنلندية ، اللابية الأستونية ولهجات أخرى من الاتحاد السوفيتي ، والمجر) ، لا تمثل اللغتان

التركية والباسكية جزءاً من هذه الأسرة الكبيرة الهند أوروبية . والفونوجرانية والسامية تكونان أسرتين لغويتين أخريين تربطهما بالهند أوروبية رابطة نسب بعيدة اعترف بها بعض العلماء دون أن يسوق أحد البراهين على ذلك . هناك عاملان مهمان يساهمان في جعل الوحدة الهند أوروبية شيئا أكثر احتمالاً من بقية الأحوال الأخرى . العدد المتزايد للفروع الموثقة وقدم بعض المخطوطات المحفوظة (الهيتيا ، اليونانية الأقدم ، الهندية التي تسمح لنا بالعودة عبر صفحات التاريخ إلى مايزيد على ثلاثة آلاف عام) في الغالب ، حيث تنعدم الوثائق والمصادر التاريخية - مثلما هو الحال في اللغات الأفريقية ، الأمريكية وغيرها - فإن المقارنات التي تجرى فقط على أساس من المواد الحديثة الكلامية ما تزال غير أكيدة .

يعني المنهج القائم على أساس المقارنة عقد مقارنة منهجية بين لغتين أو عدة لغات. وتكمن العناصر الخاضعة للمقارنة في الوحدات الصرفية (الكلمات ، الصيغ ، النهايات ، اللواحق ، إلخ) التي تقدم ، في الوقت الذي تغطي فيه مضامين متماثلة أو متشابهة، من خلال التعبير قياسية صوتية وظيفية لا مجال فيها للمصادفة . كما يجب استبعاد إمكانية إستعارة لغة للغة أخرى ، أو لغتين لثالثة (وهو أمر يمكن أن يكون صعبا في بعض الأحوال) وإذا ما كانت الإيطالية تحتوي على لفظة Fiore، فالإسبانية لديها لفظة Flor (زهرة) والفرنسية Fleur ذات المضمون المتماثل وإذا كانت اللاتينية تعرف الشكل Flore (المذكر) و Flos في الحالة الاسمية ، فمن المشروع الزعم بأن الأشكال الرومانثية تمثل تطوراً في اتجاه مختلف عن شكل اللغة " الأم " وقاعدة المقارنة ترجع إلى جداول المقارنة الموجودة بالأشكال من ١٤/١٧ (الفصل الثاني عشر) هذه العلاقة القياسية للأبنية الصوتية الوظيفية للصيغ هي التي تسمح بتكوين الأسر والمجموعات الرئيسية الفرعية الأخرى للغات . إنها تعني ماهية وظيفية رغم الفروقات المعتبرة على الدوام من الناحية الصوتية . فالمجموعة Li من اللفظة اللاتينية Fuliu (ابن) ، لا تحوي شيئا ذا شأن مشترك مع الحرف J (الحلقي الحنكي

الصـــامت ، والحـــرف الألمانى ch فى لفظة Lachen) وفى اللفظة الإسـبـانيـة hijo وبالأخرى مع اللفظة الإيطالية Figlio والبرتغالية Filho (التى لها نفس النطق تقريبا) - وإذا ما كان الحرف الأول من اللفظة الإسبانية h حرفا صامتًا منذ مئات السنين ، فبمقدوره التماهى مع الحرف F فى اللغة اللاتينية ، وفى الفرنسية والإيطالية ,Filius) Figlio , Fils) فهو سبب مثل هذا التوافق التراتبى للألفاظ الأخرى (اللاتينية Folia، الإسبانية hoja - ورقة - اللاتينية Faba الإسبانية Haba (حبة الفول) ، الفرنسية Li لتصبح فيما بعد meilore والإسبانية mejor (أفضل) و الفرنسية meilleur وهكذا دواليك) . إن قياسية مثل هذه التعبيرات المقابلة هى التى تثبت الماهية (= الأصل المشترك) لكلمات مثل Hijo-fil-fillus-figlio-filho ، إلخ .

p	t	K	العصر الوسيط
B	d	g	
T (V)	ö	y	

P	te	K	العصر الحديث
B (T)	d (o)	g (y)	

الشكل (١٣)

(GIGURA (13)

أعلى : النظام القشتالي فى العصر الوسيط مع وجود ثلاثة تراتيب صوتية:g,d,b,k,t,p

مع السلسلة الاحتكاكية الخاصة ، كان النظام يحتوى على تسع وحدات صوتية (مميزة) أسفل : ثم وضع الحروف الحلقية داخل أقواس، بمعنى أنها انتقلت إلى ساحة الحروف الضعيفة من الوحدات الصوتية الصائتة . يستخدم الحرف الانسدادى أو الاحتكاكى حسب وضعه فى الكلمة أو الجملة . هذا التبسيط تم بصورة متوازية مع التوسع القشتالى بين أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية منذ بداياته فى مناطق كانتابريا (بورجوس) حيث عثرت اللهجة على مسقط رأسها (الاسترداد) وكانت النتيجة خلال هذا التوسع ضعف القواعد مع قلة الموارد – اختفاء التمايز الأكثر استخداماً . استمر هذا التوسع حتى أمريكا (فى بدايات ١٤٩٢) بعض الحروف الساكنة (s,ch,r,l) لم يكن لها اعتبار هنا .

يسمح أسلوب المقارنة بتجميع اللغات وفقا لدرجة المصاهرة الوراثية . فهى تفترض قياسية تعبيرات متناظرة بدونها تصبح هذه التعبيرات بلا قيمة تفسيرية . وهذا يعد مبرراً لأن نطلق على هذه القياسات لفظة القوانين . وعلم الاشتقاق ، الذى يبحث عن الأصل والمعنى الأولى للكلمات ، يعنى قياسية مشابهة ، بدونها تصبح الاشتقاقية غير مقبولة من جهة النقد ، فى اللغويات المقارنة باستثناء قوانين المناظرة فقط حين تصبح الاشتقاقية غير مقبولة من جهة النقد . فى اللغويات المقارنة باستثناء من قوانين المناظرة فقط حين تعد ممكنة نبة لاعتبارات قياسية (وخاصة الصرفية) واشتقاق شعبى . فى الفرنسية نجد لفظة aimer من اللاتينية amare (أحب) غير قياسية وفقا لقانون . عادة ، ما يحدد العلاقة بين الحرف aالسابق على المقطع المنبور والمناظر له فى الفرنسية (اللاتينية Laver - Lavae (وفى الفرنسية amer(*) تحدد العلامة الطباعية عدم وجود الشكل المبنى . والشكل المشتمل على – ai – يرجع إلى التماثل مع الأشكال المنبورة فى جذعها (amat > alme) حيث تصبح – ai (التى تمثل أصلا مقطعاً ثنائياً) مبررة (فى اللاتينية Plana، والفرنسية Plaine) واللفظة الفرنسية Crdonnier كانت بمثابة عودة ثانية إلى أخرى أكثر قدما Cordouanier كنتيجة لتقارب غير مسبب

تاريخيا مع لفظة Cordon . والإنسان دائما ما يشعر بحاجةٍ ملحةٍ لإدراك معنى أية كلمة. وهو دائم البحث عن تفسير يرمي به صوب كلمات أخرى مألوفة داخل النظام .

من المهم أن نتذكر أن بناء الأسر اللغوية وما يتفرع عنها بالوضع التى هى عليه لا يأخذ أى طابعٍ تطوري . ولهذا فإنه يتم تحديد علاقة ما بين لغتين أو لغات عديدة والشجرة العائلية الموجودة بالشكل ١٤ تعني نظامًا متدرجًا رتبيًا معينًا وبسيطًا . واللحظة التى تتدخل فيها العملية الدياكرونية (التطورية) هى التى يطلب فيها الباحث تفسيراً لمثل هذه العلاقات ، أى البعد الزمني للغة . لابد من إيجاد نوع من النشوء والارتقاء . والحالة الخاصة باللغة اللاتينية واللغات الرومانثية لا تدخل هنا لسبب بسيط هو أننا نعرف تطورها ، بفضل نصوص محفوظة والألفة التى تجمع بيننا وبين الاعتبارات التاريخية . (ومع هذا فهناك مئات السنين ، المعروفة بسني الظلام ، الفاصلة بين تفكك وحدة اللاتينية كلغة حوارية وبين الآثار الأولية المكتوبة باللغة العامية، بالنسبة للغة الفرنسية عهود ستراسبورج عام ٨٤٢) فى العديد من الحالات التى يصبح فيها النسب المزعوم بين اللغات محض افتراضٍ . تظهر العلاقات القائمة فى صورة برهان ارتقاء من بداية طور مشترك أعيد بناؤه . وتُفسَّر الفروقات بين الألمانية والإنجليزية فى شكل تعديلات فى عدّة اتجاهات لوحدة مجهولة ، غير أنها قد بتيت من جديد . فى المثال الذى نسوقه ، يشير التعقيد الصرفى الكبير للغة الألمانية (حيث بها إعراب لأربعة أحوال ، ذات بنايات مختلفة للجمع الذى ما زالت الإنجليزية تحتفظ منه ببقايا بسيطة ، إلخ) إلى تحفظ بالنسبة للإنجليزية التى تمثل تدميراً جذرياً للنظام المعقَّد الذى ، بالنظر إلى النصوص المحفوظة كي تكون قاعدة للحكم ، كان أصلاً للإنجليزية القديمة .

وقد أدخل الجانب الدياكروني (التاريخى) فى نظرية المقارنة تحت تأثير تيارات متماثلة فى علوم إنسانية أخرى (الأدب ، علم الأعراق ، علم الجمال) والرومانتيكية والعلوم الطبيعية (مع الارتقائية والداروينية) لم يكن ذلك أمراً أساسياً لدى مؤسس مثل

الدانمركي راسموس راسك PASMUS RASK ، إلا أنه أصبح كذلك لدى عدد من الألمان بدايةً من جاكوب جريم Jakob Grimm، الذي ألف كتابًا عن قواعد اللغة الألمانية (قواعد اللغة الألمانية عام ١٨٢١) حدَّد فيه تغيير وجهة علم اللغة . هنا يصبح من المهم التمييز بين نوع من المقارنة ، انبثق عن اعتبارات حول اللغات الهندأوروبية والاتصال بلغات الهند ، وخاصة السنسكرتية ، يعمل على إنشاء علاقات متدرجة ثابتة (اللغويات المقارنة) ، وبين لغويات ارتقائية وتاريخية تحاول تفسير التشابهات والفروقات من خلال نظرية تعديلات قياسية تعمل بهذه الطريقة على تقريب اللغويات من العلوم التدقيقية . هذه النظرية الارتقائية تفسر الملاحظات التي أبداها علماء المقارنات . ولكن علينا أن نبرزها في ثوب النظرية المحضة ، التي بمقدورها ، في بعض الأحوال ، أن تختلف في تفسيراتها للعلاقات المتبادلة . والأصل المشترك ، الذي يعد تفسيراً لأسرتنا اللغوية وغيرها من الأسر ، ليس هو الوحيد الممكن . وسنرى في الفصل العاشر أن الاتصالات بين العديد من اللغات المختلفة يمكن أن تصب في إطار صهر للعناصر الشكلية والمفردات يُفقد مفهوم المصاهرة معناه .

وهانحن قد رأينا توًا أن مصادرنا المعرفية عن الأطوار السابقة لأية لغة والتغييرات الحاصلة على مدى الزمن تأتي في صورٍ شتى . وفيما يتعلق باللغات الكبرى ذات الأصول الثقافية يتواصل ارتقاؤها بداية من أقدم النصوص المحفوظة . وهاهي اللهجات والتعددية الإقليمية والاجتماعية تحتفظ على الدوام ببقايا حية من العناصر المتوارية من اللغة الرسمية . ويعد نطق مجموعة – oi – مثل – ouai – (في moi-roi إلى آخره) نطقًا لهجيًا وريفيًا ، محدداً تعريفيًا للريفيين من أبناء بعض المقاطعات حتى الثورة الفرنسية جاء بمثابة النطق الباريسي المتميز . والنطق الحديث هو العامية التي شاعت بين أرجاء العاصمة . ومع التحول الاجتماعي للثورة ، بدا النطق الشعبي قاعدة مقبولة . فنطق حرف r هو بمثابة مثال آخر لنطق جميل تحول إلى صورة إقليمية . والحرف r القوي – الوحيد الموصى به من قبل قاموس لتيري

الشــهـيـر LITTRE لم يـعـد له وجـود الآن في باريس ، أو في المجـتـمـع الراقي أو على الساحة المسرحية ، بعد أن تمَّ تحجيمه، وحتى الآن، في أوائل القرن الماضي (التاسع عشر) ولم يعد مستخدماً في المسرح إلاّ لتمييز أهل الريف .

وجاءت توصيفات النحاة القدامي محملة بمعلومات قيمة عن حالات سابقة على اللغات . فجانب كبير من معرفتنا باللغة اليونانية واللاتينية ندين به إلى النحاة القدامي. وفيما يتعلق باللغات الحديثة ، فإن شهادات النصوص تكتعل بالتحاليل الثاقبة غالبًا من قبل أهل القواعد(بالنسبة للفرنسية على وجه الخصوص في القرنين السادس عشر والسابع عشر) . وهاهي اللغة الإسبانية التي ترجع إلى عصر غزو العالم الجديد تُفسَّر وتوصف على يد نبريخا Nebrija كتابة عن النحو عام ١٤٩٢، والأعمال الشهيرة التي ألفت في مجال النحو على يد بورت – رويال PORT ROYAL جاءت مكملةً للأعمال الأدبية الشهيرة كشهادات على لغة العصر التي ظلَّت على مدى عهود طويلة قاعدةً للاستعمال " الصحيح " .

وأحيانا تكون الأعمال المقتبسة مصدراً آخر مهمًا في عمليات البحث عن الفترات السابقة على اللغة . فالنطق القديم للرسم الخطي oi – في الفرنسية له ما يؤكده من اقتباسات فرنسية إلى اللغة السويدية (حين الاعتقاد في أبسط الأحوال في الحاجة إلى وثائق احتياطية) فاللفظة الفرنسية boite ما زالت محفوظة في السويدية في صورة boett، والتي أخذت في القرن الثامن عشر من النطق الفرنسي للفترة . والأداة hautbois التي تحولت في اللغة السويدية إلى الشكل aboe، هي مثال آخر لنفس الظاهرة . والفنلندية تعرف سلسلة من الكلمات الي تفسر باعتبارها اقتباسات عن الجرمانية القديمة في فترة سحيقة (الجرمانية المشتركة غير الموثقة بطريقة أخرى ، والتي نشير من بينها إلى kulta (آخر) (في السويدية glud، والإنجليزية والألمانية gold، من أصل guloa(*) –) kaupunki – (مدنية) – أو – (بلدية) ، انظر اللفظة السويدية köping، والفعل köpa (يشتري ، والألمانية Kaufen، إلخ) والفنلندية Kuningas

والألمانية Köing، والسويدية Konug (ملك) ، حيث يصبح لزامًا على الأشكال الفنلندية أن تمثل الشكل الجرماني القديم المحفوظ سليمًا على مدى ما يزيد على ألفي عام . إن نشوء يقوم على أساس من الأشكال الجرمانية المعروفة يمكن أن يؤدي إلى نفس النتيجة . إنها واحدة من الحالات النادرة التي يمكن للمؤرخ اللغوي فيها أن يثبت عبر الوثائق الخارجية صحة نشأتها . وبدون هذه الاقتباسات ، لن تكون لدينا أية شهادة مباشرة عن فترة جرمانية سابقة بكثير على أية نقوش ونصوص محفوظة .

هناك العديد من النظريات التي سيقت لتفسير حالة الارتقاء اللغوية . سنشير إلى بعضها بإيجاز. لقد رأى مؤرخو القرن التاسع عشر – باتباعهم لاتجاه ساد تلك الفترة – في اللغات نوعا من الكائنات الحية التي ، مثل الحيوانات والنباتات ، تولد وتنمو ، ثم تتدهور وتموت وفق قانون عام ونظرية القوانين الصوتية ، المسئولة بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، عن كل تغيير ، ولدت في هذا المناخ العلمي وتعد أصوات اللغة بمثابة اعتبارات فيزيائية ، تخضع بالتالي لنفس القوانين الميكانيكية للظواهر الطبيعية الأخرى، الحية أو الميتة . والتعديلات التي لحقت هذه المادة الفيزيائية كانت ، كما زعم البعض ، قائمةً على أساس تغييرات أخرى ناجمة عن تلك . وحين توارت نهاية أو التبست بأخرى ، بتأثير من قانون صوتيٍ ، تلحظ رد فعل اللغة الهادفة إلى استبدال التصريف الذي جاء تبعًا لها باعتبارات نحوية . وإذا ما حدث ، نتيجة لتغيير صوتي ، أن وجدنا كلمتين متماثلتين ، يقوم المتكلمون حينئذ باستبدال واحدةٍ منهما بشكل بنائي آخر . بهذه الطريقة تم تفسير استبدال التصريف العرضي للغة اللاتينية بطرائق نحوية في اللغات الرومانثية (حروف الجر، ترتيب الكلمات ، إلخ) . في الأمثلة اللاتينية (بأشكالها الأسلوبية فقط) التي شرحناها آنفا وهي Petrus amat Paulum (بدرو يحب باولو) Paulum amat Petrus (بدرو يحب باولو – أيضًا) ، حيث النهايات العارضة تشير إلى المحب والمحبوب ، يكون ذلك عكس الإسبانية التي تحتم الضرورة فيها استخدام المثال : Pedro ama a Pablo، حيث إذا ما طرأ أي تغيير على وضع

الشخصين تبعه تغيير في المعنى. ويرجع الاستعمال الإجباري للضمائر الشخصية في حالة الفاعل في الفرنسية واللغات الجرمانية (الفرنسية : - Je parle tu parles، والإنجليزية I speak (أنا أتكلم) You speak (أنت تتكلم) المقابلة لمثيلتها الإيطالية : parlo (أتكلم) parli (تتكلم)، والإسبانية : hablo- hablas يرجع إلى اختفاء أو ضعف النهايات الشخصية. من الممكن الاعتراض بأن الألمانية والفرنسية قد عممتا استعمال الضمائر رغم بقاء عدد من الفروقات الخاصة بالنهايات وأنه ، في اللغات الإسكندنافية، قد أعيدت الضمائر إجباريًا قبل كثير من اختفاء النهايات .

ونظرية الصوتيات باعتبارها أصل كل حالات الدمار التي تلحق باللغات لا أساس لها . فالمتكلمون يحتفظون بالفروقات التي لا غنى عنها للحفاظ على توازن النظام . وقد تحدثنا عن قانون " أدنى مجهود " بصفته المسئول عن أي تعبير . ولكن الإنسان يبذل بلا شك المجهودات اللازمة حتى يصبح مفهومًا . واللغة تصبح أكثر ثراءً مع الحشو الزائد ولهذا يتم الاعتراض على أنظمة الاتصال الصناعي . إذ الثراء الاتصالي الناجم عن الزيادة هو الذي يضمن التلقي السليم للرسالة . في الانتقال من المرسل إلى المتلقي يحدث كل نوع من " الألفاظ " ، بالمعنى الحقيقي والمعنى المجازي " لغط دلالي " (انظر الفصل الثاني)

ليس هناك من شك في أن الآليات اللغوية تمثل ترتيبات للأدوات بغية الحصول على أعلى نتيجة بأقل مجهود . ولكن قانون " المجهود الأدنى الذي ألمحنا إليه يُرى بعيدا عن التحكم في تركيبات وتعديلات الأبنية اللغوية . والحشو ، رغم ضرورته لضمان الرسائل ، يتناقض مع نظرية الدور المركزي " لأدنى مجهود " فالعبارة الألمانية: die grrossen Schönen Blumen (الأزهار العظيمة الجميلة) الحاوية لأربع علامات الجمع لا تنقل معلومات زائدة عما تنقله العبارة الإنجليزية : The big nice Flowers التي لا تحمل سوى علامة جمع واحدة . ومن ناحية أخرى ، ثبت أن غياب الإشارات للعلاقات النحوية الناشئة عن اعتبارات مطابقة شكلية توارت عن اللغة الإنجليزية يمكن

أن يزيد من صعوبة ترجمة العبارة الإنجليزية ، التى من السهل تعرضها لحالة ليست أشد من العبارة الفرنسية أو الألمانية .ومع هذا فيندر إثبات أن المزايا والمساوئ الناجمة عن هذه الفروقات البنيوية يمكن أن تكون مسئولة عن تركيبات داخلية اللغة .

تمثل جاهزية العناصر (الوحدات) فى شكل وحدات وتراتيب صرفية ، يقوم عنصر واحد منها بوضع أسس الفارق ، أمَّا الأخرى فتأتى متماثلة – فائدة ملفتة للنظر. وعلى مستوى التعبير لا يمكننا إنكار مجيء بعض الحالات المعدلة محكومة بالحاجة إلى نظام أكثر تناغماً . فانتقال الحرف الحلقى فى اللغة الإسبانية فى العصر الوسيط ليصبح حلقياً حنكياً (J) فى الإسبانية الحديثة يتطلب ملء فراغ داخل النظام وإدخال وحدة صوتية معزولة ضمن ترتيب تشارك فيه الوحدات الأخرى. ومن الممكن أيضا أن نشهد اختفاء ملمحٍ تمييزيٍ زائدٍ فى الوقت الذى لا تصبح فيه القاعدة قوية بما يكفي للحفاظ على مثل هذا النوع من الحدود الفارقة. بهذه الصورة أردت تفسير الانتقال الشهير للحرف القشتالي Fالوارد في بداية اللفظ إلى الحرف h (الذى يعد حرفًا صامتًا ، انظر الأمثلة التى سقناها آنفا) .

والأمثلة العديدة للتماثل الشكلي في الإعراب والتصريف هى حالة مشابهة . فحين تختفى جميع الأشكال اللاقياسية لصيغة الجمع وفي التصريف الفعلى لصالح أشكال متماثلة ، فوراء هذه الاستبدالات تكمن بداهة الرغبة فى تعميم نفس التعبير لنفس الوظيفة (حرف s الذى يفيد الجمع فى اللغة الإنجليزية) . ومن المعلوم أن صيغة الجمع فى اللغة الفرنسية تعود إلى أصل مختلف . فالفرنسية القديمة عرفت إعراباً لحالتين (حالة الفاعل ، حالة العمل النحوية ، إضافةً إلى نوعٍ من حالة المجرور المكاني بلا حرف جر) هناك وحدة صرفية شائعة رسمت بالشكل التالى فى الكتب المختصرة :

Li mur ⟵ اسم جمع | Li murs ⟵ اسم مفرد (حالة الرفع)

Les murs ⟵ حالة العامل الجمع | Le mur ⟵ حالة العمل المفردة

هكذا نرى أن الحرف s كان علامة دالة على الاسم المفرد (حالة الرفع) ، وعلى حالة الجمع أيضاً . وباختفاء أشكال حالة الرفع لم يعد هناك وجود للتناقض إلا بين

Le mur ⟶ Les murs . وها هو الحرف s يعود ليصبح دلالة على الجمع .

وفي حالات التأنيث كنا نلحظ وجوده منذ بدايات اللغة الأدبية :

La feme ⟶ les femes (دون أدنى تمييز عرضي) .

رأينا من قبل مثالاً للتأثير التماثلي في التصريف (للفعل aimer حيث يتماثل الجذع وفقاً للأشكال بأصل منبور ، انظر الأصل ص١١٠) ، من الممكن العثور على مثال آخر في تاريخ اللغة الفرنسية : الفرنسية القديمة : Je Treuve , nous Trouvons المحوَّلة إلى Je Trouve إلخ . (Je Pleure- nous Plomos) المحوَّلة إلى : nous Pleu- rons في الحالتين نلحظ تعميماً للحروف الصائتة . في حالات كهذه يتعلق الأمر بتوحيد أشكال الوحدات الصرفية . ولكن بمقدور عالم اللغة في مرات نادرة توضيح سبب مثل هذه التعميمات في كل الأماكن وبنفس الطريقة . لابد من العودة إلى أهمية قوة وضعف القواعد ، المسئولتين عن الحفاظ على عدم القياس واستبعاده . وفي نهاية المطاف يجب البحث عن السببية في الاعتبارات الاجتماعية وليس في اللغوية .

كل لغة تعرف درجات مختلفة من التعقيد ومتعددة الثبات وليس كل أفراد الجماعة اللغوية يعرفون جيداً فروقات النظام بنفس التأكيد ونفس القياسية . ونظام الأطفال يأتي في صورة أبسط ، ونظام المتخلفين كذلك . وتبدأ حالات التناقض في التلاشي تباعا عند فقدان قوة النطق وفي النظام الذي يقف حجر عثرة أمام تقدم الطفل . وعلى مستويات النظام المختلفة ، نلحظ بقاء الفروقات البسيطة بصورة أصعب من الفروقات العامية التي تحظى ، بالتالي ، بتواتر أعلى(انظر الفصل السادس) هناك إذن طبقات متعددة ، بداية من الطبقة العليا (الأغنى) وانتهاء بالأخرى الدنيا (الأفقر) من بين

تلك الطبقات المختلفة يصبح أمر الاحتفاظ بواحدة منها راجعًا إلى نية المجتمع، وبتخفيض طفيف لقوة القواعد يصبح الطريق ممهدًا لكي تتمكن الطبقة الدنيا من فرض سيطرتها وهيمنتها .

وهاهي الطبقة الاجتماعية العليا في باريس قد هجرت الحرف r القوى . وعدد كبير من الكتاب تخلى عن استعمال الماضي المستمر للصيغة الإنشائية Subjuntivo وكل ما حدث في حالات كهذه هو أن مجموعة حاكمة اختارت لنفسها نموذجا مختلفا عن النموذج السابق . وما حدث شيء في اللغة الفرنسية . حيث الحرف r والماضي المستمر للصيغة الإنشائية ظلاً يشكلان جزءًا من الأدوات الخاصة باللغة . قام فقط عدد من التابعين للثقافة الفرنسية بوقف استخدامها . وحين تخليت منذ خمسة وعشرين عاما ، حين كنت أستخدم لغتي الأم في الكتابة ، عن استعمال أشكال الجمع القديمة للأفعال (في السويدية Jag Kan (أنا أستطيع) – Kunna - vi (نحن نستطيع) سائرًا على درب العديد من الزملاء ، حتى أضح المفرد Kan في كل الأرجاء متطابقًا مع لغة الكلام ، لم تكن اللغة السويدية هي التي تغيرت . كنت أنا من همَّ بتغيير اللغة . هي فكرة عبرت عنها ، بمغالاة في هذا الصدد ، حين صغت النظرية القائلة بأن اللغات لا تتغيَّر . بل المتكلمون (والكُتَّاب) هم الذين يقومون بتغيير اللغة . وبلهجة أقل تشددا، فهذا يعني أن التعديلات ، والإقلال من التناقضات والتعميمات المتماثلة (القياسية) تمر بمرحلة التطور في كل اللغات ، وتتحقق في الأشكال الأفقر من اللغة (بداية من وجهة النظر الاجتماعية ، الفكرية ، إلخ) فالملابسات الاجتماعية فقط (بالمعنى الأشمل للمفهوم) هي التي تقرر إذا ما كانت هذه الأشكال الفقيرة ستصبح هدفا للمحاربة أم أنها ستخرج إلى حيز الوجود . كما رأينا أن الثورات والتعديلات التي تلحق العلاقات الاجتماعية في جماعة لغوية لها دائما نتائجها المعلنة داخل إطار اللغة ، ليس فقط عبر إدخال مصطلحات أو دلالات جديدة على المصطلحات

القديمة ، وإنما أيضا وعلى وجه الخصوص عبر ترك المجال حراً أمام (الألفاظ العامية) التي كانت سائدةً في الزمن السالف .

وما حدث بالنسبة للنظرية اللغوية منذ بدايات القرن العشرين هو استبدال التفسير الآلي لعملية النشوء بنظرة شاملة عن مكانة اللغة في العلاقات الإنسانية وتبعية هذه المكانة للملابسات الاجتماعية والإشارية – بصفة عامة . إذا كانت هناك قوانين تحدِّد نشأة اللغات ، فيأتي ذلك بقدر وجود القوانين التي تحكم تطور المجتمع . ويحدث في المجتمع ما يحدث في اللغات ، إذ يتعلق الأمر بأكثر من كونها قوانين غير قابلة للاستثناء ، بكونها اتجاهات وعوامل مازالت ، دون علم بعددها وقوتها ، غير متطورة . مثل هذا الأمر يؤدِّي إلى عدم استشراف المستقبل هذا إلى أن يصبح سمة أساسية للاعتبارات الإنسانية .

هذا ما شجَّعني إلى التفكير في الطرح الممكن لفارق جائز بين اللغويات النشوئية الارتقائية Lingüística diacrónica التي تدرس ما يطرأ على الأنظمة من تحولات وتغييرات ، وبين اللغويات التاريخية Lingüística histórica التي تدرس الاعتبارات الخارجية المرتبطة ، أو المقيدة لهذه التغيرات (اعتبارات المحيط الاجتماعي ، واعتبارات تاريخية ، وحضارية) . وبهذا فإن اللغويات التاريخية تتحوَّل إلى تاريخ حضارات تعمل في إطارها اللغات ويصبح لها من التأثير ما يظهر بصماته على هذه الأخيرة بصورة مستمرة .



الفصل الثامن

اللغة وظيفة سياسية واجتماعية

El Lenguaje , funciön Politica y Social

رأينا في الفصل السابق كيف أن متغيرات إقليمية واجتماعية للغات بدأت تلعب دورًا أكثر أهميةً من غيرها . لقد تحولت اللهجة التي سادت على سفوح التلال المحيطة بروما بانتشارها بين أرجاء البحر المتوسط ، إلى لغة رسمية لإمبراطورية بأكملها ثم أخذت رويدًا رويدًا تحل محل اللغات الرسمية للأقاليم المفتوحة . كما تحولت اللهجة المحلية الصغيرة المنتشرة بين الربوع المحيطة ببورجوس Burgos ، بفضل الأحداث التاريخية ، إلى متحدث رسمي باسم مملكة وإمبراطورية لم تغب عنها الشمس قط . وبفضل المكانة الأدبية للهجة فلورنسا (على يد دانتي) غدت اللغة الأدبية الإيطالية تحمل ختم هذه اللهجة . من الممكن أن نصل إلى حدٍ لا نهائي ونحن نعدد الأمثلة التي من هذا النوع . وقد أشرنا في الفصل السابع إلى أنَّ الاعتبارات اللالغوية هي المقيدة لتوسع اللهجة ، أيا كانت ، أو اللهجة الاجتماعية المعنية بدلا من غيرها .

في حقيقة الأمر ، يقوم أحد الأشكال اللغوية في كل الوحدات السياسية (الأمم ، الأقاليم المستقلة ، إلخ) الشكل اللغوي المثبت في صورة كتابية رسمية ، بالتعبير المنظم عن أي نشاط رسمي أو عام (تعليم ، إدارة ، ثقافة ، علم ، أدب) ، وهو شكل بدأ مسيرة تطوره من لهجة معينة . فالفرنسية الملفوظة والمكتوبة اليوم قد تطورت في العاصمة والإقليم الباريسي اللذين سرعان ما تحولا ،في العصر الوسيط ، إلى مركز

سياسي وفكري لمملكة مترامية على آثر ضم الأقاليم المستقلة أو المنتمية إلى وحدات سياسية أخرى . وما هناك غير التفكير في ضياع استقلال بريطانيا واختفاء مناطق النفوذ الإنجليزي في القارة كي تتجمع لدينا أمثلة عديدة على مثل هذا الأمر .

كما يبدو من أدب اللغة العامية (لغة الشعب المناهضة للغة اللاتينية) للقرون وأوكسيتانيا الأولى من العصر الوسيط الفرنسي ، جاءت لغة الوثائق الأدبية المحفوظة (كتب التاريخ والأساطير) حاملة في وضوح تام للخاتم النورماندي (تاريخ حكام نورماندي ، دراسة واث Wace، إلخ) وحين حملت هذه النورماندية الأدبية إلى إنجلترا أخذت شكل اللغة الأدبية الأنجلو – نورماندية المعبرة عن أدب عظيم الأهمية . ومن المعلوم أن هذا الشكل الذي توجد عليه اللغة الفرنسية كان على مدى ثلاثة قرون اللغة الرسمية في إنجلترا ، وهذه الثنائية اللغوية لمئات عديدة هي التي تفسر التأثير الفرنسي القوي على اللغة الإنجليزية الحديثة ، والتي تختلف شديد الاختلاف عن الجرمانية القديمة . في القرن الثاني عشر الفرنسي ، لوحظ فارق واضح بين الفرانكو ، لغة الوسط والعاصمة ، والنورماندو ، اللغة المحافظة من خلال وجهات نظر معينة (على سبيل المثال ، في معالجة المقطع الثنائي الصائت ei-oi من الألفاظ reiroi - mei -moi ، إلخ) أمّا في باليانيوس " Patois المحلية النورماندية (نورماندي) والجزر النورماندية فمازالت الوحدات المميزة للهجة القديمة قائمة .

في القرن التالي ، ومع الازدهار الاقتصادي والثقافي لمدن شمال (بيكارديا ، أرتوي) ، بدأت اللغة الأدبية تحمل بصمات بديهية لهذا التأثير الشمالي . وهاهي القصة الشهيرة : أوكاسين ونيكولات Aucassin et Nicollette ، وتناوبها بين الشعر والنثر ،تعد مثالا لهذا الجنس الأدبي. كما أن روايتي La Violette و Conde de Poiti-ers El تشكلان جزءاً من هذا الأدب المفعم بالآثار البيكاردية ، إلخ. إن وجود الآثار النورماندية والبيكاردية في نص فرنسي من العصر الوسيط لا يعد مع هذا دليلاً على أن النص قد صيغ في هذه المقاطعات ؛ إذ إن المكانة التي حظيت بها تلك اللهجات

الكلامية قد حملت الآثار النورماندية والبيكارية إلى نص من نصوص الفترة ذاتها . ودائما ما يخضع الاستعمال اللغوى للموضة . وقد أدى الاستقرار النهائى للغة الفرنسية (المكتوبة ، الأمر الذى انطبق فيما بعد على اللغة الحوارية طبعًا) بالإضافة إلى استخدامها فى المحافل العامة ، بدايةً من تاريخ محدد (١٥٣٩) ، إلى أن تكون هى نفسها لغة الوثائق ، أيا كان مصدرها ومؤلفها .

أن تصبح لغة الوثائق القديمة (الفرنسية أو غيرها) بصفة دائمة فى شكل لغة مختلطة بمحددات وملامح مختلفة الأصول ، هذا حدث له اعتبار خاص . كما كان ممكنًا مجيء صورة نظمية مقفّاة لأزواج من الكلمات لم تكن تقفى إلا حين تنطق بلهجتين . وحتى تنشئ قافية بين كلمتى Prinches - riches (فى رواية La violette) علينا أن ننطق اللفظة الأولى باللهجة الفرانكية Franco والثانية بيكاردية Picardo لا قافية هناك حتى فى اللهجة الفرانكية (Princes- riches، أو فى البيكاردية : - riques Prinches) ولقد استنبط علماء اللغة القدماء من هذه الملاحظات نتيجة مفادها أن النص موضوع الدراسة بالقرب من الحدود بين ميدانيين مختلفين فى اللهجة . وبعد التثبت من أن معظم النصوص القديمة ، فى مثل هذا الحال ، قد كتبت فى مناطق لهجات مرورية ، بدأت المشكلة تخضع لاختبارٍ جديدٍ . لا وجود هناك للهجات "خالصة" بالمعنى المتضمن " للخلو من العناصر المستوردة " فكل لغة عرضة للتأثر من قبل اللغات المجاورة ، كما أن اللهجات الطبقية الاجتماعية معرضة دائما لتأثيرات أنماط فى أعلى أو أسفل الدرجة الاجتماعية ، إذا كان ذلك صحيحًا فى حق الحوار ، فهو مناسب أيضا وبنفس الدرجة للغة الكتابة . يجب أن نحرص على ألا نخلط خلطًا يؤدى إلى التماهى بين اللغة الرسمية ، بمحدداتها وملامحها الخاصة ، واللهجة المحلية التى انبثقت عنها . واللغة الإيطالية الأدبية لا تبدو مماثلة للهجة الفلورنسية (المعروفة من بين أشياء أخرى بحلقية الحرف c من كلمة Casa – بيت – إلخ والمنطوق كنظيره فى كلمة hasa).

وكذلك فقد جاء نشوء اللغة الرسمية في الدول الأوروبية الأخرى بنفس الطريقة ، في ألمانيا ، بما فيها من اختلافات لهجية كبيرة وفصل بين معسكرين : اللغة الألمانية العامية في الشمال واللغة الرسمية الأصلية في الجنوب ، نجد لغة الكتابة تقوم على أساس من نمط اللغة الأصلية الرسمية التي انتشرت مع ترجمة التوراة وممثلة للغة المترجم مارتن لوثر . هذه اللغة ، بتنوعاتها المفرداتية والشكلية ، هي المستخدمة في التعبير الكتابي بداية من سويسرا الألمانية في الجنوب وحتى ساحل البلطيق في الشمال . كما أنها أيضا تمثل التعبير الكلامي في المدن والأنشطة الرسمية – مع وجود فوارق صوتية ملحوظة – بالطبع – بين إقليم وآخر . وسوف يأتي لاحقًا الحديث عن سويسرا الألمانية . وحين نعقد مقارنة بين فرنسا من جانب وإيطاليا وألمانيا من جانب آخر من الممكن أن نصاب بدهشة كبيرة بالنسبة للعوامل التي تحكم توسع وقبول لغة تحولت إلى رسمية . وقد رأينا لتونا أن إدخال الفرنسية (الفرانكو) في مختلف الأقطار التابعة للمملكة قد جاء متوازيًا مع إخضاع الأقاليم للسلطة الملكية في باريس . وثورة ١٧٨٩ قد أكدت هذا الاتجاه نحو المركزية . اللغة الفرنسية هي التعبير الشفهي والمكتوب عن وحدة سياسية متينة . في إيطاليا ، كان على الوحدة الوطنية الانتظار إلى نهاية القرن التاسع عشر . لم تكن المكانة الثقافية التي تمتعت بها توسكانيا تعود إلى قوة سياسية موحدة . حيث استمرت كل منطقة في العناية بلهجتها كما كان لكل مدينة الشكل الخاص بلغة الكلام عندها . وفي الأوساط صاحبة الشأن الرفيع في المجتمع ، والحياة الخاصة (في الأسرة ، بين الأصدقاء) كان الناس يتحدثون اللهجة دون أن ينتقل منهم أحد إلى اللغة الرسمية إلا حين يقترب فرد من مدينة أخرى أو منطقة مغايرة ، أو أجنبي ، إلى جماعة المتكلمين . في الواقع ، فمعظم الإيطاليين ثنائيو اللغة (انظر الفصل العاشر) إذن لا تحقير للهجات في إيطاليا . واستخدام أي لهجة لا يعد دليلاً على المستوى الاجتماعي المتدني . وعليه . فهناك أيضا قبول للتعددية في النطق واستخدام الأشكال التي تخون ، في استخدام اللغة الرسمية ، الأصل اللهجي للمتكلم .

الوضع يتشابه في اللغة الألمانية . ففي أقاليم عديدة (سويسرا ، بافاريا ، النمسا، إلخ) هناك خليط من أصحاب اللغتين ، اللغة الرسمية (المتأثرة بعادات محلية) واللهجة . وما زالت اللهجات الألمانية العامية - شديدة الاختلاف عن الألمانية الرسمية - قائمة في الوقت الراهن وخاصة في المناطق الريفية - وفي العديد من المناطق تشهد أدبًا مكتوبا باللهجات . وهذا الأدب المكتوب بالألمانية العامية يحقِّق شهرة ذائعة الصيت (فريتش FRITZروبيتر REUTER، إلخ) ومما يفسِّر هذه الحرية العالية في الاستخدام اللغوى الريفي في الألمانية والمجهودات الكبيرة التي تبذل بغية تحديد لاستخدام ونطق رسميين (مثل قاموس دودن DUDEN الشهير) ، هو غياب الوحدة السياسية (التي بدأت في نفس الوقت الذى بدأت فيه الوحدة السياسية الإيطالية ، استخدام ونطق رسميان صالحان للجانب التعليمي والآخر المسرحي . وكم هو الفارق بين هذا الوضع ومثيله في فرنسا) .

تعد أهمية وجود قاعدة صارمة بالقدر الكافي للاستعمال اللغوى في الإطار المسرحي أمرًا لافتًا للنظر . في الحياة العادية ، يصبح أسلوب الكلام هو المميز للفرد . إذ بالإمكان إستنباط نتائج جمَّة ، ليس فقط عن مكان ولادته وإنما أيضا عن درجة ثقافته وأصله الاجتماعي . وغالبًا ما تتوجه نحو نسبة قيمة معينة لمتغير إقليمي أو اجتماعي خارج عنا . ودلالة بهذا الشكل متعلقة بهذا الملمح اللغوى أو ذاك يمكن أن تتعثر على خشبة المسرح . فلو أن الجمهور قد سمع هاملت يتحدث بلهجة جنوبية وأوفيليا تتحدث بلهجة نورمانية ، لأضافت مثل هذه المحددات إلى الشخصيات العاملة بالمسرحية قيمًا غير متوقعة ومتناقضة مع الرسالة الدرامية . والمسرح الكلاسيكي يعني تعبيرا لغويا محايدًا . فاللهجة الإقليمية حين تصدر من فم ممثل ما ليست شيئًا مقبولاً إلا إذا كان الدور مخصصا لإبراز لون محلي . نفس الشيء يحدث مع المتغيرات الاجتماعية . فلا تُقبلُ اللهجة الشعبية إلا في حالة قيام ممثل بتشخيص دور أحد

رجالات القرية . هنا تصبح اللغة جزءًا من سلوكه العام (عادات تناول الطعام ، الملبس) .

في سويسرا الألمانية ، تصبح اللهجة الإقليمية هي التعبير الطبيعي خلال الاتصالات الخاصة والتعليم المدرسي يبدأ باللهجات ، إلى أن يتعلّم الطفل كيف يفهم ويستعمل الألمانية الرسمية ، التي سرعان ما تعود لتصبح الوسيلة الوحيدة للاتصال في مجال التعليم . والمدرس الذي يتفاهم مع تلميذه بإحدى اللهجات في لقاء خاص ، ينتقل في الحال إلى اللغة الألمانية بمجرد أن يبدأ حديثه داخل الفصل. إنها حالة "الديجلوسيا " Diglosia (ازدواجية اللغة ، بحيث يتم اختيار واحدة منهما وفقًا للمقام) واللغة تصبح أيضًا ، في حالات مماثلة ، لغة الخدمة الدينية . ففي الكنائس البروتستانية بالإلزاس Alsacia اللغة المستعملة هي الألمانية (La Hochsprache) لا الإلزاسية المحلية . في الحقيقة ، يعد هذا مثالا على الازدواجية اللغوية القائمة على أساس ديني .

وفي الوقت الذي بدأت فيه اللغة اللاتينية ، عند تفكك الوحدة اللاتينية وبدايات العصر الوسيط ، تتشعّب رويدا رويداً إلى لهجات مختلفة فيما بينها ، نجد اللاتينية اللاحقة على الكلاسيكية في النصوص الدينية قد تابعت مسيرتها كلغة للكنيسة . ومن المعلوم أن اللاتينية ما زالت ، تقريبًا ، بهذا الوضع . ومعلوم أيضًا أن اللاتينية قد بقيت على مدى زمن طويل لغة العلوم والتعليم الجامعي وهاهو عالم النبات السويدي "لينيه" ظلّ يتحدث اللاتينية على الدوام مع العديد من العلماء والطلاب الذين ، حتى وفاته عام ١٧٧٨ ، توافدوا على زيارته في إقامته الخاصة بأوبسالة Uppsala أما اليوم فقد تخلّى حتى المشتغلون بدراسة اللغة اللاتينية . ومعلوم أن اللغة العبرية قد شهدت فترة ازدهار كلغة للثقافة والعبادة إضافة إلى كونها لغة الوثائق الدينية اليهودية. والسنسكريتية ، لغة الهند القديمة المقدسة والمستخدمة في مجال الآداب ، بقيت بنفس الطريقة حتى أيامنا هذه، وما زالت تستخدم اليوم ليس فقط في مجال العبادة، وإنما

أيضا فى مجال الأنشطة العلمية والثقافية . وبفضل القيمة الدينية للغة السنسكريتية لدينا معلومات دقيقة عن نطقها وقواعدها . ويودُّ المتدينون الحفاظ عليها سليمة بأى ثمن . ولنفس الأسباب يتواتر رد الفعل عند المسيحيين ضد إجراء أى تعديل على نص التوراة . هنا يصبح التراث النصى ممثلا للكلمة الإلهية .

فى اليونان تتمايز ثلاث طبقات لغوية : اللهجات الشعبية التى يتحاور الناس بها ، التى تم تقعيدها على أساس لهجتى (الديموطيقية) واليونانية الأدبية القريبة جدا من اليونانية الكلاسيكية (كاثريوسا) هذه الأخيرة ظلت على مدى زمن طويل لغة البلاد الرسمية – لغة لا تخدم الدين فحسب ، إلى جانب النصوص الأدبية والوثائق الرسمية، وإنما غدت أيضا لغة الصحافة والأطفال ، فحين يذهبون إلى المدرسة ، يصبح لزامًا عليهم تعلم هذه اللغة التى لا يمكن فهمها إلا بالتأهيل المدرسى . ومن الممكن استيعاب الآثار الاجتماعة والثقافية المترتبة على هذه الحالات فى غاية السهولة حيث كانت اللغة المكتوبة مقصورةً على طبقة اجتماعية مختارة . أتت المكانة المنسوبة لهذه اللغة صاحبة التراث الثرى أقوى من ترجمة العهد الجديد إلى الديموطيقية (عام ١٩٠٣) فأسفرت عن احتجاجات عنيفة . ومع ذلك ، فإن هذا الشكل للغة اليونانية قد أصبح ، منذ سنوات عديدة – مع فترة انقطاع تحت سيطرة الديكتاتورية الأخيرة – اللغة العامة للبلاد ، لغة التعليم والصحافة والأدب والحوار ، هكذا يمثل شكلا اللغة اليونانية صورتين رسميتين فى شكل طبيعى متناقضتين مع الأشكال الكلامية الإقليمية .

أما اللغات الوطنية كالفرنسية والإسبانية ، إلخ ، فقد كانت هدفًا لمجهودات تطبيع دائمة وواعية تسعى لضمان الوحدة اللغوية الضرورية المصحوبة بالحفاظ على الوحدة السياسية والثقافية . وبشكل متواتر أصبح هذا التطبيع فى أيدى السلطات الرسمية والأكاديميات التى تنحصر مهمتها فى السهر على ضبط اللغة (من ناحية الكتابة ، النظام الشكلى ، المفردات ، الاستخدام السليم ") . كما تقتصر مهمة المجامع اللغوية فى فرنسا وإسبانيا والسويد على السهر على اللغة بما تصدره من معاجم. ومجمع

اللغة الإسبانية ينشئ قنوات اتصال بينه وبين الأجهزة المناظرة والمعنية بالأمر ذاته في أمريكا الإسبانية قبل أن تخرج بأي جديد في مجال الكتابة (الضبط الكتابي) أو المفردات المعجمية . في أمريكا الإسبانية (اللاتينية) نرى اهتمامًا خاصًا بقضايا ضبط وتدقيق اللغة . والشعوب الإسبانية الأمريكية تدرك مدى أهمية الوحدة اللغوية والثقافية التي يكوِّنون جزءًا منها . وجميعها يتشكل طواعية وفقا للنماذج الخاصة بشبه الجزيرة الأيبيرية مع السماح لأنفسهم ببعض الزيغ الضروري الناجم عن الاستعمال والتطور الاستعماري . وهاهي فكرة خلق لغة أرجنتينية مستقلة عن اللغة الإسبانية التي يتحدثها أهالي مدريد ، مما أثلج صدور عدد من القوميين عام ١٩٠٠ ، قد توارت منذ أمد بعيد . أمَّا الأشكال الخاصة الأرجنتينية ، الشعبية والريفية ، فقد أصبحت مقصورةً على الأدب المكتوب بلغة الشعب (الجاوتشو) .

وها هي بلجيكا وكندا الفرنسيتان تحترمان مرجعية الأكاديمية الفرنسية والمعاجم الكبرى المنشورة في فرنسا . ولا يملك العالم الأنجلوفوني جهازا مناظرًا . أما المرجعية فالمؤسس لها هو استخدام المؤلفين وأهل اللغة وما تنص عليه القواميس والذين يضعون قواعد اللغة . وهنا نرى أن غالبية القواميس الكبرى المتضمنة للغة الإنجليزية تأخذ في حسبانها الآن الاستعمال السائد على جانبي الأطلنطي .

في السويد نجد المجمع اللغوي السويدي هو المسئول بداية عن رعاية اللغة . وإذا ما تشكك الناس في نطق كلمة ، أو في شكل إعرابي سليم ، أو ناحية تصريفية ، أو لفظة أو أخرى من الألفاظ الجديدة ، فمن الممكن لهم أن يستعينوا بالقاموس الصغير الصادر عن الأكاديمية اللغوية ، الذي تظهر طبعاته الشاملة ما يستجد من اللغة بصفة منتظمة . هناك جهاز رسمي – لجنة رعاية الألفاظ – يتابع تطور الاستعمال اللغوي ويقدم نصائحه عند الضرورة (على سبيل المثال ، الكلمات الجديدة التي يجب إدخالها في مجال العلوم والصناعة والتجارة) .

تبدو المشكلة أقل وضوحًا من خلال وجهة نظر عملية في المجالات اللغوية التي لا تحظى باستقلال سياسي ، ولا وجود فيها لجهاز رسمي يهتم بقضايا اللغة . مشكلة كهذه ما تزال قائمة على أرض مقاطعة مثل كتالونيا الإسبانية . فهناك ، مع ذلك ، أكاديمية للغة الكتلانية واستخدام محدد وثابت ، وخاصة فيما يتعلق بالقواعد اللغوية التي أرساها اللغوي الكتلاني الشهير فابرا Fabra وبصرف النظر عن وجود مرجعية أو سلطة سياسية لذلك ، نجد هذا الاستعمال يتمتع بمكانة ومرجعية ثابتة .

ولم تحظ أوكسيتانيا (في جنوب فرنسا) باستقلال ثقافي أو سياسي منذ العصر الوسيط . وبعد الاختفاء المتوالي لأدب العصر الوسيط المكتوب باللغة البروفنسالية (أدب ولغة الشعراء الجوّالين) لم تعرف اللهجات الجنوبية الفرنسية التعبير المكتوب – فضلاً عن التعبيرات المحلية – إلاّ مع النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر (ميسترال MISTRAL، رومانيلي ROUMANILLE) مما وجه إلى الاعتناء بتنظيم قواعد الكتابة والأشكال الأساسية للهجة المسيترالية . ومن المعلوم أنه قد تم تناول قضية لغة أوكسيتانية كتبت في الأيام الأخيرة جنبًا إلى جنب مع ظهور نهضة تهتم بلغات الأقليات لها تعبيراتها المعروفة في فرنسا وأماكن أخرى على حدٍ سواء . سنعود إلى هذا الأمر حين نتحدث عن ثنائية اللغة (الفصل العاشر) ، بقدر ما ينقص لغة إحدى الأقليات من ثبات الشكل (" الشكل الصحيح ") وخاصة المكتوب ، وبقدر ما يقتصر استخدامها على التعبير المحلي ، تفقد اللغة على مرأى من الأفراد الذين يتحدثونها المكانة التي تحتاج إليها كي تستخدمها إزاء منافسات اللغات الأخرى لها . حينذاك تتحوّل إلى قضية المتكلمين الراغبين في الحفاظ على لغتهم ، الكامنة في إنشاء القواعد وتحديد شكلها الكتابي .

يطلق مصطلح اللغات الاتصالية على تلك المستخدمة كوسائل اتصال خارج حدودها . فالإنجليزية ، بالتالي ، لغة ضمن إطار العالم الغربي ، تستخدم في

المناقشات السياسية ، الثقافية ، السياحية ، الرياضية وغيرها من قبل متحدثين يتكلمون لغات أصلية مختلفة . كما تقوم الإنجليزية بنفس الخدمة أيضا بين ربوع الأراضي التي تمثل المستعمرات الإنجليزية القديمة . وها هي قد استمرت كلغة رسمية بمفردها أو جنبًا إلى جنب مع لغة البلاد ، في بعض المستعمرات . والفرنسية قد خلقت لنفسها مكانة كبيرة منذ العصر الوسيط في الشرق الأدنى . وغدت مكانة اللغة أسمى بكثير في أفريقيا والمستعمرات القديمة . وفي أوروبا ، بدأ دور اللغة الفرنسية يتزايد من جديد مع تطور التعاون الاقتصادي . واللغة العربية تقوم بمهمة الاتصال في الشرق الإسلامي وأفريقيا . واللغة السواحلية هي الأهم في عملية الاتصال بين دول شرق أفريقيا . والهاوسا تقوم بدور مماثل في الغرب الأفريقي . وقد تحدثنا سابقا عن الدور الذي قامت به اللغة اللاتينية في أوروبا ، في العصور الغابرة والعصر الوسيط ، وكذلك فقد لعبت اليونانية دورها المماثل في شرق البحر المتوسط في أوائل عصرنا (أيام المسيح) وفي العالم البيزنطي وحتى الغزو التركي . وفي أمريكا الجنوبية وجدت الكينشوا والجوراني لغتا الاتصال إبان الفتح الإسباني .

من المهم التذكير بأن قضية المكانة والقيمة لهذه اللغة أو تلك لا يتم طرحها فقط في الدول ذات الحضارة الأوروبية ، أو غيرها ، والمجتمعات الطبقية المعقدة ، فهذه الآراء نفسها تطل برأسها على ساحة المجتمعات التي نعتبرها من خلال وجهة نظرنا مجتمعات بدائية. واللابيون الحضريون من سكان الأقاليم الريفية المنخفضة يعتبرون لغة البدو من سكان الجبال أرفع من لغتهم التي يتحدثونها . ودائما ما نسمع من فم أصحاب اللهجات أن اللهجة الفرعية بهذا الشعب أو ذاك " أفضل " من التفريعة اللهجية لغيرهما . وستكون هناك فرصة للحديث عن مظهر آخر لهذه الآراء التي تقيم ذلك عند الحديث عن الديجلوسيا diglosia " (الازدواجية اللغوية) في الفصل العاشر .

يتطلّب المجهود الهادف إلى تحديد تطور أية لغة في وجهة معينة أو غيرها مقومًا من أي نوع . بهذا الخصوص وُجِدَتْ في تاريخ علم اللغة اتجاهات متناقضة . فأهل القواعد الكلاسيكية ، الذين كانت تحكمهم الأفكار العقلانية التعليلية ، وجدوا في اللغة تعبيرا مباشراً (مرآة) للفكر الإنساني ، حيث غدت اللغة الأفضل هي التي تتبع بإخلاص تصريفات الفكر الإنساني المنطقي . واللغويات التاريخية ، وقت اكتشاف تغيرية اللغات ، رأت في ذلك نتائج لقوانين عمياء - تتشابه وتلك التي تحكم حركة التغيير في الطبيعة - والتي وقف الإنسان أمامها عاجزًا . وأمّا اللغة - الجهاز الحي - فقد واصلت مسيرتها التعسفية . كان هذا الاستعمال الناشئ عن مثل هذه التغييرية الآلية هو الاستخدام السليم والقاعدة الوحيدة لسلوكيات المتكلمين والكتاب . وكذلك فقد تحلَّت بالأفضلية أيضا تلك الأنماط الأكثر شيوعًا من حيث النطق والأشكال والقواعد النحوية .

ومع ذلك ، فما كان هناك قبول قط لمعدل بسيط باعتباره قاعدة فريدة ، حتى ولو لاحظنا ، في يوم سوق ، أن غالبية المتكلمين يقولون Costao بدون استخدام للحرف d الخاص باسم المفعول (حيث النطق والرسم الصحيحين هما Costado - (اسم مفعول من الفعل Costar بمعنى يكلِّف) فممَّا لا شك فيه أنه يتم رفض هذا النطق كطريقة سليمة (بل ومن المحتمل أن يأتي الرفض أيضًا من طرف من يتفوهون به) هذه الآراء أو الأحكام التي رأينا أهميتها على المستوى اللهجي تقوم أيضا بدور آخر على مستوى اللهجطبقي . الناس لا يقبلون شيئا في مادة الاستخدام اللغوي لمجرد أنَّ السبب الوحيد يعود إلى استخدام الأغلبية له . وهناك ما يسمى بعلم اللغات القواعدي Lingüística normativa والذي يعكس المظهر الاجتماعي لتفريعات وتنويعات اللغات . هذه اللغويات القواعدية تصبح مسئولية علماء المعاجم والنحويين وأهل ضبط النطق . في كل مجتمع لغوي هناك قواعد ، ظاهرة أو مضمرة ، معروفة حتى من قبل من

يسمحون لأنفسهم في استخداماتهم اليومية بخروج عن القياس بصفةٍ دائمة فيما يتعلق بنفس هذه القواعد . ولجوء الكاتب أو المتكلِّم إلى استخدام القاموس هو اعتراف بوجود قاعدة يودُّ أن يستعلم عنها حتى لا يغامر بارتكاب أي خطأ . ومن الطبيعي أن مثل هذه الحيرة تؤثر دومًا على لغة الكتابة أكثر من تأثيرها على لغة الكلام ومن جانب آخر ، فإن المناقشات العديدة الدائرة بين الفرنسيين حول بعض اعتبارات النطق والعدد المتزايد من القواميس الصوتية والكتب المختصرة عن ضبط النطق تعد دليلاً على وجود الحاجة إلى القواعد . اللغة ليست نبتة شيطانية . إنها نبتة مزروعة وهذه صفة ظلَّت تلازمها حتى في المجتمعات " المتوحشة " .

ومع ذلك ، فمماً لا شك فيه أن القواعد ، في اللغات ذات الثقافة المتقدِّمة ، التي لا تتبع بصورة جيدة ترجع إلى فروض قدَّمها النحاة الذين صاغوا ،على أساس من استخدام قائم ، قواعد ترجع إلى اعتبارات " منطقية " إلى أفكار نحوية سابقة الإدراك، اتجاهات تقدمية أو أخرى عفا عليها الزمان ، إلخ . وقد استخدم كتاب اللغة الفرنسية تلك الفروض التي قدَّمها بوجلاس Vaugelas في عمله : ملاحظات على اللغة الفرنسية (عام ١٦٤٧) كقواعد مرشدة طول الفترة الكلاسيكية . ولقد تحدثنا عن أهمية القواعد التي أرساها في مجال اللغة الإسبانية العالم نبريخا Nebrija، قبل ذلك بكثير . واللغات الأوروبية جميعها عانت ، في خطها ، من تأثيرات النحويين وقواعد النحو ذات الشأن الرفيع .

هل تأتي هذه الأعمال المعيارية (القواعدية) مسببة في نظر عالم اللغويات ؟ وتحت أية ظروف تتطابق مع نظرية ترى في اللغات بنايات من نوع خاص ؟ هانحن أمام سؤالين جديرين باهتمامنا الخاص . وقد أشارت إحدى نظريات دي سوسير DE SASSURE إلى مكان اللغة ضمن بناية اجتماعية أعم وأشمل . ففي رأيه ، إن علم اللغات كان يشكل جزءًا من السيميولوجيا ، العلم الذي يبحث في الإشارات ووظيفتها

داخل الإطار الاجتماعي . وقد تثبتنا من أن تعبيرية اللغات (الفصل السابع) - التي تبدو في ظاهرها غير قابلة للتصالح بما لها من طابع منهجي ووظيفة اتصالية - كان عليها أن تتواصل مع بعضها باندماجها التكاملي في بناية اجتماعية ديناميكية . وعلى ضوء هذا الاندماج التكاملي أيضا تتوقف كيفية فهم إمكانية وضرورة التدخلات المعيارية (القواعدية) وعالم اللغة ، بخبرته بمستويات اللغة المختلفة والاعتبارات الارتقائية ، يكون أكثر تأهيلاً من المتكلم العادي في اتخاذ قرارات تهدف إلى منع أي تجديد غير مرغوب فيه أو الحفاظ على أي فارق مفيد . هناك مسميات متجانسة اللفظ مختلفة المعنى تعرقل عملية الفهم . ولهذا فمن المهم الحفاظ على الفصل في النطق بين (brin/burn-dais-dé) حتى مع العلم بأن اللغة تخرج من أزمتها رغم وجود عدد هائل من الألفاظ المتجانسة في اللفظ المختلفة في المعنى : Homónimos . والمتكلمون يقبلون مثل هذه المعادلة : التجانس - الاختلاف رغم أنف عالم اللغة . ومع هذا ، فما من شك في أن الاتجاه بالنسبة للنطق داخل إستوكهولم ، من أجل إحداث لبس بين الحروف الصائتة التالية e/y/wfl (في لفظتي meta (الصيد بصنارة) و m?ta (يقيس) يضعف شيئًا فشيئًا تحت تأثير التعليم المدرسي وربما للهجات كلامية أخرى يتوافر فيها الفارق . ومن المتوقع أنه في مجال المفردات وخاصة بالنسبة لاختيار ألفاظ للمفاهيم الجديدة التي تعجُّ بها الحياة الحديثة تصبح نصائح المتخصصين هدفًا للاتباع بصورة أكثر احتمالا . هنا يمكن إدراك التأثير الذي تمارسه اللغة الإنجليزية على الفرنسية (الفرانجليز) بصورة أقوى . وفي هذا المقام أيضا يصبح المتكلم والكاتب العادي في حاجة إلى النصح ، حيث يصبح شعورهما التصحيحي أشد ضعفًا . ومن الواضح أن النطق يمثل الإطار الذي يكون الناس فيه أقل استعداداً لتسليم قيادهم للغير ، ومن جانب آخر حيث الموضة - التقليد غير الواعي للنماذج المحكمة المتميزة - تلعب دوراً كبيراً . في النهاية ، نجد أنه من المحتمل أن يكون فن الضبط الكتابي هو الجزء المنتمي إلى القواعد النحوية والذي يشعر فيه الفرد بصورة أكبر بوجوده تحت تأثير وتبعية القواعد الراسخة والقائمة .

تحدَّثنا (في الفصل الثالث) عن الأسباب المؤدية إلى وجود فروقات بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، وأشرنا إلى سبب من بين تلك الأسباب وهو التطور البطيء للغة المكتوبة . وإذا لم يتم إدخال تعديلات على قواعد ضبط الكتابة بالقدر الذي تتطور به لغة الحوار ، فستتسع الهوة ويصل بها الأمر في النهاية إلى قطع العلاقات . ومن المعلوم أن كل اللغات قد أفسحت المجال أمام مثل هذا التطابق بين الكتابة والنطق . وفي بعض اللغات أخذ مثل هذا التطابق يتدفَّق في مجال اتصال فسيح بين شكلي اللغة، على سبيل المثال ، فالإسبانية لها نموذج كتابي حيث نجد عملية النبر للكلمات مستمدة أيضا وبصورة مباشرة من الشكل المكتوب . واللغة الفنلندية هي مثال آخر لضبط الكتابة مثالي . هانحن قد أشرنا إلى الفرنسية والإنجليزية باعتبارهما مثلين لطرف آخر . وضبط الكتابة الإنجليزية يمثل على وجه الخصوص صعوبات لا للأجانب فحسب – وهذا أمر يجب مراعاته – وإنما أيضا لأهل اللغة أنفسهم، ويعد المظهر الاجتماعي لحالة الأشياء هذه أمراً جديراً بالعناية . وإذا ما كانت إجادة الكتابة تتطلب تدريباً مدرسياً طويلاً – خاصة إذا تم هذا الإتقان عبر تآلف مع لغات أخرى (بالنسبة للغة الانجليزية والفرنسية واللاتينية) – فإن الإجادة التامة للكتابة تتحوَّل إلى علامة فصلية مدرسية . وبذلك الفرد الذي يرتكب أخطاء في الكتابة يصبح غير مؤهل . وإجادة الكتابة السليمة في الفرنسية يعني معرفة جيدة بالقواعد . فاسم المفعول يتوافق في الفرنسية مع (objeto precedente) إذا ما أتى هذا في حالة المفعول المباشر acusa-tive، إلاَّ أنه يلزم حالة واحدة إذا أتى ذلك في حالة المفعول غير المباشر dativo : مثال : (elle's était rappelé pero elle's était Souvenue de L' histoire صعوبات من هذا النوع تفسر الاتجاه المتزايد نحو هجر اسم المفعول اللامتغير .

وضبط الكتابة المطبَّق على اللغة الحالية يُسهِّل تعلم الكتابة ويعمل بهذا الشكل على إزالة الفوارق الاجتماعية . أمَّا الكتابة التي عفا عليها الزمان فتُسهِّل الاحتكاك

بالأدب الكلاسيكي وبالفترات السابقة من الحضارة الوطنية . هذا أيضا عامل لا يجب أن يخلو من التقدير . في الحالتين يتعلق الأمر باختيارات هامة ، بقرارات يجب أن تتخذ على ضوء تقويمات غير لغوية(سياسية وثقافية) . بمقدور عالم اللغة أن يطرح المشكلات ، وأن يجذب الانتباه نحو المزايا والمساوئ لكلا الحلين . واتخاذ القرار النهائي مسئولية تُلقى على عاتق من يمثلون المجتمع . وفيما يتعلق بالضبط الكتابي بدأ رأى علماء اللغة يتغيّر مع المناخ العلمي . وعلى مرأى من علماء اللغة في بدايات القرن العشرين – الفترة التي بدأت فيها علوم الصوتيات الطبيعية Fonética اكتشافاتها الأولية الكبرى في مجالي السمعيات والتشريح المتعلقين بكيان الكلمة – كان لزاماً على لغة الكتابة أن تظل أقرب ما تكون إلى لغة الكلام ، التي اشتقت منها . وقد أتت الفروقات بين الوحدات الصوتية Fonemas والتباينات النسخية variantes ومفهوم التوفيق بين المتناقضين sincretismo غريبة على علماء اللغة . كما تمَّ اقتباس نظرية اللغة الخاصة بتلك الفترة - خاصةً ما يتعلق بتعبيرها – بشكل غير سليم كقاعدة لنظرية ضبط الكتابي . ثم أتت الصوتيات الوظيفة Fonología والمفاهيم التي أطلقتها لتغير هذا الوضع . بالقدر الذي تتبع فيه الكتابة لغة الكلام ، تصبح مصورة في شكل كتابة صوتية وظيفية : ومما قلناه في الفصل الثاني يستنبط أن الكتابة الصوتية تؤدي في الواقع إلى اللامعنى . حيث لا وجود لعدد الأصوات . وفكرة الصرف – صوتي – الوظيفي التي أدخلتها مدرسة براغ وطورها أهل النظرية " الشجرية " تعني مساهمةً هامةً في نظرية ضبط الكتابة . أما المشروع الخاص بضبط الكتابة الفرنسية الذي أقتراح قبل الحرب تماماً فقد استلهم من المبادئ التي ذكرناها هنا . وإصلاح الكتابة الذي أجري في السويد عام ١٩٠٦ كان على العكس تعبيراً عن موقف صوتي ولغوي لفترة سابقة . وبعض القرارات سيئة الحظ تعد شهادة بليغة على ذلك . والتعديل الأخير الذي أدخل على الكتابة الإسبانية كان يحمل في طياته إلغاء بعض علامات النبر الزائدة .

إذا كانت " الباتويس " Patois اللهجة الريفية القديمة في الاستعمال اللغوى اليومى ، لهجة ريفية لا مكانة اجتماعية لها وعليه فهى متناقضة مع اللهجة الكلامية الأكثر حيادية من خلال وجهة النظر هذه ، فإنَّ " الأرجوت " Argot هى الشكل الكلامى لجماعة اجتماعية : الطلاب : الفضوليون ، المجرمون، أفراد مهنة معينة ، إلخ . فى إطار ما تصبح كل مفردة نوعية ممثلة للهجة أرجوتية محددة ، أصبحت الكلمة وقد حلَّت فى جانبٍ كبير محل المصطلح العام " خيرجا Jerga (اللغة الاصطلاحية) وفقا لما ورد فى قاموس ليترى Littre (فى أواخر القرن التاسع عشر) فالأرجوت عبارة عن لغة "خاصة يستخدمها الصعاليك ، الشحاذون ، اللصوص ، وهى بالنسبة لهم ليست فقط غير مقروءة ولكن أيضًا نظراً لاتساع الرقعة التي يتحدث بها عليها تعد صياغة لفظية Fraseología خاصةً ، تقنية تقريبا ، ورائعة استخدمها الناس فيما بينهم وخاصة أولئك الممارسين لفن واحد ومهنة واحدة . ويتميز الأرجوت عن اللغة العادية خاصة بمفرداته (المفردات السرية فى بعض الأحيان) وإذا ما أتت الدلالات المنسوبة إلى مصطلح " أرجوت " فى أول الأمر فى شكل سلبى (العلاقة باللصوص والشحاذين) فانتشارها يسمح اليوم أيضا بتداعيات إيجابية (رائعة ، إلخ) وبغية الفهم الدقيق للأرجوت من المهم أن تلعب هذه اللهجة دورها فقط فى إطار المجموعة موضوع الحديث، ولا يقع ذلك قط بين فرد من أفراد الجماعة والخارج . بينما لا تعرف اللهجة الطبقية الاجتماعية مثل محددات الإستعمال هذه . ودائماً ما يخلط غير المتخصصين بين الأرجوت والشكل الكلامى الدارج ، الغافل أو الشعبى.الأرجوت هو شكل لغوى بنى وحوفظ عليه بإحكام وعناية بمعونة صافية شديدة . ومهما تكن الاصطلاحات سرية ، أو مرتبطة بضرورات تميزية نوعية لوظيفة معينة ، فى تغيير اهتمام أعضاء الجماعة يؤدِّى ذلك إلى: الحفاظ على المسافات تجاه غير المبتدئين والسماح بتحديدات دقيقة أساسية فى الاتصال الداخلى، واللغة الاصطلاحية هى تفريعة عن لغة أدنى تحديدا . إنها تتميز بعادات خاصة للجماعة إلا أنها تعبر عن موضةٍ أكثر من كونها حاجة

لتعبيرات محددة . وسرعان ما تتغيّر هذه اللغة الاصطلاحية . أما الأرجوت فعلى العكس من ذلك يفصح عن ثبات بارز . وبعض أشكال الأرجوت تحظى كذلك بانتشار عالمي (لغة المجرمين على سبيل المثال) ودائماً ما تدخل لهجات الأرجوت ولغات الوظيفة عناصر من مفردات أجنبية بعيدة عن اللغة العادية تصل إليها بفضل الاحتكاكات المهنية . وهاهو ماروزياو Marouzeau يتكلّم هو الآخر عن " مفردات طفيلية "إذ استعارت اللهجات الإسكندنافية والألمانية العامية على سواحل البلطيق العديد من المصطلحات البحرية . والأشكال الكلامية المعروفة باسم " بيدجين Pidgin (النيجريتو ، الفرانكية ، انظر الفصل العاشر) تمت جذورها إلى أرض المفردات المختلطة من هذا النوع .

يشير مصطلح " جلوسوبوليتك " Glosopolitica ، الذى أطلق فى السنوات الأخيرة ، إلى دراسة الإجراءات التى تتخذها السلطات لترتب تحت نظام تشريعى أو استشارى استعمال ونشر شكل لغوى مرغوب فيه . وكل تدخل من جانب السلطة الرسمية فى السلوك اللغوى للمواطنين يدخل فى دائرة اهتمام " الجلوسوبولتيك " (القانون الذى ينظم استعمال هذه اللغة أو تلك ، ضبط الكتابة ، الشكل اللغوى الذى لابد من استعماله فى الكتب المدرسية والمحافل الرسمية ، إلخ) الاعتبار "الجلوسوبولتيكى" هو الطريقة القانونية لتنظيم حقوق المجموعات اللغوية فى البلاد ثنائية اللغة ، فى بلجيكا ، وفنلندا وفى أدجى العليا بإيطاليا ، وهكذا دواليك وقد جاء منع استعمال اللغة الكتلانية فى منطقة كتالونيا(الإسبانية) خلال السنوات الأولى لحكم فرانكو داخلاً فى هذا الاعتبار " الجلوسوبولتيك " كما أن التعليم المدرسى يصبح أيضا هدفاً لإجراءات " جلوسوبولتيكية " وسوف نتعرّض فى الفصل العاشر لتناول مثل هذه الجوانب من المشكلة . ولنقل شيئا هنا عن الوضع الجلوسوبولتيكى فى الدول النامية ، وخاصة فى المستعمرات القديمة .

وقد ناقش اللغويون والسياسيون قضية اختيار اللغة الرسمية فى هذه البلاد . ونظمت مؤتمرات حول المشكلة والكتب المنشورة عن الموضوع عديدة ومتنوعة . فى بداية

الأمر تتعلق القضية باحتمالين " إما الحفاظ على لغة المستعمر (وخاصة الإنجليزية والفرنسية) كلغة وحيدة للإدارة والثقافة ، للتعليم ، إلخ ، مع الحفاظ على مكانة متواضعة للغة ، أو اللغات الأصلية ، وإمّا اختيار لغة البلاد وتطويرها بما يجعلها تؤدى دورها في كل الأنشطة الدائرة على أرض الأمة وتحل محل لغة المستعمر . والفائدة المحصلة من وراء الخيار الأول تكمن في أنه بهذه الصورة يصبح من الممكن الحصول على لغة وطنية تتوافق فعلًا مع مختلف المتطلبات السياسية والإدارية والفكرية . بهذا الشكل يتم الحفاظ أيضا على العلاقات المهمة مع المجتمع الدولي. ولغة المستعمر القديمة لا تضمن فحسب الحفاظ على الاتصالات مع السادة القدماء – وهو أمر من المحتمل ألا يعبر دائما عن الرغبة الأساسية لهذه الشعوب – وإنما تسهل كذلك العلاقات مع دول أخرى أوروبية وأمريكية ، إلخ. أما الضرر الأساسي فيكمن في أن هذه اللغة – الصعبة المنال بالنسبة لعامة الناس – تحافظ على تقسيم السكان إلى طبقتين اجتماعيتين وثقافيتين .

والصعوبات التي يطرحها الحل الثاني عديدة في الغالب . ففي المقام الأول ، لا يتعلّق الأمر ، في أغلب الأحوال ، بلغة أصلية وحيدة وإنما بلغات متعددة ، واختيار واحدة من هذه اللغات ، العديدة (توجد في نيجيريا أكثر من مائتي لغة) يعني آليًّا أن المتحدثين بهذه اللغة سيصبحون من المحظوظين والمفضلين على حساب الآخرين . والعداوة القائمة بين القبائل تزيد دائما عمليات رفض لغة الجيران . وهنا تفضل لغة المستعمر على لغة قبيلة معادية . والصعوبة الثانية تأتي في أحوال كثيرة من غيبة التراث المكتوب ، وضبط الكتابة ، وعلى وجه الخصوص غيبة الألفاظ الكافية لمتطلبات دولة حديثة . في الفصل التالي سنعرض للأسباب التي ، في رأى المؤلف ، تتحدث في صالح لغة أصلية كتعبير رسمي لمجموعة من السكان . هذه الأسباب من النوع اللغوي، النفسي ، الديموقراطي والعاطفي . وغالبية المتخصصين ، وفي رأيي إنّ المتحدثون

أنفسـهم ، قـد أدلوا برأيـهم على اتفـاق فى أن اللغـة الأصليـة - الأقـرب إلى الوسط الاجتماعي ، والحياة والتجارب وأحاسيس الشعب من أية لغة أوروبية - هي لغة مثالية إذا ما أمكن ، بمساعدة آلية توافقية ، أن نجعل منها وسيلة تعبير تكفى متطلبات المجتمع الحديث في بلدٍ ما . كما يوجد اتفاق أيضا على أنه ، فى حالات كثيرة ، يصبح أى مشروع مشـابه ، فى الوقت الراهن ، بمثابة اليوتوبيا (الوهم أو الخيـال) ومن الأفضل استخدام لغة المستعمر فقط فى انتظار النتائج التى ستسفر عنها مثل هذه الجهود .

ونتيجةً لذلك ، نرى أن أفريقيا ، كما فى الهند وباكستان ، ما زالت تشهد حفاظا على مكانة اللغة الاستعمارية ، على الدوام جنبًا إلى جنبٍ مع لغة أو عدة لغاتٍ أصلية . وما بمقدورنا حتى التصريح بأن بعض المشاكل التى أشرنا إليها آنفا بالنسبة لأفريقيا ، خاصةً ، لا يمكن أن تنطبق على دول ذات ثقافة قديمة مثل دول شبه الجزيرة الهندية . إنَّها الروح العدائية والدينية التى تمنع تعميم لغة أصلية واحدة كتعبير رسمى . كما أنه من الواجب أن نذكر بأن اللغة ليست سوى أحد العوامل المحددة للتقسيمات الكبيرة لشبه الجزيرة هذه التى يتعارض على أرضـها معسكر هند أوروبى (بلهجاته المنبثقة عن اللغة القديمة ومن بينها السنسكريتية التى ما زالت تحتفظ بمكانتها) ومعسكر غير هند أوروبى يتحدَّث لغات فيديانية Dravidanas (التـامول ، إلخ) فى الجنوب ، ومن ناحية أخرى يتعارض معسكر هندى مع آخر إسلامى .

والحفاظ المستمر على لغات المستعمرين فى البلاد التى نالت حريتها فهو بالإضافة إلى خطر التَّصور المحلى يؤدِّى إلى خلق هوة بين شكلين لغويين . وهناك تُحسُّ بعض النزعات فى هذا الاتجـاه على سـبيل المثـال ، ففـى نيجـيـريا لوحظـت بعـض الاعتبارات الداخلية، وأصبح هناك وجود لازدواجية لغوية جزئية ، تنتشر رويدًا رويدًا ، وتعمل على زيادة الغموض فى التركيبات اللغوية . ومن الملاحظ وجود تداخل فى

الإنجليزية النيجرية مثل a house is with me التعبير المساوى لآخر هو : I have house، حيث في التعبير الأول يصبح المعنى (منزل معى) بدلاً من استعمال التعبير الثانى الذى يعنى (لى منزل) ، وهذا تحويز لغوى يذكرنا بما يحدث فى لغات غير هندأوروبية، كالفنلندية ، إلخ ، وهو أمر أطلّ برأسه من قبل على اللغة اللاتينية . وفيما يتعلّق بالحالات التى تتحوَّل فيها لغة " بيدجنية " إلى لغة وحيدة لمجتمع ما ("كريويو ") فستأتى دراستها من جديد فى الفصل العاشر . ويعد مولد لغة استعمارية فى ثياب محلية مغامرة ربما تتمخَّض عن ثلاثة أنماط لغوية Trilingüismo فى الأدنى نرى اللغة أو اللغات الأصلية ، وفى الأعلى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية المشوَّهة وغير المفهومة خارج إطار البلاد التى تتحدَّث بها والتى تصبح بعيدة المنال أيضا لغير المتعلمين من أهلها ، وفى قمة الهرم نجد لغة تتمتَّع بمكانة سامية تحظى ، بفضل مكانتها المتميزة ، بنفوذ متقدم ومكانة لغة استعمارية سليمة (بناءً على دراسات جامعية فى الخارج) وتُحقِّر من شأن اللغة الاصطلاحية (الإنجليزية أو الفرنسية) المحلية .

تأتى المسئولية الملقاة على عاتق السلطات المكلَّفة باتخاذ قرارات ومواقف فى مثل هذه الأمور المعقَّدة كبيرة جداً . ويرجع التطور السياسى والاجتماعى والثقافى لهذه البلاد فى قدر كبيرٍ منه إلى الاختيارات التى ترتاح إليها .

يصبح حل مشكلة اللغة بلا شك أقل تعقيداً فى البلاد والأقاليم التى تشغل فيها لغة أصلية ذات انتشار واسعٍ مكانةً رفيعةً باعتبارها لغة الاتصال وحيث يمكن ، باختيار هذه اللغة لغة قومية ، إزاحةُ بعض الصعوبات التى أشرنا إليها هنا على الأقل. هذا هو وضع اللغة السواحلية فى شرق أفريقيا ، ، التى كانت فى الأصل " بيدجينية " وقد رأينا أن انتشار الهاوسا Hausa أتى بصورة متوازية فى غرب أفريقية ، دون أن تصل إلى حد اللغة الرسمية للدولة بأكملها ولغة اليوروبا youruba فى غرب نيجيــريا لا تحظى بنفس هذا الانتشار خارج حدودها ، إلاَّ أنها تتمتع بمكانة سامية فى البلاد

(في منافسة مع الأيبو Ibo) ومن المنتظر أن يحدث انتشار أدبي على جانبي الحدود بين نيجيريا وداهومي بحيث يسمح باتصالات أوسع بين أفراد نفس المجموعة اللغوية الذين فُرقت بينهم الحدود الاستعمارية الفرنسية - الإنجليزية التي تحولت إلى حدود قومية . رغم لغتهم الأم المشتركة ، فليس بمقدور هؤلاء المتكلمين إيجاد إطار للتفاهم فيما بينهم باللغة اليوروبية اللهم إلا عند الحديث عن الحياة اليومية (الزراعة ، الماشية، التجارة البسيطة) أما فيما يتعلق بالأنشطة الكبرى (السياسية ،الإدارية ، الفكرية) فهناك مجموعة تعتمد الإنجليزية ، وأخرى الفرنسية . وهكذا تمكّن الاستعمار من فصل وحدة واحدة إلى مجموعتين . وما هناك من شيء سوى تعميم اليوروبا يمكن له - والحال هكذا - أن يصلح ما تم إفساده .

الفصل التاسع

اللغة القومية - اللغة والحضارة - اللغة و"رؤية العالم"

فى مناسبات عديدة على صفحات الفصل السابق لمسنا مشكلة العلاقة الاتصالية بين اللغة والمواطنة هناك كثير من المبرِّرات الداعمة للزعم بأن الوضع المثالى يتحقَّق فى كون اللغة وسيلة تعبيرية لأمة من الأمم ، وأن مثل هذه اللغة لا يمكن التحدث بها إلاَّ فى داخل أطرها الحدودية القومية - أى داخل الوحدة السياسية - ومع ذلك ، فمن السهل التثبت من أن هذا المثل الأعلى لا وجود له فى أى مكان . المثال الوحيد فى العالم الغربى هو أيسلندا وليس فى أى مكان آخر . وحتى الدول الأوروبية الصغيرة التى تبدو للوهلة الأولى متجانسة لغويًا مثل هولندا والدانمرك والنرويج والسويد تبتعد عن هذا المثال بمسافة بعيدة .أمَّا النرويج فلها مشاكلها الخاصة التى سنتحدث عنها حالاً . وبين أرجاء البلاد هناك أقلية تتحدث اللابونية . كما أن هناك أقلية ألمانية بالدانمرك . وهولندا بها أقلية فريزونية (نسبة إلى جزر فريزون) أما السويد ففيها أقليات لابونية وفنلندية ، هناك أقلية مهمة سويدية فى فنلندا. والكتلانية هى اللغة القومية لجمهورية أندوراً Androrra الصغيرة ، إلا أنها تحظى بعددٍ وافر من المتكلمين بها فى إسبانيا وفرنسا .

كل الأمم الأوروبية الكبرى ، فى الشرق والغرب على حد سواء ، تحظى بوجود أقليات لغوية ، لها أهميتها أحيانا . فى بعض الحالات تصبح لغات الأقليات هذه لهجات بسيطة تختلف تقريبا عن اللغة القومية . بمقدورنا أن نواصل ما نعتقده بأن

الألمانية العامية عبارة عن مجموعة من اللهجات " الألمانية " رغم الفروقات الهامة بينها وبين الألمانية المكتوبة . واللهجات العديدة في الجنوب (بافاريا ، سويسرا ، النمسا) هي لهجات ألمانية حتى حين لا يتمكن متكلم من هوسبراخ من فهمها ، أو يفهمها بصعوبة بالغة . في حالات أخرى ، يتعلق الأمر بلغات مستقلة رغم ما بينها من علاقات مصاهرة ، مثل الأوكسيتانية أو الكتلانية في فرنسا ، والفرانكية – البروفنسالية في وادي أوستا الإيطالي أو الفريزونية في هولندا وألمانيا . في ظروف كهذه ، ما هو الفارق بين اللغة واللهجة ؟ حريٌ بنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال . والزج بمفهوم العرقية لن يقدم حلاً للمشكلة . أبمقتضى أي تعريف يمكن تصنيف النورماندية Normando على أنها لهجة فرنسية ، والأوكسيتانية في الجنوب أو الكتلانية في روسيلو على أنهما لغتان ؟ هاهم المؤرخون ومتخصصو المقارنات قد وضعوا معايير تعسفية بعض الشيء تسمح لنا بتصنيف هذه اللهجة تحت اللغة أ ، وتلك تحت اللغة ب من بين المعايير المختارة للتقسيم القديم لجاليا Galia الرومانية إلى مجموعتين (" أويل oil وأوك oc) ، بمقدورنا الإشارة إلى التعامل مع الحرف a اللاتيني على أنه مقطع منبور (تحول إلى e في الشمال في الفرنسية pré اللاتينية Pratum، الذي ما زال موجوداً بالجنوب) ، والحرف a في نهاية اللفظة (الذي تم إضعافه في e وأصبح بعد ذلك حرفا صامتًا في الفرنسية ، تم الحفاظ عليه أو تطويره إلى o في الأوكستيانية) ومعالجة الحرفين o-e المنبورين في مقطع مفتوح (المحول إلى ei أو oi، وينطق eu,ua على التوالي في الفرنسية ، والمحافظة عليهما أو معالجتهما بطريقة أخرى في الأوكسيتانية) وليس هناك من تحليل للأشكال الكلامية الحالية بمقدوره أن يسمح لنا باتخاذ قرار مطلق . كما أن وجهة النظر التاريخية ليست كافيةً .

نتحدث عن لغة أوكستانية (بروفنسالية) ، عن لغة كتلانية وعن لغة فريزونية لسبب بسيط هو أن مثل هذه الأشكال الكلامية تحظى بوجود لغة أصلية ، مكتوبة ، ذات مكانة . هذا إلى جانب ما لها من حضارة مستقلة تقوم على أساس من هذه

اللغات . والشعور الذى يحسُّ به المتكلمون تجاه هذه اللغات الأخيرة ، وتجاه التحدث بلغة مختلفة عن اللغة المكتوبة ، يعود إلى وحدة يرمز إليها عبر القاعدة والكتابة . فى بعض الحالات ، يأتى هذا الشعور محكومًا بالتجارب التاريخية (الغزو ، التحرير ، إلخ) أو بتطلعات استقلالية. ويرجع استقلال نورماندیا عن التاج الفرنسى إلى عهود غابرة لدرجة أن السكان لا يحفظون لذلك أى ذكرى مباشرة ، وما كان هناك وجود بأدب مكتوب باللغة النورماندية يتمتَّع بحساسية الحفاظ على الشعور بالاستقلالية اللغوية . نفس الوضع نراه فى مناطق أخرى من شمال فرنسا . فى هذا يكمن الفرق بين نورماندیا وروسيلو . يرى البعض أن الفارق بين الصربية والكرواتية ضئيل جداً ، ولكن للشعبين دينين مختلفين (الأرثوذكسية والكاثوليكية ، على التوالى) ويستخدمان أبجديتين مختلفتين (السلافية واللاتينية) ، وهذا يرجع إلى أسباب تاريخية معلومة . ومثال آخر لفارق كتابى يخفى ما يشبه ماهية اللغة تُقدِّمه لنا المولدافية Moldaviano – اللهجة الرومانية واللغة الرسمية لجمهورية مولدافيا الشعبية – والتى منذ ضم هذه المنطقة إلى الاتحاد السوفيتى ، عقب الحرب العالمية الثانية ، عادت لاستخدام الأبجدية السلافية (التى هُجِرَت فى رومانيا عام ١٨٦٠) .

نرى إذن مفهوم اللغة القومية ، فى أغلب الحالات ، هو مفهوم غير لغوى ، وخاصة من زاوية أن انتشار وصلاحية لغة هما نتيجتان لعوامل تلعب دورها فى المجتمعات وخارجة عن الآليات اللغوية الحقيقية . هكذا تتحوَّل اللغة القومية ، ضمن سياق إشارى أكبر ، إلى رمزٍ للوحدة السياسية (أو الثقافية أو الدينية والعرقية ، إلى آخره) وبصورة مماثلة ، تتحوَّل لغة الأقلية فى سهولة تامة إلى رمز الشعور بالاستقلال ، سواءً أكان قائمًا فى إطار سياسى أو ضمن خلفية دينية واجتماعية وتقليدية تراثية أو غيرها . هكذا نرى أن لغة الأقلية تستخدم أحيانا رمزًا للإقليمية حتى من قِبَلِ أفراد يجهلون بدورهم لغة الإقليم . هناك من الأسباب القوية الداعية إلى الشك فى أن كل البريتونيين الذين يطلقون على مدنهم أسماء بريتونية هم كذلك حقًا . هناك أمثلة للغات الأقليات لا

علاقة لها باللغة القومية (اللغة الباسكية فى فرنسا وإسبانيا) أو أنها ترتبط معها بعلاقة نسب غير مباشرة (البريتونية فى فرنسا ، الألمانية السلفونية فى إيطاليا ، السلافية فى النمسا ، اللغات العديدة للأقليات فى رومانيا ، إلخ) فى أيرلندا ، التى استقلت منذ عام ١٩٢٢نجد اللغة الغيلية Gaélico جاءت ممثلة لرمز القومية السلتية حتى رغم تأخر ميلاد اللغة الأصلية؛ كى تصبح قادرةً على الحفاظ على هذه الغيلية أو إعادة بنائها باعتبارها اللغة العامة للسكان . من المعلوم أن الأيرلندية لا يتم التحدث بها إلاَّ فى المناطق الريفية فى غرب الجزيرة ، وأن غالبية الشعب لا تستخدمها . هى لغة قومية يتم الحفاظ عليها بصورة مصطنعة إلى جانب نشرها على أساس من قيمتها الرمزية . والمدارس تدرسها بصورة إلزامية .

فى فرنسا ثُبِّتت اللغة القومية دعائمها بشكل نهائى فى الفترة الكلاسيكية . ومما لا شك فيه أنه قد أجريت عليها تعديلات لاحقة . لقد رأينا أن النطق اللاحق للحرف r قد تمَّ تعميمه فى أواخر القرن التاسع عشر. والنطق الحديث للمجموعة الكتابية – oi – بصورة – ua– لم يتم تعميمه إلاَّ مع قدوم الثورة . واستخدام الماضى المستمر لصيغة الإنشاء اختفى تماما من اللغة الحديثة ، هذا بالإضافة إلى استخدام الماضى التام فى لغة الحوار بشمال البلاد . وبعض استخدامات الصيغ تم تحديدها عقب القرن السابع عشر . والآن لم يعد هناك قبول، مثلما كان فى عهد موليير ، لاستخدام الصيغة الإنشائية بعد Croire (يعتقد) فى حالات الإثبات ، وهكذا دواليك . ولكن فضلا عن المفردات ، والتى تأتى صورها الجديدة كما هو الحال دائماً نتيجة تغييرات تطرأ على الأوضاع الاجتماعية ، فإن نظام اللغة الفرنسية ما زال مطبقًا تقريبًا بنفس الطريقة التى كان عليها منذ قرون، ويستخدم كقاعدة لكل المتحدثين باللغة داخل فرنسا وفى المناطق والبلاد التى تتحدَّث الفرنسية مثل سويسرا وبلجيكا وكندا وغيرها من البلدان .

أما الوضع فى إيطاليا فرأيناه مختلفًا تمام الاختلاف حيث أصبحت القواعد الواجبة الوضع هدفًا لنقاش كبير ، كما كانت قاعدة اللغة القواعدية (الأدبية والرسمية)

هى الفورينتية ، إلا أنه مع تزايد أهمية العاصمة عقب الوحدة ، غدت لغتها ، بملامحها المأخوذة من لهجة رومانية(الرومانيسكو) تمارس سلطانها الذى أخذ يتزايد ويقوى رويداً رويداً على اللغة القومية (لغة توسكانية بلسان روماني ") في دول أمريكا الجنوبية التي تتحدث الإسبانية ، نجد أن مفهوم مصطلح القشتالية Castellano، في زمن آخر ، وفي أصله بإشارته إلى اللهجة التي تحولت إلى لغة رسمية ، قد حلَّ محل مفهوم اللغة القومية كتعبير عن الدور الذى تلعبه هذه اللغة كرمز للعديد من الأمم . وأما مصطلح " الإسبانية " للإشارة إلى اللغة فلم يكن له وجود شعبيٌ قط فى تلك القارة الأمريكية .

اتخذ الصراع في سبيل لغة قومية " خالصة " شكلاً هامًا في النرويج ، والبلاد التي فقدت إستقلالها السياسي في العصر الوسيط ، كانت خاضعةً للدانمرك حتى عام ١٧١٤ الذى أصبحت فيه النرويج ، نتيجة للحروب النابوليونية واختيار جيان بيرنادوت أميراً ملكيًا للسويد ، تابعة للبلد المجاور، ثم كوَّنت معه اتحاداً تم حله عام ١٩٠٥ . إبَّان الفترة الدانمركية ، تحوَّلت الدانمركية إلى اللغة الرسمية للبلاد كما تحوَّل شكل من أشكالها ، المنطوق على الطريقة النرويجية ، إلى لغة لعلية القوم وأهل المدن، هذا إلى جانب صياغة أعمال كبار الكتاب(مثل إبسن IBSON وبجرسنون BJORNSON بهذه اللغة الأدبية " الدانمركنرويجية " ومع ولادة القومية النرويجية وأولى الحركات المناهضة للدانمرك ، التي تحولت فيما بعد إلى حركة مناهضة للسويد ، تحوَّل الطابع الدانمركي للغة الرسمية – المختلف كثيرا عن الأشكال الكلامية المحلية واللهجات السائدة في الأقاليم المختلفة – إلى عامل سخطٍ وإلى رغبة في الحصول على لغة قوميةٍ تقوم على أساس لهجي أكثر تحدثًا .

في المقام الأول نجد أن النرويجيين يدينون للكاتب إيفر أسين Ivar Asen بإبداع هذه اللغة التي ، دون تمثيل لهجةٍ معينةٍ ، غدت قريبة جداً من روح الغالبية العظمى باعتبارها القاسم المشترك بينهم . من هذه اللغة الأدبية القائمة على قاعدة شعبية

انبثق الشكل النرويجي الذي أطلق عليه بداية (اللاندسمال Landsmal) وفيما بعد أصبح يعرف " بالنينورسيك " أي النرويجية الجديدة – والمناقض لما عرف باسم الريسكمال Riskmäl – أي لغة الأمة – أو " بوكمال bokmäl – أي اللغة المعتمدة على الكتب – لم تكن اللاندسمال اللغة الأم لأية مجموعة ، إلا أنها أصبحت كذلك بفضل إدخالها في العملية التعليمية ، وانتشارها في الأقاليم والأوساط التي شاعت فيها هذه اللهجة ومع هذا ، ظل البوكمال لغة الكلام والكتابة في غالبية المدن وخاصة في العاصمة والمنطقة الجنوبية الشرقية . في التعليم الابتدائي ، تتكفل البلديات بتحديد اللغة التي سيتم تدريسها . وفي المعاهد ، يتم تعليم لغتين ، وفي المرحلة الثانوية يصبح كل مرشح ملزم بالكتابة التحريرية مستخدماً اللغتين القوميتين .

يبدو الصراع اللغوي النرويجي ، الذي أخذ من حين لآخر طابعًا سياسيًا واضحًا ، في شكل ظاهرة يمكن فهمها بداية من الظروف الخاصة بالبلاد قبل وبعد التحرير ، صراع يعكس تناقضًا بين مجتمع مدني تشكل ضمن الإطار الموروث منذ العهد الدانمركي ومجتمع إقليمي تمتد جذوره عبر أرض اللهجات والتقاليد والإقليمية والشعبية . كما أن جغرافية البلاد تأتي لتفسر في جانب مثل هذا التقسيم هذه الازدواجية اللغوية النرويجية ، هي إذن من الأمور الغريبة والهامة في إطار أن اللغتين المتواصلتين والمتنازعتين متقاربتان ومتفاهمتان تمامًا فيما بينهما وأن الفارق لا يؤثر في البداية إلاَّ في القواعد النحوية والمفردات . وأما الصوتيات الطبيعية فهي عامة واحدة . وما جرى منذ إبداع " النينورسيك " منذ قرن ونصف ، هو نوع من التقارب بين شكلي اللغة . أما اللغة التقليدية القديمة ذات الأساس الدانمركي فقد تعرَّضت لتعديلات قوية في مادة ضبط الكتابة والصرف . وتختلف في الوقت الراهن اختلافًا واضحًا عن الدانمركية . كما بدأت أشكال التعديل تلحق لغة كبار الكلاسيكيين في اتجاه تشابه كبير مع الشكل الحالي للغة الكلام المتداولة .

توضح حالة اللغة النرويجية بجلاء تام كيف أن لغة قومية يمكن أن يشعر بها الناس رمزًا لماهية الشعب بالدرجة التي يصبح معها الشكل التقليدي ذو القواعد الراسخة مرفوضًا من جمع كبير من المتكلمين بسبب بعده عن الأشكال اللغوية الأصلية والشعبية كي تصبح مقبولة كتعبير شفهي ومكتوب للأمة . وإذا فهم ذلك من الناحية النفسية ، فمن ناحية أخرى يصبح من الطبيعي قيام من نشأ من المتكلمين في ظل "البوكمال" بإعتبارها وسيلتهم الوحيدة والرئيسة للتعبير التي يرفض التخلي عنها لصالح شكل لغوي آخر يقوم على أساس من اللهجات الريفية التي يجهلونها . وهذا الوضع اللغوي النرويجي يبدو غريبًا وغير معقول أمام أعين الأجانب . إنه وضعٌ فريدٌ من نوعه . لكننا لا نرى في النرويج أو خارجها أية إمكانية لحل فوري ، حتى لو بدأ الوقت يلعب دورا في اتجاه تقليل الفروقات بين الشكلين اللغويين المتنافسين .

اللغة والحضارة تتطوَّران بصورة متوازية . والتقدم الحضاري : الثقافي والاجتماعي يعني تطابق اللغة مع المتطلبات الجديدة الناشئة ومن ناحية أخرى ، تنعكس مثل هذه الأشكال التقدمية في اللغة. وقد تحدثنا عن صعوبة استعمال لغة أصلية ، في الدول النامية الجديدة ، لا تتمشى مع النظام المفهومي للمجتمعات الحديثة، فقط بعد مجهودات عدة وفشل متتالٍ يصل المتكلمون للهجة ما ليجعلوا منها وسيلة تعبير كتابي ولغة لها حساسية في أداء دورها في المجتمع المتقدم . بمقدورنا أن نتابع في أقدم الآثار الأدبية الفرنسية في القرنين العاشر والحادي عشر كيف أنه ، في بعض العصور ، بداية من النصوص المتواضعة (La Cantiléine de Sainte Eulalie جوناس (يونس) ، والأكثر تطورا ، مثل : La vie de Saint Alexis) تم التواصل إلى إنجاز تعبير أدبي ذي قيمة عالية : La chanson de Roland ، جاء هذا التطور ثمرة ميلاد الإمبراطورية الشارلمانية التي اتخذت من اللاتينية لغة رسمية لها كما سادت الازدواجية اللغوية بين أفراد الطبقة الحاكمة ، بما فيهم الإمبراطور (مع وجود الفرانكية والرومانية ، أو الفرنسية) .

ان نرسم هنا ذلك التطور الكبير الذي بدأ، انطلاقا من هذه القواعد اللغوية والسياسية ، يصب في الفرنسية الكلاسيكية للقرن السابع عشر وفي الوضع القيادي لفرنسا داخل أوروبا . هذا دور قام به مؤرخو اللغة والأدب الفرنسيون وخاصة البارزين منهم . ولكننا سنتوقف عند أحد مظاهر اللغة الفرنسية الذي أغرى بالكتابة عدداً كبيراً من الأقلام ، بسبب الوضع القيادي لفرنسا داخل أوروبا ، تحوّلت الفرنسية، بدلاً من اللاتينية ، إلى لغة الاتصالات والاحتكاكات السياسية والثقافية ، إلى اللغة الأجنبية الأولى لغالبية الدول الأوروبية وإلى لغة الحوار والكتابة في المجتمعات الراقية لتلك البلاد، في بلاط فيديريكو الجراندي ملك بروسيا وبلاط جوستابو الثالث في السويد – صهره – وفي بلاطات روسيا وإيطاليا وغيرها .

لقد تشكلّت الفلسفة العقلانية وأفكار ديكارت وباسكال في قالب فرنسي ، أي باللغة التي تطورت كأداة فكرية عند بورت – رويال PORT ROYAL ووفقا لنظريات المقعّدين النحويين من ذوي المراكز المرموقة (مثل أرنولد ولاستلوت) . والحركة الفكرية، التي أُعتبرت على مدى سنوات طويلة ملمحًا خاصًا باللغة الفرنسية ، ترجع إلى تلك الفترة . وسط هذا المناخ اللغوي والفكري تولّدت أفكار الفوقية والتميز للغة الفرنسية ، إضافةً إلى وضوحها وطابعها المجرد . والمدائح التي وجهت إلى الفرنسية على يد ريبانول Rivanol (عام ١٧٨٤) بنيت على أساس من نفس تلك الأفكار . حين نشر المشتغل بالدراسات الرومانية الدانمركية بروندال في مؤلفه : " الفرنسية لغة مجردة" (١٩٣٧) ، ونظيره السويدى ميكالسون في عمله " اللغة الفرنسية " (عام ١٩٤٤) مميزات اللغة الفرنسية ، كان من الضروري البحث عن مصدر إلهامهما ، رغم الفارق الزمني ، في مثل تلك التي أشرنا إليها آنفًا . اللغة الفرنسية لغة تفوق غيرها في الناحية التجريدية ، أوضح من غيرها " فما ليس بواضح ، ليس بفرنسي " وها هو أحد كبار المدافعين عن اللغة الفرنسية في عصرنا – بمقتضى وظيفته الشخصية –

مـارك بلانكبـاين (أمين عام التحـالف الفرنسى) يكشف اللثام أخـيراً عن غمـوض الأفكار التي تقف وراء مثل هذا المفهوم عن اللغة الفرنسية .

لغة كهذه لا هي بالأوضح ، ولا بالأكثر منطقية ، أو أكثر تجريداً من غيرها . فكل لغة تسمح - شريطة حيازتها لعدد كاف من المفردات - بالتعبير عن أفكار أكثر غموضاً وأخرى أشد وضوحاً ، والأكثر منطقيةً والأشد بلاهةً ، الأكثر تجريداً والأشد تحديداً . وإذا ما ظهرت أعداد كبيرة من الأعمال العلمية والأدبية الفرنسية في شكل واضح ومنطقي للغاية ، وذات بنية منسجمة في جملها وصيغة نحوية متطابقة مع المضمون ، فإن ذلك كله يرجع إلى أن التراث الأسلوبي الذى ظهر على الساحة إبَّان فترة الفلسفة العقلانية مازال يترك بصماته على الفرنسية المكتوبة ، ويحدد حتى يومنا هذا صورة قواعد تناقلتها أجيال من المفكرين الفرنسيين عبر التعليم المدرسي والجامعي . وبالقدر الذى يفقد فيه هذا التراث قوته اليوم ، تبدو مظاهر استعمال اللغة الفرنسية ، بما فيها الشكل المكتوب ، أكثر استقلاليةً عن هذا التراث وأقل رعايةً على مرأى من المدافعين عن هذا الرأى الأخير . وبعض الكتاب يحدد بطريقته اللغوية معالم القطيعة الواعية مع التراث الكلاسيكي ، وأحيانا مع المجتمع الذى ترعاه الفرنسية كلغة ، كمجموعة من الأدوات التعبيرية ، ما زالت على حالها لم تتغير . أما ما تغير فيكمن في النماذج الأسلوبية - أى الاختيار بين احتمالات متعددة - أو بالأحرى ، تستبدل هذه النماذج بأخرى . وما يتحدث عنه كل جيل قديم من انتكاسة اللغات الشهيرة إزاء الشكل الكتابي والكلامي الذى يستعمله الشباب ربما لا يتمثل إلا في تعديلات من هذا النوع .

ومع هذا ، ورغم وجود هذه الفكرة ، نود أن نوضح بأن تغيير النماذج الأسلوبية والقواعد النحوية لا يجب أن يختلط بالتخلص من كل القواعد وإزالة كل أساس . فاللغة لا يمكن لها أن تؤدى دورها إلا بناءً على مثل تلك القواعد . والتغييرات التى تطرأ على هذه النماذج ، بنفس الدرجة التى يتم بها الحفاظ عليها ، هى من صنع بعض الرجال

من أولي العزم والقوة والمكانة : الكُتّاب ، النحويون الصرفيين ، رجال التعليم ، التخلص من القواعد والإطاحة بها يعني بالضرورة إضعاف موقف اللغة وإمكانياتها الاجتماعية والسياسية . اللغة التي تتفكك إلى تفريعات إقليمية واجتماعية ولغات اصطلاحية مختلفة تتخلى عن الوفاء بوظائفها في مجتمعات تفوق المجتمعات الصغيرة التي تتكلم - أو تكتب بنية محددة - هذه الأنماط من اللغة . إنها الأخيرة السابقة على فنائها . وهذه التفريعات لا تتمتع بمكانة ضرورية من أجل بقائها . هناك العديد من اللهجات التي توارت عن الوجود بهذه الطريقة والوضع القوي والطابع المتجانس الملحوظ جيداً للغة الإسبانية على الأراضي الأمريكية يرجعان إلى وحدة الأشكال الكلامية الإقليمية القائمة ، في نفس وقت وقوع الغزو ، عبر القواعد النحوية التي أرساها نبريخا Nebrija .

وأخيراً ، فلا بد من أن نوضح الفروقات التي بالإمكان ملاحظتها بصورة قوية بين اللغات من جهة الوضوح وميزة التجريد للمسئولين عن النحو والأسلوب ونشرهما ، كما يجب البحث عنها أيضا في المثل العليا التي تحكم الطريقة المنظمة للغة قبل البحث عنها في الأبنية اللغوية . وشرح هذه الفروقات ، إذا كانت حقيقيةً ، يجب البحث عنه في المجال التربوي قبل اللغوي . والقواعد تتغير بالقدر الذي يقبل به أولئك الذين يملكون السلطة الظواهر الجديدة (الألفاظ الجديدة ، العامية ، الإقليمية ، الاقتباسات ، إلخ) ويستخدمونها في أعمالهم أو يوصون بها في القواميس والقواعد النحوية التي هي نموذج لجماعة الناس والمدارس . في الوقت الذي يتم فيه إدخال الأسلوب الشرطي المستخدم في جملة الشرط التابعة باستخدام إذا في الأدب الجيد ويصبح مقبولا كإمكانية في القواعد القياسية ، تصبح الدورة " لغة فرنسية جيدة " يقال ذلك منذ أمد بعيد . وتطور اللغة إذن ، وخاصة القومية ، يأتي نتيجة تفاعل عاملين يعملان في اتجاه معاكس : الاتجاه الشعبي والتجديدي وتدخل السلطات لرفض أو قبول التجديدات وفقاً لذوقها ومثلها العليا . والخطوط الخاصة بالمخطوطات القديمة تبرهن دائماً على أن

العامية التي نعتقد حداثتها يمكن أن تعود إلى العصر الوسيط . وربما وجدت في لغة الكلام دون أن تتمكن قط من الدخول في القاعدة ، أو حتى كتفريعة أسلوبية . وعدم نطق الحرف l في لفظة ll حين يأتي قبل حرف ساكن لابد أن يكون راجعًا إلى اعتبار واقع في العصر الوسيط بناء على الرسومات العديدة (الخالية من الكتابة) واختفاء صيغ الجمع من التصريف السويدي للأفعال – التي تم التصويت عليها منذ سنوات قليلة في البرلمان الخاص بالأعمال الرسمية – يرجع لزوما إلى العصر الوسيط ، بناء على " الأخطاء " الواردة في المخطوطات المحفوظة .

وجاءت عمليات الإصلاح الكتابي في السويد عام ١٩٠٦ مسبوقة بفترة قام فيها بعض الكتاب وعلماء اللغة بتطبيق التبسيطات التي تم تقنينها فيما بعد . وقد أدخل علماء اللغة في شيلي في أواخر القرن التاسع عشر بعض التبسيطات الكتابية (مثل jente – ناس – بدلا من كتابتها بالحرف g = gente ، إلخ) والتي سرعان ما تم هجرها تحت مسمى الوحدة الإسبانية .

ليس هناك من شك في أن علم اللغة بمساعدة التحاليل البنيوية ، اللغوية الاجتماعية ، الجلوسوبوليتيكية والتاريخية ، بمقدوره تقديم يد العون في حل المشكلات المتعلقة بإرساء قواعد لغة قومية والحفاظ عليها لغة قادرة على القيام بدورها كوسيلة تعبير عن الأمة ، أو عن عنصر ما . وتأتي قضايا النقاء والتأثيرات الخارجية هامة جداً بالنسبة للحياة الفكرية لشعب من الشعوب ونحن نعلم أنه حتى اللغات ذات الثقافة القائمة على أساس متين كالفرنسية تواجه صعوبة في مواجهة التحديدات التي تهدد تماسك بنيتها الموروثة . يعد الجانب المعجمي ، وخاصة فيما يتعلق ببناء المفردات بيئة صالحة لإدخال متواصل للبنى الخارجية عن النظام : Parking , Self - Service . أما العالم اللغوي ، فليس بمقدوره – وما يجب عليه ذلك – استشراف قواعد مطلقة لقبول أو رفض العناصر الأجنبية والمفردات الجديدة والتقية الخالصة كتلك التي نراها في أيسلندا ، حيث المفاهيم الأكثر شيوعا في مجال الاتصال الدولي (الهاتف ، التلغراف،

البريد ، الراديو) ولها أشكالها الأيسلندية الخالصة ، لا تعد أمرا مُفضّلا ، وكذلك فليس السماح المطلق بلا نقد أو تدقيق للعناصر القادمة من كل حدب وصوبٍ ، والتى دائمًا ما تخلق استخداما مزدوجًا مع مصطلحات موجودة فعلا .ومع ذلك ، فبمقدور العالم اللغوى ، أن يعمل مرشدا للسياسيين فيما يتعلق بالمجال اللغوى ، خاصةً فى الحوارات حول الأشكال الواجب تحديدها للغات الوطنية (فى مجال ضبط الكتابة ، والمفردات ، إلخ) إنه دائمًا ما يلعب دورا هامًا فى إرساء قواعد النماذج .وأيدلوجيته الخاصة هى الدعامة التى يختار على أساسها . هذه الأيديولوجية لم يتم الحفاظ عليها متماثلة على مر العصور . وميل المتكلمين والكُتّاب لمواصلة أو رفض النماذج المحددة يتنوع مع مواقفهم الشخصية والمناخ الاجتماعى والفكرى والسياسى للمجتمع، وعلى القارئ أن يدرك أن مواقف علماء اللغة تجاه مثل هذه القضية قد تطورت ، منذ سيادة المذهب العقلانى عن طريق المذهب القياسى والآخر التاريخى وحتى الحركات الحديثة المختلفة (البنيوية ، اللغويات الاجتماعية والجلوسوبولتيك ، إلخ) بحيث تعطى بعض المراحل انطباع الثورات . وأخيرا باستطاعة عالم اللغة أن ينبه إلى الآراء المبتسرة والأهواء فى مجال اللغة والأفكار المسبقة حول غلبة لغة على أخرى .

على ضوء ما أوضحناه من اعتبارات يصبح من الضرورى تناول قضية العلاقة بين اللغة والحضارة بنفس المعيار . وإذا ما كانت هناك لغة تعكس الحضارة والمجتمع اللذين تخدمهما كوسيلة تعبيرية ، فهذا يتأتى بفضل توافقها مع الضرورات التى أوجدها هذا المجتمع وهذه الحضارة ، وأيضا إلى ما تحوزه السلطات القائمة على أمر المفردات من وسائل ، والقواعد النحوية وضبط الكتابة بغية تحقيق تلك المواءمة . ومن المعروف أن الضرورة قد دعت فى ألمانيا الشرقية إلى خلق مفردات ولغة اصطلاحية سياسية للردّ على العديد من المفاهيم التى كانت غير معلومة من قبل – ودائمًا كانت تتعلق بنماذج روسية – وغير مفهومة فى ألمانيا الغربية حيث لا وجود لمثل هذه الأحداث موضع الكلام فيها .قد تحوَّل تحليل التجاوب بين الكلمات و" الواقع " الذى تعكسه –

والذي بدأ على ضوء التجارب الحديثة – في عصرنا إلى مقابل للحركة اللهجية المنطقية المعروفة باسم "كلمات وأشياء " في العشرينيات من القرن العشرين للغة والثقافة الريفية . والفروقات التي تلاحظ دائمًا بين اللغات ، من خلال وجهة نظر المنطق ، والوضوح والتجريد هي في الواقع فروقات بين الحضارات أو – في رأينا المتواضع – بين القوى ذات الميول الأيدلوجية العديدة التي تشكِّل في مجملها تراثًا اجتماعيًا وثقافيًا وفكريًا . والخصائص المحددة التي أود نسبتها إلى اللغة الفرنسية هي ، في رأينا ، انعكاس لتراث فكري تمتد جذوره إلى الكلاسيكية والفلسفة الديكارتية . لابد من الخروج من عباءة الحدود التي تفرضها اللغة للتعرف على قضاياها وبواعثها .

هانحن قد تمكَّنا من إثبات إلى أي درجة تصبح أية لغة – في الحقيقة لكل لغة مكونها الاجتماعي بصورة أو بأخرى – تحت تأثير تبعية الاعتبارات الاجتماعية والروحية للجماعة . يبقى لنا أن نناقش القضية العكسية : تأثير اللغة على الفكر وبالتالي على القواعد والتقاليد الاجتماعية والثقافة للعنصر البشري . لقد رأينا (في الفصلين الخامس والسادس) من ناحية أن مضامين الإشارات (بوصفها اعتبارات سيميولوجية بنيوية واعتبارات سيميوطيقية محددة من الناحية السياقية) تخضع لتقاليد اجتماعية وتختلف من لغة إلى أخرى . كما رأينا أيضا ، من جهة أخرى ، أن الأبنية التي ترد خارج اللغة بهذا المعنى الدقيق تسمح بربط الاعتبارات المضمونية بالعالم الخارجي عن اللغة وأن الإنسان لا يحسب حسابه في هذه الضرورة العلاقاتية ويصبح بأي ثمن عبداً لما تفرضه عليه لغته ، بالإمكان الخروج عن حدودها .

وفكرة تعسفية الإشارات هي المسئولة عن الفلسفة التي ترى في اللغة " رؤية العالم " الخاصة بحضارة معينة، ومن المعلوم أن مثل هذا الفهم للغة يعود إلى هامبلدت HUMBOLDT وكانديلاك CONDILLAC، ثم عاد للظهور مرة أخرى على يد دي سوسير DE SAUSSURE وغيره . كما تم طرح القضية الباحثة عن معرفة ما إذا كانت الفلسفة الغربية ستحتفظ بنفس الصورة التي هي عليها لو لم تكن اليونانية لغة أرسطو أم لا .

من تأملاتنا السابقة نستنبط أن هذه الفكرة ليست معقولة وأنه من المعقول تماماً التفكير في أن مفاهيمنا والعلاقات القائمة بينها قد وردت إلينا بقدر كبير مع بناء العالم الذي ورثناه عن طريق لغتنا . ونستشف أيضاً ، حين نأخذ في اعتبارنا التشابهات بدلاً من الاختلافات السطحية ، أنه من المشروع تماماً افتراض كيانات أساسية داخلة ضمن تعبيرات تبدو ، لأول وهلة ، متناقضة وغير متصالحة . لقد وصلت الشعوب الأوروبية إلى كيان ذي بنية اجتماعية وثقافية وفكرية جيدة رغم الاختلافات الكبيرة بين اللغات التي يستخدمونها والتي من بينها مجموعة من اللغات (كالمجرية والفنلندية والأستونية والتركية) لا تنتمي حتى إلى اللغات الهندأوروبية . ولم يمنع تباعدها اللغوي هذا اندماجها في الجماعة الفكرية الأوروبية وبالقدر الذي لم يتحقق فيه هذا الاندماج، من المؤكد أن ذلك لم يكن راجعاً لسبب في اللغة ذاتها . ففي فنلندا، يتم التعبير عن الحضارة بلغتين في نفس الوقت تختلف إحداهما عن الأخرى من الناحية البنيوية .

لقد أوليت في هذا العمل اهتماماً كبيراً لظاهرة أطلق عليها "سلطان اللغة على الفكر" وما من شك في أن الاعتبارات اللغوية تعمل دورها في التأثيرعلى وجهة أفكارنا وأن الدعاية والشعر يستفيدان كثيرا من هذا الأمر . ومن المعلوم أن الشكل الوظيفي للكلمة يمكن أن يغير معناها . ففي الفرنسية نجد لفظة émoi ترجع في شكلها ومعناها الحالي إلى إمالة الجذع (emouvoir,emu, émo (tion,émouv إلى اللفظة الفرنسية القديمة esmai، المشتقة من الفعل esmaier (تضايق – إضراب) إلخ (من اللاتينية + ex جذع جرماني هو mag، والذي تعرفه الألمانية بشكل mogen Macht، والإنجليزية: may-might، والسويدية (för) maga، إلخ . وكلها تحتوي على فكرة السلطة ، القوة ، "النفوذ" . والمعنى الأولى في الفرنسية هو " يفقد ، يحرم من ، قواه " وفكرة " التأثير " والنظام للحرف الصائت في oi (اللاقياسي من الناحية الصوتية الطبيعية) يتطابقان بشكل متبادل . فها هو جاكوبسون JAKOBSON، الذي كثيرا ما اهتم بهذه الظواهر

قد برهن على أنه كيف يمكن للأصوات في مجال الشعر توجيه الفكر في وجهة معينة وكيف أن جنس الاسم يعطى لمفهوم معين صفة مذكرة أو مؤنثة وفقا للأحوال . فالشمس كرمز لكائن مذكرة (إله ، إلخ) والقمر كرمز لشخصية مؤنثة (آلهة ، إلخ) يتطابقان في اللغة الإسبانية إذا يقال : الشمس :(بأداة التعريف المذكرة El sol) والقمر (بأداة التعريف La luna)، إلا أن هذا لا وجود له في الألمانية ، حيث نرى صورة عكسية (die Sonne , der Mond) كلها ظواهر تقلل من تعسف الرموز اللفظية حين تقلل من قابليتها الترجمة ، والطابع الفجائي لتلك الرموز يمثل مرحلة متقدمة من تطور اللغات ، أمَّا وجودها بناء على التشاكل مع الدلالات (الأشياء) فهو عبارة عن مرحلة أولية وكلما كانت الرموز متعسفة ، كلما تم اقتباسها كي تشكل ، بصورة مختلفة في إطارها الخارجي، نفس الدلالات – نفس " العالم " ولهذا نفسه فإن سلطان اللغة على الفكر يلحظ بصورة أكبر على طبقات اللغة التي يصبح فيها الباعث على وجود الرموز اللفظية كبيرًا والروابط بين التعبيرات والمضمون قويةً (الشعر ، الدعاية) لقد رأينا في سياقات أخرى أن كل مراحل تطور اللغة ، بداية من الرمز البسيط الشامل الخاص بالشمبنزي والطفل الأصغر وحتى الرموز والتركيبات التعسفية في مجملها – تأتي متمثلة في مختلف طبقات الاتصال الإنساني.

دائما ما ساد زعمٌ مفاده أن لغات القبائل " المتوحشة " تكون أغنى في محاكاة الأصوات والتركيبات المقلدة والتعبيرية من لغاتنا الثقافية ، وبالتالي فقد كان من المنتظر أن نجد فيها أمثلة عديدة أكثر ، حول التأثيرات المتبادلة بين الصوت والمعنى ، من تلك التي نراها بيننا . وبقدر ما توجد هذه الفروقات وتصبح فيه اللغات أقل اعتسافًا – الأمر الذي يبدو لنا للوهلة الأولى غير محتمل – نجد الوصف "بدائية" الذي نطلقه على لغات هذه القبائل مبرراً بالطبع . ومع هذا ، فما هناك على حد علمنا من برهان يقف إلى جانب هذه النظرية التي من الممكن ، رغم ما حازته من قبول آنفا ، أن تكون راجعة إلى اللبس بين اللغة والمجتمع (الحضارة) . ولغاتنا صاحبة الحضارة

ليست فقيرةً في وسائلها الخاصة بالمحاكاة والتعبير بصورة مطلقة . هناك دائمًا اتجاه نحو نسيان هذا الأمر . ولكن الطريقة التي صاغنا بها محيطنا تستبعد استعمالها بصورة مبالغ فيها بين المتكلمين والكُتّاب الذين تخرج أقلامهم أعمالاً عادة ما تكون القاعدة التي تبني عليها معارفنا اللغوية (وتوصيفاتنا). إنه فارق تواتر عناصر المحاكاة في الكلمة - التي أوقفها المجتمع على شروط معينة - قبل أن يكون فارق احتمالات وأدوات يفسر الفكرة التقليدية لأصوات اللغات التي تعرف بالبدائية . هذا الفارق ، إذا كان هناك فارق ، هو أمر اجتماعي أكثر منه لغوي فيما بيننا ، يجب البحث في لغة الاطفال بغية العثور على نفس التفسير للباعث والتعبيرية للرموز الموجودة في المجتمعات الأقل تطوراً (المجتمعات النامية) .

الفصل العاشر

تلاقي واختلاط اللغات

ثنائية اللغة. الترجمة . الجوانب الجمالية للغة

اللغات المنبثقة عن اللهجات

في مناسبات عديدة وجدنا الفرصة سانحة للحديث عن قضية الاتصال بين اللغات واللهجات واللهجات الطبقية الاجتماعية . كما أبرزنا الدور الذي تلعبه هذه الاتصالات في تطور لغة معينة . وتبينا القول الأشبه بالنظرية والقائل إن كل تغيير لغوي لا يحمل داخله سوى الانتقال من مستوًى إلى آخر وأن نقطة الانطلاق لهذه التغييرات المزعومة يجب البحث عنها في مناطق الاتصال بين لغتين أو عدد من اللغات . وأخيرا رأينا أن المصادفة ، في معناها الحقيقي ، في جزئية التطور ، توجد خارج اللغة واللغات .

شهدت الأماكن التي وقع فيها اتصال بين مجموعات تتكلّم لغات مختلفة حيث تستعر الحرب بينها أو تكون هناك فرصة لتبادلات تجارية أو غيرها ، إجراء تجارب عديدة تهدف إلى ترجمة اللغة التي يتحدثها الآخرون . وسرعان ما تم استبدال اللغة الإشارية البدائية أو إكمالها بكلمات أو عبارات مفهومة في سياقاتها أو شرحها بالإشارة إلى أشياء أو مواقف معينة . في المناطق الحدودية بين مجموعتين لغويتين هناك دائمًا مترجمون يعملون بما يجرونه من اتصالات على الجانبين على تنمية الاتصال السلمي أو تسهيل المفاوضات بين القاهرين والمقهورين . وها هو يوليوس

قيصر قد استعمل أثناء حملاته على غاليا Gallia والبلاد الجرمانية مترجمين ثنائي اللغة عملوا ، رغم أن جذورهم نبتت في بلاد الأعداء ، في روما وتعلموا لغة الإمبراطورية .

تأتي الشواهد الأولية على هجرة السكان والاحتكاك بين الحضارات ممثلة في الأدوات المعدنية والحجرية والفخارية التي عثر عليها علماء الآثار وأرّخوها وفقًا للوسائل الخاصة بهذا العلم . فقط في الوقت الذي نملك فيه آثاراً مكتوبة (نصوصًا بالمعنى الدقيق للكلمة) نحصل على معلومات أكثر دقةً عن طابع وكثافة مثل هذه الاتصالات . الاقتباسات اللغوية – الشاهد الأول على الاتصال الثقافي – هي مصدر ثمين لمعرفة العلاقات القائمة بين عنصرين بشريين . تدل الاقتباسات على اتصال سطحي وعابر بين الجماعات . أما الاقتباسات المتعددة ، وخاصة حين يكونُ وجودها في المستويات المركزية للحياة الاجتماعية ، تدل على اتصالات دائمة وحميمية إضافة إلى التأثير القوي لإحداها على الأخرى . إذا لحقت الاقتباسات أيضا الاعتبارات الخاصة بالقواعد النحوية (الضمائر ، النهايات ، طريقة البناء اللغوي ، النحو ، الأسلوب) فمن الممكن أن نستنتج وجود حياة مشتركة بين مجموعتين بشريتين وثنائية لغوية منتشرة . كان هذا هو حال إنجلترا عقب غزو البلاد على يد " الفايكنج " -Vikin gos الدانمركيين (الذين تركوا في اللغة الإنجليزية ، بين العديد من الكلمات ضمير الشخص الثالث الجمع they – هم – هن) وأيضا بعد ذلك بعدة قرون ، تحت السيطرة النورماندية (بداية من عام ١٠٦٦) . وبالفحص السطحي للغة الإنجليزية الحديثة يمكن أن نكون على اقتناع بالتحول العميق لبنية اللغة التي كانت موجودة إبَّان الفترة التي غدت فيها الفرنسية لغةً رسميةً للبلاد . وبدون إحصاء للألفاظ المعجمية ، من الممكن التأكد من تواتر السوابق واللواحق الرومانثية التي مازالت تستخدم في اللغة مثل (able – إلخ) .

لا تخضع وجهة الاقتباسات لمحض الصدفة ، فمصدرها يكمن في اللغة الأسمى مكانةً ، سواء أكانت مكانةً سياسية أو ثقافية . ونوع الكلمات المقتبسة يخبرنا عن طابع

التيارات الثقافية . والشعوب البربرية التى جابت أركان الإمبراطورية الرومانية اقتبست، على مر العصور ، العديد من المصطلحات اللاتينية . كما أدّى انتشار المسيحية إلى ثراء معجمي في ميدان كان مجهولاً من قبل . لكننا رأينا أيضًا أن المفاهيم الجديدة قد أدخلت تحت أشكال طبق - أصلية (انظر الفصل الرابع) حيث تبدو العناصر في صورة مألوفة وأصلية ولكن بمضمون أجنبي . نذكر هنا على سبيل المثال ، بعض الاقتباسات الجرمانية في اللاتينية العامية والرومانية القديمة . وتشير الحقول الدلالية التي تنتمي إليها هذه الاقتباسات إلى ميادين حياتية اجتماعية وسياسية أثبتت الشعوب الجرمانية تقدمها فيها إبان تلك الفترة (مثل الحرب والصيد والإدارة) .

بعد فتح غاليا **Galia** على يد يوليوس قيصر (قبل خمسين عاما من تاريخنا) وبعد أن بلغ الرومان نهرى الراين والدانوب باتت الفرصة مهيأةً لخلق ظروف اتصال أكثر حميمية بين الرومان والقبائل الجرمانية . من بين الاقتباسات التى أخذها الرومان على مدى العصور الأولى لعهدنا (مدة مائة عام) يمكن أن نذكر **Werra** (حرب) **Wisa** - نمط - **Urgoli** - عظمة - افتخار ، **helm** - خوذة - **burg** - حصن - والتي نجد نظيرًا لها في الإسبانية : **guerra**، **gusia**، **orgulio**، **yelmo**، **burgo** يمثل الأشكال الرومانثية التى عرفتها أيضا بعض اللغات الأخرى الشقيقة (الإيطالية **guer-ra**، الفرنسية **guerre**، إلخ) ، وتعد دليلا على تطور الأشكال الأولية . لن ندخل هنا في مزيد من التفاصيل .

مع هزيمة الإمبراطور البيزنطي في معركة أدريانا بولى عام ٣٧٨ ، فتحت أبواب الإمبراطورية عنوةً وغدا الطريق مفتوحًا أمام البربر لفرض سيطرتهم على الرومان . وقد خلقت أعمال الغزو ، من قِبَل القوطيين الغربيين والشرقيين في بلاد الجنوب- من المعلوم أهمية ودوام المملكة القوطية في شبه الجزيرة الأيبيرية ، التي افتتحها العرب عام ٧١١ - بعد الإفرنج ، نقطة انطلاق لاتصال أكثر حميمية بين الرومان والجرمان

وتأثيراً متبادلاً بين اللغات . أما اللغات الجرمانية لهذه الشعوب فقد إختفت . وما نعرف عنها سوى النذر اليسير . لم يحفظ منها سوى اللغة القوطية بفضل الترجمة التي قام بها الأسقف wulfila صاحب اللغتين للعهد الجديد Nuevo Testamento (أو اسمه أولفيلاس Ulfilas المتوفي عام ٣٩٣) . ولكن الاقتباسات الجرمانية التي دلفت إلى حقل البروفنسالية ، والإسبانية (الإيبيرية الرومانية) ، والإيطالية وبصفة خاصة إلى الفرنسية تُعدُّ شهادةً بليغةً على نوع الاتصال الذى دار بين المنتصرين والمهزومين على مدى قرون السيطرة الجرمانية ودائمًا ما يمكن البرهنة على نوعية اللغة الجرمانية الصادر عنها أي نوع من الاقتباسات .

من بين العديد من المصطلحات الفرانكية المحفوظة في الفرنسية القديمة والحديثة نذكر fuerre brogne (فى الفرنسية fourreau) dar ، étrier ،haubert (بتعديل عن طريق استخدام اللواحق) haire، Cotte، Garfer، Gutter، Choisir، b?ir، riche (مع تعميم شكل المؤنث ، فى البروفنسالى ric، فى الإسبانية – rico ثرى ، إلخ) الفرنسية القديمة isnel (الإيطالية – snello سريع ، الألمانية Schnell) ، Jaedin، Gant (السويدية ، Vante) gué (السويدية Vad) ، الحرف "g" الذى يأتى فى بداية العديد من هذه الكلمات ينتمي إلى حرف W – الجرمانى (والذى ما زال محفوظًا حتى الآن في اللغة الإنجليزية : فى الفرنسية guerre، والإنجليزية War – حرب – من الجرمانية Werra) والذى تحول على يد الرومان فأصبح gw – إلى جوار عنصر انسدادى . فى الفرنسية ، وفي جزء من الإسبانية نجد أن الحرف – W قد اختفى سريعًا . نفس العنصر فى الألمانية والإسكندنافية تحول سريعا إلى – V – ونصيب الحرف – W – الجرماني في الرومانثية يعد مثالاً لهذه الاقتباسات من الوحدات الصوتية الأجنبية أو الخارجة على النظام التى تنشأ عند اتصال اللغات ببعضها . هذا الزلع والتحول فى المعنى لمثل هذه العناصر هما وجه آخر لمعالجة مثل هذه الاقتباسات، فلفظة المارشال التى أتت من اللاتينية العامية Mãriscalws التى تحتوى على جذع

جرماني للفظة " حصان " (السويدية العامية تقول حتى الآن Märr) كانت في الأصل حارس الإسطبل الملكي ، وتباعًا تحول إلى شخصية من الشخصيات الرفيعة . والمعنى الأولى الذي كان يشير إلى الحصان مازال موجودًا حتى الآن في ferrant - maréchal (البيطار) ، المفهوم الذي سوف يختفي بلا شك مع آخر حصان .

إذا ما كان دور الجرمانية – وخاصة دور الفرانكية في غاليا Galia الشمالية – لا ريب فيه ومن السهل التثبت منه في حقل المفردات ، تصبح المسألة أكثر صعوبةً وجدلاً في مجال البنية الصوتية الوظيفية والنحوية . خاصةً أنه قد ثبت (في رأى والتر فون ويرتبورج WALRHER VON WARTBURG ، إلخ) أن الفارق اللغوى لغاليا وخصوصيات اللغة الفرنسية (لغة أويل oïl) بالنسبة للجنوب (البروفنسالية ، الأوكسيتانية) هما نتيجة السيطرة الإفرنجية الطويلة واستمرارية الثنائية اللغوية . ما حدث هو انصهار حميمي لعنصرين تولَّدت عنهما نتائج جادة لإقامة صرح اللغة التي انبثقت في النهاية عن هذا الخلط . أما الفكرة المعاكسة فقد تبناها أولئك الذين يرون في التأثير الجرماني عنصرًا سطحيًا فحسب – ترك بصماته على مفردات بعض الحقول الدلالية (الدفاع ، الإدارة ، بعض الملابس التي أدخلها الغزاة ، بعض المفاهيم الأخلاقية) لكن دون تأثير عميق . لنتناول في المقام الأول مادة القواعد النحوية ، كمثال للتأثير الجرماني ، يذكر الضمير التنكيري on (من اللاتينية homo – في الاسم المرفوع) والذي (وفقًا لميت Millet) يرجع إلى نموذج جرماني (الألمانية والإسكندنافية man : on ورجل) وكذلك rien (من اللاتينية rem – شيء) بالتوافق مع النفي (ne-rien – الذي يعرف نماذج جرمانية) . واللفظان الفرنسيان guérre، Tropهما أيضا من أصل جرماني (الجرمانية Waigaro – كثير – وtrop من الكلمة الجرمانية Troupeau – القطيع – والتي اشتق منها اللفظ الفرنسي Troupeau وغيره مثل Troupe بعد إصلاح لاحق عليهما) الكلمات الألمانية ، الإسكندنافية ، الإنجليزية لمفهوم " troupe " (troop,trupp,truppe) هي بدورها اقتباسات عن الفرنسية troupe مثال ، بين أمثلة

عديدة ، لكلمات ترجع إلى اللغة الأصلية بعد تحوير . ومثال حديث للظاهرة نفسها هو في الفرنسية Sport، والذي أتى اقتباسا عن الإنجليزية Sport، الذي أتى بدوره من الفرنسية desport، أي الفرنسية القديمة .

بعض العناصر اللواحقية يتم تفسيرها أيضا عن طريق الجرمانية، على سبيل المثال ard – والذي بسبب شيوعه في الأسماء الجرمانية وترجمة غير صحيحة لوظيفته أصبح يمثل لاحقًا يدل على التحقير (chauffard,politicard) اللاحق الجرماني ing (في الفرنسية القديمة enc – ثم أصبح an-en) الذي تحوّل إلى متجانس في الصوت باستخدام لواحق رومانثية (ent-ant) وأصبح يلتبس بهذه إلى أن فقد استقلاليته (الفرنسية القديمة Tisserenc تكتب الآن Tisserand) الجرماني isc (المتشرب للصيغة اللاتينية feanciswa، الفرنسية القديمة franceis، إلخ) يلتبس باللاتيني ensis (الفرنسية القديمة ois,eis) ثم اختفى . والألفاظ المؤنثة التي تنتهي ب: esche (من اللاتينية isca anglesche، إلخ) تم استبدالها ب (eise - oise anglaise، إلخ) كما تم الحديث عن تأثير جرماني على ترتيب الكلمات في الفرنسية القديمة عقب ظرف يأتي في بداية الكلام (في الفرنسية القديمة : or vient li bars (الآن يأتي اللص) وفي الأسئلة : Votre Pere? Vient-vient-il? (وأول هذه الاستخدامات لم يعد له وجود) فالنمطان الأخيران لا تعرف عنهما اللغات الرومانثية الأخرى شيئًا .

في مجال الصوتيات الطبيعية التطورية ، هناك محاولة لمعرفة ما إذا كان من الواجب نسبة ظواهر الإضعاف الصوتي في المقاطع اللامنبورة ، والمقاطع الثنائية ذات الحروف الصائتة اللاتينية الممثلة في o,e (في fleur,flour,flore,moi,mei,me ، إلخ) إلى الطبقة العليا الفوقية الجرمانية . تطرح مثل هذه المشاكل عند الرغبة في تفسير اعتبارات أخرى ارتقائية في الرومانثية المتحدث بها في غاليا Galia (على سبيل المثال ، التغوير الحنكي Palatalizacion وبعض التغييرات الصوتية الصائتة) عبر طبقة سفلية سلتية سابقة بعدة قرون ،إبان فترة صبغ المنطقة بالصبغة الرومانية . سيكون

من باب الإسهاب المبالغ فيه أن نتوقف هنا عند هذه القضايا المعقّدة التي من أجل أن تستند على موقف نقدي تتطلب دراسة تفصيلية للأحداث والنظريات إضافة إلى عقد مقارنة جادة مع كل اللغات الرومانثية . وسوف نقصر حديثنا هنا على بيان موجز عن بعض الجوانب النظرية والمنهجية لهذا النمط التفسيري .

علينا أن نفترض أن الازدواجية اللغوية قد انتشرت في غاليا بلاد الغال المفتوحة والمصبوغة بالصبغة الرومانية ، كما في الممالك الميروفنجية والشارلمانية . والسكان المقهورون – من طائفة الغال أولاً ، والغالية الرومانية ثانيًا – كانوا مضطرين إلى استعمال لغة سادتهم . وإذا ما كانت هذه اللغة قد حظيت بمكانة سامية تفوق مكانة اللغة الأصلية لهؤلاء السكان – الأمر الأكثر إحتمالية في الحالة الأولى ، وأقل في الحالة الثانية – فقد أصبح لزامًا على المقهورين تعلمها كي يحققوا نجاحًا أكبر وأفضل في المجتمع . من ناحية أخرى فمن المحتمل أن اللغة الغالية – الرومانية بمساعدة اللاتينية ، قد وقفت في وجه لغة السادة بصورة أفضل من وقوف لغة الغال في وجه اللاتينية العامية والدليل على ذلك ، في الجزء الذي استعمره الإفرنج من البلاد ، قبل وجود المملكة الفرنسية ، هو أن ما بقي على قيد الحياة كان شكل الغالية – الرومانثية ، المحوّل إلى الفرنسية والمشكلة المتعلقة بمعرفة ما إذا اختفت الغالية تماما أو بقيت على قيد الحياة كلغة بريطانية (وفقًا للنظرية الحديثة لفالكون Falc'hun) لن يكون هناك مجال لمناقشتها هنا وحتى نكوّن فكرةً عن احتمالات التأثير بين اللغات المتصلة ببعضها ، لابد من معرفة العلاقات بين شعبي اللغتين والتنظيم الطبقي للمجتمع . هذه العلاقات ليست فقط مجرد مسألة إحصائية بسيطة . من الضروري أن نعرف إذا كان هناك وجود للهجة كلامية غالية في الرومانثية المتحدّث بها في القرنين الثالث والرابع تحظى بقبول اجتماعي أم أنّها كانت علامة ثقافية واجتماعية متدنية، يجب أن نعرف الطابع المناسب للعلاقات بين الغال – الرومانيين والإفرنج أبّان عهدي الميروفنج والشارلمانيين . وإذا لم يتحقّق ذلك ، فلا علم لنا إذن بوجود ملابسات خاصة بالتفاعل

القوى بين الطبقة الدنيا الجرمانية والرومانثية على أرض الواقع . ليست لدينا معلومات كافية عن أي من هاتين الحالتين ، المعلومات التي تلزمنا لتكوين فكرة أكيدة . هذا بالإضافة إلى عدم وجود اتفاق تام حول طابع السيطرة الإفرنجية : أهو استعمار ترتبت عليه هجرة عارمة ، أم أنه كان غزواً عسكرياً وإدارياً بسيطاً بلا تأثير عنصري عميق .

في مناسبات أخرى قلت إن التأثير الجرماني على اللغات الرومانثية - رغم اعتباريته في مجال المفردات - كان أمراً مبالغاً فيه من قبل بعض الباحثين لم يدخل أي تعديل بنيوي ساحة هذه اللغات ، ولا حتى الفرنسية التي كانت ، رغم كل شيء ضحية التأثير الكبير من جانب الغزاة . رأيت وجود دعم منهجي في تحليلاتي للإسبانية المتحدث بها في أمريكا . وقد ثبت أن التأثير الأكبر للغات خاصة صاحبة الطبقة الدنيا (الأساس) على اللغة الإسبانية لا يجب البحث عنه في الأقاليم التي يكثر فيها عدد الهنود ، وإنما هناك حيث يصبح عدد الأفراد الذين يكونون مجتمع أهل البلاد الأصليين معتبراً . و هذا ما حدث على وجه الخصوص في الباراجواي ، حيث لم يكوِّن الهنود الحمر قط طبقة اجتماعية توارت عن الوجود .

في تأملاتنا عن الاحتكاكات اللغوية والثقافية استخدمنا مفهوم الازدواجية اللغوية Bilingüisme. في الحقيقة يعني كل تداخل بين الأنظمة درجة ما من الازدواجية اللغوية[1] وإذا ما كان الاقتباس ممكناً بفصل المعارف السطحية عن اللغة الأخرى ، فما من شك في أن الصور الطبق - أصلية تقوم على أساس من التأقلم الأكبر وشيء من الإجادة للغتين . هذه الصور الطبق - أصلية تظهر إلى حيز الوجود حين يبدأ المتكلم "بالتفكير" بلغة ما "والتحدث" بلغة أخرى . بالتالي ، يصبح هناك اهتمام بديهي لمناقشة مفهوم الازدواجية اللغوية في هذا السياق .

بين المتخصصين يوجد تعريفان غالبان لهذا المفهوم ، وفقاً لأحدهما ، فكل فرد ينطلق لسانه بشكل مناسب بلغة ثانية يصبح من أهل الازدواج اللغوي ، هناك إذن نوع

من التماهي بين الازدواجية اللغوية ومعرفة لغة أو عدة لغات أجنبية ، نشير عرضاً إلى أننا نفهم بمسمى الازدواجية اللغوية في الحالتين على حد سواء إتقان أكثر من لغتين (التعدد اللغوى) بهذا التعريف ، تصبح الازدواجية اللغوية ظاهرة منتشرة وعدد أهل الازدواج اللغوى يتنامى شيئًا فشيئًا . أمّا التعريف المتشدّد الآخر فيعنى أن صاحب الازدواج اللغوى يجيد اللغتين إجادة تامة ، يشعر بارتياح كبير في استخدام اللغتين وأن محيطه ، أيا كانت اللغة المختارة ، يتقبلّه كواحد من أهله . بهذا التعريف يصبح الازدواج اللغوى غريبًا ونادراً وعدد أهل الازدواج اللغوى قليلاً . ولنضف لهذا التعريف الأخير أنه ليس بالضرورة أن يتكرر الإتقان السليم في كل المواقف ، وأن المتكلم يفضل على سبيل المثال إحدى لغاته في الاستعمال المنزلي ، وأخرى في العمل وأنه ، إذا ما كان إتقانه أقل للغة الأسرة بسبب غيبة التعليم المدرسي ، فلابد من تصنيفه مع ذلك بين أهل الازدواجية اللغوية (بهذا المعنى الأخير) وأخيرا ، حيث يصبح بمقدور العديد من أهل اللغة الواحدة تحقيق إجادة غير كافية للغتهم الوحيدة (كالمتخلف عقليا ، وعند غيبة التأهيل المدرسي) فمن المشروع أن نعتبر الفرد الذى يحقق عدم الكفاية ذاتها في لغتيه واحداً من أهل الازدواج اللغوى وفقا لتعريفنا الثاني .

لم نجد تعريفًا مقنعًا من هذين التّعريفين . لابد من رفض التعريف الأول لسبب بسيط هو أنه لا معنى لاستخدام مفهوم " الازدواج اللغوى " إذا كان عبارة عن مرادف بسيط " لمعرفة اللغات الأجنبية " إن لغة اصطلاحية بسيطة يستخدمها النادل أو المرشد السياحي لا تعدو واحدا من الاعتبارات الخاصة بالازدواجية اللغوية . التعريف الثاني يخلق تضييقا كبيراً جداً . أهناك إجادة تامة للغة ما ؟ لا أحد يتقن إتقانا تاما أدوات لغته الأم . وبالتالي ، لابد من أن نرضى أولاً بتعريف لا يطالب أهل الازدواج اللغوى بأكثر مما يطالب به صاحب اللغة الواحدة (أحادى اللغة) monolingüe في لغته الوحيدة ، داخل نفس الطبقة الاجتماعية، وفي الوظيفة نفسها ، في نفس العمر وبنفس درجة التعليم المدرسي . هناك معيارٌ أساسيٌ هو بالتالي ، رد فعل المحيط الاجتماعي . لابد من قبول الفرد من قبل المتحدثين باللغة الفرنسية كي يصبح واحدا من أهل

الازدواج اللغوى حين يستخدم الفرنسية كإحدى اللغات التى يتكلمها . بالطبع سنتخلّى عن الملامح الإقليمية والفردية . ولكن بناءً على الصعوبات التى تطرحها الثقة فى شهادة أهل البلاد الأصليين – والتى دائما ما تأتى تابعة لتحيز شخص وحكم لغوى معيبٍ – فقد بدا لنا ضروريا أن نضيف إلى هذه المعايير الشهادة التى يدلى بها صاحب الازدواجية اللغوية ذاته . من الممكن تماما تعلم استخدام لغة ثانية ما دام أن المجتمع لا يستوعب أية لهجة كلامية، وإذا لم يشعر المتكلم نفسه ، حتى ولو كان يتقن اللغة الثانية كالأولى ، بارتياح فى اللغتين ، فإنه ليس من أهل الازدواج اللغوى . هو نفسه يعلم أنه فى بعض الأحيان يتم التزام الصمت لعدم وجود الأدوات التعبيرية اللازمة كى يفصح بصورة دقيقة عما فكر فيه . أمَّا المحيط الاجتماعى فلا يتشكك فى شيءٍ . فالمتحدِّث وحده يعرف الأمر .

وعليه نقترح التعريف التالى : هل يعد من أهل الازدواج اللغوى ذلك الذى (١) يتقبلّه محيطه الاجتماعى – أيا كانت اللغة المستخدمة – كمن يكوِّن جزءًا من الجماعة اللغوية والذى ، حين يتطلب الأمر ، يفضل إحدى لغاته بسبب فروقات فى التعليم المدرسى وعادات مهنية ، والذى (٢) يعتبر نفسه من أهل الثنائية اللغوية . ولكن يتبقى أن نضيف شيئا ، يولد الازدواج اللغوى قبل سن البلوغ وتحت ظروف خاصة : استخدم لغتين ، إقليم به لغتان ، لغة فى البيت ، وأخرى فى المدرسة أو مع الرفاق، والازدواجية اللغوية ترجع دائمًا إلى ظروف طبيعية من هذا النوع . لا يمكن لها أن توجد بصورة مصطنعة فى المدرسة أو بمجهود الآباء . فالطفل الذى لا يشعر بدافع تجاه لغة ثانية يقتنع بلغة واحدة فقط . وفى دروس اللغة داخل المدرسة لا يمكن أن تتوفَّر أبدًا هذه الظروف التعليمية . بعد سن البلوغ ، يصبح بمقدور الفرد اكتساب معرفة – جيدة فى بعض الأحيان – باللغات الأجنبية ، إلا أنَّه لا يصبح من أهل الازدواج اللغوى .

ورغم إجادته السليمة للغات موضوع الدراسة ، إلا أن المتكلم من أهل الازدواجية اللغوية دائمًا ما يخلط بين الأبنية والعبارات الاصطلاحية ، كما يشهد على ذلك الاستخدام داخل إطار الأوساط المتمتعة بالازدواج اللغوى مثل بروكسل وهيلسنجفور وكذا الفرنسية (مونتريال ، إلخ) وبالتالى ، يصبح مبررًا أن نرى فى الثنائية اللغوية عنصرًا انتقاليًا من لغة إلى أخرى . وصاحب الثنائية اللغوية دائمًا ما يقوم بدور الناقل والمترجم . بنفس الطريقة تحول الأسلوب الأدبى الكلاسيكى ، عبر أعمال المترجمين الناقلين عن اللغة اللاتينية إلى اللغات العامية ، إلى النموذج المثالى لمختلف اللغات القومية الأوروبية . مثل هذا التأثير للترجمات عن اللاتينية هو الذى يفسر الوحدة النسبية للغات الأدبية فى كل أوروبا رغم الفروقات النحوية العميقة . كما لعبت الترجمات العديدة للتوراة دورًا لا يمكن إغفاله .

وكذلك فمن الممكن الحديث عن ازدواج لغوى جزئى Bilingüismo Parcial أو مقيد restringido بالإشارة إلى هذه الفجوات بين المستويات الاتصالية المختلفة اللازمة لكل فرد يعيش فى وسط اجتماعى مختلف . وها هو المدرس الذى يتحدّث أمام طلاب فصله بلغة مضبوطة نحويًا يسمح لنفسه بهامش حرية فى النطق داخل إطار أسرته ، واستخدام القواعد النحوية والألفاظ التى تبدو طبيعية فى هذا الوسط ، تبدو مثيرة للاستغراب حين يسمح لنفسه باستعمالها فى أحاديث عامة . إذا فهم تعبير الازدواجية اللغوية على أنه إتقان هذه القيود المختلفة للغة ، فسنصل إلى نتيجة مفادها أننا جميعا من أهل الازدواج اللغوى (أو التعددية اللغوية) مثل هذا التوسع للمفهوم لا معنى له سوى إمكانية استخدامه لإظهار تعددية مقيّدة لا يدركها كثير من المتكلمين .

ولكى نذكر مثالا محددا للازدواجية اللغوية والقضايا المتعلقة بها ، نقدّم بيانًا موجزًا عن الوضع اللغوى والاجتماعى فى الباراجواى وأسلوب اختلاف هذا البلد الأمريكى عن مستعمرات أخرى قديمة تابعة للنفوذ الإسبانى فى العالم الجديد .

والباراجواى بلدٌ يتمتع بازدواجية لغوية إلى حد كبيرٍ . أن يكون ذلك حقًا أم لا يرجع إلى التعريف الذى نفضل إطلاقه على مفهوم الازدواجية اللغوية . الإسبانية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى الباراجواى ، بمعنى أن كل احتفال رسمى يصبح من الضرورى فيه الحديث بالإسبانية ، إضافة إلى الرسائل الرسمية أو العامة، ونتيجة لهذا العمل نجد أن الجزء الأكبر من البالغين ، فى المدن على وجه التحديد يجيد معرفة هذه اللغة ويتحدثها معظم بطلاقة . من جانب آخر ، وخاصة فى الريف ، يمكن تحديد انتشار لاستعمال محدود ، تم تعلمه بشكل مصطنع ، للغة الإسبانية التى نراها دائما مقصورة على الأعمال الإدارية والاتصالات الرسمية ، وعليه ، يمكن تحديد القدر اللازم لإعتبار المتكلمين مدرجين فى تصنيف الازدواجية اللغوية . بغض النظر عن ذلك، فهذه المشكلة تطرح فى أى مكان يزعم فيه الأفراد أنهم من أهل الازدوا ج اللغوى ، وخاصة فى غيبة التعليم المدرسى الإلزامى باللغة الرسمية التى تضمن أرضية معينة من المعارف الأساسية . وتأتى الدرجة التى يتقن بها الباراجويون اللغة الإسبانية – المشكلة المطروحة بنفس الطريقة فى الدول الأمريكية الأخرى ذات السكان الأصليين (البيرو ، المكسيك ، إلخ) – أقل أهمية بالطبع حيث لا يوجد فى باراجواى مواطن واحد ولد وترعرع على أرض بلاده يجهل " الجورانية " لغته الأصلية. إنها حالة فريدة من نوعها فى أمريكا اللاتينية ، وربما أيضا فى غالبية الدول التى كانت عرضة للاستعمار الأوروبى . هذا أمر فى غاية الوضوح والطبيعية التى تدهش القادم لأول وهلة ، حيث لا يرى أثرًا خارجيًا مكتوبًا(إعلاما ، إعلانًا ، دعايةً) لهذه السيادة للغة الأصلية فى الاتصالات الشفهية . فى مدينة أسونثيون وفى غيرها من المدن – ليست بالكثيرة – لا أثر للغة الجورانية : لغة مسموعة فقط . المستند العام الوحيد الذى رأيت على متنه هذه اللغة هو " أحد البطاقات السياحية التى كان على الأجنبى أن يعبئها عند الخروج من البلاد عام ١٩٧١ ، والمكتوب نصه بالإسبانية ، الإنجليزية ، الجورانية .

بالإمكان القول بأن استخدام اللغة الجورانية يظهر بقدر أقل عند الطبقات العليا منه عند الطبقات الدنيا من السكان . ومع ذلك ، فهذا وصفٌ غير كافٍ للوضع ، وعلى الأخص حين يتعلق الأمر بفروقات من أجل سهولة استخدام اللغة . واختيار واحدة أو أخرى من اللغتين يخضع ، على ما يبدو ، لطابع العلاقات بين السكان فقط ، لا الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها ، واستخدام اللغة الجورانية لا يصبح بمثل هذا الوضع علامة على الصفة الاجتماعية المتدنية . وأثناء زيارتي لبارجواي أمضيت بضع ساعات في القطار مع أحد القاطنين بمدينة أسونثيون . وعلى امتداد الطريق ، انتهز المحامي وقوف القطار في إحدى المحطات كي يتحدث لبضع دقائق مع أحد معارفه رآه على السلم الخلفي لإحدى المحطات . وحين تحرك القطار اعتذر لي عن استخدامه للغة الجورانية . " إنه صديقٌ قديمٌ لي ، ودائمًا ما نتحدث بالجورانية " وعليه ، فقد كان التفسير الوحيد الكافي له لاختيار هذه اللغة هو ما جعله يشعر بضرورة الاعتزار بلغته أمام رجل أجنبي . لن أنسى ذلك الإيقاع ، المفعم بالتوبيخ ، الذي نطقت به سيدة من المجتمع الراقي في مدينة أسونثيون كلمة " بالطبع " في ردها على سؤال غبي وجهته إليها حول ما إذا كانت تتكلم الجورانية . من لا يتكلم الجورانية فليس باراجوياً .

وعليه ، فليس إتقان الجورانية أو استخدامها كوسيلة تعبير في الباراجواي علامة على الانحطاط الثقافي أو الاجتماعي . إلا أنَّ هذا يحدث حقًا حين يتقن أحد أهل البلاد اللغة الإسبانية إتقانًا معيبًا وبالتالي ، إذا كان المتحدث يختار في وقت ما ، الإسبانية بدلاً من الجورانية ، فيأتي ذلك تفاديًا لأي شك حول الجهل بهذه اللغة . وإذا ما كانت الإسبانية هي اللغة الوحيدة الممكنة في الاحتفالات القومية – العديدة مثلما هو الوضع في كل أنحاء أمريكا اللاتينية – فهذا يرجع إلى الطابع الرسمي والمهيب للحدث المحتفى به والذي يتفوق ، في هذه الحالة ، على الدلالات العاطفية الخاصة بلغة المواقف الحميمة والشعرية ولغة الحب . وللغة الأصلية مع ذلك مكانها على الساحة المسرحية ، حيث تشهد العديد من العروض باللغة الجورانية التي يقبل عليها العديد من جمهور

النظارة . والأدب . والشعر والنثر ، يتم في الغالب باللغة الإسبانية . ومع ذلك ، فهناك شعراء يكتبون باللغة الجورانية . ولكن نشر الأعمال الأدبية بهذه اللغة هو من قبيل الاستثناء ، الصحف تنشر القليل ، أو ، لا شيء ، بالجورانية وحيث لا تدرس المدارس حتى الآن اللغة الجورانية إلا بصفة استثنائية ، فقليل هو عدد الذين يقدمون على قراءة اللغة . وعدد الذين يكتبون بها قليل حتى اللحظة الراهنة .

ومثلما يحدث في مجتمعات أخرى عديدة في مثل هذه الظروف ، لا يرغب غالبية السكان في الحصول على قسط من التعليم باللغة الأصلية . في ذهنهم أن تعليمًا من هذا النوع لن يكون مفيداً في شيء ، أما اللغة الرسمية والمكتوبة فهي التي يجب أن يتعلمها الأطفال كي يحصلوا على فرص خارج القرية والوسط الريفي الذي ولدوا فيه . والدعاية لهذا التعليم التي يتبناها المفكرون واللغويون لا تروق للسلطات التي ترى فيها مؤشرا لراديكالية سياسية . لا علينا أن نقول إن هذا الموقف وخاصة العقلية المسئولة عنه هما بهذه الطبيعة التي تمنع تعميم انتشار الثقافة ومحاربة الأمية . الأطفال لا يفهمون شيئًا في المدرسة يمضون عامًا تلو الآخر في نفس الصف الدراسي ، ثم يعودون في النهاية إلى ديارهم كالأميين الذين بقوا على أميتهم منذ البداية . أدع الآن مثل هذه القضايا وأنتقل إلى القضية المتعلقة بأصل هذا الوضع الفريد .

من المعلوم أنه في العقود الأولى للقرن السادس عشر بات إقليم نهر الفضة (RIO DE PLATA) يدخل ضمن النفوذ الاستعماري الإسباني . وهاهو الإسباني خوان دياث دة سوليس JUAN DÍAZ DE SOLIS قد بلغ مصب النهر في الثاني من فبراير عام ١٥١٦ . وبعد ذلك بعشر سنوات ، توغل البرتغالي جارثيا GARCÍA كأول رجل أبيض في مناطق المستنقعات لنهر البارانا والباراجواي . وقد تأسست مدينة أسونثيون عام ١٥٣٧ وسرعان ما أصبحت عاصمة الجزء الجنوبي من القارة – مركزًا إداريا وكنسيا على درجة كبيرة من الأهمية . وبدايةً من هذا التاريخ تأسست مدينة بوينوس أيرس مرتين . وإذا ما كان لنا أن نصدق المصادر المكتوبة المحفوظة ، فإن تأسيس أسونثيون

ومستعمرة باراجواى قد وقع سلميًا ودون حرب ، تحت شكل من الاتفاق المهيب بين الرؤساء من أهل البلاد الأصليين والفاتحين .

ربما يقال فى البداية إن مثل هذه الطريقة الخاصة لاستعمار باراجواى - الذى جاء مختلفًا تمام الاختلاف عن مثيله فى بيرو والمكسيك - قد جاءت أيضًا على نفس صورة التطور اللغوى للبلاد . إنها الحقيقة بلا شك حيث كانت اتصالات المستعمرة المنشأة حديثًا مع الخارج طويلة وشاقة . وجاء نضوب المعادن عاملاً مباشرًا فى تقليل جذب انتباه المستعمرين الجدد القادمين من إسبانيا صوب هذا الإقليم . ومن اضطر للبقاء على أرضها وجد نفسه مضطرًا لزراعتها . كان عدد الرجال هائلاً تزوجوا من بين الجوارنيين . وهكذا أصبح المجتمع الاستعمارى القائم محددًا منذ البداية بالعنصر الهندى الأحمر سرعان ما تحوَّلت معه لغة أهل البلاد (المنتمين إلى الأسرة الكبرى المعروفة باسم توبى - جوارانى) إلى لغة عامة لكافة السكان .بقدر ما حافظ المستعمرون الإسبان على إجادتهم للغتهم ، أصبح ذلك رمزًا لأصولهم ونبل أعراقهم . أما خارج العاصمة ، فقد تناسى الناس الإسبانية واستبدلوا بها لغة الأغلبية .

ووجهة النظر المطروحة هنا . صاحبها هو الأب اليسوعى بارتولو ميليا BARTO-LO MELIA (خلق لغة مسيحية فى قرى الهنود الحمر الجوارنيين فى باراجواى) والأصل الخاص بوضع الجوارانية يكمن فى الرأى القائل بأن هذا يرجع إلى القرى التى أقيمت على يد اليسوعيين فى أوائل القرن السابع عشر (والتى ما تزال ذكراها محفوظة حتى الآن فى الإقليم الأرجنتينى المعروف باسم Misiones (البعثات التبشيرية) كان القائمون على أمر التبشير يعيشون مع أهل البلاد الأصليين داخل مجتمعات مسيحية - شيوعية أصبح الناس فيها سواسية دون أن يكون هناك ملكيةٌ خاصة . كانت الجوارانية هى اللغة الوحيدة المقبولة وكان كل اتصال مع المجتمع الاستعمارى - باللغة الإسبانية أو الجوارانية - ممنوعًا بشدَّة على مدى فترات طويلة . وربما أن مثل هذه الهيئة الاجتماعية قد ساهمت فى إعطاء اللغة الأصلية فى

الباراجواي مكانةً وكرامة لم تحزهما أية مستعمرة إسبانية أخرى . ولم تكن الجوارانية يومها علامة على الانحطاط الاجتماعي (مثل الكويتشوا في بيرو) ، وربما كانت الجوارانية مقبولة* في التشريع الإسباني في كل الطبقات المتمثلة في المجتمع . وحين تم تحرير قواعد نحوية ومصطلحات لغوية وعند ترجمة النصوص الدينية باللغة الجوارانية ، كان اليسوعيون هم أول من حدد قاعدة لغوية لاستخدام اللغة الجوارانية جاعلين منها بهذا السلوك ، لأول مرة ، لغةً مكتوبةً . وللاطلاع على الوثائق ، يرجى الاطلاع على مقالي " الإسبانية في العالم الجديد " (طبع في موتون Mouton، إشارات مرجعية من ١٥٢-١٥٥) . وعلى كلٍ ، فقد كان تعلم الهنود للمرة الأولى قراءة وكتابة لغتهم الأصلية بين أرجاء القرى اليسوعية - أو تعلم أحد أشكال هذه اللغة .

وقد ناقش الأب اليسوعي بارتو لوميليا BARTOLO MELIÁ بقوة ، معتمداً على تحليلات مقنعة ، هذا الدور الذي قامت به البعثات التبشيرية اليسوعية في التطور الاجتماعي - اللغوي للبلاد . يتذكر في المقام الأول أن الفرنسيسكان كانوا هم أول من تولّى مهمة التبشير في الإقليم وأيضا أول من قاموا بشرح وصفي للغة والترجمات التي أنجزت للأعمال الدينية . وأنا نفسي قد نبهت إلى أن أول كتاب لتعليم الدين باللغة الجوارانية قد نشر على يد الأب الفرنسيسكاني لويس دي بولانوس LUIS DE BOLA-NOS عام ١٥٨٨ ، أي ، قبل إرساء قواعد اليسوعيين في البلاد . هبط اليسوعيون من البيرو ليصلوا إلى توكومان ومنها إلى باراجواي في عام ١٥٨٦ وصل الوفد الأول منهم عام ١٥٨٨ . وأول القرى (سان إجناثيو سو) تأسست عام ١٦٠٩ ، وبعد أعوام ، تمّ تأسيس سلسلة من القرى (مثل سان نيقولاس ، يابيو) . ووفقًا لما تكره الأب ميليا MELIÁ، فإن الفرنسيسكان هم الذين نقلوا معارفهم باللغة الجوارانية إلى اليسوعيين .

ومع ذلك ، فإن أهم الأمور وأكثرها حدةً هو ما قاله ميليا MELIÁ من أن هذه البعثات لم يكن لها أية أهمية في الحفاظ على اللغة الجوارانية ومكانتها في البلاد .

وهذا الوضع الذي أصبحت فيه اللغة هو ، وفقًا لما يذكره الأب ميليا ، ميراث من المجتمع الاستعماري ونتيجة الوضع الاجتماعي بين المستعمرين الأوائل ؟ " هذا الوضع الاجتماعي للمستعمرين في الباراجواي ، الناجم في إطار اللغة المهجّنة ، ترجم سريعا إلى اللغة " المهجنة " وتم حفظه بخطها حتى يومنا هذا " (ميليا ، ص٦٣) أما الجيل الثاني من المستعمرين (أبناء المهاجرين الأوروبيين) بات لزامًا عليه الحديث بالجوارانية كأهل البلاد تمامًا ، وقد أعلن " مجلس المحاكم الدينية " أن الإسبان في باراجواي (في بيكارديا وكورينتيس التي هي الآن مقاطعة أرجنتينية) كانوا ضليعين في استخدام لغة أهل البلاد الأصليين من الهنود وكانوا يتكلمونها كما لو كانت لغتهم الخاصة (ميليا ، ص٨٠)

يرى الأب ميليا MELIA أن أغلب الرجال من المستعمرين الأول قد لعبوا دورا أساسيا في عملية التهجين التي سرعان ما تم تنفيذها هناك ، من المعلوم أن الأطفال يتعلمون أولاً وعلى وجه الخصوص لغة أمهاتهم . كما تجب الإشارة أيضًا إلى أن كل السكان من أهالي باراجواي يتميزون حتى الآن بطابعهم المهجن ، مما يبرهن على أن اختلاط الأعراق كان أمرا راديكاليًا منذ البداية . مجموعة من العوامل المتعددة : الحياة الريفية التي لا تجذب إلاّ في القليل النادر أعين المهاجرين الجدد ، المسافات البعيدة والاتصالات الصعبة ، أوقفت سريعا هذا التيار الجارف من المستعمرين الجدد ، والذي، في مستعمرات أخرى ، حافظ وعزّز العنصر الإسباني وضمن سيادة اللغة الإسبانية مما نجم عنه تحقير اللغة الأصلية واللهجة الهندية . وعلى كل ، فمن المؤكد أنه خلال القرن التاسع عشر - الفترة التي شهدت نزوحًا هائلاً صوب كل البلاد وخاصة الأرجنتين - أغلقت الباراجواي أبوابها تماماً إبّان فترة بعض الديكتاتوريات الشهيرة . جاء عدد النازحين إلى الباراجواي على مدى القرن العشرين قليلاً وتمثل هؤلاء سريعا الوضع القائم . وبصفة عامة أصبح لزاماً عليهم تعلم الجوارانية . وتنشأ أولادهم في أحضان الثنائية اللغوية كبقية السكان . ورويت في مكان آخر حكاية

الفنلندي الذي رحل ، وهو لا يعرف لغة غير لغته ، إلى الباراجواي ليقيم على أرضها فتعلم الجوارانية التي سادت آنذاك بين أبناء وسطه الاجتماعي ، دون أن يتعلَّم الإسبانية التي رأى قلة الفائدة التي ستعود عليه من تعلمها .

ويضيف الأب ميليا MELIÁ ، كأدلة ضد الرأي التقليدي ، أن لهجة القرى كانت مختلفة عن لهجة المنطقة المركزية (أسونثيون ، إلخ) التي أصبحت هي النموذج فيما بعد ، وأن سكان هذه القرى عاشوا معزولين عن بقية البلاد دون تبادل اجتماعي أو ثقافي . يفهم بسهولة أن حجة الأب ميليا قد تركت انطباعا قويًا عليَّ وأنني عقب قراءة نظريته ، قد تساءلت عما إذا كانت الفكرة التي حازها حتى ذلك الحين ، والمقبولة بصفة عامة ، هي الصحيحة حقًا .

يقبل عن طيب خاطر كتفسير للوضع اللغوي في بارجواي عزلة البلاد وغياب الهجرة العددية الهامة – الأمور التي ترجع بدورها إلى الثقافة في صورتها الريفية التامة لإقليم خال من المعادن والصناعة المعدنية . ووفقا لما يذكره ميليا MELIÁ فإن المستعمرين الأوائل سرعان ما أنجبوا العديد من الأبناء بزواجهم من بنات الأسر الأصلية من الهنود . مما يفسر وجود عدد هائل من الأطفال المهجَّنين . هذا أمر متوافر الاحتمال . ومع ذلك ، فيتساءل الواحد منا كيف ، في مثل هذه الظروف ، وفي ظل سيطرة ضرورية للعنصر الإسباني يمكن الحفاظ مدى أربعة قرون على النفوذ السياسي والاجتماعي المسلم به ، كما لا يجب أن ننسى أن النفوذ الهندي في البيرو (بناء على الأرقام التي يوردها روسنبلا Rosenblat) قد كان من خلال وجهة النظر الكمية متفوقًا بصورة أكبر على نظيره في الباراجواي . ألفت الانتباه هنا إلى عزلة شيلي وإلى الاتصالات الشاقة مع مستعمرة يسكنها على وجه الخصوص أناس من الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفي الحقيقة ، فإن هذا الحدث هو المسئول عن تعميم سلسلة من الألفاظ العامية في اللغة الإسبانية الشيلية . ومع ذلك ، فما هناك من شيء في شيلي يذكّرنا بتعميم اللغة الأصلية في الباراجواي . هكذا ، إذن ، يصبح من

الضروري وجود عامل بعيد كل البعد عن عدد السكان الأصليين والمهجنين في الأوقات الأولى للعمليات الاستعمارية للمكان وأنه المسئول عن الفارق القيمي الاجتماعي المنسوب إلى اللغة الأصلية بين باراجواي والمستعمرات الإسبانية الأخرى . أما في بيرو ، فمن الملاحظ أن النفوذ الهندي كان ما يزال قويًا، حيث اللغة الإسبانية – بقدر تحدثها – هي الأقل تأثرًا باللغات الأصلية والأكثر تطابقًا مع النموذج القشتالي . وتأتي العزلة والبنية الاجتماعية الشيلية لتفسر الطابع العامي للإسبانية لغة الكلام هناك ، إلا أنها لم تعط الفرصة لتكوين طبقة تحتية (أصلية) من قبل اللغة الأراوكية ، التي كانت ما تزال حيةً في الجنوب . كان هدفي للبحث عن العامل المتبقي هو ما دفعني إلى العودة للبعثات التبشيرية اليسوعية .

بعد دراسة مستفيضة للمقال الرائع للأب ميليا MELIÁ تدارست معه قضية المصادفة في التطور اللغوي في باراجواي . في المقام الأول ظهر لي ، وحتى الآن ، أن وضع اللغة الأصلية لم يكن ببساطة مجردٌ اعتبار يتعلّق بنسبة العنصرين البشريين المتلاحمين وأنه فيما يتعلق بالباراجواي يجب البحث عن عامل اجتماعي لغوي مسئول عن الفارق بينها وبين بيرو وشيلي . وقد اعتقد ميليا MELIÁ في وجود هذا العامل في الطريقة التي حكمت تأسيس المجتمع الاستعماري الأول ، لا تأسيس البعثات التبشيرية الذي أتى بعد ذلك بأكثر من نصف قرن . ومع ذلك فقد تساءلت عما إذا ، رغم غياب الاتصالات الاجتماعية واللغوية المباشرة مع القرى ، لم يكن الحدث البسيط المتمثل في خلق لغة مكتوبة على أيدي اليسوعيين – حتى لدرجة أدبية معينة، لغة جوارانية دينية "كلاسيكية" خاصة – بتلك الطبيعة التي تعطي ، وتحفظ للغة الأصلية مكانةً لم تحظ بها قط اللغات في المستعمرات الأخرى حيث ظلّت كلغات بسيطةٍ للحديث ، دون أن تنتقل إلى حيِّز الكتابة . من الواضح أن الجوارانية لم تكتب إبَّان فترة المستعمرة خارج البعثات اليسوعية ، وعلى كل حال ليس هناك من وثيقة محفوظة باللغة الجوارانية . لقد

طرحت القضية على الأب ميليا MELIÁ الذى قبل الأساس المتين الذى بنيت عليه ملاحظتى .

وإزاء أى اعتراض ممكن يقول بأن كل المستعمرات الأمريكية المفتوحة قد شهدت وجود المبشرين الذين ترجموا وأسسوا القواعد النحوية المعروفة حق المعرفة التى تمثل مصدرًا رائعًا لهذه اللغات ، ألفت الانتباه إلى أن الإرساليات اليسوعية الشهيرة فى باراجواى والأقاليم المجاورة للأرجنتين والبرازيل لم يكن لها مثيل فى أى مكان آخر . وبقايا أعمالهم التى ما زالت على أرض الباراجواى ، تعد شهادة بليغة على انتشار وأهمية أنشطتهم . ومن رأى مثل هذه المنشآت ليس فى حاجة إلى مجهود مضنٍ للتفكير فى أن تلك المنشآت كانت ذات أهمية فى التطور الاجتماعى - اللغوى والثقافى للبلاد . ومن جهة أخرى ، بصرف النظر عن الظروف الاجتماعية للمجتمع الاستعمارى التى حللها الأب ميليا MELIÁ ، فمن المحتمل ألاّ يكون تأثير الإرساليات قد تمخَّض عن نتائج نعلمها : ظروف اجتماعية - لغوية ، نوعية فى مجملها ، وازدواجية لغوية ليس لها مثيل فى دول أخرى من أمريكا الإسبانية . نفس العناية باللغة الأصلية من جانب الكنيسة المشهود بها من قبل مجمع القساوسة بأسونثيون عام ١٦٣٠ وحتى طرد اليسوعيين عام ١٧٦٧ ، تحوَّل فى الوقت الراهن إلى مهمة دينية على مستوى آخر وبمظهر متفوق من الناحية الاجتماعية - اللغوية . قام الأب ميليا MELIÁ فى مناسبات عديدة بتحليل الجانب اللغوى لهذه المسألة " القداس باللغة الجوارانية " لاتريبونا " أسونثيون ، ٢ نوفمبر عام ١٩٦٥ ، إلخ).

كبقية العديد من الحالات اللغوية الأخرى ، نجد أن حالة الباراجواى من الممكن تفسيرها عبر الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية لمجتمع نشأ بداية من مواجهة بين عنصرين بشريين وثقافتين ويتميز بقيم تنسب إلى كليهما من قبل المتكلمين الذين امتلكوا الميراثين .

واللغـات المعروفـة باسم " بيدجـين " Pidgin (المصطلح الإنجليزى) ، أو اللغـة الإفرنجية " (الفرانكو) أو " السابير " (إشارة إلى اللغات الاصطلاحية في منطقة البحر الأبيض المتوسط ذات العناصر الإيطالية والإسبانية والعربية وغيرها) ، أو "النجريتو" (خاصة في أفريقيا ، وفى جنوب أفريقيا توجد أيضا لغة تعرف باسم "كيتشين كافير") KITCHEN KAFIR" (توافق في قاسم مشترك هو ميلادها في ظروف معينة من أجل اتصالات ضرورية للغاية : التجارة ، العلاقات بين العبيد والسادة ، إلخ) بعض هذه اللغات يعود إلى فترة الاحتكاكات الأولى بين الأوروبيين والعناصر الأخرى . وهاهو موليير MOLÉRE يقدّم لنا في البراجوازى المهذّب EL BURGUÉS GENTIL HOMBRE (الرابع : ١٠) توضيحاً شكلياً " للسابير " والذى من المحتمل أن يكون من تأليفه هو ، إلاّ أنه مثال على استخدام تلك اللغات المحرّفة في تلك الفترة (ti responder , Se ti Sabir) (لو انك تعلم ، عليك أن تجيب) عند موليير MOLÉRE يتعلق الأمر بكلمات إسبانية غير مصرّفة (الأفعال في المصدر ، في "-ir" شكل يمكن التعبير عنه في الفرنسية بالنهاية er – بما تشتمل عليه من الحرف e البسيط الانغلاق ، والذى لا تعرفه اللغة الفرنسية ، هكذا تكون الصورة التى يفسر بها الشكل Sabir = المقابل للفعل Saber – يعرف – يعلم – في الإسبانية ، إلخ) هذه اللغات ليست اللغة الأم لأحد، ووجب أن يكون إحساس المتكلمين بها محصوراً في أنها ليست سوى أدوات ضرورية ، وفقط ، تتوارى بمجرّد أن يتغير الموقف . قبل الحرب العالمية الأولى ، كان الصيادون النرويج والروس في الساحل الشمالى لإسكندنافيا يتفاهمون باللغة البدجينية التى أطلق عليها اسم (الروسية – النرويجية) وفي أغلب الظن أن المجموعتين كانت كل منهما تعتقد أنها تتحدث لغة الأخرى . اللغات " البدجينية " تتميز ببنية بسيطة ذات أشكال ثابتة (غير مصرّفة) والعناصر الصرفية دائماً ما تستبدل بكلمات مستقلة دالة على الصلات . هكذا الحرف S في حالة الجر الإنجليزية تم استبداله بالفعل belong – خص ، انتمى – الذى يضاف إلى الكلمة موضوع الحديث :

Leg belong

master belong company a white man from the = ، (مسافة =) (h)im , his leg" company (= رجل أبيض من الشركة) ، في لغة " بدجينية " الميلا نزية الجديدة المبنية على أساس من الإنجليزية .

مثل هذه اللغة تتحوّل في ظروف معينة إلى اللغة الوحيدة لأناس يتحوّلون بهذه الطريقة إلى أبناء مهاجرين أوروبيين في الأراضي الأمريكية " وبالنسبة لغالبية السكان في هايتي ، تصبح الفرنسية هي لغة أبناء هؤلاء المهاجرين – والناجمة عن إحدى اللغات " البدجينية " – هي الوحيدة المفهومة والمستعملة .

يستحق مفهوم الترجمة أن نخصّص له بعض السطور في هذا السياق . دائماً ما وُجِدَ الناقلون والمترجمون الذين يقومون بنقل العناصر الثقافية والمعلومات بين العناصر البشرية . كان على هؤلاء المترجمين أن يؤدوا مهمتهم دون اهتمام كبير بالاحتمالية النظرية لأنشطتهم . هاهو جورج مونين GEORJE MOUNIN ، في نظريته الكلاسيكية عن نظرية الترجمة ، يقول إنه وفقا لمبادئ البنيوية فإن الترجمة تصبح أمرا مستحيلاً، وأنه مع ذلك يوجد مترجمون ومازلنا نستفيد من الإنتاج الذى يقدمونه .

كانت نظريةُ تعسفية العلامات والأبنية اللغوية هي التي دفعت إلى القول بأن الترجمة مستحيلة نظرياً . إن العلامات (الكلمات ، الصيغ ، الأشكال ، العناصر النحوية) لا وجود لها إلاّ لتكون قائمة على الجانب المناقض لعناصر الترتيب الأخرى وفى إطار التركيب التام للغة. فعلامة خاصة باللغة A لا تتوافق مع علامة مماثلة من اللغة B . النص المترجم هو نص مختلف . حتى إذا ما وجدنا ، في بعض الحالات ، أن الملامح السيميولوجية للعلامات الخاصة باللغتين المختلفتين هي نفسها بالصدفة ، فيتبقى لدينا الاعتبار الخاص بالدلالات ، التى تأتى في صورة مختلفة تماما كما أن الرسالة أيضا تأتي مختلفة في لغة عن غيرها ، فلفظة Veau في اللغة الفرنسية تختلف عن نظيرتها في الإنجليزية حيث تتضمن في الفرنسية مفهوما يشمل الحيوان الحي

والطبق المقدم على المائدة ، بينما اللفظة الإنجليزية Calf لا تشير إلاّ إلى الحيوان، إذ اللحم المقدم يطلق عليه Veal (اقتباس من الفرنسية النورماندية) .

بمقدورنا توضيح الفروقات المشابهة على مستوى الوحدات النحوية والجمل باختيارنا لمثال استخدمه مارتينيه Martinet ، هو في الفرنسية : J'ai mal La téte وفي الإيطالية : mi duole il capo في الإسبانية me duele la cabeza (عندي صداعٌ) في كلتا الجملتين توجد ثلاثة عناصر رئيسية : معاناة ، شخص (يعاني) ومحل لهذا العناء في الفرنسية يصبح الشخص الذي يعاني هو فاعل الجملة (Je)، والعناء هو المفعول (mal)، وبين الاثنين رابطة يقوم بها الفعل الذي تكون مهمته الربط (J'ai soif J'ai , anoir، حيث في غير الفرنسية يكون التعبير مختلفاً : في الإنجليزية (Iam afraid , Iam thirsty، والمحلية التي يعبر عنها عن طريق بنية " حرفجرية " ذات معنى محلي (La téte ?). أما في الإيطالية فهذا الجزء من الجسد هو الفاعل – (Il capo . La téte) أو المبتدأ ، والعناء هو الخبر Predicado (صورة من الفعل " يؤلم " " يعاني " " يرجع ")، والشخص الذي يعاني في حالة المفعول " mi" (وهكذا يمكن أن نعبِّر عن ذلك بقولنا : الرأس يؤلمني أو لدى صداعٌ) والحرية الكبيرة التي تحظى بها اللغة الإيطالية في ترتيب الكلمات ، وإمكانية بدء الجملة بضمير المفعول اللامنبور يسمح لها مع ذلك بأن تقدم نفس ترتيب العناصر كما في الفرنسية . هكذا ، فاللغتان تتبعان ، ولكن بأبنية نحوية مختلفة ، الترتيب الطبيعي للأفكار المتوفرة لدى شخص يود الإفادة عن هذا المضمون : يعاني والمعاناة برأسه ، والعناصر الدلالية العميقة هي نفسها لم تتغير ، أما ترتيبها السطحي فمختلف ومتطابق مع قواعد اللغات الخاصة . يبدأ المترجم بتحليل الجملة في اللغة المنقول عنها إلى عناصر دلالية أساسية، ثم يبني تباعا جملة اللغة الهدف Lengua final وفقا لقواعدها المعمول بها ، بصورة أعم ، يمكن القول أيضا بأنه لا تتم الترجمة كلمة بكلمة وإنما جملة بجملة . والعبارات الاصطلاحية مثل : إنها تدق الخامسة " وبمعنى " " تتم ترجمتهما جملة . ولامتداد هذا الأسلوب على الوحدات

الأكبر من الوحدات النحوية البسيطة ، تبدو الترجمة أقل استحالة على ضوء البنيوية الكلاسيكية وكلما اتسعت بنية العلامات قلّت تعسفيتها .

هكذا ، ترى أنه على ضوء علم اللغة الحديث لابد من ترجمة الفروقات اللفظية والنحوية بين اللغات باعتبارها متغيرات سطحية حول موضوع أعم وأشمل (بنية عميقة) وبداية من التحليل إلى وحدات نحوية ، يصبح من الممكن حتى فى لغة لا تميز بين " ابن " ، " ابنة " و بين " أخ " ، " أخت " ، أن ندلّل على أن الفرد الذى نتحدث عنه مذكّر أو مؤنث . حيث تتم ترجمته بصورة ترتيبية . والصعوبة الأساسية فى الترجمة لا تكمن فى أبنية اللغات . فمن الممكن أن تروى بطريقة أو بأخرى ، نفس الحكاية بأية لغة. وتتمثل العقبة التى تقف أمام الترجمة فى الفروقات الحضارية بالمعنى العام للكلمة (التاريخ ، التراث ، العادات ، النظام الاجتماعى ، العلاقات الإنسانية ، السياق الطبيعى والثقافى وسبل العيش التى تستنبط منها ، الدين ، الأساطير ، إلخ) فى الحالات التى تستعصى فيها ترجمة الحضارات ، لابد من البحث عن الأبنية العميقة الأعم ، وبعد ذلك ترى أى العناصر ضمن إطار اجتماعى ، يتوافق مع نظيره الآخر فى الحضارة المختلفة .

هناك صعوبة خاصة تعترض طريق المترجم بالقدر الذى يصبح فيه المضمون والتعبير عن الرسالة مترابطين عبر علاقة تبعات متبادلة ، حيث بالتالى لا تأتى الأشكال أو الكلمات مختارة فحسب ، أو فى المقام الأول نظرا لمضامينها، وإنما لأن الأصوات والمجموعات الصوتية تعكس عناصر مضمونية . إن مهمته لا تنحصر فى التمييز بين العلامات فقط . هذا هو ما يحدث فى الشعر ، وبالإمكان أن يحدث كذلك فى النثر (النثر الموزون ، النثر المقطوع ، إلخ) وفى الرسائل ذات المعنى أو الوظيفة التعبيرية ، فى الإعلان والدعاية . ستكون هناك فرصة للعودة إلى مثل هذا الموضوع ، ولكن نبرز هنا أن هذا الحال يعد من الطبيعة التى تمكنه من طرح صعوبات محددة للغاية أمام المترجمين . والمصطلح الدلالى الدقيق فى لغة أخرى يمكن أن يكون خاليا

من أية قيمة تعبيرية أو تقليدية ،والمترجم يجد نفسه أمام الاختيار بين الكلمات الخالية من هذه القيمة ، لكن بالمعنى الدقيق ، والكلمات المختلفة التي تستدعي نفس الدلالات .

الشعر والتعبيرية يحدثان الجانب الجمالي في اللغة كذلك . فحين نُقدم على الكتابة أو الكلام نفكر في المضمون أكثر من التعبير . وهذا يكون نتيجة اختيارنا للعلامات لا هدفا نسعى إليه بذاتنا في الشعر الغنائي ، يصبح اختيار الوحدات والخصائص الصوتية (القوافي والإيقاعات) أمراً أساسيًا . ويتمثّل هدف الشاعر في نقل القيم التي تعبر عنها العناصر الصوتية . ومع ذلك ، فإن هذا لا يعد حقيقة مجرد قضية جمالية . والقيم التي تحدثنا عنها الآن بالضرورة أن تكون إيجابية .

ولنلفت النظر هنا إلى جانب آخر بعيدا عن هذه الوظائف الثانوية للتعبير (صياغة الكلام) ، أهناك فروقات جمالية وتناغمية قياسية من الناحية الموضوعية بين اللغات (اللهجات ، اللهجات الطبقية الاجتماعية ؟ هل من تبرير لوصف هذه اللغة بأنها أجمل أو أقبح من الأخرى ؟ هل الفرنسية التي يتحدثها الفنانون الكبار "للكوميديا الفرنسية"، من الناحية الموضوعية ، أجمل من تلك التي يتحدثها الحمّالون في محطة الشمال للسكك الحديدية ؟ ربما هذا الانطباع الخاص بالجمال ينسب إلى شيء آخر غير اللغة، أو هناك ، على سبيل المثال ، تفضيل عام – بعيدا عن لغة المتكلم – لأنماط معينة من الأصوات (الصائتة أو الصامتة) والتي نظراً لسيادتها في لغة ما يمكن أن تجعلها أكثر جمالاً (" ألطف على السمع " إلخ) من غيرها ؟ نوقش هذا السؤال كثيراً وتم طرح علامات صوتية وضبطنطقية على أنها المسئولة عن هذا أو ذاك من الانطباعات الجمالية للغة .

ساد الزعم بأن الحروف الصائتة ، بمالها من جهورية وجرسية ، تبدو أكثر جمالا من الأخرى (الصامتة) وأنه ، بالتالي ، يبدو توفر الحروف الصائتة في التراتيب الصوتية علامة إيجابية جمالية . وبنفس الصورة ، فإن الأحرف الصائتة ذات الجرس الواضح والمحدد ، في أي موضوع ، تصبح ألطف من الحروف الصائتة ذات الجرس

الخفيف . وفقا لهذه المعايير يمكن الإعلان عن أن اللغات الجرمانية والسلافية بما فيها من مجموعات صامتة عديدة أقل جمالاً من اللغات الرومانثية بمجموعاتها الصامتة الأبسط . الإيطالية والإسبانية تصبحان أجمل من الفرنسية التي ، بإقلالها من استخدام الحروف المتحركة اللامنبورة وسقوط الحرف e الأخير (بداية من القرن السابع عشر) ، فقدت كثيرا من جهورية الرومانثي الأولية . والإسبانية تصبح أجمل من البرتغالية حيث الحروف الصائتة اللامنبورة تأتي ضعيفة بدرجةٍ كبيرة . والسويدية تكون أجمل من الدانمركية نظرا لتقليلها للحروف الصائتة المماثلة المعمول بها في السويدية (كل الكلمات التي تنتهي بالحرف a القديم في اللغة السويدية تنتهي بالحرف e في الدانمركية) .

الحروف الصائتة الخالصة تعتبر دائمًا أجمل من الأخرى المكونة للمقاطع الثنائية. تحت هذا الجانب ، تصبح الفرنسية أجمل من الإنجليزية أو البرتغالية . والصورة الأنفية تم تصنيفها في بعض الأحيان من بين الاعتبارات الجمالية السلبية . والحروف الساكنة " الصامتة- الصائتة " هي أيضا أجمل من الأخرى المكتومة . واختفاء الجهورية في المقام الأخير في الألمانية السلافية يبدو أقل جمالاً من الحفاظ على الجهورية في اللغة الفرنسية . والحرف r القوي يعد ، بسبب جهوريته العالية ، أجمل من الحرف r الاحتكاكي (في البداية كما في الإنجليزية أو الختامي كما في الباريسية) الحروف المزمارية هي دائمًا أقل تقديراً من قبل الشعوب التي تجهلها (الحرف h وضربة لسان المزمار أمام حرف صائت في بداية اللفظة في اللغة الألمانية) . هذه الحروف المزمارية هي التي تضفي على العديد من لغات الشرق الأدنى وأفريقيا (العربية وغيرها) طابعا أجشًا وغير لطيف في وقعه على السمع الأوروبي . بهذه الملاحظة الأخيرة نصل إلى نقطة أساسية . عند تعداد هذه الملامح الصوتية القليلة ، لم نأخذ في حسباننا أصول مثل آراء التقييم هذه . أهي صادرة عن أفراد يتحدثون اللغة

أم عن أفراد أجانب . وفي هذه الحالة الأخيرة ، أيتعلّق الأمر بأجانب يعرفون اللغة أم يطلقون أحكامهم وفقًا لانطباع عام عن لغات مجهولة ؟

إنه لمن الصعب جدا التوصل إلى نتائج موضوعية قائمة علي شهادات ذات ردود أفعال جمالية حتى إذا أمكن ، بناء علي تجارب ، العثور على نوع من الإجماع في الرأى فيما يتعلّق بجمال أو قبح بعض أصوات اللغة (الحروف الصائتة ذات الجرس المحدود أو الأخرى الصائتة الضعيفة ، الحرف r الصائت أو الحرف r الاحتكاكى المكتوم ، إلخ) ، فليس من الممكن أن نزيل من ردود الأفعال هذه الآراء المتسرِّعة الناجمة عن الأعراف الاجتماعية المعمول بها لهذه اللغة . ولا يدرى أحد قط إذا كانت أحاسيس الجمال أو القبح عند المتكلم تأتى مرتبطة بنظرة الدونية أو الفوقية الاجتماعية للأصوات موضوع الدراسة في لغته التي يتحدثها أم إلى موقف يتعلّق باللغة التي تصبح فيها مثل هذه الظاهرة أمرًا طبيعيًا . ورد الفعل السلبى إزاء مجموعة من الحروف الصامتة أو الصمت النهائي في الألمانية أو السلافية ربما يكون محكومًا بمزاعم مسبقة بعيدة جدًا عن أهل اللغة . والمتكلم السويدى لديه رد فعل سلبى أمام المقاطع الثنائية الصائتة لأنها تتضمَّن دلالات دونية في لغته الأصلية . في اللغة الإنجليزية نجد الحروف الصائتة تشكل جزءًا من القاعدة ، كما في البرتغالية تمامًا . والمتحدثون بهاتين اللغتين يعتبرون بالتالي حالات الإدغام لحروف العلة في حروف الحركة واللهجات الجارية في بعض الأقاليم (في الإنجليزية والبرتغالية الأمريكية) أقل جمالاً . هناك خطورة قائمة تتمثَّل في احتمالية قيام هؤلاء الأفراد الذين يستجوبون ردود أفعالهم الجمالية بنقل تلك الآراء إلى المقاطع الثنائية في لغات أخرى . الصورة الأنفية العامة لطريقة الإلقاء تعد في بعض المتحدثين ، بعيدًا عن اللغات ، عيبًا في النطق يرجع إلى ضعف في وظيفة سقف الحنك (الحنك اللين) . هذا العيب ينظر إليه بصفة عامة علي أنه غير لطيف ومثير يؤدى إلى تدخل الأطباء أو المتخصصين بالمجالات الصوتية . وحين يتم إدراك ملمح مماثل متواتر في جمعٍ من البشر ويكون

جزءًا من عاداتهم الطبيعية – كما يحدث في بعض المدن الكبرى ، فيينا ، إستوكتولم ، بوينس أيرس – يراه المتحدثون الذين لا يملكون هذه الخاصية أمرًا قبيحًا؛ وذلك نظرًا لتشابهها مع عيب خلقي نطقي . والسويدى الذى يسمع كلمة Stod فى اللغة الدانمركية – التى تمثل نوعا من الصوت المزمارى – دون أن يفهم وظيفتها ، يقول إن اللغة الدانمركية مرض حلقيٌّ .

وردود أفعالنا إزاء الخصائص الصوتية للغات الأخرى تأتى محكومة فى جانب كبير منها بخبراتنا عن اللغات التى نعرفها تقريبًا ، وخاصة ، بخبراتنا عن متحدثى هذه اللغات . كما أنها ترجع أيضًا ، فى حالة معينة ، للقيمة الاجتماعية لظواهر مماثلة أو مشابهة فى لغاتنا الأم . تحت هذه الظروف ، يجب أن نشير إلى أن ردود الأفعال الجمالية فى مجال اللغات – أو بالأحرى فى مجالات النطق – تكون معقَّدة للغاية بحيث يصبح هباءً أن نجد مقاييس موضوعية كافية لتصنيف اللغات إلى جميلة وقبيحة .

أهناك جمال مضمونى ؟ القضية ما تزال إلى الآن مستحيلة للغاية . من الممكن الحديث عن نحوية تناغمية وعن أسلوب ظريف لأحد الكتاب ، بالقدر الذى تصبح فيه جاهزية العناصر فى التراتيب والنصوص ممثلة لصورة من التماسك والتناغم للأفكار المعبر عنها والعلاقات القائمة بينها . نعود إلى قضية اللغة والفكر ولتلك الأخرى المتعلقة بفوقية بعض اللغات على بعض من خلال وجهة النظر هذه . والناحية الجمالية ، إذا ما كانت هناك جمالية ، تكمن فى جمالية الفكر أكثر من جمالية اللغة .

إن مصطلح " إيديوليكتو " IDIOLECTO " قد أطلق كمفهوم متواز مع مفهوم اللهجة أو اللهجطبقية ليشير إلى العادات الفردية للمتكلم والكاتب . ورأينا من قبل أن الملمح الفردى يعود فقط إلى اعتبار لغوى بالقدر الذى يقلد فيه من قبل الآخرين الذين يتخذونه نموذجًا . وهذه العاداتية الفردية " أيديوليكتو" تصبح حينئذ غير ذات معنى . ومع هذا ، فما من شك فى أن الفرد ، لحظة الكلام أو الكتابة ، بمقدوره أن يعرب عن انحرافية عن القاعدة والمعدل اللذين ، دون أن يُقبلا كنموذجين من قبل الآخرين ،

يميزان شخصيته تماما، مثلما تعرب عن ذلك طريقته في السلوك والملبس، وهنا تصبح المشكلة المطروحة هي معرفة ما إذا كانت اللهجة ، في مثل هذه الظروف ، تلتبس بالأسلوب (الفردي) وما إذا كان هذا المفهوم يستحق مكانة منفردة في عملية الوصف اللغوي . يبدو لي بديهيًا أنه بمقدور المفهوم أن يفي تماما بوظيفتين : الانحرافية الفردية في الاستعمالات والقواعد المعمول بها إيديوليكتو هذا إلى جانب الأجناس القائمة على انتشار على نطاق واسع لعادات الجماعات المنحرفة المستخدمة كنموذج (= أسلوب مقيد للمعنى) . ويتمخض هذا الإدخال للمصطلح الأيديوليكتي عن اختفاء مفهوم الأسلوب الفردي (أسلوب أحد الكتاب ، إلخ) هذا المفهوم الأخير يخفي وراءه مع ذلك تقليداً ذا فرضية جيدة يتطلع للحفاظ عليه واستمراريته . وأحد الحلول يكمن في الحفاظ على مفهوم الأسلوب الفردي للإشارة إلى شكل الكتابة أو الكلام مترابط ومتقن الرسم ، خاص بكبار الفنانيين من الكتاب والمتكلمين ، والحديث عن عادات فردية (إيديوليكتو) فيما يتعلق بالملامح الشخصية أقل انتشاراً وأهمية ، بالنسبة للقارئ أو المستمع . سنمتنع عن رسم حد أو فاصل – إذا ما كان هناك حد أو فاصل – بين هذين المفهومين . وننهي كلامنا بإبراز الطابع الأسلوبي الرنان (الذي سنتناوله في الفصل القادم) .

الفصل الحادى عشر

مفهوم الأسلوب والوظائف الرمزية للغة

رأينا في الفصل السادس أنّ تواتر ظهور التيّارات اللغوية بمقدوره ، بالقدر الذى يبتعد فيه عن الشكل اللاقياسي لمتوسط معين ، أن يضفي على الرسالة قيمةً ما . كما أشرنا إلى دور بعض الاختيارات الواعية بصفتها اعتبارات أسلوبية . هذا المفهوم ودور الظاهرة فى عملية التُفاهم هما بؤرة اهتمامنا فى هذا الفصل .

عُرِّف الأسلوب (كما ذكر ماروزيا Marouzeau) بأنه استخدام الفرد للإمكانيات التي يقدمها له التركيب (النظم) . وبهذا يتماهى الأسلوب هنا مع الاعتبارات الفردية " أيديوليكتو " التى تحدَّثنا عنها فى الفصل السابق . من الممكن أن يوصف فى مصطلحات التواتر والأرقام التى توزع حول متوسط معين بأنه : الأسلوب المحايد ، غير المحدد . وبالقدر الذى تتخطّى فيه هذه الأرقام حدود متغير التوزيع القياسى يصبح من الممكن الحديث عن أسلوب خاص، وهنا يتماهى علم الأسلوب Estilística مع الدراسة الإحصائية للاستعمال اللغوى من قبل المتكلمين والكُتَّاب .

ومع ذلك فمن البديهى أن يكون هذا التعريف الكمّى للأسلوب وعلم الأسلوب غير كافٍ . فقط فى حالات نادرة نسبيًا تصبح العادات الفردية مهمة للوصف اللغوى . والخطأ النحوى (الناجم عن الإهمال) الفردى والمعزول لا أهمية له . فكم من أخطاءٍ ارتكبت فى كل اللغات وعلى مدى كل العصور ، فى اللغة المنطوقة والأخرى المكتوبة ، سواء أكان المتكلمون (أو الكُتَّاب) من كبار الفنانين أو من الأميين البائسين من ذوى

القدارت البسيطة . ومما يروى عن أحد رجالات السياسة المشهورين في السويد ، المعروف كخطيب بارع بخطبه السياسة الرائعة في البرلمان ، أنه حين سمع الطابع على الآلة الكاتبة في البرلمان كل الناس يمتدحون ذلك الخطيب ، صاح قائلاً : " إن هذا ، مدين لي بثلاثمائة جملة رئيسية !" الأخطاء لا تكتسب أهمية لغوية إلا بقدر ما يتم من تقليدها ودخولها إلى قاعدة الجماعة . الأخطاء النحوية لا تدخل في تقويم خصائص أي فرد من الناحية الأسلوبية . وهذا لا يأتي إلا في حالة ما إذا كانت الشخصية تتمتع بأهمية راجعة لسبب آخر غير الأخطاء النحوية - مؤلف مشهور ، عالم كبير، حيث يمكن لهذا الخطأ النحوي أن يحظى ببعض الاهتمام (أهمية نفسية أو غيرها) هناك أخطاء يرتكبها متكلمون وكتاب مجيدون تعد في بعض الأحيان ، مع ذلك ، دليلاً على ضعف القواعد النحوية لديهم وغالباً ما تأتي سابقة على تعديل لغوي حقيقي (شفهي أو مكتوب). وكثير من الظواهر التي تشكل في الوقت الراهن جزءاً من قواعد أية لغة بدأت كتقليد لأخطاء ناجمة عن الإهمال .

وتعريف الأسلوب بأنه زيغ فردي لا يعد كافياً خاصة لأنه يخرج به أجناس الحقل الأسلوبي، أي ، مظاهر هذا المفهوم الأكثر أهمية بلا مقارنة . الأسلوب الفردي يدخل في دائرة اهتمام علم اللغة بقدر ما يشغل فيه هذا الفرد مكانة بارزةً وتصبح لغته (أدبه ، بلاغته ، إلخ) نواةً لتكوين مدرسة ، وأي جنس من الأجناس هو استخدام يتميَّز ببعض التفضيلات والاختيارات التي تجعله يصل إلى درجة التقابل مع لغة محايدةٍ وأجناس أخرى بعيدةً أيضاً عن نفس الوسط . بالإمكان تعريف الأسلوب نسبة إلى وظائف التفاهم المختلفة بأنه : الأسلوب الرسمي للوثائق العامة ، أسلوب الصحافة (والذي يتنوَّع بدوره وفقاً للطابع الغالب للمنشور السياسي ، الثقافي، إلخ) والأسلوب المكتوب أو المنطوق في الاتصالات الشخصية (الرسائل ، المحادثات ، المناقشات) ، أسلوب مهمل ، وهكذا دواليك ، وما يتغير هنا هو قيمة هذه المستويات الأسلوبية، وفقاً لتطور المجتمع . وبالتالي فإن الأسلوب هو الآخر قضية موضة . وهذه التغييرات في

الموضة الأسلوبية إمّا أن تكون مقصورةً على مجال لغوي معين ، وإما أن تراها وقد انتشرت بين أرجاء حقل أكبر يمثل في هذه الحالة وحدة حضارية . نذكّر مرة أخرى هنا بالدور الذي لعبه الأسلوب الأدبي الكلاسيكي الذي أعطى عبر الأدب القديم والنصوص المسيحية للغات الحضارات الغربية مظهرا متجانسا نسبياً .

على ضوء هذه التعديلات المستمرة للنموذج الأسلوبي ، تمّ التوصل إلى نوع من عدم الثقة فيما يتعلق بدرجات أجناس قائمة تمتد جذورها في تربة التراث . نشير إلى بعضها متبعين ما قاله ب دوبريز B.Dupriez (دراسة الأساليب ESTUDIO DE LOS ESTILOS 1966).

- الشعر الملحمي ، الغنائي ، الوجداني ، الرثائي ، الرعوي ، الهجائي ، الأنشودة، قصيدة قصصية صالحة للغناء .
- أغنية ، أحجية ، قصيدة نثرية .
- التراجيديا – مسرح العرائس – الكوميديا – التراجيكوميديا ، الساينيت (مهزلة شعبية من فصل واحد) ، مسرحية رعوية ، أقوال مأثورة ، الفارس ، استعراض غنائي راقص
- رواية قصيرة ، أسطورة ، خرافة ، حكاية ، قصص الرحلات (خيالية أو غيرها)، حكاية تاريخية ، تعليمية ، بوليسية .
- رسالة ، ذكريات ، يوميات شخصية ، سيرة ذاتية ،أفكار ، حكم وأمثال .
- خطاب ، صورة ، مديح أو تقريظ ، يوتوبيا (وهم أو خيال) .
- مقال ، حوار فلسفي ، مقالة .
- تقرير صحفي ، تعليق صحفي ، تقرير ، رواية .
- نداء ، إعلان ، دعاية ، إرشاد .

من الملاحظ أن الانماط المذكورة تحت هذه العناوين لا ترجع ، في الاستعمال الراهن إلى فروقات دائمة لعادات لغوية .

لابد من البحث عن عناصر الأسلوب في كل المستويات اللغوية . في مستوى النطق الثاني (التعبير) تظهر في لغة الكلام الوحدات الصوتية ، ومجموعات الوحدات الصوتية ، المقاطع ، سلاسل المقاطع وكل الاعتبارات الضبطنطقية التي ، بداية من المقطع وانتهاءً بالنصوص ، تستخدم لمناقضة وإبراز السلاسل الصوتية ، والاختيار الواعي للوحدات الصوتية يفرز نتائج ذات انسجام صوتي صائت وتقابل جرسي (الحروف الصائتة) ، وجناس وتقفية (القوافي الساكنة وغيرها من الساكنة + الصائتة) الإيقاع الأسلوبي (في الشعر والنثر المقفّى) هو استعمال واع ومنهجي للعروض (تغييرات الكثافة والإيقاع في مستويات مختلفة) يقال إن التغيير المنتظم للإيقاعات (المختلفة عن الكلمات) يلعب دورا هامًا في الشعر الصيني . والاعتبارات التابعة لفن الكتابة ، فن ضبطنطق الكلام هي من بين اعتبارات أخرى استخدام الحروف الكبيرة ، علامات الترقيم ، وسائل تجهيز النص(أمكنة – مسافات – فصول) واستخدام حروف طباعية أو أخرى ضخمة وثقيلة .

وعلى المستوى النحوي ، يمكن التلاعب بالأبنية والتكرار وترتيب الكلمات وتركيب الجمل ، وطول التراتيب واللواحق (التصغير ، التحقير ، إلخ) ، وثراء أو فقر الصفات، إلخ، أما على المستوى المعجمي ، فمن الممكن أن يظل اختيار الكلمات (الفكرية ، العاطفية ، المثيرة للأحاسيس ، الترادف ، التجانس في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، التورية) قابعًا داخل الأطر المحددة من قبل المعنى أو يتخطاها إلى حين . وما هناك من موضوعات مفضلة يعد أمرًا مقصورًا على ما لكاتب من خصائص أو على جنس من الأجناس . هذا يأتي مساويا لقولنا إن العالم الأيديولوجي والعاطفي لكاتب ولجنس من الأجناس يوجد بين العناصر الأسلوبية الخاصة بأيٍ منهما . هذا الذي سقناه يعد توسيعًا لمفهوم الأسلوب والذي قد يبدو غريبًا لدى البعض . ولكن نظرًا

لأن الضرورة تدعو لوجود علاقة معينة بين الموضوعات والأشكال اللغوية المستخدمة فى نقلها ، يصبح من الصعوبة بمكان أن نلغى تمامًا موضوع الوصف الأسلوبى . فى حقيقة الأمر ، نراه يمثل جزءًا تكامليًا داخله .

أشرنا فى الفصول السابقة ، باختصار شديد وبدون تعمق ، إلى أن اللغة تدخل فى شبكة من العلاقات مع بقية العناصر المدرجة في عملية الاتصال أو التفاهم . تكلمنا في المقام الأول عن العلاقات القائمة بين المستويات الشكلية للعلامات والعالم الخارجى عن اللغة (الصوت والمعنى) فى النظام النفسى - اللغوى لبهلر Buhler، يطلق على العلاقة القائمة بين اللغة و"الشيء" علاقة رمزية (الفصل الخامس) ورأينا أن هذه الوظيفة هى التى تشغل ، بال إنسان الحضارة الحديثة فى عملية التَّفاهم ، فى المقام الأول، أو فى أى حال ، تكون مقبولةً بصفة عامة كأساسٍ فى علوم اللغة .

ومع ذلك ، فهناك أيضًا علاقة تعمل على ربط الاعتبارات اللغوية بالمتكلم (الكاتب) ورأينا أنه بمقدور الكلمة أن تكون تعبيرًا عن شيءٍ ، والمنطوق يعد دليلاً على موقف معينٍ ، أو حالة الأشياء ، أو الأصل الجغرافى أو الاجتماعى ، أو درجة الثقافة ، إلى آخره ، الخاصة بهذا الشيء . وأسلوب الكتابة أو الكلام يمكن أن يخبر عن الخصائص الشخصية الخالصة ، الدائمة (الإهمال ، الحذلقة والتكلف ، الهدوء أو العصبية ، إلخ) أو العابرة (التعب ، المرض ، السُكر أو التشوى) وفى النهاية ، فإن المنطوق أو بعضًا من العناصر المكوِّنة له يمكن أن يكون دليلاً للمحاور على رد الفعل بهذا الشكل أو ذاك. والأمر يتضمن فى ذاته في المقام الأول وظيفةً مفادها توجيه العمل لدى شخص معينٍ ، سواء أكان صادرًا فى الشكل النحوى لصيغة الأمر أم لا . فإذا قلت لشخص " الدنيا تمطر " فهذا المنطوق يمكن أن يكون مجرد إخبار بسيط عن حالة الطقس القائمة ، إلا أنه يمثل نصيحة بعدم الخروج إلا بحمل مظلة واقية للمطر معه . والخطاب الإعلانى الدعائى يتضمَّن فى مجمله رسالةً قائمةً على الرغبة فى التأثير على المستمعين . ويلحظ وجود الوظائف الثلاث رفيعة الشأن فى هيكل بهلر للتفاهم تحديدًا منذ اللحظة الأولى

التى يبدأ فيها تنفيذ (أداء) الكلام أو الكتابة . وما لها من نفوذ يُلحظ فى صور شتى. أما رد الفعل عند المستمع ، على سبيل المثال ، فلا علاقة لها بالوظيفة الإشارية . بالإمكان أن تلغى رد الفعل وعادةً من يتم عمل الوظيفتين الآخريين جنبًا إلى جنب . والشعر الغنائى الوجدانى بإمكانه أن يعبر فى نفس الوقت عن أحاسيس الشاعر ويلقى بظلال تأثيره - المرغوب أو غير الواعى - على المتلقى .

يُعَدُّ جدول بهلر BUHLER وسيلة تحليلية ممتازة للاعتبارات الأسلوبية . وهذه الاعتبارات هى التى تقوم بوظيفتى الإشارة أو العرض الدلالى . والمحاور (القارئ) يحدث عنده رد الفعل فيما يتعلق بانحراف المعدل عند متكلم ما (المؤلف) - عما هو طبيعى أو غريب - أو يفسر على أنه عرض لشىء فى هذا الأخير أو إشارة لآخر (حاضر ، غائب، متخيَّل) . وسوف نرى أمثلة محددةً لهذه الوظائف عند الحديث عن وظيفة التعبير كمضمون (فيما بعد) ولنضف هنا فقط أن سيادة أول هذه الوظائف الثلاث عند الإنسان الحديث والمجتمعات المتقدمة هى بلا شك حديثة ، بصورة نسبية . والطفل يتكلم ليعبر عن شىء فى مكنون نفسه أو فى المحيط الذى يعيش فيه أكثر من روايته لأحداث وقعت أو عاشها والقردة الكبيرة لا تتجاوز هذا الطور الطفولى . ويبدو لنا أنه من المشروع تمامًا أن نفترض بأن الرمز الشامل لدى أسلافنا من الحيوانات الرئيسية قد لعب دور الإشارة (صيحة إنذار ، إلخ) والتعبير عن المشاعر (المعاناة ، السرور ، إلخ)

وحين يقال إن التعبير يتحوَّل إلى مضمون ، يفهم من ذلك أنه ، على عكس وظيفته الطبيعية يتحوَّل إلى الغاية التى يهدف إليها المضمون . والأبنية الصوتية الوظيفية وما تقيمه من أصوات تفرض نفوذها على المضمون ، أمَّا القوافى والإيقاعات فتنقل الرسالة الانفعالية التى يود الشاعر نقلها . والمضمون يتوارى خلف جمال التراتيب الصوتية ، أمَّا الأمور الأخرى ، كما فى الغناء ، فهى عامة وكثيرةٌ للتعبير. والمترجم للشعر يبحث ، إذن، فى اللغة - الهدف عن مرادفات للكلمات والإيقاعات والقوافى قبل البحث عن نوع

التماهى مع التراتيب الخاصة بالوحدات المعجمية والأبنية النحوية . فى القصيدة تمثل القافية الناشز ضرراً أكبر بكثير من الاختيار غير الموفق للكلمة، وهذه السلطوية التى يحظى بها التعبير تعد هى الأخرى ملمحاً مميزاً للغة الطفل . الأطفال يلهون بوحداتهم الصوتية ، يتسلون بعمل تراتيب مقطعية خالية المضمون أو ذات مضمون هين . وغلبة المضمون على التعبير هى أيضا، بالتالى ، اعتبار حديث نسبيا فى الإنسان ، يرجع إلى وضع اللغة فى الإطار الفكرى الذى يحدث بصورة متوازية مع بقية سلسلة التطور . من السهل أن تخدع بحالة اللغة فى أطوارها الأولى إذا ما تركز اهتمامها فقط على الوظيفة الدلالية والإشارية للغات . والقاعدة نفسها بعد استخدامها كوسيلة فنية وأدبية تتوارى عن مجال أفكارنا . وربما يمكن التوصل أيضا إلى نتيجة – مع قليل من الاستخدام السيئ للمصطلح – مفادها أنه عند تطور اللغة لدى الإنسان بات الشعر يحتل المكانة الأولى السابقة على النثر .

هذا التحول للتعبير إلى مضمون لا يقتصر على الاعتبارات الصوتية الوظيفية والضبطنطقية البسيطة (الجناس ، القوافى ، الإيقاعات) من الممكن أن تضيف القراءة بصوت مرتفع الكثير إلى قيمة العمل (وتدمر الكثير أيضا) ليس هناك من شك فى أن بعض الخصائص الفردية (الصوتية ، النطقية) يمكن أن تساهم فى هذا (فى الاتجاهين) ولكن إضافةً إلى ضبط النطق فى ذاته ، نجد هناك تراتيب تعبيرية فى وحدات كبيرة أو صغيرة ، ومحددة بصورة مختلفة ، تساهم فى أن تصنع نوعاً من المضمون (أسلوب متناسق) وفصل التراتيب ، الوقفات على وجه الخصوص ، يلعب دوراً هو فى النص المكتوب مسئولية علامات الترقيم – أو فى الشعر الحديث دائماً غياب علامات الترقيم . وهكذا فما هناك من شك فى أن غيبة أى علامة خارجية خاصة بنطق الأجزاء ، فى نصوص كلاودى سيمون CLAUDE SIMON، تعد نوعاً من المضمون المنقول عبر النص والمتضمن لرسالة يمكن فهمها أو لا .

من المعلوم أن وضع علامات الترقيم داخل النصوص ظاهرة حديثة جدا . فالفواصل والنقاط ، وحتى الفراغ المتروك بين الكلمات ، والنقاط الختامية للأجزاء المكوِّنة للنص تنعدم دائما في النصوص الكلاسيكية . جاء النص مقصوراً على القراءة بصوت مرتفعٍ ، وغدت مهمة القراء تقسيمه إلى أجزاءٍ بما يسمح بترجمته ترجمة صحيحة . هناك من الشواهد التي تبرهن على القراءة بصوت مرتفعٍ دون حضور جماهيرى (قراءة المرء لنفسه) هناك مثال في: "صنائع الحواريين" (الفصل الثامن) لحديث يدور عن رجل أثيوبي كان يقرأ - جالسًا في سيارته ، نصًا نبويًّا . اقترب منه رجل يدعى فيليبي قائلا له : إنه قد سمع موضوع القراءة . بهذا الخصوص ، لفت عالم الحضارة الهيلينية السويدى ألبرت ويفستراند ALBERT WIFSTRAND الانتباه إلى ثراء عناصر الربط في النثر اليوناني المقارن بالنثر في أية لغة أوروبية حديثة : أكثر اليونانيون من استخدام حروف الربط ، الظروف، الكلمات الدلالية إلى حدٍ نتحاشاه نحن ، خاصةً أنهم كانوا يستعملون عادة ألفاظًا مباشرةً دالة على مكان انتهاء أحد المقاطع ونقطة بداية الآخر ("الآن روينا حكاية ... وسوف ننتقل إلى وصف كيفية ... إلخ) في حالة مناظرة ، نجد النص الحديث يحدد الانتقال إلى شيء آخر عن طريق النقطة الختامية وبداية جزء جديدٍ ، صفحة جديدة ، إلخ أو من خلال تصدير أولى . وبالتالى ، يمكن القول بأن النصوص القديمة قد ضمنها أصحابها عبر جمل وصيغ عديدةٍ ، تعبيرات عن نفس الوظائف التي يتم التعبير عنها ، في نص حديث ، باستخدام علامات الترقيم وترتيب الصفحات رقميًا - اعتبارات تعبيرية (كتابية) تتحوَّل إلى مضامين . من الممكن الإشارة إلى أنه في الوقت الذى لم يكن فيه الضبط الكتابى كافيًا لتحديد بنية النص (أو الخطاب) أقدم اليونانيون على ذلك كله باستخدام الشروح الدالة عليه .

ونص له مثل هذه المميزات الخاصة ، والملامح الأسلوبية والنوعية ، بما له من موضوعية، وأسلوب صوتي وظيفي ، منطوق أو مكتوب بمقدوره ، بفضل نفس هذه

الملامح ، القيام بمهمة الرمز الشامل ، الكامل ، لمضمون يأتي هو الآخر في صورة كاملة . وهذه اللاقابلية للانقسام على المستوى الرمزى تتواءم ، بالطبع ، مع تجزئته لمجموعة من العناصر الأساسية المتراتبة في مستويات أدنى. فالخطبة الدينية ترمز إلى الدين ، في مجمله أو جزء منه . وخطاب الدعاية السياسية هو أحد الرموز المفصحة عن الأيديولوجية التي يعبر عنها . والشعر يرمز إلى حالة الشاعر النفسية ، إلخ . ويعد فيكتور هوجو VICTOR HUGO، رمزًا للرومانتيكية الحديثة ، بما فيها من انحرافات عروضية ، وموضوعات رومانتيكية ، وخلفية إسبانية ، جميع أجزاء العمل ، بداية من أصغر التفاصيل وانتهاء بالعمل في مجمله ، يمكن لها أن تمثل شيئا ، أو تمثل الكل المتكامل . والمحمل الخشبي الوارد في السطور الأولى " الهرناني " HERNANI (السلم الخلفي) والبحر السكندرى (اسم لبحر قديم من بحور الشعر القشتالى) الذى كان يحتوى على ثلاثة أشطار شعرية كانت ترمز إلى القطيعة مع القواعد الكلاسيكية . وكذلك فمن الممكن أن نرى في آتاليا Atalie، خاتمة التراجيديا الكلاسيكية الفرنسية رمزًا لجميع أجناسها . بمقدورنا أن نستمر إلى ما لا نهاية في سرد الاعتبارات الرمزية في النصوص المكتوبة والشفهية . الاستعارات والكنايات (المجازات بشكل عام) ، بالإضافة إلى أسلوبها في تحديد سمات النوع ، من الممكن اعتبارها ممثلة لفترة أدبية معينة . وكل عمل عظيم – أدبى ، علمى ، سياسى – يمكن أن يمثل اتجاهًا معينًا ، مدرسة ، حركة ، ثورة . تجب الإشارة ، وفقًا لتعريفنا للرمز ، إلى أن قيمة الرمز تنسب إليه من الخارج إنه " أمر نظامى " دون أساس في طبيعة الأشياء ،يقوم بالوظيفة الرمزية .

نوضح مرةً أخرى أن هذا الاستخدام لكلمة " الرمز " (" الرمزية ") يأتى متوافقًا مع الاصطلاحية المستخدمة في هذا الكتاب وأنه لا علاقة لها بوظيفة الرمز الثلاثية عند بهلر BUHLER المشار إليها آنفا (= العلاقة بالدال) .

النص عبارة عن جاهزية تراتبية مضمونية لمجموعة عناصر مكوِّنة لنموذج ينتمي إلى لغة معينة، وكما علمنا من قبل فالنص هو علاقة لغوية طويلة مركبة . من هذا نستنتج أن النص تركيب يتكوَّن من عناصر يضمن لها الترتيب والبنية تناسقًا سيمولوجيًا ودلاليًا معينًا . يخرج بهذا التعريف للمضمون النصى كل تعداد للعناصر المعزولة (الشروح أو الأشكال النحوية) التمارين النحوية المعروفة من قبل المدرسة التقليدية مثل : amat/amas/amo (تصريفات شخصية للفعل) أو servo ,servi,servis لا تدخل في إطار النصوص . والنص الذى يستحق هذه التسمية تتم قراءته ضرورة عبر قواعد ضبطنطقية طبيعية . في السلسة الكلامية تأتى قراءة كل عنصر على انفراد . ومن جانب آخر ، فمفهوم النص لا يعنى جبرًا منطقية لا تخطئ، أو ضمانًا ذا حقيقة تجريبية . المثال ، Le coi de France Oscar , morten 1771 , était chauve (أوسكار ملك فرنسا ، المتوفي عام ١٧٧١ ، كان أصلع الرأس) لا يشتمل على شيء من اللاقياسية من خلال وجهة نظر نصية . إنها جملة تامة ومقروءة لها قواعد ضبطنطقية لغوية ونحوية سليمة . ليس هناك من ملك فرنسي قط يحمل اسم أوسكار ، وما هناك من ملك توفي عام ١٧٧١ ، والملك الأصلع الوحيد المعروف هو "كارلوس الأصلع " عاش في القرن التاسع . ولكن الجملة متخيلة تماما في إطار رواية ذات بواعث تاريخية ، أو ضمن نص مكتوب بمناسبة إنعام معيَّن . ومن الممكن أن تدخل الجملة كعنصر مكمل ضمن وحدة أكبر لها نفس الطابع . إنها متناسقة ومرضية كأحد عناصر النص ، في حالة ما إذا كان الجزء السابق عليها والتالي لها غير متعارض معها. وبنفس الطريقة التي يكون فيها ترتيب الوحدات الصوتية التي لا تعتمد على بنية معينة ممثلا لنص ، لا يصبح الترتيب الجملي أيضا ممثلا لصورة نصية ، حين لا يكون هناك علامة خارجية أو داخلية لعلاقة بشيء ما . والفارق بين الرواية وبين سلسلة من المقالات يكمن في أن المقالات تأتي مستقلة فيما بينها . أما الرواية فهي تشكِّل كلاً (علامة وحيدة طويلة) ، تجميعا لسلسلة من النصوص (العلامات) التي

يمكن لها مع ذلك أن تأتى مرتبطة عبر فكرة معينة أو تطابق فى البنية الموضوعية التى تضفي عليها نوعًا من التماسك وتُقرِّب مجموعة الروايات البسيطة من الرواية الأم .

من البديهي أنه لا توجد رواية تأتى منعزلة عن سياق كلي ، أدبي ، اجتماعي ، إلخ . الرواية تأتى مرتبطة بمحيطها عبر أنواع متعددة من العلاقات ، خاصة بروايات أخرى ، إلا أن هذه العلاقات ليست بنيوية بالمعنى الدقيق (لغوية ودلالية) مثل تلك التى تضمن وحدة تجميع الروايات الفرعية . وهاهو تسيفتان تودوروف Tzvetan Todo-rov يميِّز بين جوانب ثلاثة للرواية التى يطلق عليها " الدلالية " النحوية ، الفعلية ، فالجانب الدلالى هو " ما تمثله الحكاية وتثيره ، أى المضامين المحددة التى تحملها على وجه التقريب " والجانب النحوى بالنسبة لتودوروف هو " تألف الوحدات فيما بينها ، العلاقات التى تنشأ بينها بصفة متبادلة " وأخيراً ، فالجانب الفعلى هو " الجمل المحددة التى تتم بها رواية الحكاية " والوحدة النحوية الأساسية تسمى عند تودوروف "بالجملة " ، وهى عنده شىء غير قابل للتجزئة (فى المستوى موضوع الاختيار) والعلاقات بين الجمل يمكن أن تأتى على ثلاثة أنواع : منطقي ، زماني ، مكاني . النوع الأول هو نمط السبب والمسبب ، أما الثانى فهو عبارة عن تسلسل بسيط فى الزمن، والثالث يتعلق بالتوازى المكانى . وليس بمقدورنا هنا مواصلة تحليل هذا المنهج الخاص بتودوروف ، المنهج الذى استخدمه هنا فى الوصف الممتاز الذى طبقة " على القواعد الروائية " الواردة فى الديكاميرون " لبوكاتشيو DECAMERON DE BOCCAC-CIO وكما تعتمد الجملة النحوية على مجموعة من القواعد تأتى الرواية مبنية هى الأخرى على أساس من قواعد يعمل بها فى مجال الحكاية والقواعد الروائية . وحكايات بوكاتشيو المقتبسة بصفة خاصة من أجل برهنة منهجية على هذا المستوى تأتى أعلى من القواعد الأصلية. إنها سلسلة من الحكايات المحددة والمستقلة سطحيًا يضمن وحدتها نوع من التماسك القوى .

رأينا أن تطبيق ضبط الكتابة لوحدات النصّ إذا توقف ، وإذا ما تجاوز الأمر استمرارية فقرة طبيعية ، تصبح كل وحدة جديدة ، من ناحية ضبط النطق ، تكرار للسابقة . اللغة المكتوبة تسمح بتجزئة النص من الناحية النظرية إلى ما لانهاية، الفصول ، الكتب ، إلخ ، التي تخلف علامات ترقيم ونقاط نهائية للمستويات الأدنى ، تقسم الأعمال المكتوبة وفقا لعلاقاتها المضمونية وبنيتها الموضوعية . الإنجيل يقدم لنا مثالاً نموذجيًا لبنية تراتبية ، بداية من " الآية " - الوحدة النصية الأدنى - مروراً بالفصول و" الكتب "(الأناجيل ورسائل العهد القديم) حتى الوصيتين المتضمنتين توزيع الكتب المقدسة بداية بوحدتين منفصلتين في وضوح تامٍ : العهد القديم ، أمام أعين المؤمنين ، يصف تطور العالم المخلوق وتمهد ، على يد أنبيائها ، الطريق لوصول السيِّد المسيح ، والبشارة التي تبلغ الرسالة الإلهية لهذا المسيح . إنه تقسيم مطلق ومحدد بالوظيفة الدينية للنص . والمؤرخ والأديب اللذان ينظران إلى النصوص الإنجيلية في سياقها التاريخي والثقافي والأيديولوجي وفي علاقاتها بالوثائق الأخرى للفترة وبالفلسفة الخاصة بالعالم اليوناني الشرقي - سيجدان تقريبًا - محض افتراض من جانبنا سبق لإبراز قاعدةٍ معينة - أبنية أخرى ممكنة لتجميع لنصوص قديمةٍ باللغة العبرية ، والآرامية واليونانية التي نطلق عليها التوراة . ربما يصبح من المهم أن ندرج، إضافةً إلى ما تمَّ عمله ، نصوصًا تجمع بينها علاقة مصاهرة ، استبعدتها الكنيسة لاعتبارها نصوصاً " محرَّفة ".

في الحقيقة ، يعد الإنجيل مثالا رائعا للخطاب ، يأتي تماسكه مرسوما بالرسالة الدينية التي يبلغها (" خطاب الرب ") وبالتالي ، إذا ما كان لنا أن نعتبر الإنجيل خطابًا ، أو تسلسلا حرا لمجموعة من النصوص (التاريخية والأدبية والدينية المجموعة بين دفتي أحد المجلدات) ، فإن ذلك يعود إلى إمكانية أو عدم رؤية القارئ لفكرة دينية، أو رسالة إلهيةٍ في مثل هذه النصوص .

يبدو لنا من الممكن تطبيق وجهة النظر هذه على كل عمل مكتوبٍ ، أدبيا ، أم غير أدبي والتوصل إلى قرار بشأن ما إذا كان العمل موضوع البحث (الأعمال الكاملة لأحد الكتاب ، مجموعة أشعار شعبية أو وثائق تاريخية) يمكن أن يسمح لنا بالنظر إليه كخطاب فريد كبيرٍ أو كمجموعة من النصوص المنفصلة من بين هذه الخطابات المتسقة بما فيها من فكرة عامة نشير إلى أعمال كبار الفلاسفة(أفلاطون ، كانت، برجسون) PLATóN , KANT, BERGSON، وأعمال كبار رجال السياسة (ماركس أو لينين) MARX O LENIN، وكبار العلماء (نيوتن، أنشتاين ، بوهر NEUTON ENSTEIN,BOHR ، أو كبار الكتاب الإنسانيين (همبولديت ، سوسير ، جاكسون) HUMBOLDT, SAUSSURE ,HAROBSON، مثل هذه الأعمال يمكن اعتبارها رمزاً لفكر علمي أو سياسيٍ متماسك .

كانت البلاغة منذ أرسطو العلم الذي يدرس العلاقة بين الفكر والتعبير اللغوى . في الفترة الكلاسيكية تحوّلت إلى علم وصفي يعني – بشكل ميكانيكى دائم – بتعليم أفضل الوسائل التعبيرية وصياغة القوانين المتعلقة ببناء النصوص (الشفهية والمكتوبة) منذ هذه الفترة أخذت البلاغة تتداعي وتسوء شهرتها، وظهرت محاولات لتجنب المصطلح المتعارف عليه بشأنها به ، ومع ذلك ، جاءت المحاولات العديدة تبغى إعطاء هذا المفهوم مضمونه الأصلي مما أدى إلى ميلاد جديد لعلم الاستعمال اللغوى بتقاليد قديمة جداً، بدأت البلاغة تستعيد مكانتها الخاصة بها فى إطار علم اللغة فى فرنسا وعلى يد رومان جاكسبون، وروونالد بارثيس ROMAN JAKOBSON Y RONALD PARTHES من المهم الإشارة إلى أن هذه البلاغة الجديدة تتجاوز بتوسع مجال فن الشعر والمجازات الأدبية التى تنسب إليها ، رغم أنها ليست سوى قطاع منها . وعلاقة هذه الأسلوبية الأدبية غير المكثّفة ، لا تدخل فى برنامجنا هنا . ومع ذلك ، فسوف نتوقّف عند المجازين المشهورين المعروفين : الاستعارة metáfora والكناية metonimia اللذين يقومان بدور كبير فى تفكيك اللغة فى حالة فقدان قوة النطق الذى تأكّدنا منه

في فرصة سنحت لنا من قبل . في الحقيقة ، إنَّ الروابط التي تجمع بين عناصر النص وتضمن التماسك تتميز بطبيعة مزدوجة ، تماما مثلما أن هناك بعضاً من نواحي الخلل المدمرة لعمل اللغة والعلاقات الاستعارية (علاقات المشابهة) توجد في الوحدات الصرفية . والاختيار بين : Carcan ,Cheval ,Couteur يتحدَّد بالرغبة في تفضيل دلالة على أخرى وبنسبة هذه الألفاظ إلى نظام صرفي معجمي واحد حيث تمثل لفظة "حصان" المصطلح غير المحدد، والمفاهيم الأخرى هي بمثابة توليفات منه بعلامات تضيف دلالات إيجابية أو سلبية . وتتوافر الاستعارات في الأعمال الشعرية ، في الدعاية السياسية ، والرسائل الدينية ، والحكايات الرمزية التي استخدمها المسيح هي بمثابة استعارات جاءت لتحديد معالم التعليم الأخلاقي .

العلاقات الكتابية (أو الارتباطية) تبقى محكومة بنوع من التقارب مع النصوص أو العالم الخارجي . المريض يتحدَّث عن المحرك لأن كلمة "سيارة" لا تأتي في مخيلته، إلا أن الشاعر يلجأ إلى استخدام بديل كنائي (الأمواج " بالنسبة " للبحر) كي يحصل على نتيجة متغيرة أو دلالة جمالية أو غيرها ويأتي Kenning في الشعر الجرماني ، وخاصة الشعر الإسكندنافي القديم كامناً في نوع من التحويرات الفعلية التي ، تحت شكل لمجموعة تشتمل على نوع من الإضافة النحوية ، ترسم وظيفة الشيء (لهب الدرع = السيف) إنها توليفة لاستعارة ذات دلالة مكنية .

فالبلاغة كعلم يعنى ببنية النصوص (الخطاب) - الحكاية - عادت لتصبح آنذاك ماكانت عليه من قبل : تحليلاً للعلاقة بين الأبنية النحوية والصرفية للتراكيب الكبيرة، هذا بالإضافة إلى العلاقات والتراتيب الفكرية التي يجب أن تعكسها لغة النصوص والصورة التي بنيت عليها تلك العلاقات من الناحية اللغوية .

الفصل الثاني عشر

لغات العالم وتصنيفها

يصل عدد لغات العالم تقريبا إلى ثلاثة آلاف لغة . ومع هذا ، يفهم أن مثل هذا الرقم غير أكيد ، وهو أمر راجع إلى سببين في المقام الأول . كما قلنا في (الفصل السابع) ، من المستحيل عمل فارق واضح بين اللغة واللهجة . وما هناك من تعريف واحد من بين تلك التي عرضناها وناقشناها يسمح ، في كل الحالات ، بتقرير ما إذا كان من الواجب اعتبار شكلين كلاميين بمثابة لغتين . وإذا ما كان هذا القرار سهلاً بالنسبة لأشكال كلامية معينة داخل أوروبا ، فمن البديهي أن يصبح الأمر شبه مستحيل حين يتعلّق بلغات ليس لها شكل مكتوب أو شكل رسمي محدد ومعترف به . ودائما ما تكون الحالات المحدّدة الفاصلة عديدة. وفي المقام الثاني ، فهناك عدد من اللغات التي يجهلها اللغويون حتى الآن (في أفريقيا ، والبرازيل ، إلخ) أو أنها ، على كل حال ، قد كتبت بطريقة سليمة وكافية حتى تقبل تصنيفا علميًا بالنسبة لأشكال كلامية أخرى مجاورة أو مماثلة . ولكن حتى إذا أقدم الباحثون السابقون على الإعلان عن وجود عدد من اللغات المجهولة حتى الآن ، فمن المقبول من ناحية أخرى أن هذه اللغات التي تأخذ طريقها للاختفاء أو المهددة بذلك بشكل فوري تمثّل عددًا هائلاً، وأن الرقم الذي قيل عن لغات العالم – أيا كان – سيظل ثابتًا تقريبا بالنسبة للمستقبل القريب . وإذا ما أضفنا أن الجهود التي بذلت من مختلف الجوانب بغية تطوير

عدد من لغات الأقليات والحفاظ عليها (انظر الفصل التاسع) ستعمل على إنقاذ بعضها من الاختفاء الوشيك ، سوف يبدو لنا محتملا أن هذا العدد الرقمي من الممكن الحفاظ عليه على وجه التقريب .

اللغات تتجمّع في صورة أسر وفروع أسرية ذات تعقيدات متنوّعة . ومن الممكن الاعتماد على قاعدتين بارزتين في تصنيفها ، وبالتالي ، على نوعين من علاقات المصاهرة : المصاهرة الوراثية القائمة على فكرة الأصل المشترك والانشطار اللغوي كنتيجة لوجود مفاضلة حديثة (الفصل السابع) ، المصاهرة النمطية المبنية على معيار المشابهة البنيوية . من المهم عدم الخلط بين الاثنين ، حتى لو تضمّن الأصل المشترك في بعض الحالات نوعًا من الوفاء لنمط بنيوي موروث . اللغات الهند أوروبية لها بعض الملامح البنيوية المشتركة (سيأتي هذا لاحقًا)، واللغات السامية ، المنبثقة عن مصدر مشترك ، تقدم في نفس الوقت مشابهات نمطية معتبرةً (توفر الحروف الصامتة في بنية أصول الألفاظ على سبيل المثال) إذا ما كانت المصاهرة الوراثية قريبة والمفاضلة حديثة ، فمن الطبيعي أن نرى هذه المصاهرة في معية ماهية نمطية كبيرة (اللغات الإسكندنافية وغيرها) لنفس هذه الأسباب ، نجد اللغة الإسبانية واللغة البرتغالية تتميّزان بالنمطية والوراثية في نفس الوقت وتجمع بينهما علاقة مصاهرة وكذلك باللغة الإيطالية، أما الفرنسية فقد باتت أبعد جذريةً عن النمط الرومانثي البدائي منها إلى اللغات الشقيقة، وتعطي على سبيل المثال مادة صوتية وضبطنطقية تُفرّق بينها بصورة مدهشة (صائتة ثرية بحروف صائتة سابقة شفهية ، التحوير الحنكي والتكوين المقطعي الثنائي المتحرك على مدى التاريخ ، وخاصة في عملية ضبط النطق بنبرة كلامية آلية على المقطع الأخير ، غياب الضبط النبري الفردي عن الكلمات ، الجملة ، إلخ) .

ولكن أمثلة المصاهرة الوراثية البديهية المركبة مع مفاضلة نمطية أقوى في حالة اللغة الفرنسية متواترة ويجب أن تلفت انتباه المهتمين بالاعتبارات اللغوية ، والألمانية

والإنجليزية انبثقا عن الجرمانية المشتركة التي كانت لغة الكلام في منتصف الألفية الأولى قبل المسيح وتفرقت إلى لهجات بداية من القرون الأولى السابقة على عصرنا . والآثار القديمة المكتوبة باللغة الجرمانية (بداية من القرنين الثالث والرابع) عبارة عن نقوش إسكندنافية قديمة ونصوص قوطية . كانتا لغتين ثريتين في أشكالهما النحوية بما فيها من فروقات اسمية وفعلية عديدة ، وحدة صرفية ذات أربعة أحوال ، إلخ . أما الإنجليزية الحديثة فتفصح عن نظام مختلف للغاية عبر فقدانها للجزء الأكبر من الصيغ والدرجات التراتيبية ، واختفاء التصريف (والإعراب) العرضي باستثناء المجرور (المضاف) المشتمل على الحرف s (قليل الاستعمال) وبعض الأشكال الضميرية (he,him، إلخ) ، كما في الفرنسية حين يتعلَّق الأمر بوحداتها الصرفية الضميرية iL، lui,le، إلخ ، ولكن بغض النظر عن ذلك بفقدانها لأيِّ أثر للأحوال الصرفية منذ بدايات العصر الوسيط . والألمانية مازالت تحتفظ حتى الآن بكثير من النظام النحوى القديم بحفاظها على العلامات الشخصية في الوحدة الصرفية الفعلية ونظام الحالات الأربع . كل اللغات الجرمانية مازالت تحتفظ مع ذلك بكثير من التصريف القوى القديم للأفعال الموروث عن الهند أوروبية وتعرف بنفس القدر التجديد الذى يعنى خلق أفعال ضعيفة بصيغة ماضية واسم مفعول ذى تكوين " سنى" (أى : ينتهي بحرف d أو t، والإنجليزية، ed ، والألمانية te، t، إلخ الإسكندنافية de /d /te /t، إلخ) وما زالت الألمانية تستعين باستخدام ثرى للصيغة الإنشائية Subjuntivo، التي اختفت من الإنجليزية إلا في بعض الآثار القديمة . واللغات الإسكندنافية توجد في وضع متوسط بين الإنجليزية والألمانية . هناك هوة نمطية عميقة بين الإنجليزية والألمانية ، ولكن تجمع بينها صلة نسب قريبة ويساهم في هذا الفارق النمطي بين الإنجليزية واللغات الأخرى الجرمانية كل المواد الرومانثية واللاتينية التي ، منذ الفتح عام ١٠٦٦ وحتى أيامنا هذه، قد غزت الإنجليزية وعدَّلت من بنيتها بصورة معتبرة ، ويقارن بهذا الثراء في العناصر

الأجنبية في اللغة الإنجليزية ، الاقتباسات التي تبنتها اللغات الجرمانية القارية، والإسكندنافية تحظى بعدد في غاية التواضع إلاَّ أنه مهمٌ .

لفت العديد من اللغويين الانتباه إلى أن كل اللغات الأوروبية من الأسرة الهندأوروبية قد مرَّت بتطور مماثل . فالانتقال من اللاتينية إلى الفرنسية أو إلى الإسبانية ، من الجرمانية المشتركة إلى الإنجليزية ، من اللغة السلتية المشتركة إلى مختلف اللغات الحديثة ، إلخ ، يعني تبسيطًا كبيرًا في الوحدات الصرفية وزيادة ملائمة في الأشكال النحوية . ويبدو أن هذا التطور قد طال كل هذه اللغات ، إلا أنه قد توقف في أطوار مختلفة من التبسيط . لقد قورن هذا التطور بمثيله الذي عرفته لغات مختلفة جدًا عن لغاتنا (الصينية ، المنبثقة عن لغة قديمة أكثر ثراءً في الشكل من اللغة الحديثة وغيرها) كان الأمل معقودًا على رؤية اتجاه تطوري عام يتضمن استبدال الصيغ الجمالية بتراتيب من عناصر بسيطة . اللاتينية : filius Perti تتحول إلى El hijo de Pedro ابن بدرو (بطرس) حيث المجرور بحرف الجر المنتهي بالحرف i قد تم استبداله بأداة نحوية مستقلة تحدد العلاقة بين العنصرين . واللاتينية : Petrus dat Librum filo suo تتحول في الإسبانية إلى :hijo Pedro da el (un) libro a su (بدور يعطي كتابًا لابنه) حيث الحرف m – يدل على المفعول المباشر ، والحرف o يدل على المفعول غير المباشر والحرف s – يدل على حالة الرفع (الفاعل) وفي اللغة الإسبانية ، يتم التعبير عن المفعول غير المباشر باستخدام حرف جر يدل على الوجهة ، أما في حالتي الرفع (الفاعل) والمفعول المباشر فهما يحتفظان بمكانهما بالنسبة الفعل . والتغيير في ترتيب الكلمات لا يغير المعنى في الجملة اللاتينية . وأخيرا ، فالإسبانية ليست في حاجة إلى تحديد المفعول غير المباشر مرتين (اللاتينية Filio suo مثال على الفضول الفعلى) الإسبانية تكرر الحرف (s) في حالة الجمع والحرف (a) في المؤنث (كتابةً) .

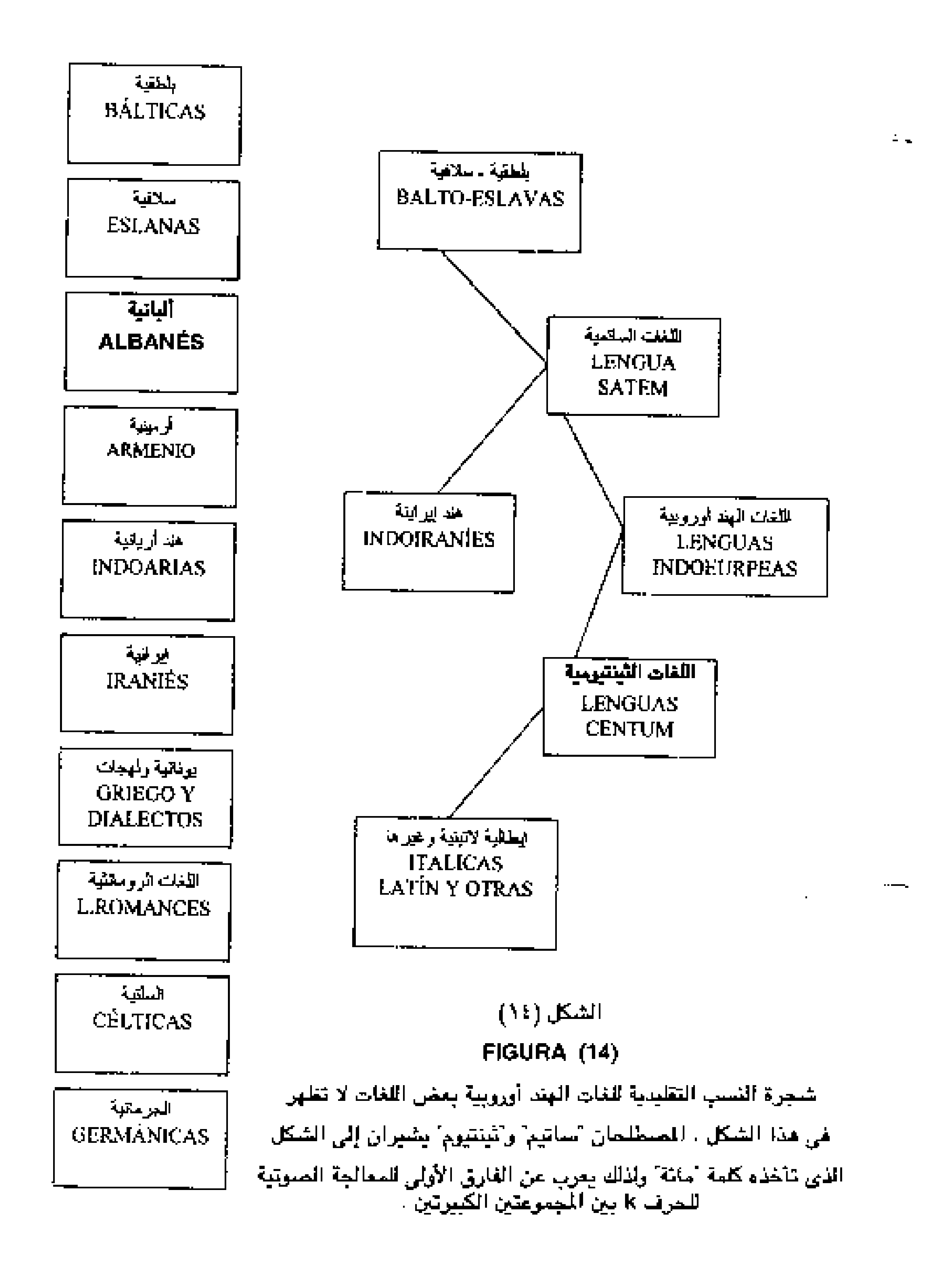
أما بالنسبة للغة الإنجليزية فتظلُّ الصفات فيها ثابتة على حالة واحدة دون تغيير . إنه أقصى درجات التطور فيما يتعلق بتعقيد اللغات القديمة .

رأى عالم اللغويات أوتو جيسبرسون Otto Jespersen (المتوفى عام ١٩٤٢) في مثل هذه النزعات التطورية ليس فقط حدثًا عامًا وإنما أيضا تقدمًا بالمعنى الذى يتضمن أن التراكيب الشاملة ، التى يصعب قيادها ، تتطوَّر صوب أبنية أكثر بساطة وأكثر مطابقة بالنسبة لتسلسل الأفكار، وهنا تصبح فعالية اللغات التحليلية أشد وأقوى. وإذا لم يكن هناك شك فى أن هذه النزعة التطورية تفسح المجال للتأكد من اللغات الأخرى ، فمن ناحية مغايرة يصبح الشك قائمًا حول ما إذا كان ذلك عامًا . وقد قام اللغوى السويدى بجورن كويندر Björn Collinder بانتقاد نظريات جيسبرسون مذكِّرا بأن اللغة المجرية تفصح عن تطور آخر في اتجاه معاكس وتأتى غالبية الصيغ والأشكال العرضية فى اللغة المجرية الحديثة فى صورة تركيباتٍ معاصرةٍ . وربما تكون اللغة قد تطورت بأسلوب مختلف جداً عن اللغات الرومانثية والجرمانية . هناك أكثر من ذلك . والنهايات الخاصة بالأشخاص والحالة الصرفية فى اللغات الهندأوروبية وغيرها تفسَّر دائمًا على أنها أشكال مستقلة (الضمائر الشخصية ، ظروف المكان ، إلخ) تضاف إلى أصول الأفعال . إذن فالأشكال التركيبية ليست بدائيةً . وكأدلة على تطور معاكس للافتراض العام الذى زعمه جيسبرسون يمكن أن نذكر إنشاء صيغ جديدة فى فترة تاريخية حالة المستقبل فى اللغة الرومانثية ، القائم على أنقاض المصدر وشكل الفعل (haber (haberé، في الإسبانية : yo hablare (أنا سأتكلم) ، فى الإيطالية : Parterò، من المهم أن نجعل نصب أعيننا نوعًا من التطور تجاه صيغة تركيبية جديدة ، تحل محل الصيغة اللاتينية ، فى البرتغالية ، هذا الخليط المكوَّن من عنصرين لا يعد متقدما بالدرجة الكافية لكى يستبعد إدراج صيغة ضميرية بين المصدر والفعل ha-ber (البرتغالى ، acabá-io-lei (سأنتهى منه) الفرنسية القديمة عرفت مثل هذا الاحتمال .

ليست هناك قاعدة عامة بالنسبة لتطور اللغات . وخاصةً أنَّه لا يوجد معيار يسمح لنا بتصنيف هذا النمط ذى البنية اللغوية باعتبارها (من خلال وجهة نظر الفعالية) أعلى من غيرها . وما كان الطابع التركيبي الواضح للغات الفينوجرانية المتحدثْ بها في أوروبا مانعا بوسيلة ما من قيام هذه اللغات بمهامها الكاملة كلغات صاحبة ثقافة حديثة .

بين أسر اللغات العالمية ، لا تعرف جميعها الخضوع لتصنيف وراثي أكيد . من الممكن إقامة البراهين ذات الاحتمالية الكبيرة على الأصل المشترك لتلك اللغات التى تعرف فروعًا عديدة تجمع بينها علاقة نسب واضحةٍ ولها تاريخ يمكن متابعته من خلال ما يحفظ من وثائق وأما حالة اللغات الرومانثية فتعد بسيطة على وجه الخصوص حيث أن التطابقات القياسية بين هذه تأتى فى صور متعددة ونعلم حقًا نقطة انطلاقها ، وهى اللاتينية . أما بالنسبة للغات الجرمانية والسلتية والسلافية فبمقدورنا أن نعيد ، بمساعدة النصوص القديمة، بناء حالة أولية مشتركة تقدم درجة احتمالية عالية . وقد حدث نفس الشيء فى البداية مع اللغات الإيرانية والهندية ، التى من بينها اللغة المقدسة القديمة ، الفيداوية التي، بفضل مالها من طابع قديم وأوصاف مفصلة محفوظة، ساهمت بقدر كبير في المقارنات الهندأوروبية . وتُعَدُّ الوحدات اللغوية المنشأة دون خلفية من المعارف التاريخية وعلى أساس من المقارنات بين اللغات التى يتحدث الناس بها اليوم تُعد افتراضيةً فى غالب الأمر .

ومع ذلك فالمشكلة تكمن في معرفة ما إذا كانت الأسرة اللغوية الكبرى التى نطلق عليها الهندأوروبية جديرة بأن نعتبرها كوحدة وراثية – مكونة من مجموعات من لغات منبثقة عن مصدر مشترك عبر مفاضلةٍ لهجية – بنفس الحق الذى للغات الرومانثية أو اللغات الإسكندنافية (وكذلك الجرمانية والسلتية) وحيث لا يحفظ أى أثر للغة الأم الهندأوروبية المزعومة ، فهذه اللغة افتراضية محضة . وليس هناك من تبريرٍ آخر غير ذلك الذى يقول إن وجودها هو الافتراضية التى ذكرت ، حتى هذه اللحظة ، أفضل حسابات التطابقات العددية القياسية بين هذه اللغات.



الشكل (١٤)

FIGURA (14)

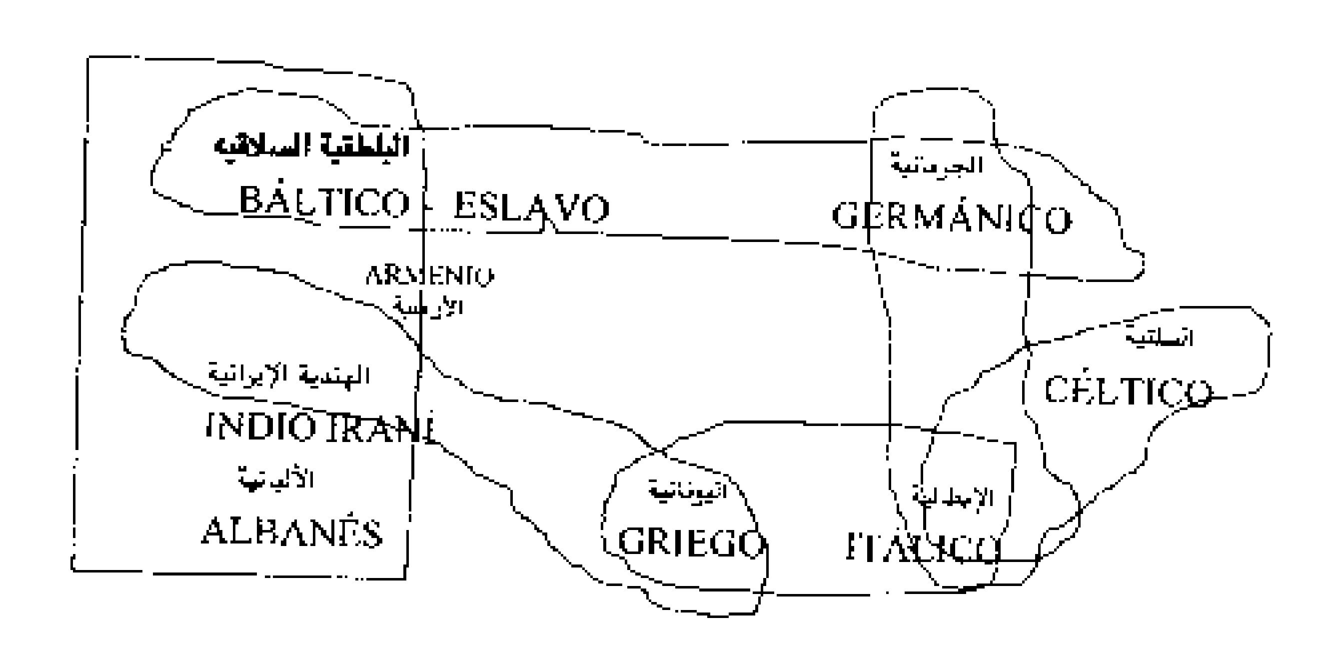
شجرة النسب التقليدية للغات الهند أوروبية بعض اللغات لا تظهر في هذا الشكل . المصطلحان "ساتيم" و"ثينتيوم" يشيران إلى الشكل الذي تأخذه كلمة "مائة" ولذلك يعرب عن الفارق الأولي للمعالجة الصوتية للحرف k بين المجموعتين الكبيرتين .

هذا لا يمنع أنه قد تمّ طرح إمكانيات أخرى للتفسير . وها هو اللغوى الروسى الكبير إن.إس تروبتسكوى N.S.Troubetzkoy – أحد مؤسِّسى علم الصوتيات الوظيفى فى براغ – قد شرح بطريقة أخرى المفهوم الهندأوروبى ، فى آخر إصدار له (عام ١٩٣٩) إنه يطلق مصطلح الهندأوروبية على كل لغة تحظى ببعض المميزات والخصائص البنيوية العديدة. وأى لغة بمقدورها أن تفقد أو تكتسب أيا من هذه الخصائص ، وتتخلّى عن كونها ، أو تصبح كذلك على التوالى ، لغة هندأوروبية .

رأينا أن اقتباس الملامح البنيوية (الاقتباسات ، التداخلات) ، أو تلاشيها (التبسيط فى الحد الخارجى ، فى الازدواج اللغوى) لا يتأتيان إلاَّ فى حالة الاحتكاك بلغات أخرى . من الناحية النظرية لا يستبعد أن يكون مجموع العناصر المشتركة بين اللغات الهندأوروبية قد جاء نتيجة صهر العناصر الواردة من مختلف اللغات وتنفيذ ذلك فى المناطق التى تدخل فيها قبائلها وقراها التى تتحدث هذه اللغة فى عملية اتصال متبادل أو أقيمت بينها علاقات حميمية . مثل هذه النظرة تنطوى على اختفاء فارق أساسى : الفارق القائم بين المصاهرة الوراثية والاقتباس (التداخل) وحين يتعلّق الأمر بلغات قريبة منا فى الزمان أو فى المكان ، فإن هذا التمايز يصبح من السهل حدوثه وتبريره بقدر كبير . وفى الآلة التى ينعدم فيها التطور فى الماضى البعيد ويصبح سهل المنال فقط عبر بنايات غير أكيدة ، يصبح المقارن مضطراً دائما لإثبات المشابهات، ثم يترك المجال مفتوحًا أمام قضية السببية الخاصة بها . وفيما يتعلق بالهندأوروبية ، يبدو أنه ليس هناك سبب كاف لاستبدال وجهة النظر التقليدية بأخرى : على الرغم BEVENISTE من الملاحظة الملائمة التى أبداها تروبتسكوى Troubetzkoy انظر فيما بعد ما سيقوله بنبينستى .

من بين الأسر الأخرى للغات ذات المصاهرة الوراثية الأكيدة نذكر دون مخاطرة كبيرة فى أن نخطئ فيما يتعلق باللغات السامية ، اللغات الأورالية ، اللغات التركية

والمجموعة الصينية – التبتية، ويبدو أيضا أن المشتغلين بدراسة اللغات الأفريقية يقبلون مجموعة البنتو التي تتوحّد فيما بينها عبر روابط المصاهرة . ومع ذلك ، يبدو أن المصاهرة المتمثلة في اللغات البانتونية تقدم مظهرا مختلفًا عن مظهر اللغات الهندأوروبية . من الممكن التمييز بين عشر مناطق لهجات تمثل كل واحدة منها انتقالا بين اثنتين أخريين ، مع التركيز على بعض الملامح المشتركة في معنى محدد (انظر الانتشار عبر الموجات ، نظرية شميت Schmidt ص٢٣١ (من النص الأصلي) يجد المؤلف نفسه مضطراً للخروج من دائرة المناقشة هنا لتلك القضايا المتعلقه بفروع لغوية أخرى (أمريكية ، أو قيانوسية ، إلخ) وذلك لسبب بسيط هو انعدام التنافس . ومع ذلك، يبدو في بعض حالات التجمعات (اللغات السيبيرية القديمة وغيرها) ، أن القاعدة تظهر أكثر نمطية أو جغرافية محصنة كذلك .

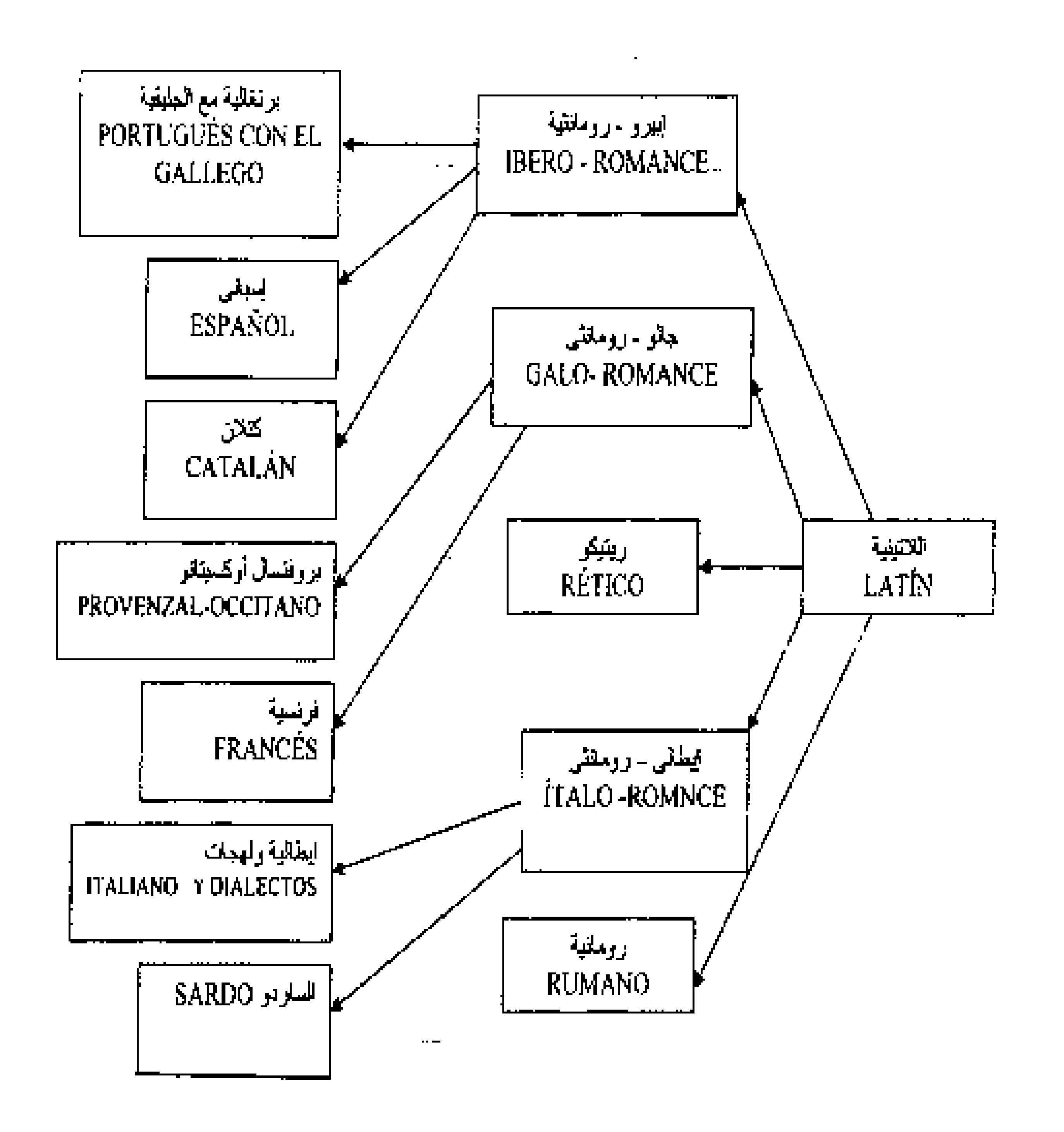


وتجب الإشارة مع ذلك إلى أن القرب الجغرافي يعد سببا من أسباب الاحتكاكات اللغوية (الاقتباسات ، التداخلات) ويمكن أن يؤدي بسهولة إلى تطابق البنية وتشابه

النمطية . كما يجب التذكير أيضا بأنه على مدى العصور يمكن للملامح المشتركة لفرعين تجمع بينهما علاقة نسب أن تنخفض عدديا وتقل نظريًا حتى تصل إلى الصفر، ولكن الاعتبارات التاريخية تضمن ماهية الأصل لتلك التي لا يزودها علم اللغويات بالبراهين .

إن منهج المقارنة والتصنيف الوراثي يعنيان مجموعة من العناصر القابلة للاستعمال (كلمات) لعددٍ معين، والعدد المعين من الوحدات الصرفية المتشابهة من الممكن أن يكون نتيجة المصادفة أو الاعتبارات الاقتباسية . ومحاكاة الأصوات والتراكيب التعبيرية – الشائعة في اللغات جميعها – تتم الإشارة إليها عبر المشابهة بينها وبين دلالاتها، وهذه العلامات ليست تعسفية ، وأخيرا فإن الوحدات الصرفية المقارنة يجب أن تحوز " جسدا " صوتيا معينا . وإذا ما كانت أصول ألفاظ اللغات المقارنة تغطي فقط تراتيب صامتة – صائتة (cv)، فإن احتمالية أن يحوز هذا الأصل نفس المعنى في اللغتين يعد أكبر بالطبع ، من الناحية الإحصائية ،مما إذا كانت هذه الأصول، في رأينا ، صامتة (ccvcc) حيث نفترض أن c تمثل حروفا صامتة مختلفة، في اللغات الأفريقية ، حيث تتمتع الأبنية المقطعية بنفس هذه الطبيعة البسيطة، لابد من أن نأخذ في الحسبان إيقاعات الألفاظ في المقارنة ، كي يصبح دور لعبة المصادفة قليلاً بقدرٍ كافٍ . وبالتالي ، فليس بمستبعد أن لغات كثيرة لا يمثل منهج المقارنة بالنسبة لها أي نوع من علاقة المصاهرة يمكن أن يكون لها أصل مشترك يبدو واضحا بصفة مستمرة . اللغات المعزولة (مثل الباسكية ، والسومرية وغيرها) خسرت أقاربها وليس من الممكن تصنيفها وراثيا . كما لا يمكن قط إثبات أنه ما من علاقات نسب وراثية تجمع بينها ، وإنما من الممكن فقط إثبات إمكانية التدليل على أي علاقة مصاهرة من هذا النوع .

من المعلوم أن مجموع الوحدات الصرفية للغة ما يتجدد بسرعة دائمة . ومن الناحية النظرية ، وبعد فترة طويلة الأمد ، لن يكون هناك من أثر للوحدات الصرفية



شكل ١٦

FIGURA (16)

جدول تقليدى لأسرة اللغات الرومانثية . الدالماتية التى ماتت مع آخر متحدث بها عام ١٨٩٦ لا تظهر هنا ، كانت بمثابة رابطة بين الرومانثى البلقاني (الرومانية)

القديمة . وإذا كانت لغات العالم كلها قد تطورت من خلال مصدر مشترك أو أنها تمثّل إبداعات مستقلة ، فتلك قضية ألمحنا إليها فى الفصل الثامن . إميل بينبنستى : Emile Benveniste فى تقريره الرائع عن تصنيف اللغات ، يتحدث عن الصعوبات المطروحة هنا حول ضعف ملازم للتصنيف الوراثى . وحتى يصبح هذا المنهج تكامليًا ، يقول ، يجب أن يجهز بكل أفراد المجموعة فى كل مراحل تطوره . والآن ، حسنا ، لا نملك سوى بعض الوثائق القديمة شيئا ما لعدد قليل من اللغات " وكم هى معيبة ، على الدوام (مشاكل اللغويات العامة ، الجزء الأول ، ص ١٠٥) .

نقدم هنا على سبيل الإرشاد ، قائمة أسر اللغات المعروفة من قبل اللغويين مع الملاحظة الهامة المتضمنة ، فى كثير من الأحوال ، لحقيقة مفادها أن التجمعات تكون غير أكيدة بعض الشىء ، وأحيانا تعسفية وقائمة على أساس من معايير لا تقبل المقارنة (المصاهرة الوراثية ، المصاهرة النمطية ، الامتداد الجغرافى) .

١ – اللغات الهندأوروبية (التصنيف شكل ١٤) .

٢ – لغات كاميتية – سامية : السامية (بمجموعاتها الفرعية العديدة) : الشرقية (الأكادية) ، الغربية الشمالية (الكنعانية مع الفينيقية والعبرية ، الآرامية) ، الغربية الجنوبية : العربية ، اللغات الأثيوبية ، إلخ (المجموعة الجنوبية) المصرية ، الليبية – البربرية والجوانشية فى جزر كناريا (لغات اختفت آثارها) والكوتشيتكية (الصومالية، الجايا ، وغيرها) .

٣ – اللغات الأورالبانية : الفيتوجرافية (اللابونية ، بلهجاتها المختلفة ، الفنلندية ، الأستونية ، الليفو ، والمجرية وغيرها) .

٤ – اللغات الألتائية : التى تشمل على وجه الخصوص اللغات التركية ، المنغولية والتموذجية والتى تجمع بينها مشابهات لا تبدو مع هذا من ذلك النوع الذى تدلل من

خلاله على مصاهرة وراثية ، وإنما من الاحتكاكات (استعارات ، تداخلات) جميع هذه اللغات مع الأخرى الموجودة برقم ٣ تحت مسمّى الأورالياتية – الألتائية تُعدُّ حتى الآن مجرّد افتراض ، وأيضاً العلاقة المزعومة باللغة اليابانية .

٥ – اللغات الصينية – التبتية – البيرمانية (بين أخرى مع التبتية ، البرمانية ، للولو ، لغات الهيمالايا) ، مون – كومير (لغات عديدة مختلفة)والنوندية ، والأخيرتان تجتمعان أيضا تحت وحدة نمساوية – أسيوية .

٦ – اليابانية .

٧ – الكورية.

٨ – اللغات المالبزية – البولينيزية : الأندونيسية والبولينزية (بتفريعاتها)

٩ – اللغات الميلانيزية .

١٠ – اللغات الدرافيدانية (جنوب شبه جزيرة الهند ، التامول هي الأكثر شهرة) دون ما علاقة مع أية مجموعة أخرى من اللغات.

١١ – اللغات الأسترالية .

١٢ – اللغات البانتوية ، التي تشغل الجزء الأكبر من القارة الأفريقية ، بالتقريب في جنوب خط العرض في الشمال ، بمجموعات تصل إلى خمس عشرة مجموعة وعدد كبير جدا من المجموعات الفرعية .

١٣ – اللغات السودانياية والغينية وهي التي تجمع بينها وبين المجموعة السابقة علاقة محل نقاش . الأشكال الكلامية الأفريقية في أمريكا تندرج هنا .

١٤ – اللغات الكونية : أوتينتون ، بوسيمانو وغيرها .

١٥ – اللغات السيبيرية القديمة (أو الآسيوية القديمة) بمجموعاتها الثلاث : التكوتشى اليوكاجير والجلياك ، هذه اللغة الأخيرة لا علاقة لها باللغات الأخرى ، إلاّ أن جميعها تندرج تحت عنوان اللغات السيبيرية القديمة للمشرق ، والمتناقضة مع لغات الجانب الغربى أو الينسيانو . كل هذه المجموعة تبدو فى مجملها جغرافية ، إلا أن اللغات تقدم بعض الملامح المشتركة التى يمكن تفسيرها بسهولة عبر احتكاكات ثانوية .

١٦ – اللغات الإسيمو – ليتوانية .

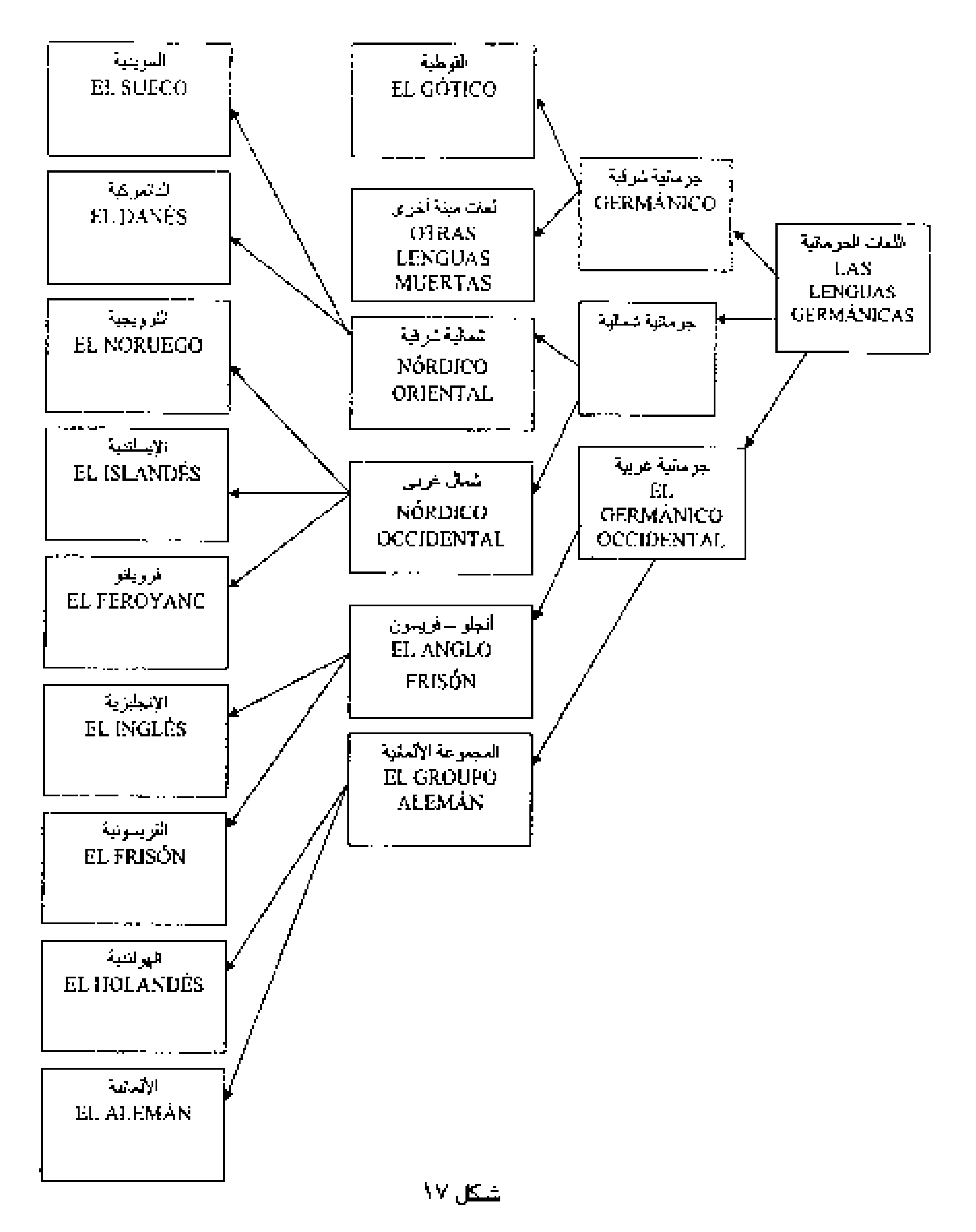
١٧ – اللغات الأمريكية : في أمريكا الشمالية بين كل الأسر الألجونكية – واكساء نا – دينى ، أوتو – أزتيك – تانو ، فى المكسيك (بالإضافة إلى الأزتكية) وفى أمريكا الوسطى : ماياسوكى ، مسكيتوماتا جالبا ، أوتومانج ، إلخ ، فى أمريكا الجنوبية وفى جزر الأنتيل : أراوك ، توبى = جوراني (انظر الفصل العاشر) ، جيتشوا ، أيماراء أروكانو ، إلخ مزيد من السرد سيكون بلا مغزىً والعلاقات بين اللغات هى في حالات كثيرة غير أكيدة أو مجهولة .

١٨ – اللغات القوقازية ، المجموعة وفقا لموقعها الجغرافى في مراتب ثلاث . وبعض المجموعات الفرعية التي يتفرّع عنها أقسام فرعية أخرى تصل إلى ما يقارب العشرين (من بينها الجورجية) إن العلاقات الوراثية تبدو بديهيةً لمجموعة من اللغات داخل الأسرة ، ويتشكك فيها البعض الآخر ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة هذه اللغات بأسر أخرى .

١٩ – البوخاسكية الموجودة على جبال كاراكورام ، والتى يتحدثها ما يقرب من عشرين ألف شخص ، دون كتابة . كانت هناك رغبة في ربط اللغة باللغات القوقازية ، دون أن يحقق ذلك نجاحا على ما يبدو .

٢٠ - اللغات المعزولة أو التي يصبح انتماؤها غير مؤكد ، وهي ، من بين لغات أخرى ، الباسكية ، الأينو (في شمال اليابان ، هوكايدو ، وفي المناطق المحيطة ساكالينى) وغيرها. والمحاولات التي بذلت من جانب جهات مختلفة من أجل التثبت من وجود روابط وراثية بين هذه اللغات وأسر أخرى (الباسكية في اللغات القوقازية أو البربرية ، الأينو مع الهندأوروبية) لم تكن تحظى بقبول عام على الرغم من إثارة الحجج المقبولة في بعض الأحيان واعتبارات المشابهة التي لا يعتريها الشك . من المحتمل جداً أن تكون علاقة المصاهرة ، إذا كان لها وجود ، بعيدة جداً عنا بحيث لا يمكن استخدام منهج المقارنة : بالإضافة إلى أن الملامح المشتركة هي من هذا النوع الذي يجعلنا نفسّرها بصورة مختلفة عن أصل مشترك . السومرية (منذ ٢٥٠٠ قبل الميلاد) ، أقدم اللغات البشرية المكتوبة ، أصبحت معزولة كالشعب الذي يتحدثها .

لقد أوضحنا في الشكلين ١٤ ، ١٥ أسلوبين مختلفين لتصور العلاقات الهندأوروبية وكذلك شكلين مختلفين لفهم أصل التشابهات: شجرة النسب ونظرية الموجات (Wellentheorie Johannes Schmidt). من السهل أن نرى ، عند مقارنة الجدولين ، أن هاتين النظريتين متباعدتان. في شكلي ١٦، ١٧ نقدم مخططا بيانيًا للغات الأساسية الرومانثية التي تقوم على اللاتينية كقاعدة أصلية (المتحدث بها العامية) ، على سبيل المقارنة يعد مخططا للغات الجرمانية . إذا ما قدر لنا أن نحسب بشيء من التفصيل تطور كل فرع رومانثي من بدايته وحتى أيامنا هذه (الأمر الذي يعد مستحيلاً بالنسبة لفترات ما قبل الآداب) ونقارنها ، لأمكننا أن نلاحظ في البداية، رغم أن ذلك كان بتوسع بسيط ، طرح نفس المشكلات التي واجهها المستنيرون بالنسبة للهندأوروبية ، وليس بمقدورنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك هنا ، وفي نهاية هذا البيان الموجز نبرز الأهمية القصوى للغات الرومانثية .



شكل ١٧

FIGURA 17

رسم توضيحي لعلاقة النسب القائمة بين اللغات الجرمانية

بالنسبة لمنهج المقارنة . لقد قيل إن اللغات الرومانثية هي المحك في المنهج المقارن، وعلى الجانب الآخر يصبح من المحتمل وجود نوع من الخطورة في حمل هذا التطابق إلى حد بعيد ، تتمثل في الرغبة في مد التجارب والخبرات الخاصة بمجموعة لغويات تطوَّرت على مدى فترة تاريخية وأدبية معينة موثَّقة جيداً لفترات بعيدة عنا بعدة آلاف من السنين ومتوارية في ظلمات ما قبل التاريخ .

التصنيف النمطي للغات يقدم في الحقيقة مشاكل عديدة مثل التجميع الوراثي، ولكن في مثل هذا المستوى يصبح اختيار المعايير على وجه الخصوص هو الذي يطرح نوعًا من الصعوبة . والمرحلة الأخيرة من تطور النظرية اللغوية أدخلت تعقيداً جديداً يمكن له ، بالنظر إليه عن كثب ، أن يعني نوعا من التبسيط . لقد رأينا أن الأبنية السطحية – تلك التي يعبر عنها بوضوح في اللغات ، بالنسبة للقواعد التحويلية ، هي بمثابة تفريعات عن الأبنية العميقة الأكثر بساطة، ولهذا الشيء نفسه تبدو أكثر شمولية. هيا بنا نتناول هذه النتائج المنطقية . إذا كانت نظرية عولمة الأبنية الأولية التي يمكن للأبنية النوعية المحتملة أن تقتصر عليها في النهاية – فإنه من الرصانة ألا نزعم ذلك الأمر مسبقا – وعندها تفقد فكرة تصنيف اللغات على أساس نمطي جزءًا من مضمونها .

منذ القرن الماضي (التاسع) قام الإخوان شليجيل وشيخر SCHILEGEL Y SCHEICHER، واللغويون بتطبيق نظرية ثلاثية في عملية التصنيف النمطي ، وخاصة على اللغات العازلة (بكلمات ذات مقطع واحد لها علاقات محددة بترتيبها ولكن دون مادة صرفية) واللغات الإلصاقية والإدماجية (التي تضيف إلى الأصول عناصر مستقلة نظمت في سلاسل ، قبل وبعد وحتى داخل هذه الأصول الجذرية) واللغات المرنة الطيِّعة، وبوجه عام تعتبر اللغة الصينية من اللغات الانفصالية ، واللغات التركية والأورالانية هي من اللغات الإلصاقية (والإسكيمال لغة إدماجية) واللغات الهندأوروبية من اللغات الطيعة في التصريف ، وكذلك تعديلات قوية على الجذور وعناصر معبرة عن

وظائف عدة في نفس الوقت . في هذه اللغات تتوفر التعديلات على الجذور (اللاتينية âgo 0 أدفع) ، êgo (دفعت)، اللاتينية : Vénio (أتى) يأتى : veni! حيث نجد نفس التغيير في الفرنسية الحديثة ، يأتى متواريا خلف تعديلات لاحقة : Je viens ،je vins : والإنجليزية ، I find (أجد) I found (وجدت) في لغة كالتركية ، نجد العناصر المضافة إلى الجذع تحتفظ في مجملها باستقلاليتها (التركية : Peder (من الأب – للأب) Pederinin (من أبيه ، لأبيه) ، إلخ) ومع ذلك ففى التركية والفنلندية على حد سواء توجد قواعد توليفية خاصة تعمل على تعديل القاعدة الأساسية . والانسجام الصوتى الذى يعد ميزة هذه المجموعات من اللغات يُقَدِّم ، على الرغم من انعزالية كل عضو من أعضاء الوحدة النحوية ، نوعًا من الوحدة (التركية gülmek " يضحك ، غير أن bulmak تعنى " وجد " ، حيث يرتب نظام الحروف الصائتة للعلامة التحديدية للنهاية وفقا لنظام الجذع ، بنفس الطريقة نجد في اللغة الفنلندية Talossa (في البيت) de talo (بيت) ، ولكن metsässa (في الغابة)، de metsä (غابة) يبدو أن الطابع الانفصالي للغة الصينية قد أتى بمغالاة في مجال الدراسات العامة للغويات، على كل فإن هذا التصنيف التقليدى ليس صالحًا بصفة كلية .

إذا كانت الإنجليزية حتى الآن تحتفظ بعناصر واردة من التصريف القديم الهندأوروبى والجرمانى (أشكال الجمع بمماثلة الحركة المنبورة : , men, man mice mouse) ، فمن جانب آخر ، فإن اللغة قد أقدمت على تبسيط صرفها بحيث يمكن لها أن تعطى في صورة سطحية انطباعا للغة الانفصالية . وقد رأينا من قبل أنها قد اقتربت نوعًا ما من الصينية (ص٢٢١ من النص الأصلى) الأمر الذى نراه بلا شك أمرًا مبالغًا فيه . يستنبط أن التباعد الأولى بين اللغات التحليلية واللغات النحوية يعتمد عليه في إطار بسيط إذا فهمنا من خلال ذلك أنماط معينة . مع هذا فمن الممكن استخدام هذه المصطلحات كمكمل لتجميعات أخرى . ومن المبرر القول بأن اللفظة اللاتينية Servi تعد أكثر نحوية من اللفظة الإسبانية el esclavo (للعبد ، من العبد) ،

واللفظة اللاتينية veni أكثر نحوية من الإسبانية : he venido (أتيت) ، إلخ، هذه كلها فروقات رتبية .

يأتي أفضل تصنيف نمطي للغات منسوبا إلى إى سابير E. Sapir الذي يبرز في المقام الأول أن الفارق بين وراثي ونمطي لا يمكن أن يكون قائمًا على أتم وجه . فكل مصاهرة لغوية تتضمن بالمرة على الأقل نوعًا من المشابهة البنيوية (انظر فكرة تروبتسكوي Troubetzkoy، التي أشرنا إليها آنفا) أما بينبينستي Benveniste، الذي يبرز أهمية فكرة تروبتسكوي عن وحدة الهندأوروبية باعتبارها تتميز بتجميع ملامح بنيوية ،فقد أخضع هذه الفكرة للدراسة والاختبار آخذا كمحك إحدى اللغات الأمريكية (تاكيلما أوريجون) هذه اللغة تُعدِّدُ كل الخصائص التي ذكرها تروبتسكوي وبتجمعها تحدد الهندأوروبية، الأمر الذي يؤكد – وهنا تكمن الحجج التي ساقها بينبينستي – أن برهان تروبتسكوي لا يلغي الفارق بين النمطية والمصاهرة الوراثية .

يقوم أحد تصنيفات إى سابير E.Sapir على طبيعة أنماط المفاهيم المعبرة (أساسية /١/، اشتقاقية /٢/ ، علائقية تحديدية /٣/ ، علائقية تجريدية /٤/ ، إنه يميز أربعة أنماط (أ ، ب ، جـ ، د) وفقا لوظيفة الأنماط الأربعة المفهومة ويمايز هكذا بين أربع مجموعات من اللغات ، لغات تملك الشق الأول والرابع ، ولغات الأول والثاني والرابع ، ولغات تعرف الأول والثالث ، ولغات الأول والثاني والثالث) في هذه المجموعة الأخيرة ، توجد اللغات ذات الصرف الطيع وعديد من اللغات الإلصاقية . في كل واحد من هذه المفاهيم الأربعة ، يطرح سابير تقسيما E.SAPIR، وفقًا للتقنية المستخدمة ، يشمل ما يلي : انفصالي ، إلصاقي ، إدماجي ، نحوي . وهنا نرى أن فكرة النحوية تساوي مع مفهوم نسبي . والأشكال الانسجامية الصائتة (النظام الصوتي : amlaut) تسهم في إعطاء طابع نحوي ، في هذا النظام ، نجد أن اللغة الصينية نفسها داخل إطار النمط " أ " (النظام العلائقي التجريدي ، التقنية الإنفصالية ، التحليلية) والتركية في المرتبة " ب " (زيادات، إلصاقية ، نحوية) البانتو في المجموعة " جـ "

(التي تنتمي إليها أيضا اللغة الفرنسية) في اللاتينية ، واليونانية والسنسكريتية لابد من أن نصنف في المجموعة د (الإدماجية والإلصاقية الخفيفة في الاشتقاق ، ولكنها ذات مظهر رمزي وطابع نحوي ، " بنبينستي ، ص ١١٢ ، ١١٣) .

هذا التلخيص لنظام سابير E.SAPIR، والملاحظات المنسوبة إلي بنبينستي BEN-VENISTE قد أقامت البرهان على أن تصنيف اللغات على أساس نمطي بنيوي يعد أمرا ممكنا في البداية ، ألا أنه صعب التحقيق تفصيلاً في نفس الوقت ويصبح ، في حالات عديدية ، أمراً تعسفيًا . وإذا أخذنا في الاعتبار فقط الصورة الكلامية للغة الفرنسية – مع تصغير شأن الشكل الخطي – فإنه من السهل الوصول إلى أوصاف تميِّز هذه اللغة لأنماط لغوية ذات تحليل أولي (مثل السلتية) فجمع الكلمة enfant سيكون شكلاً ذا عنصر صامت bon enfant , enfant , petit، إلخ) إن الصرف الخاص بلغة معينة والقائم على أساس متشابه يأتي في صورة بالغة التعقيد ويصبح بعيداً جدا عن اللغات الأوروبية الأخرى . وهاهو الوصف الوراثي ، الكاشف للقواعد خلف الأشكال المسموعة والمرئية ، يقرِّب الشكلين الكلامي والكتابي إلى حد كبير في لغات مثل الفرنسية والإنجليزية . إذا طرح الشكل الأداتي التعريفي في صيغة الجمع على أساس من لفظة Les (مع المنطوق z في النهاية) ، بمساعدة قاعدة بسيطة فمن الممكن وصف الاستخدام (الحرف z يختفي أمام الحرف الصامت ، ولكنه يبقى أمام الآخر الصائت) .

هذه التبادليات الأولية المميزة للغات السلتية تذكر في الواقع بمثل هذه الاعتبارات الفرنسية اللفظة البروتونية bro (بلد) تأخذ عقب الأداة التعريفية ar الشكل Vro إلا أن العنصر السابق قد اختفي دون أن يترك سوى أثر وحيد هو التغيير الصامتي . وهكذا في الغالية (galo)، حيث لفظة أب هي tad ووالده (eidad) ووالدها (eithad) – (حيث التناوب بين t، d، th يرجع فقط إلى فارق في المعنى) في الأيرلندية ، ceann تعني (رأس) ، a cheann 0 (رأسه) ، gcean، (رأسهم) ، يلاحظ أن مصاهرة الفرنسية مع

هذه اللغات – والتي تعد أية صلة نسبية لها باللغات الرومانثية بعيدة الغاية ، بالنسبة لظواهر معينة للغاية ، بالنسبة لظواهر معيَّنة من الصوتيات التوليفية (Sandhi) – تعد أمراً مدهشاً ومصطلح Sandhi هو بمثابة اقتباس من القواعد النحوية للغة الهندية ويشير إلى القواعد المحددة للظواهر التي تحدث في إطار الكلمات . الكلمة تعني (Liasong) Juncion في الفرنسية تعد مثالاً على Sandhi.

الفصل الثالث عشر

أصل وميلاد اللغة

الأصول البيولوجية . التّطور والمفاضلة . الإبداع

في تقديمنا انطلقنا من مفاضلة بين مفهومين متقابلين يصبح أحدهما تابعا للآخر: الإشارة والرمز . هذا الأخير أعم يشمل كل نوع من التمثيل . أما الآخر فأخص ويقتصر في لغتنا على الإشارات ذات النطق المزدوج ، حيث نجد أكثرها تواترًا وأهمية تلك الخاصة بالجانب اللغوي. لقد سنحت لنا فرصة أبرزنا فيها لأنفسنا أن الإشارات الخاضعة لهذا التعريف تمثل مستوًى أكثر تطورًا وتفاضلاً . على مدار العملية الإنسانية كلها – في الفرد والنوع على حدٍ سواء – تصبح الإشارة ذات المستويين هي الممثلة للمرحلة الأكثر تطورًا – في الحقيقة الهدف النهائي – أما الرمز الشامل فيمثل طورًا أوليًا . وكذلك فقد رأينا أن الرمزية الأقل تعقيداً تستقر في بقائها بصورة متوازيةٍ مع الطبقات الإشارية الحاملة لمعلومات لغوية مباشرة (مركّبة) .

إن مسألة ولادة وتطور لغة معينة لها جانبان . فاللغة تبدأ عند الطفل حين بلوغه عمرًا يتراوح بين عشرة أو اثنى عشر شهرًا، ثم تتطور في اتجاه الإتقان الذي يبلغ تمامه في سن الثالثة تقريبا أو بعد ذلك بقليل . ولكن الناس جميعا يعلمون أن هذا الإتقان ، المناسب للسن والكافي لمتطلبات الطفل ، لا يعد سوى مرحلة في طريق إتقان لا يمكن بلوغه قط مائة في المائة . إن تعلم اللغة من جانب الفرد لا يتوقّف عند حد قط. وإذا بدا لنا أن الطفل يتحدث اللغة تحدثا سليمًا في سن الرابعة أو الخامسة

أو السادسة أو حتي العاشرة؛ فذلك لأننا نقيم لكل سن معيارا قائمًا على خبراتنا الخاصة حين كنا أطفالاً أو ، عند علماء النفس والمربين ، على أساس من الخبرات المنهجية والاختبارات المضبوطة . وفى هذه السن نجد أن المستوى الذى يبلغه الفرد محدود على ضوء هذه الخبرات والتجارب (للآباء والمدرسين والباحثين) والمستوى هو الذى يخبرنا بما إذا كان هذا الفرد يجب اعتباره " طبيعيًا " ، " موهوبا " أو " متخلفا ". بعض الأفراد يتوقف عند مستوى طفولي ويظلون " كمتخلفين "طوال حياتهم . مثل هذه التخلفات – كأى سلوك بشرى – لها أصولها البيولوجية القطرية أو المكتسبة (إصابة دماغية) وأصول اجتماعية . وفقر وانعزالية الوسط الاجتماعي يمكن أن يكون أساس تخلفات من الممكن ، فى ظروف أخرى ، ألا تحدث . ومن المعلوم أن الرعاية المعطاة للأطفال من قبل الآباء ، والمربين والمدرسين لها أهميتها بالنسبة لارتقائهم اللغوى . والتمرين اللغوى يمكن أن يؤدى إلى تخلف فطرى أقل خطورة دون التوصل إلى إزالته، مع ذلك . لقد تم التوصل رويدا رويداً إلى الاقتناع بأنه خلال الفترة التعليمية للغة الأم، قبل بلوغ سن المدرسة ، يصبح التدريب الشفوى والفكرى أكثر أهمية . لابد للطفل من أن يتكلم وأن يحثه الآخرون على الكلام . فالأب أو المدرس الذى يقول للطفل " اصمت " يرتكب عملا إجراميًا .

بالإمكان تمييز العديد من المراحل الارتقائية اللغوية عند الطفل . فصيحة الميلاد هى باكورة الإنتاج الفمي للرضيع . إنها صرخة آلية تلقائية ولا تنطوى على طابع واع (أو حتى تعبيرى) . وعلى مدى الشهور الثمانية عشر الأولى من حياته ، لا يستخدم الطفل بعد حركاته – باستخدام الذراعين والساقين فى حالات نادرة وكذلك الأجهزة الفمية والحنجرية – كأدوات للتفاهم ، حتى لو كانت هذه الأنشطة متضمنة لتمارين ملائمة لاستخدام مستقبلي واع . إنها المرحلة القبل – لغوية مرحلة تجهيز الأنشطة الاجتماعية المستقبلية .

صرخة الرضيع ، التي هي في البداية علامة لا شعورية على عدم الراحة ، والألم والضيق ، سرعان ما تتحوّل - تحت تأثير رد فعل الوسط المحيط به إلى وسيلة للتفاهم . فالصرخة تعني في داخلها أن تهم الأم بإطعام الطفل أو بوضعه في سريره على نحو آخر غير الذي هو عليه . وسرعان ما يتم التمييز التفاضلي لنوعية الصوت (مآخذ صوتية متعددة : رقيقة للتعبير عن الراحة ، قوية للتعبير عن المشاعر المؤذية) وخلال هذه المرحلة السابقة على الكلام يظهر التلعثم الشهير ، إصدار كل نوع من المؤثرات الصوتية - أصوات لن يكون في مقدور الطفل بعد ذلك أن يصدرها مرة أخرى ولا علاقة لها بالوحدات الصوتية المستقبلية للغته ، إنها فقط عبارة عن تمرين أولي لأجهزة الإنتاج والإدراك . وما هناك من شك في أن إدراك أصواته الخاصة تعد بالنسبة له حافزا هاماً وأن التلعثم يستمر بوصفه مؤثرا. الطفل يقلد إذن إبداعاته الصوتية ولكنّه يبدأ أيضا في تقليد الأصوات الموجودة في محيطه . الطفل الأصم يتلعثم في البداية ولكنه بخلوه من الحافز السمعي ، يترك هذا الأمر بسرعة وبمساعدة الحركات الشفهية والحنجرية والمؤثرات التي تحدثها يكتسب الطفل معرفة أجزاء جسده التي سيحتاجها فيما بعد في إبداعه اللغوي ، ومعرفته بالأجزاء الأخرى من جسده تكتسب بطريقة مماثلة وتجهز بصورة مطابقة لاندماجه في أنشطة أخرى (استخدام الساقين ، اليدين، إلخ) لقد رأينا أن التمارين الشفهية للطفل لا تتوقّف بالتلعثم وأن مثل هذه الألعاب الصوتية - رغم انطباقها على العادات الصوتية الوظيفية المتعلمة في هذه الفترة - تستمر على مدى عملية التطور كلها للفرد . وقد ذكرنا أنه في نفس الوقت الذي تنظم وتكتسب فيه هذه الألعاب الصوتية أشكالاً اجتماعية محددة تتحوّل إلى شعر . لقد وضح تمامًا أن اللعب بالأصوات يأتي مواكبًا لاكتشاف الطفل لشكله الحقيقي في المرآة (والتي يقال عنها بأنها تحدث في نفسه سعادة ودهشة في نفس الوقت) .

هاهو جان بيجيت Jean Piaget ، عالم النفس السويدي الشهير ، يميِّز بين ست مراحل تطورٍ عند الطفل . الأولى تتمثل في ظهور الانعكاسات (الامتصاص) التي تحتوي على عنصر تمريني وتصبح ذات حساسية للتوفيق التدريجي مع الواقع الخارجي ، والتماثل " التوالدية التنويعية ") ، والتي تعتبر بمثابة البيان الأساسي للتطور النفسي . المرحلة الثانية المتمثلة في الائتلافات الأولية المكتسبة وردة الفعل الأولية الدائرية . أما الثالثة فتحتوي على وسائل تستخدم في عمل " العروض الهامة "، والرابعة تكمن في تنسيق المخطوطات البيانية وتطبيقها على المواقف الجديدة . أما المرحلة الخامسة فتشتمل على " اكتشاف الوسائل الجديدة عبر تجريب فاعل " وأخيرا تتمثَّل المرحلة السادسة في الإبداع (الذي يلي الاكتشاف البسيط) للوسائل الجديدة عبر توليفة ذهنية . هذا الإبداع يعني التمثيل . " الإبداع هو تغيير المخطَّطات الذهنية ، أي ، التمثيلية ".

التلعثم لا يتحوَّل إلى لغة . والثراء اللغوي يختفي مع التركيبات الصوتية الوظيفية الأولية – " الكلمات " – أو يستمر جنبًا إلى جنب معها . بعض عناصر التلعثم – الحرفان الصامتان اللذان بإمكانهما الالتقاء في بداية اللفظ (L,r والأخرى المعطشة ، والصائتة الصوتية – لا تعود للظهور كوحدات صوتية إلاَّ في مرحلة متقدِّمة في التعلم ، يبدو أن السلسلتين الصوتيتين ، والوحدات الصوتية (التي ما تزال قليلة العدد) والإبداعات الحرة تبقى بدون تداخل بينها . وقد تمكَّن المؤلف من إقامة الدليل مؤخراً في حالة أحد الأطفال السويديين البالغ من العمر ثلاثة أعوام على أنه لم يكن يعلم حتى هذه السن كيف ينطق الوحدة الصوتية S (الفرنسية ch) وكان يستبدلها بالوحدة f حيث كان يجيد نطقها ، وينطق أقرب ما يكون إلى الإنجليزية ، بدأ ينطق الاسم Nash في شكل أشبه بحركة السيارة وقت تحركها . وبالنسبة للطفل كان استعمالا غير قابل للتجزئة لا علاقة له بأبنية ألفاظ اللغة .

هناك مـرحلة بين التلعـثم اللغـوى والمحـاولات الأولى للكلام المنظوم تتـمـثل فى التراكيب القائمة على التقليد (محاكاة الأصوات) والتعبيرية التى يصدرها الطفل مشيراً إلى بعض الخبرات والمشاعر . التراكيب من نوع : guau , muuu ,brrr، وغيرها، الخاصة بالكلب والبقرة والسيارة – والتى يطلق عليها خطأ الكلمات الأولى للطفل – هى عبارة عن رموز مركبة ، أولية ليس فقط لكونها تعبيرية وقائمة على المحاكاة (رموز وعـوارض بهلر ، الفـصل التـاسع) وإنما أيضـا لخلوها من أيَّة بنيـة داخليـة . هذه التراكيب شاملة . وطريقتنا فى كتابتها بحروفنا تعطى بسهولة الفكرة المزيفة القائلة بأن الأمر يتعلق بتراتيب لوحدات صوتية مثلما فى الكلمات . لا علاقة لها " بكلماتنا " وإنما بجملنا .

وأول تمايز لهذه التراكيب الصوتية والخطوة الأولى تجاه لغة ذات بنية إنسانية يوجدان فى الوقت الذى يبدأ فيه الطفل – منتهزاً وظيفة بدائية لفتح وغلق القناة الفمية – إحداث فروقات لفظية واعية للفتح والغلق (والتى تتحول إلى عملية تضييقية فيما بعد) بعناصر مفتوحة لدورة حلزونية حرة تسمح بإصدار الحروف P-t-k، إلخ ، وترتيبات مكونة منها ، إن الإغلاق الكامل للقناة الفمية (الذى لا غنى عنه للحروف الانسدادية : ta-ta-ta-pa-pa-pa، إلخ) ليس إلى الآن سـوى سـلاسل انسـدادية تتمـايز عن طريق مكان الانسداد (فى الشفتين ، فى الأسنان ، فى الحنك) تأتى الفروقات فى البداية كتفريعات لإنتاج هذه المؤثرات إلاَّ أنها سرعان ما تتحوَّل إلى عناصر متقابلة بسبب ما لها من قيمة تعبيرية . المجموعة Pa ليست إلى الآن مقطعا وظيفياً . والحرف a ليس له من قيمة تمييزية . وقد حان الوقت لكى نرى نشأة أول تقابل لغوى حق عند الطفل ، ألا وهو القائم بين عنصر P، إلخ) دون مشاركة أنفية وعنصر (m,n، إلخ) أنفى . إذا ما حدث فتح بالشفتين ، فمن الممكن إما تحقيق انسداد كامل بحبس مؤقت لتيار الهواء الخارج (P)، وإما عند إنزال سدل الحنك ، السماح بخروج الهواء عبر الأنف محدثا بذلك أثرا أنفيا (m) نفس التفاضل قائم بين n,t، إلخ، حتى الآن لم نتحدث عن

الصوائت d,b، إلخ التى لا تتمايز قط في هذه المرحلة عن الأخرى الصامتة t,P . ويبدو من المعقول افتراض أن العملية الأنفية التي تنفذ آليا خلال عملية الرضاعة ترتبط ، في هذا المعنى السابق للكلام ، بفكرة الغذاء ، من الثدي ، والأم – المفهوم الوحيد الذي لا يقبل التجزئة بالنسبة للرضيع . ليس بمقدوره أن يكون أثرا خاضعًا للصدفة أن تبدأ الكلمات بمثل هذه المفاهيم ، أو تحتوي على حرف أنفي (وخاصة m)، في لغات شديدة التباعد وبدون علاقة وراثية أو مشابهة نمطية الكلمات التي من نوع ma-ma-na-na، إلخ ، تشكل جزءًا من مفردات الطفل يعود وجودها إلى القيمة التعبيرية والانفعالية لهذه العناصر ،ولا يتعلّق الأمر هنا بعناصر تعسفية .

إذا ما قبلنا أن الحركة الأنفية لها نوع من الدلالة لاحتياجات حميمية للطفل ، فمن السهل علينا أن نتخيَّل ميلاد التقابل التعارضي بين الحروف الأنفية وغير الأنفية (ta-ta-pa-pa، إلخ) الذي يعكس تفاضلا أوليًا بين منطقة " الغذاء – الأم – الثدي (التماهي مع الفرد) مع الوجود على مسافة معينة للأفراد والأشياء (الأب ، الأخوة والأخوات ، إلخ) إذا ماكان هناك عدد بالغ الكثرة من كلمات " أم " المشتملة على الحرف (م ، m) فمن ناحية أخرى هناك كلمات قليلة جدا للفظة " أب " Padre والمشتملة على حرف أنفي ولكن غيرها الكثير المشتمل على + (d) أو (pa-pa-p) (ta-ta-da-da) ، الأمثلة متوافرة في معظم اللغات . إن الطابع البسيط من الناحية الصوتية الوظيفية لهذه المصطلحات (في الغالب الأعم فقط CV) يؤكد النظرية التي تتحدَّث عن تركيبات طفولية لا تاريخ لها ، ولا مصدر اشتقاقيًا . ومن الشائع أيضا الإشارة إلى أنَّ الضمائر التوكيدية في لغات كثيرة تبدأ بحروف صامتة سنية (الهندأوروبية والأجريانية، إلخ)

مع الامتداد التالي للإمكانات الصامتة نجد أن عدد العناصر المختلفة يتزايد نتيجة لذلك ، مما يؤدِّي إلى إيجاد عدد كبير من الرموز لعددٍ مماثلٍ متزايد من الدالات (الأشياء) ومع ذلك ، فإن المقطع يولد مع الإمكانية الأولى لتنويع جرس العنصر

الصوتي . والطفل بمقدوره أن يحدث مقابلة بين – pi , pu ,pa ثم يكون منها ثلاثة مضامين مختلفة ، وفيما يتعلّق بقاعدة النطق الثاني (للمقطع والوحدة الصوتية) فإنه يتم اكتشافها هنا . في الرمز السابق على وقت الكلام نجد أن عدد المجموعات لا يتمايز (ma-ma-ma-ma-ma-ma) في كلمة mama نجد مقطعين ، لا أكثر ولا أقل هكذا نجد أن عدد المقاطع يعود ليصبح وسيلة لزيادة عدد الوحدات المنطوقة . بإدخال المجموعات الصامتة (مرحلة متقدمة : Pa-papla، إلخ) ومقاطع مغلقة (papa)، سريعا ما تتحولّ إمكانية تكوين الوحدات المنطوقة إلى شكلٍ غير محددٍ . إن مشكلة معرفة كيفية اكتساب العنصر الصوتي للمقطع رويداً رويداً لقيم تمييزية مثل العناصر الصامتة ، بعد أن أصبحت اعتبارا تعبيرياً رمزياً، هي في الحقيقة مشكلة ميلاد اللغة البشرية الخاصة ، لقد ساهم المؤلف في مكان آخر في حل هذه المشكلة المعقّدة ويكفيه أن يرشد القارئ لمراجعة (Signos Y Símbolos ,cap.23).

ولكن قبل أن نصل إلى هذه النقطة الختامية في المستوى التعبيري الذي هو بمثابة الإجادة لكل الوسائل التفاضلية (الصامتة ، الصائتة ، الخاصة بضبط النطق) للغةٍ ما ، فلابد للطفل من أن يمر بمرحلة تماثل تالية على هذه الوسائل . وهذا الفتح للآليات يأخذ مكاناً ضمن نظام واحد في كل اللغات (النظام المتدرج ، انظر الفصل الثاني) والذي يعد بلا شك دولياً . رأينا أن هذا التّدرج يعني ضمنا تركيبا أبسط . وبمقتضى هذا القانون (" قانون جاكوبسون ") ينتقل الطفل ، منطلقا من أبسط قاعدة (مجموعات CV، إلخ) إلى التراكيب الأعقد في لغته . ولمعرفة التفاصيل ، انظر الفصلين الأول والثاني ،كانت هناك اعتراضات على قانون جاكوبسون مفادها أن النظام القائم ليس عامًا ، حيث هناك أمثلة متناقضة وأن أطفالاً كثيرين يقدّمون دليلاً على نوع من اللاقياسية المعتبرة .

من ملاحظاتنا السابقة نستنبط أن مثل هذه الانتقادات تقدم على أساس من سوء الفهم . في المقام الأول ، فالقانون الذي نطلق عليه قانون جاكوبسون هوعبارة عن

قاعدة تدريجية عامة(شجرية) لا تتناقض لهذا أو ذاك التفصيل الصغير الزائغ . دائمًا ما نجد هذه الاستثناءات المزعومة راجعة إلى تفسير خاطئ: التفسير الصوتي الوظيفي للاعتبارات الأساسية (اللبس بين الوحدة الصوتية وما يتفرّع عنها ، تكوين وحدات صوتية غير كاملة أو خاطئة ، إلخ) وبصفة خاصة ، وتواتر كبير يحدث أن الطفل بعد أن ينتقل إلى مستوى أعلى (بتأقلمه مع وحدات صوتية جديدة) ، يحتفظ بالنسبة لبعض الكلمات الشائعة التي اكتسبها لتوه بالنطق الأوّلي القديم ، مما يدعو الملاحظ إلى الاعتقاد بأنه لم يتبع النظام . هناك بعض الأشخاص الذين يحتفظون طوال حياتهم بنطقٍ طفوليٍ لهذا الاسم أو ذاك لبعض الأفراد ، والتي تعد صورة نطقية عامة على جميع أفراد الأسرة .

هذا القانون الخاص بالارتقاء – والذي يكمن أفضل بتبرير له في أن النظام المعكوس يصبح غير قابل للإدراك – ليس قاصراً على التعبير الذي تمت البرهنة عليه من خلاله في بداية الأمر ، ولكنه ينطبق أيضا على المضمون . رأينا أمثلة في الفصلين الرابع والخامس . دائما ما يدور الحديث عن جمل تتكون من كلمة واحدة عند الطفل . من المهم أن نبرز هنا مجددا أن مثل هذا الأمر يعد من قبيل سوء استخدام اللغة "الكلمة – الجملة " ليس بالكلمة أو بالجملة . وأول بناء لغوى للمضمون يصل في الوقت الذي يحصل فيه الطفل على العملية الترتيبية بين الألفاظ بعضها البعض : فحين يقول: " Papa io " (ذهب والدى) ففي مثل هذه الحالة يمكننا أن نترجم العنصر المكمل في لغتنا بفعل أو صفة أو حتى بظرف (papa allí) (بابا هناك) لا شيء حتى الآن يتوافق مع تصنيفنا لأنواع الكلمات ، أو ما عندنا من أجزاء الجمل ، وإنما نفس القاعدة التي حكمت اكتشاف المقطع (متحرك واقع بين حروف ساكنة) قد لعبت دورها هنا بصورة مماثلة في البداية . والآن نرى أن هناك توجهًا حراً نحو الانتشار والتوسع (papa io allí) ذهب بابا إلى هناك، وهو ما يؤدي ، وفقا لنفس قاعدة التبعية اللزومية – إلى جمل ذات طول لا حدَّ له من الناحية النظرية . والطفل يلجأ في

البداية إلى وضع العناصر فى خط دون استخدام علامات رابطة ، فى الغالب فى شكل غير مصرَّف (استخدام الفعل فى صيغة المصدر) المسمَّى بالأسلوب التلغرافى وأحيانا يظهر شكل مصرف دون أن نصل إلى فهم التركيب .

النحو يمثل واحدة من الصعوبات التى تواجه الطفل فى لغته ، والذى يعد جانبيا يقل فهمه عن الجزء الصرفى (حيث تصبح التراكيب " والمشابهة " عديدة ومعروفة حق المعرفة : Je suitais بدلا من J'étais إلخ ، فى اللغة الفرنسية) ويمكن بلوغه عبر مراحل عامة تذكِّرنا بمراحل ترتيب الوحدات الصوتية داخل إطار المقاطع . وهكذا يتمكَّن الطفل من استيعاب واستخدام التراتيب الأبسط والأسهل (من خلال وجهة نظر النطق والاستماع) بصورة أكثر سهولة ويسر ، وكذلك فإنه يستخدم الأنماط النحوية البسيطة قبل استخدامه للأنماط المركبة ، تلك التى تعد فى نفس الوقت الأغرب والأندر فى لغات العالم . بالنسبة لموقع الصيغ الظرفية (النفى ، ظروف المكان والزمان ، إلخ) فى الجمل التابعة فى اللغة السويدية يعد شاذاً بالمقارنة مع معظم اللغات التى تجمع بينها صلة المصاهرة، فى حالة وضعها قبل الفعل (ولكنها توضع بعد الفعل فى الجمل الرئيسية) إنه تعقيد كبير يصل الأجانب لإتقانه بشق الأنفس - الأطفال السويديون يصلون بعد حين إلى هذا الإتقان . أما الأفراد الذين يعتريهم ضعف لغوى فيواصلون ارتكاب هذا الخطأ طوال حياتهم .

هناك صعوبة أخرى تنتمى إلى الحقل الدلالى . النظام السيميولوجى يتم تعلمه ، مثل علم الصوتيات الوظيفى ، بالتأقلم المتنامى رويداً رويداً مع عدد من المتغيرات السياقية المتزايدة (انظر الفصل الخامس) إن الطفل يستنبط قاسما مشتركا قريباً من ذلك الذى يستخدمه الإنسان البالغ بشكل متوازٍ مع زيادة الخبرة وسلوك الأطفال إزاء الروابط (الفصل الرابع) مثل yo (أنا) tú (أنت) aquí (هنا) allí (هناك) ahora (الآن) entonces (حينئذ) يتغيَّر كثيراً من شخص لآخر . لا يمكننا حتى القول بأن هذا الاستخدام لنفس الكلمة بدلالات متنوعة دائما يعد أمراً غامضاً . هناك

العديد من الأطفال الذين يتحدثون عن أنفسهم وعن محاوريهم مستخدمين الشخص الثالث (الغائب) - الاتجاه الذي يدعمه للأسف الآباء في استخدام الاسم بدلا من tu (أنت) وكلمة mamá (أم) بدلاً من yo (أنا عند التوجه بالكلام إلى الطفل) .

الاعتبارات الدلالية تكون ، مثل الاعتبارات الصوتية ، أقرب إلى الحقائق غير اللغوية، وبالتالي تأتي تابعة أكثر من السيميولوجيا للتغيرات السياقية . والمضامين الدلالية التي نربطها بإشاراتنا هي ، في نهاية الأمر ، نتيجة عمر طويل من الخبرة داخل الإطار الاجتماعي الذي نعيش فيه أو نعرفه . ليس بمقدورنا حتى القول بأن خبرة الطفل لن تشمل إلا قطاعا صغيراً من الخبرة التي يتمتع بها البالغون . في الحقيقة ، فإن الطفل يفهم ويترجم الرسائل ابتداءً من ذكرياته الشخصية للأحداث التي يعيشها، وعلى هذا الأساس يقيم عالما مختلفاً تمام الاختلاف عن عالم البالغين . إن تعلم اللغة على المستوى الدلالي يعني تقارباً تدريجيًا بين هذا العالم الطفولي وعالم المحيط الذي يعيش فيه . والتأقلم مع عوالم جديدة خارج البيت ، في المدرسة والجامعة والعمل ، في بلد آخر ، يعد إذن تعليما آخر جديداً في هذا المجال الدلالي يعدل القيم الخاصة بالمفاهيم المكتسبة آنفا . ولهذا فمن الممكن القول بأن هذه التعديلات المتتالية للمضامين الدلالية التي يعج بها المخطط البياني " للإشارة اللغوية " لا تتوقف قط . إنها تعني تعليمًا يمتد من المهد إلى اللحد . ولكن أيا كان الأمر ، فخلال الخمس أو الست سنوات الأولى من حياة الطفل يصبح الجو مهيئًا لنوع أكبر من التعديلات .

في الحقل المعجمي (الألفاظ) نشير بالتالي إلى حالات من التشكك يتم تفسيرها بمقتضى وجهات النظر المطروحة آنفا . أما الكلمات ذات القيمة المجردة - ليس فقط الحالات الشاذة الممثلة في النمط " yo" (أنا) - تنم عن صعوبات بالغة . وحروف الجر التي تحدد نوعًا من العلاقات الزمنية والمكانية (قبل - بعد - أمام -خلف) يعتريها اللبس ويحدث نفس الأمر مع أدوات الربط بوصفها التعبيري لعلاقات مجردة ، أو شرطية أو سببية أو التزامية . وبصفة عامة ، يتأخر الطفل في الوصول إلى الترتيب

الطبيعي للجمل ومع ذلك ، فهناك درجات فائقة التحديد يعتريها الغموض نظراً لما بها من تقارب سيميولوجي (النمر ، مكان ، الأسد) ، أو لما بها من " الأنتيمنوميا " (استبدال كلمة بأخرى تعني العكس) " أكثر " أقل " ، يغطي " " يغلق " ، يصعد " يهبط ") ودائما ما يكون مكان الكلمة السليمة مشغولاً بشرح مطول.

بهذا الخصوص نشير إلى أن مثل هذه الحالات السابقة تعد ظواهر مرئية عند الأفراد الذين يعانون من فقدان قوة النطق ، أو بصورة أعم ، في حالة الضعف ، والتعب ، إلخ ، وأنها تعد بالتالي علامات على إجادة غير كاملة للآليات أكثر من كونها ملامح خاصة للغة طفولية . نلفت النظر هنا إلى أننا لن نتناول الظواهر الفسيولوجية والنفسية العديدة التي تؤثر ، بصورة غير مباشرة ، على سلوك الأطفال طوال سنوات التعليم .

هناك بعض الباحثين الذين يرون أن تعلم اللغة يتوقف عند سن السادسة أو السابعة ، الوقت الذي تصبح فيه الأبنية الصوتية والنحوية والمفردات الأساسية للطفل قائمة على أساس متين ، وما حدث بعد ذلك ليس سوى إثراء للمفردات وإمكانية تكوين عبارات أشد تعقيدا من الناحية النحوية . وهناك أسباب للتشكك في هذا التحديد لسن التعلم . من هذا الذي قلناه يستنبط أنه من المؤكد ألا يوجد حد أقصى يتعلم الطفل فيه لغته . ففي المقام الأول لابد من معرفة نوعية الطفل الذي نتحدث عنه . وما بمقدورنا العثور في أي مكان على حدٍ مطلق بين الفرد الطبيعي والعبقري من جانب ، والمتخلف من جانب آخر . بالإضافة إلى ذلك ، ما هي درجة التعقيد النحوي والدلالي التي يجب أن يصل إليها الفرد حتى يمكن اعتباره قادراً على استخدام لغته استخداماً جيداً ؟ إن الكفاءة اللغوية ترتبط بصورة أو بأخرى بكفاءة أخرى عامة يطلق عليها ، في تعبير يظهر دائما في صورة متعسفة ، الذكاء . مثل هذا التوازن ، إذا ما كان له وجود ، ليس من المؤكد أن يكون بسيطا - أو حتى تخطيطيا. ومن المعلوم أن بعض الأشخاص يبدون ذكاءً حاداً في بعض الحقول بينما يظهرون ضعفا بشكل مباشر فيما

يتعلق باستخدام لغتهم . وأخيراً ، أن يكون هناك استمرار أو توقف عن التعليم عند سن معينة يرجع بالطبع أيضا إلى النمط المدرسي ، واستمراريته وطابعه . ونحن نرتكب خطأ كبيراً حين نعزل تعليم لغة كلامية عن تعليم القراءة والكتابة في المدرسة ، فحين يتم تعليم قاعدة القراءة ، يصبح إتقان مستويي اللغة واحداً ، إلى حد كبير يحدث بينهما نوع من التعاون . وقد يحدث بينهما نوع من التعاون . وقد تحدثنا آنفا عن تأثير الكتابة على لغة الكلام (الفصل الثالث) .

أشرنا في الفصل الأول إلى الأصول البيولوجية للغة وتطبيق مثل هذا الموروث على الوسط الاجتماعي . ليس هناك من أحد ناقش وجود أهمية هذه العوامل بالنسبة للسلوك الاجتماعي والثقافي للإنسان بصفة عامة وبالنسبة للغته بصفة خاصة . رأينا في الفصل الثاني كيف أن مجموعة من الأجهزة قد تمت مطابقتها بصفة ثانوية على المتطلبات الاتصالية والتعبيرية للإنسان. من هذا يمكن أن نستنبط أنه بصورة أخرى تشريحية وفسيولوجية لهذه الأجهزة ، يصبح التعبير اللغوي - في حالة ثبات التماثل للظروف الأخرى - شيئًا آخر يعطي لفترة مؤقتة نتائج بنيوية ثانوية . إن القدرة التجريبية والترتيبية اللتين تعنيهما أكثر المحاولات تواضعًا في مجال اللغة المنظومة (في مستويات النطق) لها أساس عصبي - فسيولوجي ، مثلما يحدث بالنسبة لسلوكياتنا الاجتماعية الأخرى ، والاعتبار المذكور في مكان آخر بخصوص أن الإنسان وحده ، في عالم الكائنات الحية ، هو الذي يتكلّم ، يثبت أن اللغة تتضمن أبنية فسيولوجية موروثة لقوانين الوراثة يمتلكها الإنسان وحده . ليس هناك من وسط اجتماعي ، وليس هناك من تدريب يجعل الشمبنزي يتخطّى الحدود بين رمزية يعرف استخدامها والازدواجية النطقية التي تعد السمة المميزة للإنسان .

إلى هذا الحد ، هناك على وجه الاحتمال إجماع فيما يتعلّق بالعمق البيولوجي للغة والقضية المطروحة في الوقت الراهن بين اللغويين هي أمر آخر . إنه أمر يتعلق بمعرفة ما إذا كانت التركيبات اللغوية ، في أبسط صورها وفي عالميتها المزعومة ،

تمثل موروثًا وراثيًا ، وحيداً لدى الإنسان . وقد جاء ميلاد الطفل مصحوباً بآلية عامة للعمل اللغوى لا تحتاج إلاَّ إلى اتصال بالمحيط الناطق حتى تؤدى وظيفتها والطفل يولد مبرمجًا ومهيئًا لاستقبال اللغة ، مما يعنى أن الأبنية ذات القواعد المشتركة فى كل لغة سيتم انتقالها إلينا عبر الجينات ، وقد أبرزنا أن وجود بعض العموميات اللغوية يعد أمرًا مقبولاً : الخاصية التمثيلية الرمزية ، بما فى ذلك التجريد ، الضرورية لكل تركيب رمزى وإرشادى ، القاعدة الترتيبية التى تسمح بإخضاع الحروف الساكنة فى الجملة أو الجمل لجملة أخرى وأخيرا ، الناحية الإبداعية . وما يتشكَّك أحدٌ فى أن هذه عبارة عن عموميات حقيقية بدونها لا وجود للغة ومع ذلك ، فإن الأمر يتعلَّق بمعرفة ما إذا كانت القدرات المفترضة من قبل هذه العناصر المركبة التمثيلية هى نفسها قاعدة السلوكيات الأخرى المعقدة التمثيلية والخلاَّقة . ليس هناك من شك فى أن الأفضل هو البديل الثانى . إن بنية السيميوطيقا الاجتماعية – أنظمة الموضة ، والسلوك والعادات – تأتى خاضعةً لنفس القواعد ومتضمنةً لنفس الكفاءات . واللغة بلا مقارنة هى الأكثر تطورا من بين هذه الأبنية وتتطلب بالتالى الكفاءة الأكثر نقاء للدلالة التمثيلية والتجريدية والترتيبية . لكنها مفاضلة تدريجية ولد الإنسان مزوَّدًا بهذه الكفاءة الخاصة ، أى بالشروط التى تتطلبها اللغة – الأمر الذى يبدو طبيعيا جدا بغض النظر عن ذلك ،فاللغة هى إبداع الإنسان . ولكن الإنسان ما ولد مزوَّدًا ببنية لغوية ، ولا حتى فى أبسط صورها وأعمقها، والقول بأن الطفل قد ولد بآلية لغوية ليس أصح من القول بأنه ولد مزوَّدا بمبدأ القواعد التى سرعان ما يطبقها أثناء لعبه . الألعاب هى ، كاللغة تماما ، تطبيقات لقدرات منقولة وراثيًا . من خلال وجهة النظر هذه ، لا الألعاب ولا حتى اللغة تجمع بينها وبين غناء الطيور أو تقليد أصواتها أية علاقة مشابهة .

يتبقى لنا قضية الإبداع . هناك اتفاق على أن اللغة ليست مجرد تقليد بسيط . فالتقليد الخالص لأشياء منطوقة مسموعة لا يأخذنا إلى مكان بعيد . الكلام يعنى الإتيان دومًا بما هو جديد ، إنه رد على سؤال لم نسمعه أيضا ، إنه تكيف مستمر مع

بيئة قابلة للتغيير إلى ما لا نهاية ومتغيرة باستمرار (انظر الفصل الخامس عشر ، كورديموى CORDOMOY) . والمحاكاة عامل مهم في تعلم اللغة . إلا أنها ليست عاملًا أساسيًا . مهمة من أجل فهم جيد لتعلم اللغات من قبل الطفل ، وكذلك المشاكل المتعلقة بالمسألة التعليمية ، وإدارك المعنى الحقيقي لمفهوم الإبداع هذا . لننتقل إلى بعض الملاحظات النقدية حول هذا المفهوم .

إن النتائج التي ستأخذ بأيدينا إليها الملاحظات النقدية التالية تشير إلى : (١) الإبداع باعتباره عاملا أساسيًا للكفاءة اللغوية التي لا تنكر (٢) أصالة هذه النظرية ، (٣) صلاحياتها من أجل فهم سليمٍ لقدراتنا اللغوية .

سأنطلق هنا من مقال كتبه تشومسكي بعنوان : " الشكل والمعنى في اللغة الطبيعية " ، (Form and meaning inatural Language en Comunication , ed ,de J.D Boslansky , 1970) يتبنى تشومسكي CHOMSKY الرأي القائل بأن المشكلة الأساسية للغة هي أن نفهم كيف أن المرء الذي يتقن لغةً ما يصبح قادراً على فهم عدد لا نهائي من التعبيرات " الجديدة تماما عليه " ، وكذلك ، كيف يصل لإنتاج مثل هذه التعبيرات في سلاسة تزيد أو تنقص ، رغم جدتها : ويُحدِّد أن الإنسان قادر على عمل ذلك ، "خارج أي نوع من أشكال المحفِّزات " يصف هذه الكفاءة بأنها " لغزٌ غامضٌ " يعد الاستعمال الطبيعي للغة تحديدا نشطا خلاقًا . وما هناك من أحد ينتمي إلى دائرة المذهب السلوكي يرتاب في هذا الأمر . إنه أمر هين . بقي لنا أن نعرف إذا ما كان هذا الإبداع لغزا غامضًا أم لا . سيأتي جوابنا (١) ليس أكثر ولا أقل غموضا من الكفاءة الإنسانية الأعم التي جرت العادة على تسميتها بالذكاء (٢) إن اللغة تعد أحد الآثار العديدة لهذه الكفاءة ، (٣) إنه إذا ما بدت اللغة لنا أكثر غموضا من غيرها ، فإن ذلك يرجع بكل بساطة إلى ما بها من تعقيد كبيرٍ . حتى الآن لم يفصح أي حيوان عن مقدرته على خلق لغة مزدوجة النطق أو حتى عن فهم اللغة الإنسانية ، رغم المجهودات التربوية العديدة في مجال التدريب . ولكننا على علم بالعديد من السلوكيات

البشرية ، ذات الطابع الاجتماعى (الألعاب) أو الأعمال التقنية (مثل قيادة السيارة ، إلخ) والتى لا تصل حتى الحيوانات الأكثر رقيًا لإتقانها . من جانب آخر رأينا أن الوظيفة الرمزية – الموجودة فى قاعدة اللغة دون أن تتماهى معها – تكون معلومة تماما من قبل بعض الحيوانات الرئيسية (الشمبنزى) .

هل حقًا أن إجادة أية لغة تتضمن إمكانية فهم وإنتاج عدد كبير لا متناه من الألفاظ التى لم يسمع بها قط أو ترى من قبل ؟ إذا ما فهم المنطوق المجرد تحت " لم يسمع بها قط " فهو حقيقى فعلا . ولكن هذا الإثبات للكفاءة اللغوية يعد قليل الأهمية ويسهم بقدر قليل فى فهمنا للمقدرة اللغوية . إن خاصية فهم شىء محددٍ ، بكل خصائصه (العامة والخاصة) ، كممثل لطبقة معينة – يمتلك الملامح المميزة لهذه الطبقة ويترك غيرها – توجد فى نفس أساس كل سلوكٍ ذكىٍ . إنَّها شرط لازمٌ للفكر المجرد (الإنسانى) . هذه الخاصية هى التى تنقص فاقدى قوة النطق الذين يدركون كل صبغة لون مختلفة عن غيرها دون أن يكون فى مقدورهم الجمع ، فى هذه المرتبة – بين كل أشكال اللون الأزرق ، الأحمر ، إلخ (انظر كتابى بعنوان : الاتجاهات الجديدة لعلم اللغات las Nuevas Tendencias de la Lingüistínna، الطبعة الثانية) . وفكرة اللغة نفسها تعنى بالتحديد مثل هذه الكفاءة . فكل منطوق لغوىٍ هو مثال محدَّد (مجرَّد) لنوع أو طبقة لابد من الإشارة إليها لفهمه ، وكل شىء محدَّد مدرك ، إما أن يتناقض مع آخر ، أو يتماهى معه . هذه القاعدة ذات فائدة كبيرة بالنسبة للوحدات المركبة (المقاطع ، المجموعات ، الجمل ، النصوص) والوحدات الأصغر على حد سواء (الوحدات الصوتية ، الوحدات الصرفية) .

يبدأ الطفل فى الكلام حين يتعلَّم حرفة التقديم والتأخير ، أى ، استبدال الوحدة الصرفية أ بالوحدة الصرفيه ب التى لم يسمع بها قط فى هذا السياق (إلا أنها معلومة فى غيره) هذا هو الوقت الذى يرى فيه الطفل – أو التلميذ – التماهى فى التبديل والتغيير . هذه هى الطريقة التى يتم بها تعلم اللغة وآلياتها ، مبدأ الفصل

التجريدي . الطفل في المدرسة يدرك أن الحرف S في لفظة boys (أولاد) لا يرتبط بصورة استثنائية بالوحدة الصرفية boy (ولد) وإنما من الممكن إضافتها أيضا إلى اللفظة girl (بنت) (إذا ما أتت مسبوقة بكلمة مثل اثنين) . ولنلحظ هذا التماهي البنيوي بين boys- girls – (بنات – أولاد) (نفس الاكتشافات التي توصل إليها الطفل) والتقابل بين boy-boys ، boy - girl . إن إبداع الشكل الثاني للجمع انطلاقا من الشكل الأول يعد نشاطًا خلاقًا بالطبع . الأمر يتعلق هنا بتكوين جمع – غير مسموع به من قبل – على أنقاض جمع متعارف عليه . ولكن ، هل هذا النشاط يمثل لغزًا أو غموضًا ؟ لا يكاد . وإذا ما توصل الطفل إلى تكوين صيغ الجمع مثل -chil dren- sheep، دون أن يسمعها أو يراها قط ، فمن الممكن الحديث عن غموض ولغز . ليس هناك شيء من هذا . فأول لقاء مع لفظة children أو mice يخبر التلميذ (الطفل) بأن الفرضية الأولى كانت غير صحيحة وأن قاعدة S في الجمع غير كافية . لا الطفل ولا البالغ يخلقان تلقائيًا منطوق إذا كان هناك نموذج لا يعرفانه من قبل . إذا وقع الأمر على هذا النحو ، ستصبح لغة الإنسان أمرا غامضًا مثل بعض السلوكيات الحيوانية (بناء أعشاش الطيور الذي يبتكر بنفس الطريقة دون أن تجد فراخها الفرصة قط لتقليد آبائها) . مثل هذه السوكيات تأتي مبرمجة وراثيًا . أما اللغة فلا . الكل يعلم بأن الطفل المنعزل لا يتكلم والطفل الذي تقوم على تربيته الذئاب يعوي كعوائها .

وما لم يأخذه تشومسكي CHOMSKY وكل مدرسة اللغويات " الشجرية " في الاعتبار هو الفارق الأساسي بين الإبداع القائم على النماذج – الذي لا نجد فيه شيئًا من الغموض وإنما يعني كفاءة تقدمة من التجريد – والإبداع القائم على الغريزة ، القائمة على مقدرة موروثة خاصة بالنوع . أوافق تماما على تسمية هذا الإبداع الأخير بالإبداع الغامض ، ولكن المشكلات المرتبطة به لا تنتمي مباشرة إلى حقل اللغويات .

الإبداع مظهر أساسي للغة الإنسانية . وبفضل هذه الخصوصية تندرج اللغة ضمن الهيكل العام للسلوكيات الاجتماعية التي يعد تحليلها العام من اختصاص

السيميوطيقا " ... اللغة هي حالة خاصة للوظيفة السيميوطيقية (Piaget). الإبداع ليس، إذن ، ملمحًا استثنائيا للغة ، كما يزعم تشومسكى CHOMSKY . والقدرة على إعطاء الخطوة الأولى ليست مقصورةً على الجانب الإنساني . وما يعد من خصائص اللغة حقًا هي قاعدة النطق المزدوج والتي تتضمَّن استخدامًا أقصى لمبدأ التجريد . إن تشومسكى CHOMSKY لا يرى هذا الملمح الأساسي للغة الإنسانية .

ما أطلقنا عليه الكفاءة اللغوية له ، إذن ، وفقًا لنظرية التفرغ الثنائي عند سوسير SAUSSURE (الفصل الأول) ، جانبان يجب الحفاظ عليهما منفصلين وبهما من الغموض ما يمكن أن يُعقِّد وصف اللغات بلا فائدة ، وهما : ١) – الشكل Forma، أو نظام العناصر الصرفية الوظيفية (المجردة) ونظام القواعد النحوية اللذان يحدِّدان علاقاتهما الترتيبية في المنظومة المتوالية (الترتيب ، الدلالة) ، ٢) – الجوهر (المضمون) Sustancia الذي يعتبر الصورة المحددة لهاتين السلسلتين من الإمكانات في الصور الكلامية (والمكتوبة إلخ) الكفاءة تعني ، إذن ، إجادة هذين الجانبين : إجادة واعية وقصدية – حرية الاختيار – للوحدات الوظيفية (الملامح المميزة ، الفونيم (الوحدات الصوتية) ، وحدات ضبط النطق ، " النصوص " ، إلخ ، على مستوى المضمون) ، وإجادة آلية تلقائية وغير واعية للتقليصات والارتفاقات الصوتية ، النحوية، الدلالية ، الدلالية التي ، بصورة مختلفة في اللغات ، تقلل من حرية الاختيار لدى المتكلمين . بديهي أن القيود النحوية تشكلُ بأي معنى جزء من صورة النظم . وحين تصبح زائدة ، فلا تنقل أية معلومات (على مستوى الإدراك) وبرؤية الاعتبارات "الجوهرية – المضمونية" يصبح ذلك بداهة سوء استخدام للغة . ولكن حيث إنها لا تشكل أيضا جزءًا من المواد المتقابلة في اللغة ، فهي تطرح نوعا من المتشابهات مع الاعتبارات الصوتية . لا هذه ولا تلك تخضع لتغييريةٍ حرةٍ . إنهما وسيطان بين اللغة (الشكل الخالص) والكلمة الفردية المجردة . على كل ، فعند أهل اللغة الأصليين ، نجد الأمور التلقائية تتحوَّل إلى الآلية تماما ويصبح من الضرورة مقارنة إنجازها مع

انعكاس متطابق . إن اختيار الزمن والصيغة فى اللغة الفرنسية :Je Crains qu'il ne vienne (أخشى ألاَّ يأتى) j'espére qu il viendra (أمل أن يأتى) يعد أمرا تلقائيًا وآليًا ، وذلك نظراً لمبرّرات لا مسوِّغ لها ، أو من الصعب تبريرها ، نظرا للتقابلات الدلالية . واختيار الخاصية المقفلة ، اللامزدوجة ، للحرف ı فى اللغة الفرنسية يعد تضييقًا لا يدع أية حرية لمن يود التطابق مع قواعد اللغة . واختيار حرف صائت غير مستدير فى الفرنسية إذا ما كان حرًا بمعنى أن الصيغة الشفوية تصبح ممكنةً على حد سواء ، يرتبط فقط بوحدة صرفية أخرى (su). واختيار الحرف ı (كمقابل y) يكون إذن ، عملا واعيا ويأتى محددًا بما ينوى المتكلم قوله ، مع كون اختيار المتغير المقفل للغاية وغير المزدوج للحرف ı غير واعٍ وتلقائى وآلى .

المتكلم هو من يولِّد عن وعي الاعتبارات اللغوية (النظمية) ، ويطبق بصورة غير واعية الأمور التلقائية التى تعلمها كعادات دفعة واحدة . الجانب الشجرى أو الإبداعى يؤثِّر على الأول من هذه السلوكيات فى اللغة والجانب الآلى (" جانب المحاكاة ") يترك بصماته على الثانى .

كانت النظريات التى تناولها وطبقها أصحاب المذهب التوليدى (الشجرى) جيدة للنقاش التربوى فى إطار عودتها لتعطى لقواعد اللغة الظاهرة والنظم الخاص باللغة الأم المكانة التى تليق بهما فى تعلم اللغة . ولكن ، أمام هذا التوجه الجديد ، يجب ألا يغيب عن أعيننا المظهر المزدوج للغة والنتائج المنهجية المستنبطة منه . إتقان النظام يرجع إلى المجال الواعي ويتضمن اختياراً مرغوبًا بين وحدات متناسبةٍ . ويمثِّلُ الجانب الفكرى لكفاءتنا اللغوية . وتعلمه ينتسب إلى إجادة الأنشطة الفكرية الواعية عند الفرد. وإتقان العادات اللغوية أمرٌ لا شعوريٌ عند المتكلم من أهل اللغة ويجب أن يصبح بهذه الصفة عند الطالب الذى يتعلَّم لغة ثانية . يتم تعلمه فى كل المستويات بفضل تمرين يهدف إلى تحويل هذه السلوكيات إلى صورة أوتوماتيكية . بالنسبة لكل السلوكيات اللغوية المحددة من قبل تحديدات اجتماعية لابد من اختراع مصطلح أوسع وأقل

غموضًا من " المضمون " الذي يغطي ، مع ذلك ، جانبا من هذه (الذاتية الصوتية) والذي يمكن له أن ينتشر ، بدقة ،لمشابهة تجمع بينه وبين المضامين الأخرى، وسوف نتناول النتائج التربوية لهذا الأمر في الفصل الرابع عشر .

وتدمير اللغة في حالة فقدان قوة النطق هو ، إذن ، تكرار في اتجاه معاكس لتطور لغة الطفل . وما ينقص فاقد القدرة على النطق هو قدرته على التصنيف الترتيبي (المتدرِّج) . المريض لا يعثر على اللغة المضبوطة لأن إمكانية الربط بين الحالة الفردية والدرجة العامة تنقصه . المثل الذي دائما ما يذكر عن المريض الذي ، بسؤاله عن مسمى عدد من الزجاجات المختلفة فيما بينها ، لا يعطي كلمة " زجاجة " تحت حجة أنها أشياء مختلفة ، يخبرنا عن العلاقة بين الكلمة والنوع . المريض يوجد في نفس مرحلة الطفل الذي ينطق كل نوع من الأصوات دون أن يتمكن من ترتيبها تدريجيًا في وحدات صوتية . إن فقدان قوة النطق الكلي يعود بالمريض إلى مرحلة ما قبل اللغة الخاصة بالطفل، وكذلك فقد تمَّت الإشارة إلى أن عالم الشخص الفاقد لقوة النطق يكون أغنى بالألوان ، حيث أنه يدرك كل نوع من الأصباغ دون أن يصل إلى تجميعها في أنواع (أخضر ، أحمر ، إلخ) . إنه يرى العديد من الألوان كأصباغ ، بينما الشخص العادي يربط، عن طريق لغته ، بين الأصباغ (الألوان) ودرجاتها المعروفة بها . وهذا هو جولدستين GOLDSTEIN، الذي نستمد منه الأمثلة الأخرى المذكورة أيضا ، يتحدَّث عن فتى ألماني لم يستخدم قط كلمة " سكين " ولكنه دائما ما كان يستعمل مصطلحات أكثر نوعية تتناسب مع الأحوال المعينة (ولهذا فهي مسببة بصورة أكبر ، وأقل تعسفية) :- PELA-MANZANA ,CUCHILLO DE PAN , afila - lá piz) "قشر – تفاح ، سكين خبز ، إلخ , (DE LINGÜÍSTICA GEVERAL PP 51-52 Ensayos Jakobson).إن التدمير يؤدي إلى " زيادة متجانسات اللفظ المختلفة في المعنى وإلى فقر في المفردات " ويأتي هذا في حالة انسجام تام مع ما أوضحه دي سوسير DE SAUSSURE عن الإشارة Singo . والسلوكيات اللغوية الشاذة تؤكِّد في

جانب كبير هذا المفهوم البنيوى لضامين اللغة ، بنفس الطريقة التي يعمل بها الارتقاء، في الاتجاه المعاكس ، عند الطفل .

كان رومان جاكوبسون Roman Jakobson أول من لاحظ أهمية دراسة لغات الأطفال وفاقدى قوة النطق وكذلك فهو أول من لاحظ تقريب هذه اللغات المعيبة لآليات شعرية وبلاغية . رأينا أنه قد أقام فارقا أساسيًا بين نوعين من فقدان قوة النطق ونوعين من اللغات : هي على التوالي : استعارية metafóricos وكنائية metonimicos ، باستعارة هذين المصطلحين من البلاغة . وإذا ما دخلنا إلى الجانب الروحي عند سوسير SAUSSURE نراه يلحظ في الآلية اللغوية نوعين من الأنشطة : (انتقاء) اختيار Seleccion وتركيب وتوفيق Combinacion . وقد تكلمنا أيضا عن العلاقات الصرفية والعلاقات النحوية . المتكلم يختار ، بين مجرد الامكانات التي يطرحها النظم، العناصر التي هو في حاجة إليها ثم يقوم بالتوفيق بينها في إطار تسلسلي ، أو في وحدات نحوية وفق قواعد توزيعية ضربنا لها عددًا من الأمثلة آنفا (الفصل السادس). ويتم هنا استبعاد عناصر الوحدة الصرفية . في نفس مكان الترتيب يوجد إمَّا / p/ وإما /b/ (أنا) أو tu (أنت) ، إلخ . واختيار واحد يخرج الآخر تماما . والفرد يعى تماما التشابهات الصرفية والمصاهرة التي تربط بين العناصر المكونة للوحدة الصرفية. هناك العديد من الأمثلة ذات التأثير المشابه بين عناصر الوحدة الصرفية عند المتكلم الطبيعي . يتزايد عددها مع ضعف القدرة اللغوية . تتوفر عند الأطفال . في النظام الضميرى السويدى في حالة العامل النحوى Caso régimen لضمير الشخص الأول الجمع (المتكلم الجمع) oss – نحن – يتحوَّل في اللغة العامية إلى Voss تحت تأثير الرفع vi في السويدية العامية نجد شهر " سبتمبر " يدعى Sektember (بدلا من Sep-tember) تحت تأثير Oktober، إلخ . من جانب آخر نجد أن فقدان الإحساس بالمصاهرة بين عناصر وحدة صرفية معينة (vous-vitre - he - him - his) هو ما يحول

بين فاقد قوة النطق وبين إجادته للوحدات الصرفية وهو ما يمنعه أيضا من رؤية قاعدة بناء المشتقات واستقلالية العناصر (grande- grandeza) (عظيم – عظمة) .

والعامل المشترك للعناصر المركبة في إطار تسلسلي هو تجاورها . ويوجد في نفس الوقت (على المستوى اللغوى) جاهزًا في صورة ترتيب يعود ، في الكلمة ، زمانيا أو مكانيًا ، وفق الصورة التي هو عليها من لغة كلامية أو أخرى مكتوبة . في البلاغة ، تصبح الاستعارات ممكنة بفضل المشابهة الصرفية والتجاور يعمل على تقييد الآليات الكنائية (الرأس كناية عن الإنسان ، التاج كناية عن الملك ، إلخ) في حالة فاقد قوة النطق نجد أنه من المحتمل غياب إحدى هاتين الآليتين عن حقل العمل الخاص بها . المريض لا يتحكَّم جيدا في وحداته الصرفية - أي أنه ، بفقدانه لخاصية القدرة على التوزيع التدريجي لا يصل إلى اختيار العنصر المناسب . المفهوم يبدو له صعبًا ، وغير مفهوم ويعمل على تفاديه ، تاركًا المجال لمصطلحات غير نوعية (شيء ، أداة ، انظر ص١٠٤ من النص الأصلي) ، الظاهرة التي تتوفَّر أيضا لدى المتكلم الطبيعي . أو يختار المريض بطريقة خاطئة (شوكة بدلا من سكين ، مائدة بدلا من لمبة، ميِّت بدلا من أسود ، وكلها مفاهيم مترابطة بجامع التجاور) إذا ما تم بلوغ الخاصية الاستعارية ، فيقوم المريض بوضع العناصر المركبة فيما بينها داخل الجملة عبر وسائل نحوية (التطابق ، الإسناد) بسهولة أكبر من التعامل مع العناصر المستقلة ، الفاعل يخفق دائما . أو أنه لا يدري كيف يقوم بعملية التركيب والتوفيق . التناقضات في التركيب لا وجود لها ، حتى لو كان المتحدث يجيد المهارات الصرفية agramatisma حالة قصوى لهذا النوع . والصمم الكلامي يمثل النوع الآخر . في لغة المريض ، في هذه الحالة الأخيرة فقط تتوفَّر حلقات الوصل – " الهيكل " (جاكوبسون) – وتعود الرسالة غير مفهومة . المتكلم يوجد في نفس مكان اللغوي الذي تعلَّم قواعد معينة ، لكنه يمتلك مفردات قليلة جداً كي يتمكن من بث رسائل معقولة .

تتضمن عملية إدخال اللغويات في نظرية الأخطاء اللغوية خطوة كبيرة للأمام . وقد تم الوعي بالعلاقات بين فقدان قوة النطق والأبنية اللغوية لأول مرة على يد أ . أومبريدن A.Ombredane، ثم قام بتطويرها بعد ذلك جاكوبسون JAKOBSON .أما التخلفات الوظيفية اللغوية فلا تعود أساسا إلى الأطباء . وانتظاراً لنتائج الأبحاث العصبية الفسيولوجية الجارية في الوقت الراهن ، فما على الباحث إلا أن يقتصر على السلوكيات الشاذة للمتكلمين المرضى . فالتشخيص والعلاج على حد سواء يتطلبان معرفة عميقة لآليات اللغة عند الفرد الطبيعي ولتطور هذه الآلية عند الطفل . يتطلبان أيضا تأقلماً مع الاعتبارات الارتقائية للغات عبر الأزمان وبكل التعديلات التي تطرأ عليها في ظلٍّ ظروف غير مواتية من خلال وجهة النظر الاجتماعية والثقافية (الفصل السابع) . إذا ما كان الشخص الذي يتولى عملية إعادة التأهيل يعلم ما الذي يؤدي إلى غياب الكلمات والأشكال عند فرد معين ، واستحالة ربط العناصر اللغوية مع آخر ، فإنه سيمتلك إمكانات أعلى لوضع برنامج تدريبي مناسب .الآليات الدماغية التي تكوِّن مجموع قواعد هذه الآليات الخارجية ما زالت غير معروفة جيدا . إنه حقل في طور الارتقاء والتطور حيث يفرض تعاوناً عبر الحدود العلمية التقليدية .

هذه التأملات التي أفصحنا عنها في مجال تطور وارتقاء اللغة عند الطفل ، وخاصة عند انتقال الرمز الشامل إلى الرمز المزدوج النطق يجب أن تكون قابلة للتطبيق بداية على التطور اللغوي للجنس البشري كذلك ، رغم الفروقات الأساسية البديهية الموجودة بين الاثنين . ليس هناك من شكٍ في أن أسلافنا الرئيسيين كانوا يتواصلون فيما بينهم عن طريق الحركات والتركيبات الصوتية ، كما يفعل الآن كبار القردة . وأنا أميل لتوصيف هذه الاعتبارات في صورة تعبيرية قبل اعتبارها تقليدية سواء كان ذلك بشكل مباشرٍ أو غير مباشر . المحاكاة تدخل بسرعة في تعبيرية الطفل ولكن دون أن تلعب الدور الرئيسي . والطفل البالغ من العمر عاما واحداً يصدر ترتيبا نظميا مثل b r - br- br مشيراً إلى السيارة ومعبرا عن أحاسيسه الشخصية إزاء

الشيء قبل أن يقلِّد الأصوات – أو أحد هذه الأصوات – الناجمة عن هذا الشيء، لن نخطيء كثيرًا إذا ما افترضنا أن تلك المنتجات الصوتية لأسلافنا كانت تحظى – على مدى آلاف أو ملايين السنين – بمثل هذا النوع من التعبيرية : علامة الرضا والغضب، صيحات الخوف، التي تتحوَّل فيما بعد إلى علامات للخطر، مناجاة جنسية، إلخ. وكذلك فما من شك في أننا لن نخدع أنفسنا إذا اعتبرنا المحاكاة كأحد العوامل الداخلة في تشكيل هذه التركيبات الوظيفة الرمزية هي تطوير للعملية التعبيرية وتعني مقدرة على التجريد لا تتضمَّنها هذه .

المنتجات الصوتية – الأغاني الإيقاعية – إلخ – التي كثيرا ما تسمع في الأعمال الجماعية في الحقول والغابات وتتماهي مع الحركات الإيقاعية للأجساد، هي منتجات تعبيرية وفي نفس الوقت مصبوغة بصبغةٍ اجتماعية، إلا أنها لا تحتوي على أي عنصر رمزيٍ، يبدو لنا مريبا أن مثل هذه الأنشطة، إذا كان لها وجود عند المخلوقات الرئيسية، يجب اعتبارها مجرد إعداد للغة، كما زعم بين آخرين أوتوجسبرسن Otto Jespersen. والشد على يد الشمبنزي يعد أكثر تشككا. لابد أن يكون في فارق الرموز حيث يبدأ، مثلما في الطفل ،التقليد يلعب دور الدافع لهذا الاختيار أو ذاك وكقاعدة لنظام اجتماعي (محاكاة صوت تيارات الهواء، أو حفيف أوراق الشجر، أو صياح الحيوانات) .

هذا الارتقاء أو التطور لم يشأ أن يتم في صورة مستقيمة. من الأفضل التفكير في سلسلة طويلة من النجاحات والفشل، في العديد من الأمكنة على وجه الاحتمال، في مختلف القبائل والأعراف التي لا تجمع بينها أية علاقة. لا نعلم شيئًا عن هذا. ولكن حيث نلحظ عند الطفل نقلة مماثلة، نقلة تشتمل على رموز لا تقبل التفكيك، تعبيرية ومسببة تقريبا، إلى رموز موزعة معتسفة، فمن المنطقي إلاَّ نفترض تطابقًا في الخطوط الكبيرة بين الاعتبارين الارتقائيين. هذا القانون المزعوم عن البيولوجيا

الوراثية ، هل من الممكن أن يُطبَّق أيضا على اللغة ؟ هل يعيد الشخص ارتقاء النوع ؟ الفكرة رائعة وساحرة إلا أنه من الصعب إقامة الدليل عليها .

الفارق بين الطفل والبالغ هو أن الطفل لديه نموذج يسير على نهجه . ألا وهو لغة المحيط الاجتماعي الذي حوله . لا يجب أن نقلل من شأن هذا الفارق العميق . وكذلك لا يجب أن نبالغ فيه . هانحن قد رأينا أن تعلم اللغة ليس مجرَّد عمل تقليدي بسيط . فالكفاءة اللغوية عند الطفل تولد مع الكفاءة الفردية - ملكة التجريد - بصفة عامة ، وتعد جزءًا مكمِّلاً لها ، وتطور البالغ ينطوي على نفس النقلة إلى مستوى فكري يتجاوز مستوى الشمبنزي ويتضمَّن الإتقان الممكن لبنية لغوية مجردة ومعقدة . هذا الارتقاء المتوازي " الذكاء - اللغة " يأتي متماثلاً عند الطفل والجنس البشري الذي دون أن يجربه لم يكن بإمكانه الوصول إلى الطور الذي يمر به .

الفصل الرابع عشر

تطبيقات علم اللسانيات في تعليم اللغات

وفي إعادة التأهيل

عرفنا (في الفصل العاشر) الإزدواجية اللغوية بأنها إتقان لغة ثانية تمَّ تعملها عفويًا دون ما تدخل خارجي موجه ومنهجي . وتكتسب الإزدواجية اللغوية عادة قبل سن البلوغ . هذا الإكتساب للغة الثانية يبدو مستقلاً عن نظريات وطرق التعليم كالتماثل الأوَّل للغة الأم في سن الطفولة الغضَّة .وما يأسر إنتباهنا في هذا المقام هو التعليم المنظَّم بغية خلق مناخ عام لأقلمة شخص أو عدة أشخاص على لغة ثانية كان على النشاط أن يستمر على الدوام وفي كل الأماكن التي تدعو الضرورة فيها لإعداد أفراد لدور المترجمين في الاتصالات بين الأجناس .

في العصر الوسيط ، كان تعلم اللغة اللاتينية – اللغة العامة للحضارة الأوروبية – مهمة أساسية تقوم بها المدارس الكنائسية ، ومركز تأهيل رجال الكنيسة والعلماء . جاءت هذه الصورة التعليمية وفقًا لمنهج يذكِّرنا كثيرا " بالمنهج المباشر " لعصرنا ، أي، دون الإشارة إلى مختلف اللغات الأم للطلاب .

في فرنسا أصبح هذا المنهج في فترة الكلاسيكية وانتصار القواعد العقلانية ، لمنهج لغوي ، تمَّ إستلهامه من القواعد التي أرساها " بورت – رويال " PORT ROYAL. فاللغة اللاتينية ، واللغات الأخرى الحالية تمَّ تعليمها حتى هذه اللحظة على أساس من التحليلات النحوية . وقواعد اللاتينية تُعدُّ نموذجًا لأي نوع من التحليل . فمراتبها

تفـــرض علـــى أي لغـــة بصـرف النظر عن خـصـائص هذه الأخـيـرة المُـيزة لها عن غيرها .

أما المنهج التاريخي في علم اللسانيات ، الذي تم إدخاله حوالي عام ١٨٠٠ وتحت تأثير التيارات التي سوف نتناولها في الفصل الأخير ، فلم يسهم بشيء كبير في نظرية تعليم اللغات . والبعد الارتقائي التاريخي هو أمر ثانوي في نشاط يحاول نقل معارف أية لغة كنظام ثابت . والمنهج النحوي المستخدم في التعليم المدرسي مازال هو نفسه ، رغم تعدله شيئا فشيئًا وفقًا للحاجة الملحة للأخذ في الإعتبار أنظمة تعليمية يجب تنفيذها ونظراً للإنخفاض المتوالي لمعارف اللغات الكلاسيكية . ومع ذلك ، فقد فرض المنهج التقليدي المعدَّل نفسه على الساحة ، حتى وقت مجيء المنهج المباشر الذي ظهر في الثلاثينيات والأربعينيات على أساس بنيوي . هذا التاريخ للمنهج يُعدُّ صحيحاً رغم المحاولات المبذولة منذ أواخر القرن الماضي (التاسع عشر) من جانب علماء الصوتيات مثل باول بازي **Paul Passy**، وهنري سويت **Henry Sweet** وأتوجسبرسن **OTTO JESPERSEN** من أجل إصلاح التعليم ووضع لغة الكلام في دائرة الاهتمام (والدليل على ذلك الأبجدية الصوتية والمجلة " المعلم لعلم الصوتيات " وكلاهما في عام ١٨٨٦) والعملية الإبداعية المباشرة دون تحويرات باللغة الأم والترجمات . وقد قُبلت المناهج الجديدة بصورة كبيرة من قبل في مجال التعليم الحر (مدارس الفتيات ، المحاضرات أو الدروس الشعبية) حيث التراث الموروث وتأثير الجامعات كانا أقل قوة . تمت صياغة عدد من مشروعات الإصلاح والتوصية بها ، إلاَّ أنها قد طبقت بشكل بسيط في مناخ ساده إهتمام كبير من قبل اللغويين والذي تم إستنفاذه بفعل المشكلات التاريخية والمقارنة .

يعتمد المنهج المباشر أساسا على مصدرين : مصدر لغوي وآخر نفسي . البنيوية التي إنبثقت عن نظريات دي سوسير **DE SAUSSURE**، ومدرسة براج وعلم اللسانيات الأمريكي (**Bloomfield**) سنقوم بمناقشتها في الفصل الخامس عشر . وبتطبيق

نظرياتها في مجال التعليم ، نراها تتضمّن أن اللغة الجديدة لابد من تعلمها على أساس من علاقة مباشرة قائمة بين الكلمات والجمل في اللغة الهدف " والأشياء " ، " الحقائق " أو " الأفكار " التي تشير إليها تلك . وحين تصبح كل لغة عبارة عن بناء مستقل لا يمكن إختراقه فليس هناك من عنصر تابع في لغة A يتوافق مع عنصر من اللغة B (انظر الفصل الرابع) الترجمة مستحيلة ولا يجب أن تكون قاعدة لتعلم لغة ثانية . والعناصر الجديدة يتم فهمها والتأقلم معها بفضل المحيط الذي تستعمل فيه (السياق اللالغوي) أو بفضل السياق اللغوي (الجملة ، الخطاب المدرجة فيه ، يتم شرح المعنى للطلاب بإبراز الشيء محل الكلام ، أو صورة منه أو إعطاء مرادف أو توصيف ، شرح مطول) ووراء هذه المنهجية تطل برأسها نظرية سوسير SAUSSURE المتعلّقة بتعسفية الرمز .

الدافع الرئيسي للمنهج المباشر هو ، إذن ، الرغبة في تجنب التداخلات من قبل اللغة الأم في إستعمال اللغة الهدف بأي ثمن كان. فعلى الطالب أن يتعلّم كيف يفكّر مباشرة في اللغة الثانية . إذا ما فكر أولا حين ينطق بعبارة في لغته الأم ثم يعمد إلى ترجمتها بعد ذلك عن طريق التطبيق المتقن للقواعد النحوية ، فإنه لن يصل قط إلى الإجادة الحقيقية للغة الجديدة . إن الكلام أوالكتابة يتحققان ببطء وعناء وبأبنية مقبولة بداية من اللغة الأم . وسيصبح الكلام بالإنجليزية على الطريقة الإسبانية أو بالإسبانية على الطريقة الإنجليزية والخوف من إرتكاب الأخطاء ، الموروث القادم من المدرسة التقليدية ، كان عامل إلجام في المدرسة القديمة .

والآن غدت المشكلة هي معرفة ما إذا كان المنهج المباشر – الذي لا يأخذ في حسابه مطلقًا اللغة الأم – يحذف هه الأمور الضارة الخاصة بالمنهج التقليدي . في البداية لابد من معرفة ما إذا كان من الممكن إلغاء اللغة الأولى بينما يتم تعلم اللغة الثانية ، وإذا ما كان ذلك أمرا مرغوبًا فيه . لقد رأينا من قبل أن إعتبارات التداخلات تكون عديدة في لغات الأفراد مزدوجي اللغة ، والتي تم تعلمها بلا شك بأكثر الطرق

الممكنة مباشرة وبإبدالات طبيعية تماما . لا أحد يصل به الأمر إلي محو لغته الأولى من ذاكرته .

ولكن مــا زال هناك الكثــيــر . في رأي البنيــوية القــويمــة وفــقًــا لنظرية سوسير SAUSSURE، تأتي اللغات بصفة أساسية مختلفة عن بعضها البعض . وقد اهتم علم اللغويات بمثل هذه الفروقات . كان الإهتمام بسيطا بما كان مشتركا ومتشابهًا (عام أو عالمي) وهكذا، كان مبدأ التعليم هوالحث علي تعلم اللغة الجديدة كما لو أن كل شيء فيها كان جديداً . لم يكن يحسب حساب كل ما هو متماثل أو متشابه . إذا ما كان لطالب أن يتعلم لغة جديدة بها أدوات(كالفرنسية أو الإنجليزية) بلغة تجهل مثلها (كالفنلندية أو الروسي) ، فإنه سيواجه صعوبة معتبرةً . إنها وظيفة ذات قاعدة تغيب عنه في البداية ويصبح في حاجة إلي العديد من الأمثلة كي يستوعبها بصورة كاملة . فالفرنسي الذي يسعى لتعلم الإنجليزية ليس في حاجة إلى تمارين خاصة تقتصر على وظيفة الأداة . حيث تعرف اللغتان أداة التعرف وأداة التنكير (مع بعض الفروقات في الإستخدام لا يجب أن نلقى لها بالاً) . وما لابد من تعلمه هو الجوانب الجديدة في اللغة الثانية . وفي حقيقة الأمر ، فقد تمَّ علي جناح السرعة الاقتناع بضرورة تفريق المواد والتمارين وفقا للغة الانطلاق . وفي بعض التطبيقات الخاصة بالمنهج المباشر ، تم ارتكاب خطأ كبير مضمونة الاعتقاد بأن نفس المواد التعليمية) سواء أكانت خاصة بالنطق أو القواعد النحوية والنصوص) يمكنها أن تقوم بوظيفتها بصرف النظر عن لغة الطلاب .

من هذه الحاجة إلي التفريق إنبثق المنهج التغايري . علي أساس من المقارنة البنيوية ، يتم التأكد ممَّا هو مشترك وما هو مختلف وتتكوَّن المواد التربوية بناء على ذلك . والشخص الألماني الذي يسعى لتعلم اللغة الفرنسية يحتاج إلى كم كبيرٍ من التمرينات الخاصة باستخدام الأزمنة الماضية (الماضي الناقص ، التام ، وهي فوارق لا تعرفها اللغات الجرمانية) أما الإيطالي فليس في حاجة إلى أي منها ، وذلك لأن

لغتـه تتماثل بهذا الخصـوص مع اللغـة الفرنسيـة وقد تضـمَّن المظهر التـغايرى فى الحقيقة تعديلاً هاماً لقاعدة المنهج المباشر ذاتها ، إلاَّ أنه قد ظل كمنهج تغايرى فيما يتعلَّق بتقديم الخدمات الكبيرة لتعلم اللغات ، بقبوله لمبدأ أى الاختلافات والتشابهات . من جديد يصبح الأمر الميِّز للمتهج التـغايرى عن المنهج التقليدى كامنًا فى القـواعد الواضحة . هاهى التمـارين (drills) للنماذج الأجنبية (patterns) تقوم من جديد مقام القواعد التى صيغت من الناحية النظرية .

كـان المصـدر الآخر للمنهج المباشر هى المذهب السلوكى Behaviorismo، (علم نفس السلوك) الذى أصـبح مـوضـةً فى أمـريكا خـاصـةً خـلال فـترتى العـشـرينات والثلاثينات من القرن العشرين . هذه المدرسة لا تقبل أية حقيقة بعد السلوكيات القابلة للملاحظة والقيـاس بصـور مـباشرة . إن الإتصـال اللغـوى يقتـصـر أمـام أعين هؤلاء النفسـانيـين إلى علاقـة بسـيطة بين الحـافز والرد عليـه ، وتعلم اللغـة هو تدريب على السلوكيات المشروطة (" صباح الخير – صباح الخير – كيف حال حضرتك ؟ – بخير إلخ) والمحادثة عبارة عن سلسلة من هذه الانعكاسـات المشروطة. والتمـارين (الدريلز) الشهيرة تهدف إلى وضع الطالب فى موقف رد الفعل الآلى والصـحيح . ويعد الكتاب العظيم الذى خطـه ســكينر SKINER عام ١٩٥٧) بعنوان (السلوكيـة اللفظيـة) ملخصـا لهذه السيكلوجية اللغوية . فهو يرفض كل منهج متضـمن لأنشطة واعيـة ، متأملة وفكرية .

إن مـا أعلن عنه نوام تشوميسكى عام ١٩٥٧من أسس للقواعد النحوية التوالدية (الشجرية) والتـغيرية ليعد بمثابة مواصلة وتطبيق فى مستويات أخرى من اللغة ، الأفكار التى عبرْ عنها من قبل جاكوبسون ومجموعة براج . وهنا أصبحت التشـابهات بين اللغات ، القاعدة العامة ، تحتل دائرة الاهتمام ، تتضـمن تغييراً للموقف أيضاً فى تعليم اللغات . فى دراسة شـهيرة لكتاب سكينر SKINER، يرفض تشومسكى -CHOM SKY القواعد الآلية لعلماء السلوكية . كل متكلم يملك ، فى ذهنه ذاكرة ، آلية لغوية يعى

وجودها وبمقدوره إستخدانها أيضا فى تعلمه للغات فيما بعد . وأفكار تشومسكى CHOMSKY تتشابه فى شىء مع المذهب العقلى عند ديكارت حتى فى حالة ما إذا كان هذا التطابق مبالغًا فيه من جانبه هو (بهذا الخصوص ، انظر الفصلين الثالث عشر والخامس عشر) .

بتأثيرها الواضح على الأبنية العميقة ، الأعم والتابعة للأبنية الخاصة فى مختلف اللغات أحدثت مدرسة براج بلا شك تجديدًا فى منهج تعليم اللغات . إن آلية المنهج القائم على أساس سلوكى قد تركت مكانًا لفكرة الأنشطة الفكرية الواعية ، وتعلم اللغة الثانية هو ، إذن ، بالتالى ، بقدر نادر كما فى حالة الطفل ، محاكاة آلية . على النقيض من ذلك ، نراه عملا إبداعيًا . إن فكرة الإبداع تطرح فى التعليم بنفس الصورة التى طرحت بها فى إرتقاء وتطور الطفل . من الممكن أن تجرى نفس الملاحظات التى أجريناها فى الفصل الثالث عشر .

هذا يتضمن بدوره أن " القواعد النحوية " – أى ، الوصف النظرى لبنية اللغة الهدف ، بتواتر تغايرى عال – تتبوأ مكانتها فى بؤرة إهتمام المدرس والطالب ، ولكن فى هذه المرة تحت شكل لوصف مناسب هناك تجارب حديثة أثبتت أن الطالب يتعلم بشكل أسهل وأسرع النماذج الجديدة إذا ما كان يملك بين يديه وصفًا للآلية ، قاعدة يهتدى على أثرها . لا يجب حتى مجرد القول بأن درجة تجريد النظرية والقواعد لابد لها أن تتطابق مع مستوى الطلاب وأن القواعد الوحيدة القابلة للإستخدام مع الاطفال هى النماذج النمطية (Patterns) والطلاب البالغون يستخدمون فى المدرسة نفس الآلية الإستنباطية والإستقرائية عند تعلمهم لغة جيدة هى التى يستخدمها الصغير عند تعلمه لغته الأولى .

ناقش بعض المتخصصين كل نوع من التطابق بين الإرتقاء اللغوى عند الطفل وتعلم اللغة الثانية بينما اهتم آخرون بإبراز بعض نقاط التشابه . الفارق الأساسى هو وجود لغة تم عند الطفل وأخرى بدأ يتعلمها من الصغر . وشرع يقدم تشابها كبيراً مع

نطاق الطفل ويمثل في البداية نفس الترتيب المتدرّج . لقد ساد إعتقاد ، وخاصة في عصر المنهج التغايري ، بأنه بالإمكان تفسير الأخطاء التي يرتكبها الطالب على أنها راجعة إلى تداخل اللغة الأم . وإذا ما كان طلاب اللغة الفرنسية ينطقون الحروف المتحركة الأنفية كتراكيب مكونة من حرف صائت + حرف صامت أنفي ، فإن ذلك يعد نتيجة لتأثير اللغة الأم التي لا تعرف مثل هذا النوع من الوحدات الصائتة ومع ذلك ، فهذا ليس مؤكّداً بصورة كلية . ومن الممكن أن يكمن التفسير في أن الحروف الصائتة الأنفية هي من النوع المعقد بنيويًا – متضمنة ملمحًا آخر – والتي ترد ، بالتالي ، فيما بعد في أي تطور لغوى . والدليل على ذلك هو أن التطور يصبح هو نفسه دن ما تغيير لدى الأطفال الفرنسيين (انظر الفصلين الثالث ، والثالث عشر) .

وقد أدى هذا أيضا إلى تعديل الطريقة التي يتم بها تقويم الأخطاء النحوية عند الطلاب . فالطالب الفرنسي الذي يتعلم الإنجليزية بالقول أو بالكتابة (bringed أو Singed) ربما يبرهن على درايته بنظام اللغة الذي يفوق معرفة ميوله التي تعرف عليها مصادفة من خلال الأشكال الصحيحة Sang, broght ويستخدمها لأنه يتذكرها .

اتفق ، في بدايةالأمر ، مع أولئك الذين يرون في إدخال تقارب أكثر تفوقًا من الناحيتين النظرية والنحوية نوعا من التقدم مقارنة بالتمارين (drills) والإنعكاس المشروط ذاته ، لإنني أنني أود أن أبدى بهذا الخصوص ملاحظة نقدية .فكل عمل لغوى يلزم – وهذا هو ما شرحناه في المقدمة – نموذجا مجرّدًا (مخططا بنيويا) يعد افتراضا مقدما لها ويتم التعبير عنه في هذا النموذج . التطبيق المحدد في اللغة الكلامية (أو في النص) يشتمل على العديد من العناصر التي تضاف إلى المخطط وتملأ الهيكل " بجوهر " محدد (بخصوص مفهوم الجوهر – المضمون – انظر الفصل الأول) لدينا حالة " النطق " (التعبير على نطاق واسع) كل منطوق عبارة عن ترتيب

مكوّن من عناصر صوتية وظيفية يجب أن يعرفها الطالب ويحافظ عليها متباعدة وتصبح متسلسلة ضمن الإطار العام للترتيب الخاص باللغة (ولاعتبارات النبر التى تتوافق بصورة متساوية) كل هذه الأبنية تمثل الشكل الذى يجب أن يجيده الطالب حتى يهيىء لنفسه مناخا جيداً للفهم . هذه الإجادة تمثل كفاءته الصوتية الوظيفية . ولكن المنطوق المجرد ينطوى الآن على أكثر من ذلك . وكل لغة لها عاداتها الخاصة لنطق الحروف الصائتة والأخرى الصامتة – لربط العناصر جنبًا إلى جنب ، الجوانب التى تتفوق فيها قواعد ضبط النطق . مثل هذه العادات الإيديوماتية (اللغوية) هى التى تضفى على اللغة خاصيتها الصوتية الطبيعية " نبرتها " بالنسبة لذلك الشخص الذى يعرب عن إكتسابه للأخذ بزمام هذه العادات يتعلق الأمر بمحاكاتها بحيث تكتسب بنفس الطريقة اللاشعورية والآلية عند المتحدث الذى يتكلم لغته الأم . والكلمة بالصورة التى تخرج عليها من فم المتكلم هى، إذن ، نتاج إختيار واع لعناصر تمييزية ووظيفية ولاستخدام غير شعورى وإيديومات (لغوى) لهذه العناصر . إنه منتج شعورى (ما يمكن قوله) ولا شعورى (الطريقة التى يجب التعبير عنه لها) .

من جانبى إستنبطت من هذه التأملات النظرية ومن تجاربى الخاصة العملية فى المجال التعليمى النتيجة التالية : إن إمتلاك ناصية النظام الصوتى الوظيفى يعنى إمكانية عمل التناقضات الضرورية وإنشاء التراتيب وفقًا للقواعد التوفيقية . بالقدر الذى يصبح فيه نظام اللغة مختلفًا عن اللغة الأم ، لابد من المحافظة عند الطالب على الوعى بالفروقات الخاصة بالصوت والنطق التى لا يقوم بها قصدا فى لغته الأصلية . لابد من تدريبه على إدراك وإنتاج مثل هذه الفروقات بهدف إستخدامها من جانبه حين يُقدم على التعبير عن فروقات خاصة بالمعانى(الطالب الفنلندى ، حين يسمع ويفرّق بين الفرنسية Peau beau ويرجع الفارق الصوتى إلى فارق دلالى) لابد له من أن يظلّ واعيًا بهذه الفروقات الجديدة والعادات الخاصة باستخدام اللغة (ما يعرف بالإيدوماتية) ، على العكس ، ما إن يتم تعلمها من خلال وجهة نظر الإنتاج والإدراك ، يجب أن تكون ممكنةً بأسرع ما يمكن وكذلك التمارين المنظّمة بناءً عليها .

ونفس وجهة النظر هذه تكون قابلة للتطبيق على مستويات أخرى للغة . الطريقة التي ينظم على أساسها ترتيب الضمائر الشخصية في حالة المفعول والصيغ في اللغة الفرنسية تعد مثالا على الآلية التي لا خيار فيها للمتكلم . لابد من أن نقول في الفرنسية Je le lui ai dit , Je te le , Je le lui dis ne me le dites pas , dites -le - moi , Je te ai dit - dis , لا يقبل ترتيب آخر غير هذا ، ولا حتى Je le te dis 0 مثلما كان في الفرنسية القديمة) ولا J'ai le lui dit إلخ والمتكلم لا يصل إلى عمل هذه الترتيبات فقط بمساعدة القواعد – والتي تعد بالغة التعقيد فيما يتعلق بإستخدامها على أرض الواقع في كل مرة يلزم عليه عمل المضامين محل الكلام . وإتقانها لابد أن يقوم على أساس من تمرينات تمكن المجموعات بحيث تنتهي إلى شكل وحيد ممكن التنفيذ ، والعناصر الضميرية والفعلية التي تدخل هنا هي من إختيار المتكلم القائم على مبدأ الحرية . الترتيب النظامي ضرورة نحوية لا يفلت من زمامها أحد .

لقد كان لفكرة اللغة كعنصر يكوّن جزءًا من تركيب سيميوطيقي أكبر (المجتمع ، الحضارة) إنعكاساتها التربوية . وأى نص يحرر بأية لغة يصبح ذا معنى ليس فقط بسبب العناصر التي تكونه وإنما أيضًا بسبب السياق الذي يترك عليه بصماته . والدلالات المرتبطة بالكلمات والجمل تكون جزءًا من المضمون العام (انظر الفصل الخامس) هذه القيم المنقولة بهذا الشكل هي من لوازم أي حضارة . في الاتصال باللغة الجديدة ، بقواعدها النحوية ومفرداتها يكمن العامل الذي سيكون مكلّفا بأقلمة الطالب مع هذه الحضارة . هكذا يصبح تعليم اللغة الثانية بمثابة تعليم حضارة ثانية أيضا . والنصوص الواردة في الكتيبات يجب أن تعكس البيئة ، العادات ، المؤسسات الخاصة بالبلد المتحدث بهذه اللغة . جاءت الفكرة مقبولة بصفة عامة ، إلا أنها في حاجة إلى بعض الملاحظات النقدية .

إذا ما تعلمنا اللغة الإنجليزية ، فما هي الوسيلة التي يجب إتباعها كي نتمكن من أقلمة الطالب مع (لندن ، نيويورك ، سهول أستراليا أو كندا الشمالية) ؟ هل لابد من

الإقتصار على الوسائل الأدبية (ديكنز وشاو وسينكلير لويس أو هيمنجواى , DICKENS SHAW , SINCLAIRO DE UN HEMINGWAY) ؟ بهـذه الأمـثلة القليلة نرى كـيف أن المشكلة بالغـة التـعقـيـد . وإذا مـا أراد طالب اللغـة الإنجليـزية فى باريس أن يتـعلم الإنجليزية كي يدرس في أفريقيا ، مادة تخصصية عن إدارة الأمم المتحدة أو الطبيعة النووية ، فما هي المكانة التى ستحتلها الوسائل القضائية ضمن الإطار العام لتعلمه اللغـة الإنجليـزية ، تلك الوسائل الخاصة ببرلمان هذا البلد ؟ نرى أن بعض اللغات الثقافية الكبرى تأخذ طريقها لتتحوَّل إلى لغة إتصال (انظر الفصل الثامن) اللغة الإنجليزية تستخدم كوسيلة إتصال بين الجزائريين ، السنغاليين ، الفيتناميين ، وهكذا دواليك . لابد من العودة إلى قضية اللغة وسياقها الثقافي ، وتأتى أهمية هذا الجانب راسخة وثابتة على الدوام فيما يتعلّق بتعلم اللغة . وبالقدر الذى تقوم فيه اللغات العالمية الكبرى بإعتبارها لغات إتصالية ذات طابع شامل قبل تقويمها بإعتبارها تعبيرات عن هذه الحضارة أو تلك ، نجد أن مشكلة المكان الذى يجب أن تشغله الحضارة في تعلم وتعليم الطلاب لم تعد مطروحة ، أو أنها تطرح بأسلوب آخر مختلف . إن مسألة معرفة ما إذا كان هناك وجود لعولمة الحضارات تتمشّى بصورة متوازية مع التطور اللغوى تعد هى الأخرى أمرا أساسيًا . والتحليل لهذه القضايا سيوسع رقعة الإطار الذى ورد فيه عرضنا .

أما الشخص القائم على أمر إعادة التأهيل والذى يجد نفسه أمام إختلالات فى الكلمات واللغة بصور شتى عليه أن يواجه جزئيًا نفس الصعوبات ونفس الوسائل التى يواجهها مدرسى اللغات . الشخص الفاقد لقوة النطق والذى لم يعد يدرك أى تمييز صوتى وظيفى يجب أن يتم تدريبه بصورة يتمكن معها من إدراكه – أو على الأقل أن يعود مجددًا للوعي به – لكنه يصبح قادرًا على إنتاجه بثبات وعن عمد كما فى حال الطفل ، يحدث أن يصدر المريض أصواتا ولن دون إدراك منه للطريقة التى تتناقض فيها مع غيرها . بإمكانه أن يجيب مثل الطفل الذى يُصحِّح له ولكن هذا هو ما قلته ".

تحدثنا آنفا (فى الفصل الثانى) عن مشكلة الصم وأصحاب السمع الثقيل . فى حالتهم ، يتعلق الأمر بإستخدام البقايا السمعية بقدر الإمكان كى تتمكّن من التوصل لإدراك معين للفروقات الصوتية الوظيفية والقيام بعملية إتصال سمعي تقترب ، دون أن تكون صادرة عن المستمع ، من هذه ، على أى حال ، فالأمر عبارة عن تدريب على التقابلات الصوتية الوظيفية المختلفة . وإذا ما كان هناك عيب بهذا الإصدار، فيصبح هدف التمرينات هو الأداء الدقيق لعمليات النطق . وعلم الصوتيات الوظيفي والإستماع يكوّنان نقطة الإنطلاق بالنسبة لمهمة إعادة التأهيل لأصحاب السمع الثقيل . والصوتيات النطقية تصبح الأداة الأساسية للقائم على إعادة تأهيل كل أولئك الذين يواجهون صعوبات فى إصدار اللغة (حالات التشنج) ، حالة تقسيم العظم الحنكى ، أو الوضع الغير سليم للأسنان والفكين ، إلخ) بعض حالات التشوة العضوى تصبح مهمة الجرّاح ، أو طبيب الأسنان . فى كل حالات إعادة التأهيل النطقى ، لابد من متابعة التحكم السمعي بصورة متوازية فى المدرسة ، والعمل فى مجال النطق (اللغات الأجنبية واللغة الأم) لابد من أن ينطلق من الرقابة على الإستماع . هناك الكثير من الأخطاء المتعلقة بالنطق ، عند المصابين أو عند الطلاب الذين يدرسون اللغة ، تفسر باعتبار - غير ملاحظ - يكمن فى أن الطالب لا يدرك الفرق الذى عليه إدراكه . فى البداية تكون هى نفس الأخطاء التى ترتكب عند البحث فى مستويات الإصدار (الإنتاج) والإدارك عن صعوبات يجب البحث عن جذورها فى المركز الدماغى .

ها نحن قد تكلّمنا عن الفروقات الإستعارية والكنائية عند الطفل . وقلنا إن الإسهام الأساسي لعلم اللسانيات فى عملية إعادة التأهيل بالنسبة لفاقدى قوة النطق يكمن فى أنه قد وضع فى بؤرة إهتمام الأطباء وعلماء الصوتيات فى الإتصال اللتين يشير إليهما هذان المجازان : المشابهة والمجاورة والأقلمة مع هاتين تسهّل فهم بعض الظواهر كإستبدال كلمة بأخرى أو بمصطلحات محايدة (انظر ص ١٢٢من النص الأصلى) وغيبة أى إرتباط بين العناصر (الأمثلة ص ٢٥٤من النص الأصلى) إن

إسهام علم اللسانيات فى معالجة مثل هذه الأنماط من الخلل هو ، مع ذلك ، أمر نظرى على وجه الخصوص . هناك علم بموضوع الحديث ، حيث تمييز للمستويات التى تقع فيها مثل هذه الأنماط من الخلل ، وتلحظ علاقاتها بالإعتبارات الإرتقائية عند الطفل وفي اللغة الإنسانية . ليس هناك من أحد ساهم فى العلم الحالى فى هذه النظرة الوظيفية التركيبية مثل رومان جاكوبسون ROMAN JAKOBSON . الآن بالإمكان إعادة التأهيل – ويتم ذلك بصورة فاعلة على الدوام – فى المستوى الذى يجب البحث فيه عن الخطأ وليس – كما كان شائعًا من قبل – في مستوى مغاير ، فلا علاج بجراحة تعويضية فى الفم لعيب في النطق ناجم عن إدراك سمعى معيب . ومن المفهوم أن اللبس الصوتى الوظيفى لا يعود إلى صعوبات فى بناء الأصوات . فى النهاية يتم التوصل إلى فهم أن الكلام والكتابة هما مستويان متوازيان في حاجة إلى نفس القدرات وتوجد فى محيطهما نفس الصعوبات . ومن لا يرى فارقا بين الحرف m والحرف n (أى ، من لا يعرف إستخدام هذا الفارق من أجل التمييز بين الشكلين فى الكتابة) فإنه يعانى من نفس القصور الذى يعانى منه شخص لا يدرك (بصورة واعية) الفارق بين الوحدات الصوتية : S,d.t.s . الكلام والاستماع ، الكتابة والقراءة سلسلتان من الأنشطة التى تتطلّب نفس الكفاءة اللغوية وتصبحان عرضة للتأثير بنفس القصور الوظيفى .

الفصل الخامس عشر

موجز مبسط عن تاريخ علم اللسانيات

لا يجتمع المتخصصون على رأي واحد فيما يتعلَّق ببداية علم اللغات . في نظر البعض ، ظهر علم اللغات بمعناه الحقيقي قبل بدايات القرن التاسع عشر . وما قيل وأصبح محطًا للتفكير عن أن اللغة قبل ميلاد علم اللغات التاريخي والمقارن في عام ١٨٠٠ كان بمثابة نوع من الفسلفة والميثولوجيا أو الأفكار حول الأصل الرَّباني للغة . على النقيض من ذلك ، يرى بعض الباحثين أنه قد وجدت منذ عصر رجال القواعد النحوية من الهنود ، وعلى أي حال منذ عهد أفلاطون وأرسطو ، مناقشات حول اللغة ومجهودات لتوصيف ومنهجة اللغات موضع الاهتمام (السنسكريتية ، اليونانية) التي استحقت أن تُصنَّف في أطر علمية حديثة الشكل . أما المفكرون في العصر الوسيط ، من أنصار العلوم الإنسانية والمذاهب العقلية فهم جديرون بنعتهم باللغويين . حتى لو كانت أفكارهم تحمل خاتم المناخ الفسلفي والديني للفترات التي نتحدُّث عنها .

من جانبي أرى أن المساهمات التي شارك بها المفكرون الأقدمون وأهل العصور الوسطى في المناقشات حول اللغة تحظى بأهمية بالغة تجعلها حريَّة بالإشارة إليها في موجز ولو بسيطًا ، عن تاريخ علم اللسانيات ، وبعملنا هذا نكون واعين تماما التطور التاريخي الكامن في الحديث عن هذا الجانب فيما يتعلق بفترات لم تكن فيها استقلالية هذا العلم معروفة . أما الآن فسنلقي نظرة سريعة على التقاليد والموروثات التي كانت قائمة في الهند وفي بلاد اليونان ، وفي الإسكندرية ، وبين الرومان ، في العصر

الوسيط ، وفي فترة المذهب العقلاني، وبدايات الأفكار الجديدة عن اللغة والمحدِّدة لخصوصية واستقلالية علم خاص باللغات .

يعود الموروث النحوى الهندى إلى أزمان غابرة . إنه سابق جدا على الموروث اليوناني والروماني وهذا هو ممثله الأشهر ، بانيني Panini (والذي ربما كان موجوداً في القرن الرابع قبل الميلاد) ، كان يجمع بين يديه عدداً هائلاً من هذا الموروث السابق لعصره مما يدفع إلى القول بأن النحو الهندى يعود إلى فترة سابقة جدا على هذا العصر . هناك ما يقرب من ألف عمل تناول القواعد النحوية المحفوظة عن عهود الهند القديمة . هذا التراث النحوى قام على أساس من تحليل ونقد النصوص القديمة المقدَّسة ، والتي يظهر من بينها الأناشيد الفيداوية(نسبة إلى الفيدا) ، السابق على عهد بانيني PANINI بعدة عصور . اهتم هؤلاء المنظِّرون ، كما حدث مع اليونانيين فيما بعد ، بالعلاقة الناشئة بين " الكلمات والأشياء " وبالتَّالى ، بالطابع " الطبيعى " أو التقليدى " للاعتبارات اللغوية . عرفوا الفارق ، الذى يمثل الأساس للغات الهند أوروبية، بين الأسماء والأفعال (مبتدأ وخبر الجملة) وأجزاء أخرى من النظم ("حروف الجر " و " أسماء المفاعيل ") إن إسهامهم الأساسى والذي يفوق ما أنجزه اليونانيون والرومان وكل ما تمَّ إنجازه قبل الفترة الحديثة ، يكمن في الصوتيات الطبيعية Fonética من الضرورى نطق الأناشيد المقدَّسة بنطقها الأصلى ، ومن أجل المحافظة على التراث كان لابد من إعطاء توصيف دقيق للعناصرالتعبيرية الكلامية ، وهذا التصنيف لأصوات اللغة الذى بدأه هؤلاء المقعِّدون يعني ملاحظة دقيقة لعمليات النطق ونوعًا من التحليلات كان لزامًا علينا الانتظار حتى مطلع القرن التاسع عشر كي نراها مطبقةً من جديد . ليس هناك من شكٍ في أن مذهب المقارنة الناشئ (سيأتى لاحقًا) قد استفاد من ذلك عن طريق اتصاله بالسنسكريتية والتراث الهندى .

دارت مناقشة شهيرة حول علاقة اللغة بالعالم الخارجي في القرن الرابع قبل الميلاد ، في أثينا ولدى المجموعة التي كانت تحيط بسقراط . وهاهو الحوار كراتيلو

CRATILO لأفلاطون قد حافظ على ذكرى هذا النقاش ،هناك تناقض بين رأيين : رأى كراتيلو الذى يزعم بأن الكلمات تتطابق بشكل طبيعى مع الأشياء التى تعنيها وتربط بينها علاقة المشابهة (Physei " طبيعيا ") ، ورأى هيرموجنيس Hermógenes الذى يرى فى هذه العلاقة اقتناع اجتماعى خالص (Thesei "كنتيجة لتوافق اجتماعى") وقد جاء هدف كل هذه التأملات فى آخر تحليل ونقاش – عند اليونانيين ومن بعدهم – كامنًا فى معرفة أصل الكلمات ، معناها الأوَّلى والحقيقى ، ولهذا نفسه ، الطبيعة الحقيقية للأشياء ، وقد جاء علم الاشتقاق Etimología بناء على رغبة أوَّلية فى معرفة مصدر ورود الكلمات .

لم يحقِّق أحد هؤلاء المتحاربين النصر على خصمه فى هذه المعركة النقاشية الفلسفية (اللغوية) وأفلاطون نفسه تبنَّى موقفا وسطًا . تكمن المشكلة حقيقةً فى معرفة ما إذا كانت الأشكال التقليدية (القائمة على المحاكاة) تمثل بداية أولية لبناء الكلمات ، إذا كانت فى أصلها(عند الإنسان البدائى) قد أتت الرموز من النمط الإسبانى (يصفر) SILBAR والفرنسى chuchoter إلخ ، فإن الجزء الأكبر منها قد فقد قيمته فيما بعد . فى الحقيقة ، الكثير من الكلمات ذات الأصل التقليدى الواضح قد قدت هذا الطابع على مرِّ العصور . الفرنسية Pigeon تعد مثالاً على ذلك (من اللاتينية) Pipione، فى السويدية gök (غول) ، مثال آخر ، بينما اللفظة الفرنسية coucou هى بلا شك كنائية) تحدَّثنا فى الفصل الثالث عشر بصورة سريعة عن قضية معرفة ما إذا تمكنت المحاكاة من لعب أى دور فى بناء الرموز عند الإنسان البدائى .

وبدون أن نخوض فى التفاصيل فإن بعض الدرجات النحوية التى مازالت معروفة حتى الآن تعود إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . ومراتب الأجناس ترجع إلى بروتاجورث Protágoras، أما الفارق بين الاسم والفعل فيعود إلى أفلاطون (٣٤٧– ٤٢٩) كان هذا الفارق الأخير يعد بمثابة الحقل الدلالى . فالصفة التى تقول شيئا عن

الاسم (الموصوف) تصنف مع الفعل الذى يؤدّى نفس الوظيفة، ولاحقًا تم الانتقال إلى معيار نحوي من أجل عملية التجميع . الصفة تتصرف تماما كالأسماء ، مع نفس الدرجات الخاصة بالنوع والعدد لا بالزمن (طريقة السلوك) كالأفعال . أما أرسطو (٣٨٤-٣٢٢) فقد أضاف إلى تصنيف أفلاطون درجة حروف الربط Conjunciones.

بين المدارس الفلسفية اليونانية قام الرواقيون Estoicos بلا شك بإسهامات أكثر من غيرهم فى قضية اللامعنى Sinsetido فقد كان المعنى يحتل مركز فلسفتهم ("منطقهم ") أقاموا فارقًا مميزا بين الدال : Significante والمدلول Signigicado (انظر ، دى سوسيرDE SAUSSURE) ، ورأوا بوضوح أن مضامين اللغة لا تتوافق مع الأشياء ، هكذا إذن ، نملك بين أيدينا فى الفترة المذكورة مفهوما لرموز اللغة التى، على الرغم من ظهورها مرة أخرى على يد سان أجوستين SAN AGUSTIN Signatum+ Signum = Signa (لم تكن معروفة إلاّ فى أواخر القرن الثامن ومنه انتقلت لتكون نواة النظرية اللغوية على يد دى سوسير. بهذا الخصوص ، نجد أن النموذج الذى تركه أرسطو يأتى أقل وضوحًا . ومع ذلك ، فقد ظل اسمه مقرونا خطأً بالنظرية التبسيطية التى ترى فى الكلمات مجرد بطاقات بسيطة توضع بتعسف للأشياء سابقة الوجود .

قام الرواقيون بتعميق دراسة التصريف (أى العلاقات الشكلية بين أجزاء المنظومة الواحدة) وعلى هذا الأساس أقاموا الفروقات بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول وبين الأفعال المتعدية والأخرى اللازمة . أما السكندريون ، خلفاء الرواقيين ، والمتمركزون على أرض الإسكندرية – فقد تابعوا دراساتهم حول القياسات الشكلية . وتعد القواعد النحوية التى وضعها ديونيسيو دى تراثيا DIONISIO DE TRACIA (فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد) هى أول قواعد نحوية غربية . وقد أضاف ديونيسيو إلى الدرجات التى أبدعها الرواقيون الظرف واسم المفعول واسم الفاعل ، والضمير

وحرف الجر . وأما فيما يتعلّق بالقضايا النحوية فلم يتم تناولها بصورة مباشرة إلاّ في قرون متأخرة على يد أبولونيو ديسكولو Apoponio Discolo (القرن الثاني بعد الميلاد) .

هذا الصراع الذي أشعل جذوته اليونانيون بين المؤيدين للقواعد والخارجين عليها - يأخذ الأولون في اعتبارهم قياسات منهجية للغة ، أما الآخرون فلا يرون سوى استثناءات (خروج عن القياس) - دام كذلك بين المقعدِّين الرومان ، ومن أشهرهم فارون Varron (القرن الأول قبل الميلاد) ، وذلك بفضل ما كتبه عن قواعد اللغة اللاتينية وكذلك فقد اشترك يوليوس قيصر JULIO CESAR في النقاش اللغوى بمؤلَّف خصصه لشيشرون " حول القياس " (وهو المؤَلف الذى خط سطوره والحرب على أشدها في غاليا Galia) .

أتت ثقافة العصر الوسيط محكومة بدراسة اللغة اللاتينية ، لغة الكنيسة والتعليم. قام التعليم على أساس من القواعد النحوية لدوناطو Donoato (حوالي عام ٤٠٠ بعد الميلاد) والأخرى التي وضعها بريسيثانو Prisciano (حوالي عام ٥٠٠ بعد الميلاد) كانت المناقشات مقتصرة على الحوار حول اللاتينية الأفضل (لغة الكلاسيكيين أوالتالية لبولجاتا Vulgata) . أما نظرية اللغة فقد بدت هى نفس اللغة التي وردت على يد المقعِّدين القدماء حتى عصر الحائكين Los Modistas، الذين استحقوا هذا اللقب نظرا لنظمهم العديد من الرسائل عن"صور المعنى " . يأتي النظام الذى ساروا عليه فى شكل قواعد نحوية عملية ونظرية حول قواعد ربط الكلمة بالشيء الذى تعنيه (أو تمثله) من جانب ، ومع النفس البشرية من جانب آخر . الكلمة تمثِّل طبيعة الشيء كموجود بشكلٍ ما " أو صورة " (كجوهر ، تفعل ، كصفة) . بأخذ الشكل النحوى المناسب . تقدم اللغة نوعا من الصور المنعكسة للواقع إنها بمثابة المرآة Speculum، الكلمة التي أتي منها مصطلح " القواعد التأملية graática especulativa

إن فكرة الألم يمكن طرحها تحت كل فعل هو " تألّم : Sufrir أو صفة Sufriente – متألّم ، أو اسم " الألم dolor " ، إلخ، وعبر كل الطرق التي تعني نفس الظاهرة غير اللغوية .

أحد المفكرين الرواد (اللغويين) الذي صاغ نظرة التفرع الثنائي إلى كلي وجزئي في اللغة الإنسانية كان " روجير باكون " (١٢١٤ – ١٢٩٤) ROGER BACON (1214-1294)القائلة بأن القواعد النحوية هي في أساسها واحدة في كل اللغات رغم تنوعها في شكل عرضي . وفكرة اللغات كتفريعات تعسفية لموضوع واحد ووحيد (المبدأ الكلي) عادت للظهور في مناسبات عديدة على مدى التاريخ اللغوي . مع عصر النهضة والمذهب الإنساني ، بدأ مجددا الاهتمام باليونانية ، ومع نشأة الكيانات القومية والكتابة باللغة العامية ، أصبحت اللغة تجذب الانتباه شيئا فشيئا . لكن القواعد النحوية اللاتينية ظلت تمثّل النموذج الوصفي الذي سيصبح في حاجة إلى عدة قرون لاحقة حتى يعطي حجمه اللائق .

القواعد النحوية الشهيرة التي وضعها بورت – رويال PORT ROYAL (عام ١٦٦٠ ، والتي تعود إلى أرنولد ولانشيلوت ARNAULD Y LANCELOT تحت مسمّى "القواعد النحوية العامة والتعليلية " هي بمثابة استمرار للتراث " التأملي " في إطار أن بنية اللغة تتحدّد هويتها من قبل العقل وتمثل تفريعة لنظام شامل ولكن حين يتم تدريس القواعد النحوية التعليلية (القائمة على الاستنباط العقلي) والتي تدخل في دائرة الإطار التقليدي، ويقال إن مؤلفيها لم يبدعوا أية نظرية جديدة ، فهذا أمر غير واقعي . إن الرسائل التي كتبها بورت –رويال PORT -ROYAL (إضافة إلى القواعد والمنطق أو فن الكلام عند أرنولد ونيكولا ARNOLD Y NICOLE) تمثّل خطوة كبيرة للأمام من خلال وجهات نظر عديدة وتُعدُّ بهذا الشكل للعصر الانتقالي ، القرن الثامن عشر . في مقام آخر لخصت المساهمة النظرية لبورت – رويال PORT -ROYAL في النقاط الخمس التالية :١) – مفهوم الاعتساف في أول مدلولات الكلمات عند سوسير (العلاقة التعبير – المضمون) يوجد هناك بصورة واضحة وجلية، ٢) – المفهوم في

ثاني المدلولات الكلامية عند سوسير (العلاقة الكلمة - الدال) يوجد في العملية التبريرية ، والنقاش مفتوح من جديد لأوّل مرّة منذ عهد الرواقيين وسان أجوستين، ٣) - التفرع الثاني الشكل - المضمون تم رسمه بوضوح تام ، ٤) - التفريق بين المدلول والدال جاء مجددا بشكل واضح، ٥) - المعاني الدلالية والسياقية تمّ إبرازها وتوضيحها بصورة جيدة . هكذا نجد أن علم الدلالة الحديث يملك قاعدة صلبة في هذا النوع من القواعد النحوية العقلية الديكارتية . أما فكرة الإبداع فقد صيغت على يد مُنظّر آخر من القرن الثامن عشر جيراود دي كوردموي GERAUD DE CORDEMOY (الخطاب الطبيعي للكلمة EL DISCURSO FíSICO DE LA PALABRA 1666) "يبدو لي أن الكلام لا يعني تكرار نفس الكلمات ، التي تضرب الأسماع ، وإنما هو التلفظ بكلمات أخرى تتناسب مع هذه (الفصل العاشر ، ص٩) .

خطوة أخرى في اتجاه علم اللسانيات المستقل عن التأملات الفلسفية والأخذ في الحسبان الاعتبارات الأخرى اللغوية المحدّدة - أقدم عليها فون لايبتيز G.W.LEIBNIZ (مقالات حول أصل اللغات ، ١٧١٠ ، وأعمال أخرى) والذي بتحليلاته للمعاني مهّد الطريق إلى علم الدلالة البنيوي . وفي نفس الوقت الذي تجرى فيه مقارنة بين اللغات التي يتصح بها يعلن عن نظرية المقارنة من الممكن أن نقرأ عند ماوبتروس MAUPER-TUIS (تأملات حول أصل اللغات ومعنى الكلمات ، ١٧٥٠ REFLEXIONES SOBRE EL ORIGEN DE LAS LENGUAS Y LA SIGNIFICACIóN DE LAS PALABRAS) أن أهم شيء هو إثبات الفروقات بين اللغات " الفصل بين الأفكار والتجارب " وأنه من هذا النمط من المقارنات يمكن لفلسفة اللغة أن تستخرج النتائج النافعة ، تبدأ نظرية اللغة في أخذ هذا التوجه بصورة نهائية عند أباد دي كونديلاك ABAD DE CONDIL-LAC .

يرى كونديلاك CONDILLAC في الكلمات أنها الوسائل الضرورية " لتفكيك عمليات النفس " هذا التفكيك يقدّم لنا أفكارًا مختلفةً . ليس ، إذن ، بعيداً عن الفكرة

التي يتبناها سوسير SAUSSURE عن الفكر باعتباره " شكلاً غامضًا " يتكوَّن بفضل كلمات اللغة . ولكن بالإضافة إلى ذلك يمكننا استخراج استنتاجًا من نص كونديلاك مفاده أن الكلمة Signum باعتبارها تركيبًا تعسفيًا مكونا من دال ومدلول تعد ضرورية هي الأخرى ، حيث لا توجد إلاً بناء على هذا التوافق بين بنية تعبيرية وبنية مضمونية تُسمَّى " المعنى "، إن دراسة القواعد النحوية تعني ... دراسة الطرائق التي اتبعها الأفراد في تحليل الفكر (حول تحليل الخطاب DEL ANÁLISIS، ١٧٧٥، الفصل السادس) هذه الطريقة – المنهج – تختلف من لغة إلى أخرى على هذه الخلفية لنظرية اللغة واللغات هذه يمكننا فهم وتبرير الإطراءات التي وجهت إلى خصائص اللغة الفرنسية (انظر الفصل السابع ، ريبارول DISCURSO SOBRE LA UNIVERSALI-DAD DE RIVAROL LA LENGUA FRANCESA، رسالة حول عالمية اللغة الفرنسية ، ١٧٨٤) .

وكذلك نرى عند كوديلاك في نظرية نسبية الأبنية اللغوية ، وهي الفكرة التي نلحظها أيضًا عند هامان HAMANN، أول من أبرز دور اللغة بالنسبة " لنظرتنا للعالم " (انظر ، الفصل التاسع) بتوافقية فكرة النسبية وفكرة التمييز بين المضمون والدال (الموجودة بصورة محددة واضحة عند تهورت ١٧٩٦ THUROT)، نجد أن الكلمة (الرمز) عند سوسير SAUSSURE تُمثِّل حقيقة واقعةً . ولكن كان لابد من مرور قرن – من الفكر المقارن والتاريخي – قبل أن تصاغ هذه الفكرة بصورة نهائية على يد عالم المقارنات والمؤرخ اللغوي الكبير دي سوسير . DE SÀUSSURE.

عند عالم الإنسانيات الألماني الكبير ويلهيلم فون همبلدت WILHEM VON HUM-BOLDT – المعروف بعلاقاته مع كونديلاك CONILLAC نجد كل هذه العناصر مجتمعة ومتوافقة مع معارف واسعة عن العديد من اللغات ، وخاصة اللاهندوروبية – هناك نجد " التفرغ الثنائي " – هذا التفرع في العصر الوسيط (باكون) BACON قواعد نحوية – حالية يتحول عند همبلدت HUMBOLDT إلى مقابلة بين قاعدة عامة وفروقات فردية

(عمق وسطح) . التغييرية والعالمية متكاملتان فاللغة تمثِّل نظرة للعالم خاصة بها . وتعلم لغة جديدة يعني إذنْ التأقلم مع مفهوم آخر للعالم . مثل هذا التعلم لا يعد بالنسبة لهمبلدت مجرَّد محاكاة بسيطة . إنه يوجد لدى كل الأفراد في نفس العمر .

من الملاحظ أن كل العناصر الأساسية البنيوية توجد في العمل الذي ألَّفه همبلدت HUMBOLDT . وحتى نتفهم سبب عدم انبثاق علم اللسانيات هذا مباشرة عن مبادئه ،لابد من التوقف كي نرى ما الذى حدث في تلك الأثناء . أتي المذهب التاريخي ومذهب المقارنة ليتدخلا علي مدى ما يزيد عن قرن في سد الطريق علي الأبحاث الخاصة بأسس وآليات اللغة التي تم إعدادها في سعادة - والقائمة على عناصر قديمة وعصر أوسطية - من قبل الفلسفة العقلية في القرن السابع عشر والعبقرى هامبلدت .

هكذا وصلنا النقطة التي عادة ما تمثل نقطة الانطلاق للتوصيف التاريخي لعلم اللسانيات : مباحث المقارنة والتاريخ . وقد سقنا العديد من الأمثلة على الطرق محل الحديث (الفصل السابع) . ويكفينا هنا إبداء بعض الملاحظات على الاعتبارات الخارجية . رأينا لتونا أن الاحتكاك القائم في الغرب مع الفروع الشرقية للأسرة الهندأوروبية وخاصة مع السنسكريتية قد أعطى تأييداً قويا لنظريات العلاقات الوراثية للغات العالم القديم . القواعد النحوية الموضوعة تركت المجال لملاحظة بعض التراسلات التي سرعان ما تحولت إلى القاعدة نفسها التي بنيت عليها الأشجار النسبية (المصاهرة) وأول من صاغ بصورة محددة العلاقات بين الإسكندنافية القديمة واللغات الهندأوروبية المعروفة هو الدانمركي راسموس راسك (1813) RASMOS RASK الذى اعتبر عقب ذلك مؤسس مبحث المقارنة العملية . كان راسك RASK عقلانيا واهتم أكثر بالعلاقات التي اعتقد في إمكانية وضعها لها وبقياسية هذه العلاقات أكثر من سببيتها. وشغلت فكرة عولمة اللغات فكره طوال عمره . وما من شك في أنه احتفظ بذكريات باقية عقلانية من القرن الماضي (التاسع عشر) .

وها هو الألماني جاكوب جريم يميط في عام (1822) JAKOB GRIMM اللثام في القواعد النحوية التي وضعها ويتبع خطوات راسك RASK ، عن " قانون " حمل اسمه خطأً ، يصف التراسلات بين اللغات الجرمانية وبقية الهندأوروبية فيما يتعلّق بالسلاسل الانسدادية للحروف الصامتة (p/t/k/b/d/g) والتي كانت تمثّل في الجرمانية القديمة بالحروف f,th (الحرف المتحرك كما في الإنجليزية Think (h, p,t,k على التوالي ، مما يعني ، من الناحية التاريخية ، أن الحروف الصامتة الهندأوروبية محل الحديث قد تحوّلت في اللغة الجرمانية إلى سلسلة من الحروف المفتوحة المكتومة (الحلقية) ومتقابلة مع سلسلة من الحروف الانسدادية المكتومة) . وإقامة مثل هذه التراسلات (التي أرساها راسك) RASK تعد مثالا على علم اللسانيات المقارن ، والتفسير وفقا لتغيير قياس حدث في الجرمانية (عرضه جريم) GRIMM يعد مثالا على علم اللسانيات الدياكروني أو التاريخي (من أجل تفريق ممكن بين هذين المفهومين ، انظر الفصل السابع) .

وقد أتت هذه المناهج الخاصة بمبحث المقارنة تكتمل رويدا رويداً في الحقل الهندأوروبي وامتدت بصورة قياسية إلى أسر لغوية أخرى ، إن اكتشاف قانون يصحح ما جاء في قانون جريم GRIMM ليكمله قد ورد على يد دانمركي آخر هو كارل فيرنر KARL VERNERالذي أمكنه أن يقيم البرهان على أن الحروف الحلقية الجرمانية المنبثقة من p ,t ,k الهندأوروبية قد تحولّت إلى أخرى صائتة إذا لم تقع النبرة في الهند أوروبية على المقطع السابق مباشرة . نفس التبعية للنبرة في اللغة الأم تظهر أيضا في معالجة الحرف S الذي ، في نفس الظروف ، تحوّل بدايةً إلى حرف صائت Z وبعد ذلك إلى r (تحويل الرّاء إلى سين في بعض المواقع ، مثلما في اللاتينية flos - flors ، إلخ) والتناوب الحاصل في الإنجليزية في كلمة Was (الحرف s) ، wer (الحرف r) ما زال يحتفظ بذكرى هذه التغييرية النبرية للغة الأم التي عاشت في فترة ما قبل التاريخ . هذه التغييرات العديدة في الوحدات الصرفية الفعلية الألمانية gezogen - Ziehen - zog،

حيث يعكس الحرف H الحرف الجرماني h المكتوم ، ويعكس الحرف g الحرف الحلقي الصائت القديم) تعد بمثابة شهادة بليغة .

وقاعدة مبحث المقارنة هي قياسية التراسلات ، أما قاعدة اللسانيات التاريخية فهي قياس التحولات الصوتية الطبيعية . وبدون القوانين الصوتية الطبيعية ، لا تعتبر اللسانيات علمًا جديرًا بهذا الاسم ، قال بذلك المقعِّدون الجدد بمقتضى النظرية التي صاغها ليسكن Leskien وآخرون) ء(عام١٨٧٦) على مدى نصف قرن كامل شغل الصراع في سبيل أو في مواجهة القوانين الصوتية جزءاً كبيرا من المناقشات اللغوية . رأينا أن المقعِّدين الجدد قبلوا بعض الاستثناءات على قوانينهم (المجانسة لأبنية قائمة على المحاكاة والتعبيرية ، اشتقاق شعبي ، اقتباسات ، تأثير أجنبي أو لهجي ، إلخ). وما توارت مع ذلك الملاحظات النقدية (كوك ، جسبرسن ، وآخرون) منذ استطلاعات الرأي الأولى ، تمكَّن المشتغلون باللهجات من إثبات أن الحدود الخاصة بالكلمات المتعدِّدة لم تتوافق وأنه في نفس المكان تحوَّلت الكلمة ذاتها وفقا لقانون الصوتيات الطبيعي ، أما الأخرى فقد بقيت على حالها . وقد بلغ الأمر بعلماء اللهجات الفرنسيين (ماريو روكي ، ألبرتداوزت ALBERT DUZAT MARIO ROQUS إلى رفض مفهوم قانون الصوتيات . ليس هناك من شك في أن الحقيقة قائمة بين هذين الطرفين . التعديلات اللغوية لا تتم بمحض الصدفة . هناك جانب كبير من القياسية في الآليات اللغوية . في الاتفاق السنكروني ، والتطور التاريخي " الدياكروني " من جانب آخر ، كظاهرة اجتماعية ، تبدو اللغة بالغة التعقيد – وتقبع بصورة كبيرة تحت تبعية الأبنية الاجتماعية التي تشكل جزءاً منها – من أجل إمكانية تلخيص التعديلات التي تطرأ على اللغات على مدى التاريخ في مجموعة من الصيغ البسيطة ، في قوانين غير قابلة للاستثناء ، هذا التعقيد البالغ لا يقلِّل من عملية علم اللسانيات ، بل يجعله أكثر صعوبة (حتى نلخص وجهات النظر القديمة عن القوانين الصوتية الطبيعية التي أبداها اللغوي السويدي . أكسيل كوك Axel kock، عام ١٨٩٦) أخيرا أصبحت فكرة الصوتيات

الطبيعية – وفكرة " الأصوات " ، والاعتبارات الطبيعية – كمسؤلة وحيدة عن التحولات الخاصة باللغات عرضة للهجران شيئا فشيئًا .

استمر موقف اللغويين الفرنسيين على صورته النقدية إزاء المفهوم الآلي لتحولات اللغات عند نظرائهم الألمان . بعض الفرنسيين من بينهم عالم الصوتيات ماوريس جرامون MAURICE GRAMMONT، فضل مفهوم التيار " الاتجاه " على مفهوم "القانون" . على مدى زمن طويل فضلت أنا نفسي هذا المصطلح، ولكن بداية من السنوات الأخيرة وأنا أتساءل عما إذا كان ذلك المفهوم هو الأفضل حقًا . إن فكرة التيار هذه تشير إلى حركة أو انسابية سهلة صوب غاية معينة . في الصوتيات الوظيفية التطورية التاريخية لا يتعلق الأمر بمثل هذا . هناك وحدة صوتية تستبدل بوحدة أخرى (A>b , P>F) إما أن يكون هناك استبدال أو لا يكون (حرف P يتحوَّل إلى F أو يبقى P) . ليس هناك من احتمال ثالث . لقد أبرز جرامون GRAMMONT نفسه أن هناك أثرًا لعملية احلال في كل تغيير صوتي . ولكن ماذا تقول عن هذه الانزلاقات التي تراها على الدوام (من الحروف الصائتة والصامتة) مثال فرنسي يمكن أن يكفينا للتدليل على ذلك . من المعلوم ذلك الاتجاه القوى الصيرورة الحنكية للحرفين K,g في الباريسية العامية (Quang تتحول إلى شيء أشبه بـ tia ، بحرف صادر عن مقدم الحنك) ، ليس هناك من شك في أن هناك انسيابية أمامية نحو حنك الاتصال اللساني. ولكن بينما تبقى هذه الانسيابية داخل الحدود المقبولة من قبل الصوتيات الطبيعية ، ليس هناك من تغيير سوى توسيع التغييرية . القضية أحد أمرين: إما أن تبقى الوحدة الصوتية (k، في المثال الذى نسوقه) حقل التغيير الخاص بها وتظل تحمل هوية الحرف. وإمًا أن تتجاوز حدودها وتلتبس بالحرف t، والتي في حالتها نلحظ تغييرا نظاميًا (تقليل الاحتمالات التمييزية) أشرنا من قبل إلى أن الامتداد الحالي لهذه الحنكية المتنامية للوحدة k في الباريسية يعني أن عددا متزايدًا من المتكلمين يقبل قاعدة تكوين الوحدة الصوتية التي كانت في زمن آخر

مقصورة على الطبقات الأدنى من السكان . اللغة لم تتغير . بعض الباريسيين هم الذين غيّروا القاعدة المستخدمة من جانبهم .

في عام ١٨٧٩ ظهر عمل بعنوان : رسالة حول النظام الأولي للحروف الصائتة الهندأوروبية (MEMORIA SOBRE EL SISTEMA PRIMITIVO DE LAS VOCALES IN-DOEUROPEAS) كان المؤلف أحد الطلاب الوافدين من جنيف والبالغ من العمر تسعة عشر عاما . جعلت هذه الرسالة منه رجلاً مشهوراً . هي نموذج مقارن لإعادة البناء . قام سوسير بتبسيط توصيف النظام مفترضا وحدة صوتية " حنجرية " فوق الخصائص الصوتية الطبيعية والتي لا يعلم عنها شيءولكن بالإمكان إدراك أثرها في آلية النظام . هذه الوحدة الحنجرية هي وحدة خالصة التجريد . عنصر شكلي . لا جوهري . SAUSSURE في العمل داخل إطار الحقل الخاص بمبحث المقارنة وكمشتغل باللغات الجرمانية . وبعد إقامة طويلة في باريس . عاد إلى مدينته الأم ليعمل مدرساً حيث . على مدى ثلاث فترات . وجد نفسه مضطراً لإعطاء دروس في اللسانيات العامة . هذه الدروس حفظت تحت شكل ملاحظات طلابية . جمعت ونشرت على يد شارلز بالي وألبرت شيكهي (محاضرات في علم اللسانيات العام CURSO DE LINGÜISTICA GENERA BALLY Y SEHEHAYE، الطبعة الأولى (١٩١٦) وتم الحصول فيما بعد على ملاحظات مخطوطية في الطبعة الكبرى التي نفذها . إنجلير (1974 - 1968) R.ENGLER. الدورة الدراسية لم تقدم صورة صادقة عن فكر الأستاذ السويسري . ولكن حيث إن هذه الطبعة هي التي تحولت إلى نقطة الانطلاق بالنسبة لتوجه جديد لعلم اللسانيات . بدا مبررا استخدامها واللجوء إلى الطبعة النقدية لإنجلير ENGLER للاطلاع على شروحات سوسير SAUSSURE . جاءت الطبعة الإيطالية على يد توليو دي ماورو TULLIO DE MAURO أداة عمل غير جديرة بالتقدير . هذه الملاحظات تمّت ترجمتها بدورها إلى الفرنسية مع النص الأصلي للمحاضرة . هيا بنا نتناول هنا أربع نظريات سوسيرية لعبت دورا بارزًا في تطور الفكر اللغوي : ١) اللغة شكل Forma لا مضمون

Sustancia . تأتي عناصر النظم اللغوى محددة عن طريق علاقاتها الداخلية ، لا من خلال خصائصها الفيزيقية أو غيرها ، ٢) المنطوق اللغوى هو عبارة عن توافقية بين الدال والمدلول (التعبير والمضمون – الشكل والجوهر – فيما استخدمناه آنفا من مصطلحات)، ٣) المنطوق اللغوى يأتي في صورة تعسفية . هذه التعسفية تكون صالحة لعلاقة الدال – المدلول والعلاقة القائمة بين الكلمة ودلالاتها على حد سواء (الفصل الأول ٤) يتم توصيف اللغات في بعدين ، أو محورين : أحدهما أفقي (محور المتزامنات) وثانيهما رأسي (محور المتواليات) ، أو السنكروني " و " الدياكروني " .

لنتحدث أولا عن النقطتين الأولى والثانية . إن فكرة اللغة كشكل تخضع لمبدأ مبحث المقارنة فتأتي عناصر اللغتين متماهية بوظيفتهما ، لا بسبب مشابهة صوتية طبيعية ، المطلب الوحيد هو أن تكون التراسلات قياسية . وقد قام سوسيرSAUSSURE بتطبيق القاعدة حتى نهايتها في عمله المقارن . إن آلية المقارنة تتضمَّن عناصر ذات وجهين (شكل ، تعبير – مضمون) يظلان في نفس ظرف التبعية رغم التعديلات الحاصلة . ليس هناك مقارنة لغوية تصبح ممكنة على أساس من رموز شاملة (لا يمكن تفكيكها) وأخيرا ، إذا لم تكن الألفاظ (الرموز) تعسفية ، فستتوقف الآلية الخاصة بمبحث المقارنة عن عملها ، وإذا ما كانت الألفاظ مسببة عن شيء خارجي، فيمكن للتراسلات بين لغتين أن تنسب إلى هذا الشيء وليس إلى أصل مشترك .

والإجراء الوحيد الذى لابد من الشروع فيه حتى يتحوَّل مبحث المقارنة إلى بنيوى هو أن يستبدل المحور الأفقي بالمحور الرأسي وأن يكون ، في البحث العلمي الخالص ، سابقًا عليه .

ربما يتساءل القارئ عن سبب إحجام مؤلف هذا الملخص الموجز عن الإشارة إلى التفرع الثنائي (ديكوتوميا) اللغة – الشكل الكلامي عند سوسير (والتى تمت الإشارة إليها في الفصل الأول) لقد كتب عنه الكثير . ولكن في المقام الأول ، نجد أن المفهومين لم يُحدَّد معناهما بصورة جيدة في الدورة الدراسية، وفي المقام الثاني ، فإن

خلاصة هذا النوع من التفرع الثنائي قد تم تناولها عند الحديث عن الشكل والجوهر (النظم والحدث الكلامي الذي يعبر عنه) أمَّا فيما يتعلَّق بالأمور الأخرى ، فمن الممكن إدراكها في مستويات تجريدية وأخرى وظيفية (والتي تم تناولها في جزء آخر من هذا العمل) .

كان فرديناند دى سوسير FERDINAD DE SAUSSURE من هواة مبحث المقارنة منذ بداية مشواره العلمي واستمر على ذلك حتى وافته منيته ، وتُعدُّ الدورة الدراسية التيّ تركها بمثابة الالتزام التربوى . وهو شخصيا ، كان يفضل " الدياكرونية " على "السنكرونية " ولكن تحت تأثير علم الاجتماع الوليد لزم أن يشعر بالحاجة إلى إدراج اللغة ضمن وحدة أرحب أطلق عليها هو نفسه " السيميولوجيا " والتي تطوى تحت جناحها كل السلوكيات ذات الطابع " الكلامي " الرمزى " ولكن سوسير SAUSSURE لم يكن من رجال البنيوية . لم تكن الكلمة موجودة في حينه ، ومن المشكوك فيه بقدر كبير أن سوسير كان سيشعر بالسعادة من جرَّاء تلك الحركات المتعددة للذين يقولون إنهم ورثته . من خلال خبرته كمعتمد لمبحث المقارنة نقل كل العناصر الضرورية في عمله بناء علم لسانيات بنيوى . وقد ساهم في بناء هذا العلم جيل لاحقٌ .

في سويسرا ، واصلت مدرسة جنيف ومازالت تواصل التراث السويسرى . في فرنسا قام أشهر طلاب دى سوسير ، أنطون ميليت ANTOINE MEILLET بتوجيه أبحاثه في اتجاه تحليل الثقافات والمجتمعات في شكلها اللغوى . كما قد عاب على أستاذه إلحاحه الشديد على الجانب المنهجي على حساب الشخص المتكلم والكاتب . نفس هذه الملاحظة تظهر في نقد " الدورة الدِّراسية (أمادو ألونسو AMADO ALON-SO) ، وكذلك فيما وُجِّه بعد ذلك من نقد يرجع إلى أتباعه ، وخاصة ضد هيلمسلاف ، في الواقع ، إن مثل هذا النقد يرجع إلى سوء فهم ، ولكن الغوص في أعماق هذا الموضوع سوف يلقي بنا في ساحات بعيدة . وسوف نقتنع هنا بالقول بأن التصريحات بما هي إنساني – لا يجب أن ننسى أن اللغة هي إحدى هذه التصريحات بل أساسها

– تخضع هي الأخرى لأبنية (اجتماعية ، أيديولوجية ، إلخ) وأن ما هو إنساني يكمن في مجموع هذه الأبنية السيميوطيقية ، وليست هناك بنيةٌ واحدة سهلة المنال إلا عن طريق النموذج الذي نختار تطبيقه . إن فكرة التهرب من الأبنية تعد وهمًا . فبدون الأبنية " لا وجود لنا " .

من بين النجاحات في التراث الذي خلَّفه مييليت Meillet في فرنسا ، نقنع مع كل ما نُكنه من احترام للآخرين ، بالإشارة إلى اسم واحد فقط ، هو إميل بنبينستي EMILE BENNENISTE . عالمان لغويان آخران فرنسيان يستحقان الذكر هنا : جوستاف جيلوم ولوثيان تيسنير GUSTAVE GUILLAUME Y LUCIEN TESNÍERE. قام الأول بتطوير نمط بنيوى شخصي جداً بمقدورنا أن ندرك فيه أيضا الإلهام السويسري. أما الثاني فقد قام بتحليل النحو بطريقة تذكرنا على نحو غريب بالقواعد التوليدية (الشجرية) دون أن تتماثل معها . وقد جاءت إسهامات تسنير TESNIERE سابقة على تلك التي جاءت على يد تشومسكي .

إن البنيوية مسمًّى يطلق على حركات مختلفة واتجاهات متنوعة في اللسانيات الحديثة . ومما يبرز هذا المسمى ، بالنسبة لمدارس لا شيء مشترك يجمع بينها سوى القليل النادر ، هو أنها جميعا اتفقت على اعتبار اللغة تركيبًا يُبني من عناصر من الواجب تحديد وظائفها وعلاقاتها الداخلية . إذا ما أخذنا النقاط الثلاث الأولى لسوسير التي عددناها هنا كمعيار لاتجاه بنيوي ، لكانت هناك مدارس عديدة يمكن اعتبارها مدارس بنيوية لم يتم قبولها في هذه الأسرة . هذا أمر يهمنا قليلا . علينا أن نقنع ببعض الأمثلة المأخوذة من هذا الحقل الرحب للنشاط اللغوي .

في عام ١٩٢٨ ، وبمناسبة المؤتمر الدولي الأول للغويين ، قام ثلاثة من اللغويين الروس إن . إس تروبتسكوي ، رومان جاكوبسون، إس كارسيفيسكي N.S.TROUBETZKOY , ROMAN JAKOBSON Y S. KARCEVSKI بتقديم نظرياتهم الصوتية . تأسست الدائرة اللغوية البراغية (براغ) قبل ذلك بسنوات وجمعت حول

برنامج لغوى وشعرى عدداً من اللغويين المعروفين(ماثيسيوس ، سكاليكا -MATHE SIUS , SKALICKA) والشبان الذين رغبوا في معرفة الأفكار الجديدة القادمة من روسيا ، وبصورة غير مباشرة ، من جنيف (ترنكا Trnka، فاتشيك Vachek) جاءت علاقات أعضاء مجموعة براغ مع الدوائر الروسية في موسكو ولينينجراد بديهية ، وكذلك جاءت أيضا جذورهم الممتدة في أعماق أرض؟ سلافية (روسية – بولندية) سابقة (أوسلار ، كروسزيفنيسكي باودوين دى كورتيناىUSLAR , BAUDOUIN DE CORTENA Y KRUSZEWSKI) . الاتصالات الأولى بين سوسير ومجموعة موسكو جاءت بفضل كارسيفسكى KARCEVSKI، تلميذ سوسير في جنيف .

جاءت الصوتيات الوظيفية لبراغ ملخصة في كتاب لتروبتسكوى TROUBETZkOY حول : " مبادئ علم الصوتيات الوظيفى ، عام ١٩٧٣) انطلق العمل في هذا المجال بداية من التفرغ الثنائى (حدث الكلمة) – " اللغة – اللغة " ، المصطلحان الأخيران ، ترجمة غير مناسبة من الأصل ، حيث قدم تروبتسكوى منهجاً أكمل ما يكون عن الإمكانيات الوظيفية للتعبير (الدال) وما يقوم بوصفه مبدئيا هى الفروقات الصوتية، التى تتمتّع بحساسية استخدامها كوسيلة تمييزية للعلامات ، ومصنفة وفقا لهذه الوظيفة . هنا يتدخل الجوهر (المضمون) كعنصر من عناصر الوصف . أما عند تروبتسكوى فيأخذ خاصية نطقية ، رغم تفضيل المؤلف لقاعدة سمعية . جاءت قضية الملائمة أمرا أساسيًا . فملائمة كل خاصية صوتية تتمتع بحساسية تجاه عمل تمايز بين وحدتين صوتيتين وفصل بالتالي بين علامتين . الوحدات الدنيا (فى الإسبانية خبز – كلب pan -can، شاى – أعطى té-dé، إلى آخره) تستخدم كدليل على صلاحية التقابل (p-k-t-d) وحقا فهناك تجربة الاستبدال أو التخفيف Commutación (انظر الفصل الأول) .

جاءت الصوتيات الوظيفية مقدمة من قبل تروبتسكوى ومجموعة براغ كعلم مناقض مباشرة للصوتيات الطبيعية ، لعلم الأصوات وعمليات النطق كاعتبارات

فيزيقية ، الأمر الذي ظهر بعد خمسين عاما من البحث . هذا التقديم للصوتيات الوظيفية ولَّد عند الكثيرين من علماء الصوتيات واللغويين في تلك الفترة انطباعا مفاده أن الصوتيات الوظيفية كانت علمًا يحقِّر من شأن بعض الظواهر وأنها ما أخذت في حسبانها شيئا سوى الملامح المزعومة . بمقدورنا أن نرثي عملية إدخال الصوتيات الوظيفية الجديدة تحت شكل يمثل انقطاعًا مع الصوتيات الطبيعية ذات الجذور الراسخة ، قبل تقديمها كعنصر ، أو مظهر ، وظيفي متفوق على علم تعبيري معروف (وأنه فضلا عن ذلك فقد طبقت بعضًا من المبادئ دون الكلام عنها بصورة محددة) .

في دائرة براغ ، حيث لعب جاكوبسون JAKOBSON دورًا هامًا ، نراهم قد اهتموا كثيرا بالقضايا المتعلقة بفن الشعر ، وفقًا للتقاليد السلافية (الرمزية الروسية ، إلخ) ، وأعيد تناول " الدياكرونية " – التطور التاريخي – أيضا على ضوء الأفكار الوظيفية . وتواصلت سلسلة الدراسات التي أجراها جاكوبسون عن تطور الصوتيات الطبيعية ، بصورة عامة ، أخذت الصوتيات الوظيفية التعاقبية حظها من الدراسات والتطور بعض الشيء من جانب جميع الأطراف في كل البلاد وفقًا للنماذج البراغية . وأول من أدخل الأفكار الصوتية في فرنسا هو أندريه مارتينيه ANSRE MARTINET، الذي ألف عملا بالغ الأهمية حول اقتصادية الأنظمة الوظيفية ودورها في تطور اللغات. هكذا عادت اللسانيات مرة أخرى إلى قضية الارتقاء ، ولكن في هذه المرة بوسائل أنسب، ومقبولة بصورة أكبر من الناحية النظرية .

هناك بنيوية لا ترتبط بمدرسة براغ إلا أنها منبثقة عن نظرية سوسير SAUS-SURE وفلسفة رودلف كرناب ROUDOLF CARNAP أطلت برأسها في الدانمرك في الثلاثينيات من القرن العشرين . كان مؤسسها هو لويس هيلمسلاف ، الذي صاغ ، بالتعاون مع أولدال H.J.ULDALL مبادئ " نظرية توليف الوحدات الأدنى للتعبير " (جلوسيماتيك) وسيرًا على نهج سوسير ، رأى أصحاب هذه المبادئ في اللغة شكلاً خالصًا ، شبكة من العلاقات المتدرجة لا تحدد سوى العناصر فحسب . واللغة تستمر

هي نفسها إذا ما نفذت بمساعدة الأصوات المنطوقة القابلة للسماع ، أو بمساعدة رسائل مطبوعة أو مكتوبة بخط اليد ، بالإضافة إلي طريقة برايل للكتابة أو أي شيء ، طالما أن علاقات التبعية المتبادلة لا تتغيَّر . وها هو هيلمسلاف قد لخَّص المبادئ الخاصة " بالجلوسيماتيك " في عمل له مكتوب بالدانمكرية عام ١٩٤٣ بعنوان (مقدمة لنظرية اللغة) . كما قام أولدال في عام ١٩٦٧ بنشر كتاب له تحت عنوان : Outline of glossematics

أما دائرة كوبنهاجن ، التي تأسَّست على يد هيلمسلاف وزميله فيجو براندال VIGGO BRONDAL فقد ظلَّت على مدى فترة طويلة مركزًا لنشاط علمي متنوِّع ، واصل مشواره في جانب كبير وفقًا لخطوط : الجلوسيماتيك " عدد كبير من الباحثين من أمثال ديسدرشين توجيبي -ELI FISCHER JORGENSEN DIDERICHSEN , TOGE BY، وخاصة في مجال الصوتيات الطبيعية ، وإيلي فيشر – جورنسون، الذي لخَّص في أعمال ذات عمق ملحوظ كل اللغويات الدانمركية لفترات الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات (من القرن العشرين) توفي هيلمسلاف عام ١٩٦٥ .

نرى أنفسنا مضطرين للانتقال على جناح السرعة للحديث عن انعكاسات الاتجاهات البنيوية في أماكن أخرى من أوروبا على الرغم ، مع ذلك من أن بلاداً مثل هولندا ، بلجيكا ، رومانيا لها اسمها الكبير ، وتمثل المدرسة السويسرية والصوتية الوظيفية (فان فيك ، بويزنس ، روسنتي) والجلوسوماتيك (ب سيرتزيما) في بريطانيا العظمى – حدَّد عالم الصوتيات الشهير دانييل جونس DANIEL JONES توجهه شيئا فشيئًا في اتجاه الصوتيات الوظيفية ونظرية الوحدة الصوتية ، التي تعد من الأمور التي لا غنى عنها عند تحليل العديد من اللغات " الاستعمارية " التي درست في مدرسة " لندن للدراسات الشرقية والأفريقية (فث Fith إيدا وورد Ida Ward) .

أما البنيوية الأمريكية ، فعلى الرغم من الروابط التبعية المحتملة التي تربطها بالموروث السويسري وبعض الجذور التي امتدت في أعمال بعض ممَّن سبقوه ، كباحث

المقارنة د. و. ويتني D.W WHIITNEY، فإنها مدينة بشكلها إلى تجارب وخبرات علماء الأنثروبولوجيا، المتخصصين في دراسة اللغات والثقافات الأصلية ، التي تختلف اختلافا عميقًا عن لغاتنا ، وعلى علم النفس السلوكي الذي ولد في تلك الأونة ، إن فكرة تعسفية العلامات وأبنية اللغات سرعان ما تعود طبيعية أمام الرتب النحوية والدلالية (عن الزمان والمكان والمصاهرة) شديدة الاختلاف . وعلاقة اللغة بالواقع الاجتماعي (المجتمع ، الدين ، الأساطير) أصبحت أمرًا بديهيًا كذلك . وأول مهمة للغوى الذى يجرى أبحاثه عن اللغات التي ليس لها من الحظ نصيب (غير المكتوبة) هي إرساء قواعد لنظام نقلي ، وقواعد خاصة بالتوصيف الصوتي الوظيفي. اللغويات الأمريكية في تشكلها على يد علماء مثل إدوارد سابير وليونارد بلومفيلد اقتصرت في جانب كبير منها على تحليل صوتي وظيفي (خاص بالوحدات الصوتية في ذاته) وصرفي للغات الأمريكية، وعلى تصنيف لهذه على أساس نمطي (مما أدى إلى ظهور محاولات مثمرة لإرساء قواعد العلاقات الوراثية) . وقد جاء تحديد وتصنيف اللامتغيرات على أساس تصنيفي (انظر الفصل الثاني) ودون ما اعتبار للمعنى . سارت على خطى المنهج الآلي؛ ولهذا فقد تناقضت بشكل مطلق مع العقلانية التي سارت على هداها الأجيال السابقة . المعنى لا يدخل في توصيفها ، بمقتضى المذهب السلوكي (انظر الفصل الرابع عشر) هذا الإخراج للمعنى من كل عملية توصيفية لغوية جاء ليجدد إمكانيات هذه المدرسة في مد دراسة اللغة على مستويات أخرى لها . وقد جاء تأسيس اللامتغيرات عن طريق التصنيف فقط – والذي عرضت مبادئه في عمل لزيلج هارس "مناهج اللسانيات البنيوية " (١٩١٥) – قد تضمن على الدوام شكلا معقدًا لكتابة نوع من التمايز الذي ربما تم تحديده في سهولة أكثر بمجرد الحديث عن أن معنى العناصر التي يدور حولها الكلام مختلف .

اهتم رومان جاكوبسون طوال إقامته في تشيكوسلوفاكيا بالقواعد العامة لأبنية الأنظمة الصوتية الوظيفية . من المعلوم أنه قد نشر في السويد عام ١٩٤١ عملا جيدًا له عن لغة الاطفال ، فقدان قوة النطق والقوانين العامة للصوتيات الوظيفية . لقد أمكن

لنا أن نثبت (في الفصول : الثاني ، الثالث ، الثالث عشر والرابع عشر) أن الأبنية البسيطة الأولية التي تظهر لدى الطفل والأخيرة التي تختفي عند فقدان قوة النطق ، تكوِّن جزءاً من قاعدة كل الأبنية المعروفة للغات العالم . وهكذا ، إذن ، فوراء ما يرى على سطح كل لغة هناك قاعدة أعم وأشمل وأبسط يمكن أن تشتق منها البنية الخاصة .

جاء نشر كتاب " الأبنية النحوية " لتشومسكي عام ١٩٥٧ متضمناً من خلال وجهتي نظر قطيعة مع التراث الذي خلَّفه بلومفيلد . أخذ المؤلف (تلميذ هارس وجاكوبسون) النحو كهدف للدراسة ، منتقلا هكذا من الوحدات الصوتية والعلامات الأقل إلى تراتيب العلامات(الجمل) وبتبعية لنموذج جاكوبسون (بالنسبة للصوتيات الوظيفية) ، ظلَّ يبحث عن أبنية عميقة تخضع - بخاصيتها الأعم والأبسط - للتركيبات التي تأتي على الدوام غامضة في شكل أبنية سطحية ، تولدت عن هذه بمساعدة قواعد تحويلية ، فالجملتان الإسبانيتان : Ha, HA hecho hacer un traje a su hijo Y hecho hacer un traje a su modisto تمثلان سطحيا K في البنية النحوية . وكل إسباني يفهم مع ذلك تَّوا أن الجملة الأولى تعني : " طلب تفصيل بدلة لابنه " والثانية " كلَّف حائكه بتفصيل بدلة " ويعني فهمنا للمعنيين بصورة صحيحة أكبر دليل على أننا نحلل بلا وعي منا الجمل بعد تفكيكها إلى عناصر أبسط . وعبر الأبنية الأبسط المشتركة بين لغتين يصل المترجم إلى أن يعطي في اللغة الثانية المضمون المعبَّر عنه بصورة أخرى في اللغة الأولى (بخصوص الترجمة ، انظر الفصل العاشر) وبخصوص أمثلة تحويلية انظر الفصل الأول .

ومما لاشك فيه أن هناك مبالغة في أصالة القواعد النحوية الشجرية (التوليدية) والتحويلية (التحليلية) لتشومسكي) . أوضحنا أنه كان محقًا في رفضه للمحاكاة كقاعدة وحيدة ينطلق منها ابتكار الرسائل وكان محقًا كذلك في نظرته للابتكار على أنه الملمح الأساس للغة (انظر الفصل الثالث عشر) ولكن هذه الأفكار تعود إلى أبعد من ذلك (هامبلدت ، هيلمسلاف) يعد مجمل مبدأ الأبنية العميقة امتدادا لأفكار

جاكوبسون . لابد من النظر إلى مدرسة تشومسكي على خلفية لسانيات أمريكية أصبحت جدباء بآلياتها وتحديدها للعناصر الصغيرة للغة وتأتي مساهمتها الرئيسة ممثلة في مد الحقل التحليلي البنيوي إلى الجمل ، والتي أُبعدت دائما جانبًا (عند سوسير ، وأيضا عند هيلمسلاف) .

إن ما حدث عقب المطبوعات الأولية لتشومسكي هو أن التحليل الشجري قد وصل إلى دمج الدلالة في حقله وأنه ، في الحقيقة ، في الوقت الراهن ، قد عادت الدراسات الخاصة بالمدلولات (المعاني) تمثل بؤرة مركزية في اللسانيات . بهذا أصبح المعنى يدخل من جديد في دائرة اهتمام اللغويين ، وعلم اللسانيات ، الذي ينتقل هكذا إلى حقل السيميوطيقا الأعم والأشمل .

علم اللسانيات الحالي ، بما خلفه وراءه من نظريات شجرية تظن أنها قامت بالمهمة التي أوكلت إليها ، قد تجاوز مع ذلك حدود لغويات ابتكرت في عهد مباحث المقارنة حيث بدت الوحدات الصوتية والصرفية على درجة كبيرة من الأهمية ، كي يعود إلى ما كان عليه هذا العلم منذ بداياته : دراسة وتفسير النصوص ، فقه اللغة الذي يكمن في القراءة الجيدة والفهم الجيد للنصوص ، قديمها وحديثها ، في مجملها . في الواقع ، فإن اللغة تبدأ من خلال النصوص - بالمعنى الأوسع الذي نقصده - الوحدات الوحيدة التي تنقل إلينا الرسائل ، المضامين التي بدونها لا يمكن تصور أي شكل للاتصال اللغوي . ويعد بمثابة تحليل للأبنية النصية الكيفية التي تتمكن من خلالها البنوية الموروثة عن الرواد الكبار أن تقدم حتى الآن خدماتها لعلم إنساني . مع هذه القضايا تعمل في الوقت الراهن مجموعات من الباحثين ، بعضها يصب أهداف دراساته على المضمون السيميوطيقي الشامل للغة (أو . إيكو U.ECO، ج . كريستيفا KRISTEVA، إر . بارشيس R.BATHES، إلخ) والبعض الآخر يجري أبحاثه على النصوص بحثًا عن أداة أنسب لتوصيفها البنيوي (تودوروف TODORO، ث ، بروموند C.BREMOND، لوتمان LOTMAN) في البداية كان النص .

٤٠٠ قبل الميلاد. الفترة القديمة 400 a.j.c		PLATÓN أفلاطون
GRAMÁTICA القواعد النحوية اليونانية GRIEGA		
		ARISTÓTELES أرسطو
G.LATINA القواعد اللاتينية		ESTOICOS الرواقيون
		VARRÓN فارون
EDAD MEDIA العصر الوسيط		SAN AGUSLÍN سان أجوستين
(a) →	1000	DONATO دوناتو
RENACIMIENTO عصر النهضة		MODISTAS الحائكون
	1100	DESCARTES ديكارت
RACIONALISMO المذهب العقلى		Lancelot لانثيلوث
		LEIBNIZ لايبينز
	1700	CONDILLAC كونديلاك
(b) →		
(c) →		VON HUMBOLDT فون هامبلدت
(d) →		
EL ROMANTICISMO الرومانتيكية	1800	RASK راسك
HISTORICISMO المذهب التاريخى		GRIMM جريم
		NEWGRAM نيوجرام
ESTRUCTURALISMO البنيوية	1900	SASSURE سوسير
		E.DE PRAGA مدرسة براغ
GLOSEMÁTICA جلوسيماتيك		BLOOMFIELD بلمفيلد
G.GENERATIVA القواعد التوليدية		HJELMSLAV هيلمسلاف
		CHOMSKY تشومسكي

(FIGURA 18)

مخطط شامل للفترات الأساسية الأيدولوجية لتاريخ علم اللغات . على اليمين يوجد من يمثلها ـ وعلى اليسار الفترات : الخطوط المنقوطة بين ١٠٠٠ و ١١٠٠ و ١٩٠٠ تحدد غلبة أيدولوجية رائعة (الحائكون ، المؤرخون) ، ولكن من خلالها يحفظ التراث ، الأسهم تمثل إدخال أفكار جديدة : أ) الحائكون الذين ، على أساس من الاتصال بالعالم اليوناني القديم ، يعملون على تجديد الأمل اللغوي ، ب) إدخال التقريب التجريبي على يد ليبنز LEIBNIZ، جـ) ميلاد نظرية جديدة للعلامات على يد كونديلاك وفون هامبلدت ، أخذت شكلاً تطوريًا كاملا ، د) إدخال مبحث المقارنة والمنهج التاريخي (الاتصال الجديد مع السنسكريتية)، هـ) تعليم سوسير -SAUS SURE وبدايات (السنكرونية) التي تطورت إلى البنيوية .